رواية

إنريكيه فيلا - ماتاس

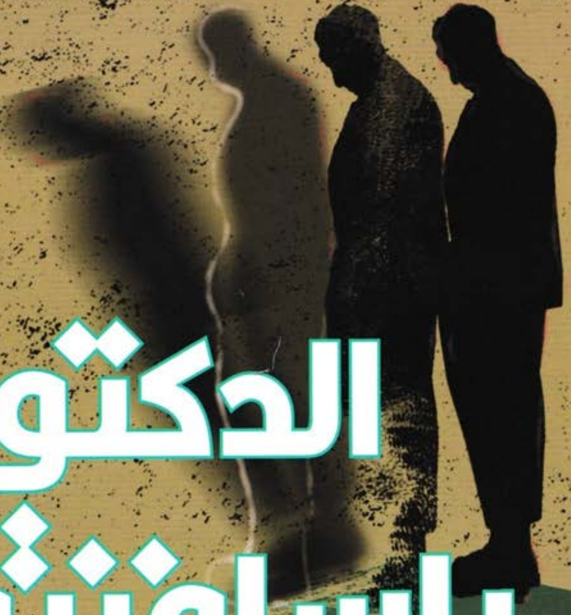

الدكتور باسافنتو

ترجمة: حسين نهابة

مكتبة

الدكتور باسافنتو

رواية

اسم المؤلف: إنريكيه فيلا – ماتاس
Author: **Enrique Vila-Matas**

عنوان الكتاب: الدكتور باسافنتو
Title: **Doctor Pasavento**

ترجمة: حسين نهابة
Translated by: **Hussein Nabaa**

الناشر: دار المدى
P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: 2021
First Edition: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Enrique Vila-Matas, 2005

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

5 7 2023
مكتبة
t.me/soramnqraa

إنريكيه فيلا - ماتاس

مكتبة | 1242

الدكتور باسافنتو

ترجمة : حسين نهابة

الفصل الأول

الاختفاء

مكتبة
t.me/soramnqraa

-1-

كنا نتجول بالقرب مما يُدعى «جنينة نهاية العالم»، في طريق كئيب يجاور قلعة «مونتين»، حين بادروني بالسؤال:

– من أين لكَ كل هذا الشغف في الاختفاء؟

كان مرافقي يود أن يعرف مصدر فكرة الاختفاء هذه التي غالباً ما كنتُ أُصرّح بها كتابةً وفي المقابلات، رغم أنها لم تأخذ حيز التطبيق مطلقاً. باغتني سؤاله، لأني كنتُ في تلك اللحظة أسير غارقاً تماماً في التفكير بالهدف الذي سجله «بيلي» في مونديال السويد لكرة القدم، وعليه لم أنتبه جيداً إلى السؤال. طلبت إليهم أن يعيدوه.

– لا أدري –أجبت بعد قليل– أجهل مصدره لكني أشك على نحو متناقض أن هذا الشغف في الاختفاء، وكل هذه المحاولات التي نطلق عليها انتحارات، ليست سوى محاولات لتأكيد الذات.

كان لهذه الكلمات *المقالاتية*، إن جاز تسميتها هكذا، وقع كبير لا يقل شأناً عن مهد جنس المقالات الأدبية نفسه. وكما هو معروف، فإن ميشيل مونتين كتب كل مؤلفاته في أعلى أحد الأبراج التابعة لقلعته القريبة من بورديوس. كتبها جميعاً في قاعة ومكتبة في الطابق الثالث من البرج. هناك ابتكر المقالة، هذا الجنس الأدبي الذي اقترن مع مرور الوقت، ببُنية الذات الحديثة، البُنية التي سيساهم فيها ديكارت الذي قرر أيضاً أن يحصر تفكيره في مكان منعزل، في إحدى الغرف الدافئة لثكنات «أولم» الشتائية. وعليه يمكن القول إن الجنس الحديث لم ينبثق من خلال الاتصال بالعالم، إنما في غرف منعزلة، حبس المفكرون أنفسهم بداخلها، بين شك ويقين.

بينما كنتُ أرتقي الدرج الحلزوني الضيق والحاد المؤدي إلى قاعة

ومكتبة مونتين، مستغرقاً في الجواب الذي أدليتُ به لرفيقي قبل قليل، فكرتُ في سر اختفاء الإنسان. *هناك* في «مونتين»، التي زرتها مراراً، كان يقبع مسكنه، وهناك في أعلى البرج، ابتدع المقالة، لكن يبدو أنه لم يترك أثراً في الأماكن التي مرّ بها.

نظرت إلى رفيقي. خُيِّل لي أنه لا يشبه الشخص الذي كنتُ أراه فيه. وحين أطلتُ النظر إليه بتمعن، رأيتُ أو اعتقدتُ أني كنتُ في حضرة «الرب».

- من أين لكَ كل هذا الشغف في التخفي؟ - عاد ليسألني.

«الخيال الخصب، يولّد الأحداث» كما اعتاد أن يقولها رجال الدين في «مونتين» باللغة اللاتينية. وأستطيع أن أؤكد أن الشعور ذاته تولد لديّ أثناء رؤيتي لـ«الرب» في تلك اللحظة الثرّة. هناك في أعلى البرج، أعتقد أنني اكتشفتُ أن «الرب» أعاد السؤال مرتين على الأقل. بدا أمراً محرجاً. هل كان لهذا «الرب» من الذكاء الكافي ليكتب مقالات، على سبيل المثال؟ تطلعتُ إليه لأجيبه، فلاحظت حينذاك أنه توقف عن أن يكون «رباً» وإنما عاد ليكون كائناً يرافقني. واختفت الرؤيا العابرة. تنفستُ الصعداء. مؤكد أنه لم يقل شيئاً ولا حتى سؤالاً. لم يكن مرافقي غبياً إلى الحد الذي يصر على أسئلة مُجابة. نظرتُ إلى أعمدة السقف حيث كان «مونتين» قد سطر أحكاماً إغريقية ولاتينية ما تزال محفوظة بإتقان إلى يومنا هذا.

- من أين لكَ كل هذا الشغف في الاختفاء؟ - سمعتهم يعاودون السؤال.

لم يكن رفيقي قد قال هذا كله. كان يقف إلى جوار إحدى النوافذ كأنه كان يريد أن يرى تماماً ما كان يراه «مونتين» من خلال تلك الفتحة، في زمنه ذاك. كان ينتصب بغير حراك. كلا، لا يمكن أن يكون هو. ثم إنه كان غائباً كلياً. إذن، مَن قال هذا؟ أهو صدى؟ هل كان صوتاً ينبثق من أعماقه؟ هل كان خيال مهد المقالة؟

-2-

بعد أسابيع، سمعت أن شخصاً يُدعى «الدكتور باسافنتو»، اختفى في

أحد أبراج «مونتين» قرب «بورديوس» دون أن يُخلّف شيئاً ولا حتى أثراً. كان *«الدكتور»* صديقاً مُقرباً للكاتب برناردو إتساغا منذ سنين. فكرتُ في كثرة أعداد الكتّاب الذين ظهروا في حياتي، في أحلامي وفي نصوصي. وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى منهم، اعتادوا أن يظهروا بمظهر متغطرس ومُتجبر، فإن هناك أقلية غريبة منهم يبدون كملائكة مدهشين مقارنة بالمقيتين منهم، قادرين أن يأخذوك بسهولة مذهلة إلى واقع آخر، عالم ذي لغة مختلفة.

مَن قال إن كلمة الكاتب تفوح منها رائحة الغليون المُطفأ، وأصابع ملطخة بالحبر والنعال الزنخة؟ كلا يا سيدي. جميع الكاتبات والكتّاب تقريباً من صنف الملائكة، هم كائنات رائعة تدخن وتفكّر إلى جانب «أولومبيس» الموغل في القِدم، كائنات مُعذّبة تبدو كأنها تعيش في مكان قصي. كائنات ذكية جداً اعتادت أن تشعر بالأسى، ولا يمكن أن تمثّل هذا الدور إن لم تكن كذلك. أتذكر على وجه الخصوص، أحد الكتّاب، في مقطع ملائكي من فيلم بعنوان *«في مكان قصي»*، كان يُقيم في فندق ذي واجهة عريضة أمام جرف وبحر في مدينة لا تحمل اسماً. وأتذكر أيضاً أنه غالباً ما كان يشتهي أن يصبح ذات يوم مثل بطل ذلك الفيلم، يعيش في مكان ما شبيهٍ بالعفريت، الذي كان ينتصب فيه الفندق على الهاوية. مَن قال إن جميع الكتّاب العظماء يُخيبون الآمال إن عاشرهم أحد عن كثب؟ كلا يا سيدي. إن أصحاب القسم الملائكي الغريب، هم كتّاب ساحرون ويعيشون في أماكن مزرية جداً.

تخيلت نفسي فجأة أركب قطاراً من محطة «آتوجا» في مدريد لملاقاة برناردو إتساغا في إشبيلية ذلك المساء. واقتنيت لنفسي من كشك المجلات في المحطة، روايتين كانت لهما شهرة كبيرة في تلك الأيام. كانت إحداهما تحمل في صدرها هذه العبارة: «في النهاية كلٌّ يفقد معناه، لكن ماكينة الكتابة ما تزال معي». الروايتان إسبانيتان، ويُقال إن كليهما أحدثتا تغييراً في تاريخ الأدب. بدا لي أن معاودة إسبانيا التدخل في مسار التاريخ، أمر مُرعبٌ حقاً. لكني مع ذلك اشتريت الروايتين وتهيأتُ للسفر بهما إلى إشبيلية حيث سألتقي إتساغا في ذلك المساء. لم أره منذ أربع سنوات، منذ أن قرر أن يحبس نفسه للكتابة في بيته الكائن في ثالدوندو، وكان قد اختفى أيضاً مثل

«الدكتور باسافنتو» في الجزء العلوي من أحد أبراج «مونتين». كان مُقرراً أن نشارك معاً في أحد الاحتفالات الثقافية في إشبيلية، ونتحدث معاً عن موضوع عام لم أعد أتذكره. بعد هذه الفترة الطويلة التي لم نلتقِ فيها، كانت تتملكني رغبة قوية في أن أعانقه وأقص عليه آخر ما حدث في السنوات الأربع وأكرر عليه وربما أضيف وألمّح إلى حوادث سابقة.

ركبت القطار أتأبط هذين الكتابين، وتساءلت إن كنتُ على قناعة في واقع الأمر، من أن الذين كانوا يقولون إن هاتين الروايتين أحدثتا ثورة في تاريخ الأدب، لم يُخطئا. إحدى الروايتين كانت تحمل عنوان *«الخيال الشعري»* والأخرى *«كانت عربة الجنائز تتسكع في باريس»*. على الرغم من الذوق المُريب، جعلني العنوان الأول أفكّر على نحو عاجل في الكاتب «روبرت والسر» الذي وصف في إحدى المناسبات، روايته «يعقوب بن جونتين» بـ«الخيال الشعري»، وهي أحد كتبي المُفضلة. كنتُ أفكّر في «والسر» كثيراً. كانت تروق لي السخرية المتخفية بين سطوره وإيحاءاته بأن الغباء سوف يتقدم في العالم الغربي ولن يعود أحد قادراً على إيقافه. كنتُ مأخوذاً بالأصالة العظيمة لعلاقته بعالم الوعي. غالباً ما كنتُ ألمس تعاسة، لكن جمالاً أخّاذاً، في جولاته الكابية حول مستشفى هريساو للمجانين الذي مكث بداخله ثلاثاً وعشرين عاماً حتى نهاية حياته في محاولة منه لمحاكاة مصير هولدرلين. لم يكتب سطراً واحداً منذ دخوله مستشفى هريساو للمجانين وحتى مماته، بعد أن قرر الابتعاد نهائياً عن الأدب. مات في ثلج أحد أيام أعياد الميلاد، حين كان يتجول على أطراف تلك المصحة العقلية. قيل إنه الشاعر الأكثر غموضاً بين أقرانه، وهذا الكلام هو الأقرب إلى الواقع، لأن كل شيء أصبح لـ«والسر» خارج نطاق الطبيعة، وما كان بالنسبة إليه خاصاً وأليفاً، غدا غريباً عنه تماماً. بدأ يشعر بالقرف نائياً عن الأمور الجوهرية الأكثر عمقاً. ومثلما اعترف بنفسه في روايته «يعقوب بن جونتين»، كان يواري قلقه «في الأشياء الأعمق للعتمة الدنيا التي لا معنى لها».

كثيراً ما كنت أفكّر في والسر، المبدأ الرصين لقسم الكتّاب الملائكيين. كان وما يزال المثال الذي أحتذي به في الأخلاق. كنتُ معجباً بنفوره الذي لا يقبل التراجع، من كل أنواع السلطة وتخليه المُبكر عن كل أمل في النجاح

والعظمة. كنتُ مذهولاً بقراره في أن يكون مثل باقي العالم، حين لم يستطع أن يكون على أرض الواقع نداً لأحد، لأنه لم يكن يريد أن يكون أحداً، وهذا القرار كلفه وما فتئ يكلفه أكثر لتمسكه في أن يكون مثل الآخرين. كنتُ أحسده على مؤهله الذي بدأ به في الفترة الأخيرة من حياته الأدبية (عندما أصابه الدوار في هذه النصوص ذات الحروف الصغيرة جداً والمعروفة باسم «ميكروغرام») يتصاغر يوماً بعد آخر حتى اضطر إلى استبدال قلمه بقلم رصاص، لأنه شعر به «الأقرب إلى الاختفاء والغياب». كنتُ معجباً به، أحسده على انزلاقه البطيء لكن الثابت نحو الصمت. توصل الكاتب المكسيكي «كريستوفر دومينغيث ميشيل» إلى القول إن الظهور النمطي لـ«روبرت والسر» في كتبي، إنما هو ضرورة مُلحة مثلما كان عليه في دور سالغاريان في «ساندوكان».

حين أرحت جسدي على المقعد المخصص لي في القطار، عدتُ لأتساءل عمّا إذا كانت تانك الروايتان الإسبانيتان، مناسبتين بحق، وبالكاد تمكنت من تحمل هذا الأمر. كان من الأفضل ألا أمرر ناظري على العناوين. وللحظة طال أمدها، تأملت الغلافين عاقداً العزم على القيام بكتابة الروايتين عقلياً، لتزجية الوقت أثناء الرحلة، وبالأخص تلك التي أعادت لي ذكرى قراءاتي لوالسر، بينما سأحاول جهدي مع الأخرى لأتمكن من جعل عنوانها المعتم الجميل، ذا مغزى. حتى إذا ما قُدر لي أن ألتقي إتساغا في إشبيلية، ويسألني صدفة عن قصة هاتين الروايتين الناجحتين، سيكون في حوزتي دائماً ما أقصه عليه وخاصة الرواية الأولى التي ربطتها مع «والسر» لكونها بدت لي الأسهل للاكتشاف.

الغريب في الأمر أنني، بعد بضعة أسابيع من الرحلة المُتخيلة إلى إشبيلية، تلقيتُ دعوة حقيقية إلى هذه المدينة لإقامة حوار مع برناردو إتساغا حول العلاقة بين الواقع والوَهم. مصادفة عظيمة حقاً. كيف يمكن أن يحدث هذا، فكرتُ للوهلة الأولى. كلا، من غير المعقول. لكن نعم، كان الأمر واقعاً بالطبع. لم تكن المرة الأولى التي يظهر فيها الخيال في حياتي لكني مع ذلك، ودون أن أقيم وزناً للكلمة، حاولت صياغة الأمر على نحو واقعي.

كان صوت الرجل الذي كلمني عبر الهاتف ليدعوني إلى إشبيلية، يحمل

نبرة معدنية. وفي غمرة حديثنا، غام الصوت ليقول لي: «أريد من حضرتك ومن السيد إتساغا أن تحدثانا على نحو قاطع كيف أن الحقيقة تراقص الخيال على الحدود». وبقيتُ لثوانٍ ساهماً لا أعرف ما أقول. الحقيقة تراقص الخيال على الحدود! كم مرة تناهى إلى سمعي هذا القول؟ قررتُ أن أقبل الدعوة لا لشيء سوى معرفة الطرف الآخر من الهاتف، مدفوعاً بالانطباع الشخصي الذي خلّفه فيّ هذا الرجل. «حسنٌ» قلتُ له «سألبي دعوتك. بعد كل شيء، تتملكني الرغبة في ملاقاة الدكتور باسافنتو». وبعد صمت، «سأرتدي ملابسي المنزلية» أكملت في محاولة لإضفاء شيء أكثر غرابة، على نحو غير مترابط تماماً. «لم أفهم» قال صاحب الاتصال. «وكذلك أنا لم أفهم عبارة الرقص على الحدود»، أجبته.

كان تاريخ الدعوة الساعة الثامنة من مساء يوم 16 كانون الأول 2003. ولكي أتخيل المشهد قبل أسابيع من هذا التاريخ، على نحو أكثر واقعية، ضبطتُ كل شيء بحيث يكون لقائي المُرتقب مع إتساغا يوم 16 كانون الأول صباحاً، وبدلاً من الذهاب إلى بيتي في برشلونة، سأجد نفسي في مدريد منطلقاً من محطة قطار «آتوجا» للمشاركة في الحوار الذي سيُقام مساءً في دير جزيرة كارتوخا في إشبيلية، حول الحقيقة والوَهم.

في الساعة الواحدة من ظهر يوم 16 كانون الأول، موعد القطار السريع الذي ينطلق من مدريد نحو إشبيلية، افتقدتُ الروايتين الإسبانيتين، رغم أنه لا شيء كان يُعكر صفاء ما مخطط له. أما بقية الواقع فكان مُطابقاً نوعاً ما لما كنتُ تخيلته قبل أسابيع. من الواضح أن هاتين الروايتين غير الموجودتين، كانتا تنتسبان إلى عالم التخيل. وهذا هو الشيء الوحيد الذي حال دون مطابقة الواقع مع الخيال الذي لو فكرتُ فيه على نحو صحيح، ما كان ليسبب لي بعض القلق الذي يصاحب اختفاء روايتي إسبانيا بالسرعة ذاتها التي تخيلتهما فيها ذات يوم. واستمتعتُ للحظات، مثل مجنون يخمن اختفاء روايتين عظيمتين لم تُكتبا من قبل قط. ربما يكون أحدهم قد وضعهما على قمة جبال إيفيرست، إلى جانب أطنان النفايات والقمامة المسمومة الموجودة هناك، وأتت عليهما عاصفة ثلجية كنستهما بضربة مُحْكَمة.

انطلق القطار السريع. وضعت السماعتين اللتين وزعتهما المضيفة،

على أذنيّ مصغياً إلى موسيقى الفلامنكو العالية الصوت، وانهمكت في قراءة الصحيفة بتأن. طالعني فيها خبر المقابلة مع الكاتب الأرجنتيني «آلان باولس» الذي قدّم روايته «الماضي» قبل يوم واحد في مدريد. كنتُ قد حضرت لقاءه الصحفي الذي استرعى انتباهي فيه بعض كلماته حول التأني في الفن: «إنها تجربة متفردة أن تظل نائماً في فيلم تاركوفيسكي، ثم تستيقظ فجأة على واحدة من صوره».

شرعت أثير أسئلة في أعماقي عن كيفية مداراتي للمداخلة المزمع عقدها مساءً في إشبيلية، وما الذي سأقوله هناك في «جزيرة كارتوخا» حول العلاقة بين الحقيقة والخيال. أخال أني سأتمكن من القول إنني تخيلت، ومنذ وقت ليس بالبعيد، أن لي موعداً في إشبيلية مع إتساغا وكيف تجسد هذا الخيال على أرض الواقع بعد بضعة أسابيع. لكن بينما كنت أفكّر في النبرة التي سأنتقيها للحديث عن كل هذا، انبثق في داخلي هاجس على درجة من الأهمية. هل سيذهب برناردو إتساغا إلى إشبيلية؟ لم أره منذ أربع سنوات، منذ أن انسحب جذرياً وعلى نحو رهباني تقريباً، آخذاً بنظر الاعتبار ما قيل عنه مؤخراً حول تخلفه في الحضور إلى الأماكن التي كانوا ينتظرونها فيها، مما أثار فيّ بعض الشكوك الغائمة عن استجابته لموعد إشبيلية.

ماذا لو تحول مشروعي في القطار في نهاية الأمر إلى رحلة مشابهة لرحلة بطل رواية «الملك كوبيتو» للكاتب خوليان غراك، التي تأثرت بها كثيراً ذات يوم؟ تتناول هذه الرواية القصيرة قصة شاب التقى في بداية الحرب العالمية الأولى، مع صديق له في إحدى المنشآت التي يمتلكها في مدينة براي. سافر بالقطار لساعات طويلة، يحدوه الأمل في تجاوز كل ما ينتظره من عقبات للقاء هذا الصديق مجدداً. لكن حين وصل إلى البيت لم يجد سوى خادمة كانت تقوم بتحضير طعام العشاء في انتظار سيد المنزل الذي لم يصل قط. اختفت الخدامة في الصباح التالي، والصديق لم يصل بعد. وسط الدهشة والذهول بدأ البطل رحلة العودة. ألم يحدث شيء، أو ربما تحت مظهر عدم حدوث شيء، حدث الكثير؟

قلت لنفسي إن روايات خوليان غراك التي تتبنى دائماً وقائع الطريق، كانت تجري على نحو إبداعي، مدفوعة باستمرار في رحلة البحث عن

المعرفة بانتظار الوقائع. قلتُ لنفسي أيضاً، إن حدث لي نفس ما كان قد جرى مع مسافر براي، أي إذا تخلّف إتساغا، واندرس وجوده في «الواقعة»، فمن الممكن أن أعلق على عدم حضور صديقي في دير «لا كارتوخا» وزحزحة موضوع المقابلة بأكمله نحو الموضوع العام لـ«الغياب». إذا لم يحضر إتساغا، سوف أقوم مقامه وأُلقي محاضرة في نصف الساعة المخصص له، عن موضوع كان يقضّ مضاجعي منذ زمن، لأن «الغياب» المُوغل، هو الاصطلاح الدقيق للموضوع الذي سأتطرق إليه في حال عدم حضور إتساغا، انطلاقاً من ظاهرة «الاختفاء» التي ما انفكت تلاحقني منذ زمن.

أستطيع التحدث مثلاً عن «موريس بلانشوت» الذي كان صديقاً لـ«خوليان غراك»، والذي أسهب في تأمل «الاختفاءات» لدى قراءته النقدية لرواية «الملك كوبيتو». الموضوع يستحق أن يأخذ مساحة مقالية بحق. في مناسبات عديدة، كانوا قد وجهوا إليه أسئلة حول الاتجاه الذي يسلكه الأدب. «أين يتجه الأدب؟» سألوه. «يتجه نحو ذاته، نحو جوهره الذي هو الاختفاء» أجابهم ثابت الجنان.

إن تخلف إتساغا عن الحضور، سيوفر لي فرصة للإسهاب في موضوع «الاختفاء»، لكني أفضل أن يأتي. بينما كنتُ منغمساً في دوامة هذه الأسئلة، والقطار يسير تاركاً وراءه مدينة مدريد، انحرف عقلي عن الطريق المزعوم، ورأيت نفسي أسير في إحدى غابات نهاية العالم. وأدركتُ حينها أنه المكان المثالي للكتابة الحقيقية، مثلما أدركتُ في وقت ما أنني يجب أن أقوم بهذه الخطوة، لكن لكي تودع الأدب، وهو نوع آخر من الكتابة، عليك أن تختار مكاناً مثالياً للوقوف على الهاوية ومحاولة تجاوزها ومن ثم الاختفاء. بيد أن الاختفاء يتطلب شجاعة معينة والخوف يساعدنا في ذلك – كثيراً ما فكرت أن الخوف هو معلمنا الوحيد.

رأيتني أسير في تلك الجنينة التي يبدو أن اسمها كان يشير إلى أنني أتجول قريباً من النهاية، وتناهى إلى سمعي، السؤال من جديد:

– من أين لكَ كل هذا الشغف في الاختفاء؟

وتوغلتُ في حلم قصير انتابني فيه نوع من مشاعر الحزن الجميل

وحالة من الحماسة التي كنت أتطلع إليها. حتى إذا ما غادرتني كل تلك الأحاسيس دفعة واحدة، نظرت عبر نافذة القطار حيث الأراضي الجرداء الكئيبة لـ«قشتالة»، واعتبرتها من التجارب الفريدة، أن تعود إلى الواقع بتلك الطريقة المُوجعة برفقة هذه الصور الفجائية الضارية لـ«قشتالة» التي يبدو أنها انبثقت من أعماق أحد أفلام تاركوفسكي.

وحين أفقتُ من الصدمة التي تملكتني بسبب تلك الصور، عدتُ إلى وضعي السابق كمكتشف للهاوية الكائنة هناك في نهاية العالم، وفكرتُ في الهيئة الأدبية المطروقة لسرعة زوال المناظر من شباك القطار. حتى في الأدب ذاته، كانت الميزة الأبرز له، تكمن في الهروب من كل شيء جوهري، ومن كل تأكيد من شأنه تحقيق الاستقرار، فلا أحد بقادرٍ على أن يستمكنه في نقطة معينة، إنما عليه دائماً أن يجده أو يكتشفه من جديد. فكرتُ في هذا كله، حين كان القطار يسير بأقصى سرعته مُخلفاً وراءه محطات تحمل أسماء قرى مستحيلة –كنا نمر حينئذٍ بواحدة تدعى بالاغون– بالكاد تُرى. أبعدتُ سماعات الأذن ولاحظت أن الموسيقى ما تزال أندلسية، لكن تطورت لتكون بوسانوفا، رومبا وبوب روساريو فلوريس. نوع من الموسيقى المُبالغ فيه، تعلن مُسبقاً عن إشبيلية، رغم أن مناظر النافذة وفيلم تاركوفيسكي كانت تشي بالحقيقة القشتالية الرصينة. وكأن الأندلس كانت ترغب في إثبات حضورها هنا، قبل الأوان، لكي تتخفى حين أصل إليها. أتذكر أنني أمعنت النظر باهتمام شديد في البعيد حتى اعتقدتُ أنني كنتُ شاهداً على سقوط إحدى الأوراق، ولمست خيط الأفق دون أن أثير أية جلبة.

–3–

«بعض الحوادث المهمة في حياتنا التي يمليها علينا قانون غامض، تفر منّا».

بهذه المقولة يمكنني أن أبدأ محاضرتي في إشبيلية هذا المساء، ثم أمضي سارداً لجمهور كارتوخا، قصة اكتشافي الحديث لشارع فانو في باريس. بدا لي أن الابتعاد عن سرد الحوادث الشخصية، أكثر ملاءمة لإيضاح مدى انسكاب الخيال والحقيقة في حياتي.

وهيأت في ذهني القالب الذي يمكِّنني من الحديث عن تاريخي مع شارع فانو. أستطيع مثلاً أن أبتدئ بقولي «بعض الحوادث المهمة...» ثم أواصل مروراً بصيدلية «دوبيرو» التي تحمل الرقم 25 من شارع فانو، وأشرح كيف دخلت إليها لشراء حبات أسبرين فرنسية، على اعتبارها أفضل من الإسبانية. لقد حُجزت لي غرفة لثلاثة أيام في فندق «السويد» القريب من الصيدلية. كنتُ قد سافرت إلى باريس لتسويق كتاب لي تُرجم إلى اللغة الفرنسية، وقامت دار نشر كريستيان بورغويس بحجز هذا الفندق الكائن في شارع فانو لأقيم فيه. ما كان ليحدث شيء لولا ردة فعل الصيدلانية الشابة بتلك الصيغة العفوية المُفاجئة. مُفندة ما يُشاع من أن العاملين في هذه المدينة، يعانون من مزاج سيّئ مُزمن، سألتني إن كان التجوال في باريس قد سبب لي بعض الصداع. شعرت بالخجل بعد أن فاجأتني بهذا السؤال. ولأنني خجول تماماً، تكون ردود فعلي في بعض الأحيان، ممزوجة ببعض العداء الفعلي. كانت إجابتي قليلة العلاقة بما كانت قد سألتني عنه، لكنها إلى الواقع أقرب.

«ترفقي، لأني تجسّست عميقاً على هذه الصيدلية بالإنترنت» قلتُ لها.

كنتُ صادقاً. في اليوم الذي أبلغتني فيه دار النشر التي أتعامل معها في باريس، بأن إقامتي ستكون في فندق «السويد» في شارع فانو، توجهتُ بكلي إلى جهاز الكمبيوتر لجمع بعض المعلومات عن الشارع الذي سأقضي فيه ثلاثة أيام. اخترتُ ودونتُ خمسة بيانات: رقم 1 مكرر (ثمة صحيفة أعادت لي الذاكرة) المكان الذي عاش فيه الكاتب أندريه جيد لعشرين عاماً وحتى مماته. رقم 20، السفارة السورية. رقم 24، قصر شاناليز الجميل الذي شُيّد عام 1770 وسكنه أنطوان دو سانت إكسوبيري عام 1931، ثم اقتناه الملتيميليادير اليوناني نياركوس عام 1951. رقم 25 الصيدلية التاريخية «دوبيرو» (تاريخية لأن الإنترنت يقول هكذا). رقم 31، فندق «السويد».

دونتُ هذه البيانات الخمسة فقط لأكون على دراية واسعة لما يمكن أن أجد نفسي في ذلك الشارع القصير الذي سأمضي فيه ثلاثة أيام. لكن الحقيقة أنني حين دخلت في ذلك المكان من باريس لشراء حبات الأسبرين، غابت عني التفاصيل، ولم أعد أتذكر حتى صورة واجهة الصيدلية. علاوة على ذلك، لولا السؤال غير المُتوقع من الصيدلانية، ما كنت سأتذكر نشاطاتي

التجسسية من كمبيوتري. لكن، ما دام الأمر كذلك، فالحقيقة أن سؤال الصيدلانية أصبح الحدث الأول للقصة التي سأنشرها بعد شهر في الملحق الثقافي الإسباني: نقل أمين لكنه متعجل دون شك، لما «حصل» في شارع فانو على مدى الأيام الثلاثة التي قضيتها هناك.

لم تنطلق أحداث قصتي من الصيدلية، بل سبقتها. بدأتْ لدى وصولي إلى فندق «السويد» وكيف أن أول ما طالعني، حينما دلفتُ إلى الغرفة المحجوزة لي من دار النشر، كانت النافذة المطلة على شارع فانو وعلى حدائق ماتينيون، مقر إقامة رئيس الوزراء الفرنسي. وتمضي القصة في سرد خروجي من الغرفة والتجوال طويلاً في باريس، والغارة التي حصلت على صيدلية «دوبيرو» أثناء عودتي إلى الشارع، وحدوث ما يمكن أن نسميها واقعة الأسبرين. كنت أقصّ كل هذا وأضيف عليه دخولي إلى الفندق حيث كان ينتظرني الصحفي الذي بادر بالقول إنه التقى قبل قليل بالكاتب والطيّار دانييل ديل غوديس مؤلف *«إقلاع الظل عن الأرض»*، الرواية الجميلة التي تتطرق إلى موضوع الطيران حقيقةً ومَجازاً. كنتُ صديقاً لـ«ديل غوديس»، لكن كلما كنتُ أفكّر فيه، كان ذهني يتشظى نحو الصلة غير المنظورة وربما المُبهمة التي ظهرت فجأة لتربط بين قصر شاناليز (حيث عاش الكاتب والطيّار سانت إكسوبيري) وشارع فانو حيث انتهيت تواً من التحدث مع «ديل غوديس»، الكاتب والطيّار أيضاً.

ضمّنتُ هذا كله في القصة العاجلة للملحق الثقافي الإسباني، وذكرتُ أيضاً التساؤلات التي نبتت فيّ، بعد هذا التداعي العقلي بين الكاتبين - الطيّارين، حول صيغة التوارد التي ربطتني بفندق «السويد»، قصر شاناليز والصيدلية. ومن بين البيانات الخمسة التي قمت بجمعها حول شارع فانو، لم يتبق ما أجهله من معلومات سوى أندريه جيد والسفارة السورية. هل ستظهر هذه البيانات أيضاً؟

في الليلة ذاتها وجدتني مع كريستيان بورغويس عند باب الفندق. حدثني فجأة، بعد إحدى فترات صمته الأسطورية، عن قصر شاناليز، أعتقد لكي يلفت نظري إلى المنزل الأكثر تميزاً في ذلك الشارع. تسمر مندهشاً حين أخبرته بالمعلومات التي أعرفها عن هذا القصر وذكرتُ له على سبيل المثال،

سانت إكسوبيري الذي قطنه حتى عام 1951 وشراءه من قبل نياركوس في هذا التاريخ. كان لابد من سؤاله عن إمكانية معرفة تفاصيل أكثر لكنه لم يقل شيئاً. بعد برهة، ولكي نكسر الصمت ثانية، أشاح بورغويس بوجهه ناحية أحد القصور الكبيرة في شارع فانو على بعد أربع خطوات من الفندق. لا أحد في باريس، قال لي، يعرف أصحاب تلك الدار الغامض. وعلى الرغم من أنها مسكونة دون أدنى شك، لكن لم يُر أحد يدخل أو يخرج منها. أحياناً كانت تُرى أضواء خافتة لثلاث نوافذ في الطابق الأرضي الذي يتكون من اثنتي عشرة نافذة.

في اليوم التالي، حين نويت القيام بتصوير الصحيفة التذكارية لدار أندريه جيد، اصطدمت بوجود عدد لا بأس به من رجال الشرطة هناك (يبدو أنهم رجال الشرطة المسؤولون عن حماية ماتينيون)، لكني فضلت ألّا أعرّض حياتي للمجازفة، إذ من المحتمل أن يشرعوا في الاستفسار مني عن هدف تصوير ذلك العقار. تناولتُ فطوري في البار القائم عند الزاوية ثم رجعتُ إلى الفندق. شعرتُ ببعض الإحباط، لا داعي لأن أنكر هذا. واحد من الأشياء التي حزمت أمري على تنفيذها، قبل الشروع بالسفر، هو تصوير هذه الصحيفة حين أكون في شارع فانو، لكي أضمها إلى الصور التذكارية للصحف التي أحتفظ بها من كل العالم. جلستُ على إحدى الأرائك المريحة لصالة «السويد»، وقلت لنفسي إن جيد، شاناليز، الصيدلية والفندق كانوا قد دخلوا حياتي مباشرة، بشكل وبآخر، من خلال شارع فانو، وارتبطوا بها، ولم تتبقّ أمامي سوى السفارة السورية. فكرتُ مع نفسي أنه من غير المحتمل أن يُرسل لي هذا البلد بعض الإشارات. ماذا تعرف عن سوريا؟ لا شيء، سوى ما تعلمته في المدرسة بأن عاصمتها دمشق. ماذا بعد؟ وعلى الرغم من جهلي لاسمه، فإني كنت على علم ببعض الصفات الجسدية لرئيس سوريا، استقيتها من الصور. كان ما يزال شاباً طويلاً ذا شارب، اعتاد أن يرتدي الزي الغربي. بيد أني بالكاد أعرف شيئاً عن سوريا.

بعد ساعات، رأيت في صالة انتظار راديو أليغره المستقل، شيئاً قرأته على أنه إشارة، على هيئة رسالة من العالم الخارجي، ربما كان يحاول أن

يرشدني لأصرّ وأزداد إصراراً للتركيز على شارع فانو أكثر. في نهاية المقابلة التي أجراها معي الراديو المستقل (رقم 24 شارع مونتريال، الذي يبعد عن فندق «السويد» حوالي عشرين دقيقة بسيارة الأجرة) تمهّلت في بهو انتظار الراديو مُتطلعاً إلى لوحات وقصاصات أخبار صحفية، اكتشفت من بينها فجأة، رسالة من خوليان غرين يثني فيها على هذا الراديو. كانت الرسالة مكتوبة بخط غرين من منزله الذي يحمل رقم 9 من شارع... فانو.

لم أكن أعرف أن غرين (الذي قرأت عنه كثيراً حين كنتُ طالباً) كان قد عاش في شارع فانو أيضاً. وعلمت فيما بعد أن «مذكرات» غرين غطت سبعين عاماً (1926-1996) مقابل اثنين وستين عاماً من مذكرات أندريه جيد (1889-1951) المُصنفة ثانية في ترتيب سجلات مذكرات الكتّاب باللغة الفرنسية. هذا وحده يكفي لجعل شارع فانو شارعاً استثنائياً، لأنه تسامى لسنوات عديدة، باستضافة جارَين حصلا على أعلى رقم قياسي لكتّاب المذكرات في تاريخ الأدب الفرنسي قاطبة.

يبدو أن شارع فانو بدأ يتوغل في حياتي بوتيرة متصاعدة. في اليوم ذاته، حين عدتُ من راديو أليغره، خُيل لي أني اكتشفتُ شيئاً ربما يكون مُبالغاً فيه، لكني فكرتُ أنه من الأفضل إدخاره في جعبتي. بدا لي أن الصمت الغريب والعميق لشارع فانو، كان يُخبئ شيئاً يُشبه إلى حد ما الرعب الجهنمي الأصم للعوالم المتأرجحة على حافة الصراخ، عوالم مكبوتة وصامتة على وشك الانفجار. لكني سرعان ما أدركتُ أنه لم يكن سوى انطباعٍ أدبيّ مجنونٍ لفّفته في بطانة النسيان. مع ذلك، لم يغادرني هذا الانطباع حين شرعتُ في المسير بعد ظهر ذلك اليوم على أرصفة شارع فانو. حين انسحبتُ عائداً إلى الفندق لآخذ قسطاً من الراحة، رأيتُ على نحو حالم (لكن رؤياي كانت متقنة) النوافذ الثلاث المُضاءة للقصر الغامض في شارع فانو بمصابيحها ذات الطاقة الواطئة ورأيتُ أيضاً الصور الظلية الثلاث التي تتشح بالحزن، ملتصقة وثابتة على إحدى هذه النوافذ. وحدث أن فكرت حال وصولي إلى الغرفة، بأن بعض الحوادث المهمة في حياتنا التي يمليها علينا قانون غامض، تفر منّا. أطلتُ التفكير في هذا الأمر، خاصة حين انتهيت من إشعال التلفاز ووجدتني فيما بعد أتطلع من النافذة نحو حدائق رئيس وزراء فرنسا.

وتناهى إلى سمعي صوت مذيع القناة الأولى معلناً تغيير الرئيس السوري بشار الأسد، لرئيس وزرائه.

كان من المستحيل بالنسبة لي، ألّا أعتقد أن هذا الأمر مجرد صدفة وربما علامة لـ«شيء» لابد أن أضعه بنظر الاعتبار. كنتُ مشوش التفكير لا أعرف ما أفعل. وقررت أن أركز انتباهي من جديد على بيت الظلال الثابتة، فانتهى بي هذا الموقف إلى كتابة هذه القصة التي سأنشرها في الملحق الثقافي: (سيكون من الأفضل لي، دفن ذاكرة بعض الأضواء السرية الموجودة في قصر شارع فانو. لم أرَ شيئاً. ليس من واجبي التحقيق في صنف الوعيد الصامت، الذي يتمخض عنه أعمق ما في شارع فانو). وهكذا حاولت أن ألمّح إلى وجود تهديد قائم ومُبطن في قلب العاصمة باريس وضمنته في القصة التي بعثتُ بها إلى الملحق الثقافي. وإذا طُلب مني التحدث عن هذا التهديد، أقول إني استنتجته من الحدس المُبهم الذي وصلني صدفة مما حدث في التلفاز مع رئيس الوزراء السوري وحدائق رئيس الوزراء الفرنسي. الحقيقة أنني كتبتُ القصة وبعثتُ بها إلى مدريد. وفي نفس اليوم الذي نشروا فيه قصتي، قرأت في الصحيفة ذاتها أن دولة إسرائيل قامت تواً بقصف بعض الأراضي السورية.

أتذكر أنني بقيتُ حائراً في داري في برشلونة، مُتسائلاً إن كانت ستظل الأشباح الثلاثة حزينة بغير حراك في القصر الغامض لشارع فانو. أو ربما ستتحرك قليلاً ويغدو هذا التهديد الصامت الذي كان ضرباً من الخيال في بدايته، حقيقة واقعة؟ أية جهة مسؤولة عن هذا التهديد؟ هل يحمل معاني أعمق مما تخيلته عن ذلك الرعب الجهنمي الأصم للعوالم المتأرجحة على حافة الصراخ، والتي اعتقدتُ أني اكتشفتها في ذلك الشارع؟

واخيراً، حين تصدرت الصحف بعد أيام، أنباء زيارة ملك إسبانيا إلى سوريا، تسرب في داخلي شك، أن القصة التي لا يُعرف مؤلفها، إنما استقت أحداثها من كتاباتي. نصف قرن مضى دون أن أعرف شيئاً عن سوريا، هذا البلد الذي بدأ يكتسب أهمية غير متوقعة. وشرعت أقتني الصحيفة كل يوم متأملاً أن أجد فيها أخباراً جديدة عن سوريا مع دليل على قيامي المبكر بوضع نقطة النهاية للقصة المُرسلة إلى المُلحق.

-4-

أوه، يا شارع فانو! لا أعلم إن كان العالم كله يعرف أن المرء إذا بقي وحيداً لفترة طويلة من الزمن، تتكشف له يوماً بعد آخر، الكثير من الأشياء من شتى الجهات حيث لا يجد الآخرون شيئاً.

بعد عدة أيام، (قررتُ مع نفسي المضي في إلقاء محاضرة ذلك المساء في لا كارتوخا في إشبيلية)، حين كنتُ مسترخياً في منزلي ببرشلونة، وقت القيلولة، هاتفوني من دار النشر الفرنسية وقالوا إنه بسبب مسائل عالقة فيما يخص الترويج لكتابي، علي العودة إلى باريس. كانوا قد حجزوا لي مرة أخرى غرفة في شارع فانو. سافرت مساء يوم الخميس. عند وصولي إلى فندق «السويد»، اكتشفتُ أنهم اختاروا لي غرفة مختلفة تماماً عن التي كنتُ أسكنها في المرة السابقة. لأجل الوصول إلى غرفتي هذه المرة، كان يجب أن أجتاز حديقة داخلية صغيرة وأصعد عدداً من درجات أحد السلالم. الغرفة لا تطل على حدائق «ماتينيون»، وإنما على الجزء الخلفي للبناية. كانت غرفتي تحمل رقم 7، أتذكر ذلك جيداً. المفاجأة الكبرى كانت تنتظرني في اليوم التالي حين اتصلتُ بدار النشر وسألتُ عن كريستيان بورغويس. ردت ابنة أخيه إيف. بعد صمت قصير، تعرفتْ على صوتي وقالت إن السيد بورغويس ليس في باريس، إذ اضطر إلى السفر في آخر لحظة. سألتُ عن وجهة رحلته. «إنه في سوريا الآن»، قالت إيف بورغويس. اعتقدتُ أنها تمزح أو أني لم أفهم جيداً. ولكن لا، لقد كانت حقيقة. لأسباب عائلية اضطر بورغويس للسفر إلى دمشق وأدركتُ أنه لن يراني هذه المرة.

في ذلك اليوم نفسه، اشتريت «لوموند» وهناك، من بين الأخبار، ظهرت سوريا من جديد: «المصلحون السوريون يعتقدون أن الولايات المتحدة تتزعم الحظر». وبطبيعة الحال، عادت إلى ذهني الظلال غير المتحركة لقصر شارع فانو الغريب. في نهاية الأمر، وفي غضون يومين أنجزتُ عملي تحت النظرات الودودة لـ«إيف»، مسؤولة العلاقات العامة لدار النشر. حضرتُ عدة مقابلات وزرت مكتبتين. حال انتهاء فترة إقامتي، عدتُ إلى برشلونة. هناك واظبت يومياً على شراء الصحف لمتابعة أنباء كتابي. ومن

خلال العناوين التي كنت أطالعها يوماً بعد آخر («أعلن بوش أن سوريا تعزز من مراقبة حدودها»، على سبيل المثال)، تبادر إلى ذهني أنهم ملتزمون بأن قصتي حول شارع فانو لن تنتهي أبداً.

وقررت ذات يوم العودة إلى قصتي السورية وإضافة كل قصص الساعة الأخيرة هذه إليها، بما فيها تلك المتعلقة بالسفر المفاجئ للناشر الفرنسي إلى دمشق، سوريا. ضمّنتُ قصتي أحداثاً جديدة وأرسلتها إلى الملحق الثقافي المكسيكي. بعد أن انتهيت من إرسال القصة التي لم تُنشر بعد، سافرتُ ثانية إلى باريس، هذه المرة على حسابي. ذهبتُ لحضور افتتاح معرض الصور الفوتوغرافية لـ«دانيال مورديزينسكي»، الذي كنتُ قد تعرفتُ عليه قبل أسبوعين في برشلونة. ولأنني كنتُ أسافر مع وكالة، أقمتُ في فندق آخر مغاير لفندق السويد، يقع في شارع ليثري. في حفل تقديم الصور، كلمني فجأة فيرناندو كاربايو، صديق مورديزينسكي، عن التهديد الخفي لشارع فانو. فهمت أنه قرأ قصتي في الملحق الثقافي، فعبتُ عليه قائلاً له لم أخترع شيئاً، وإنني لمست حقيقة هذا التهديد. «إذا اشتريتَ كتاباً عنوانه عامل باريس» قلتُ لنفسي على نحو مبهم «سترى أن تهديد شارع فانو أقدم مما تتصور».

بفضول أكبر، اشتريت في اليوم التالي كتاب «عامل باريس»، للمؤلف إليان روستينهولس، ولم يطل بيَ الوقت للحصول على معلومات أكثر عن شارع فانو. في رقم 38، في شهر تشرين الأول من عام 1843، استقر هناك كارل ماركس مع عائلته. وهناك، في يوم 1 حزيران (يوم رائع للولادة) من العام التالي، وُلدت ابنته الأولى جيني ماركس. وفي هذا المنزل، ولدت يوم 26 آب من العام نفسه، الصداقة الكبيرة بين ماركس وأنجلس. حتى إن هناك لوحة رسمها هانس موسزناي عام 1953 (موجودة الآن في متحف التاريخ الألماني ببرلين) يظهر فيها المثقفان في الشقة 38 في شارع فانو، في أواخر شهر آب 1844، بين كتب وأوراق -ولدت الشيوعية- إلى جوار طاولة عليها منديل أبيض.

فهمت أنه ليس أمامي وسيلة أخرى سوى إلقاء نظرة على شارع فانو، الشارع الذي ولدت فيه الشيوعية. كان يوم أحد والصيدلية مغلقة. كان

الشارع ما يزال غاصاً برجال الشرطة، ولكنهم كالعادة، كانوا مكدسين بمحاذاة المنزل القديم لـ«أندريه جيد». نادراً ما كان يُرى مشاة. لم يكن المنزل المُبهم يبدو غامضاً في وضح النهار. أما قصر شاناليز، من جهته، فكان أكثر إشراقاً من أي وقت مضى. المنزل اللغز يبدو كأنه مسكون، وهذا كل شيء. كان لابد من الانتظار ليلاً حتى تظهر صور الظل الثابتة والملتصقة عبر النافذة المُضاءة ذات الطاقة الواطئة. التقطتُ صورة لرقم 38 في شارع فانو، البناية التي تحتوي على شقق فاخرة لم تجر عليها أية إصلاحات من قبل، والتي لاحظتُ أن واجهتها أُعيد ترميمها من مدة قريبة.

في يوم الإثنين، وعند العودة من برشلونة، بعثتُ رسالة عبر البريد الإلكتروني إلى هيئة التحرير بالملحق الثقافي المكسيكي على أمل أن تصل في الوقت المناسب من أجل تضمين نص المعلومة الجديدة عن شقة كارل ماركس، لكنهم أجابوني بأنه لا شيء يمكن إضافته أو تغييره، لأن القصة كانت قد نُشرت. بحثت عنها في الإنترنت وعثرتُ عليها. من المحزن أن أرى النقص الحاصل فيها وخاصة البيانات التي قد تكون مهمة، تلك التي «تؤطر» على نحو غير متوقع، قصة اكتشافي لذلك الشارع.

واصلتُ تصفح الإنترنت وبحثت في غوغل مجدداً عن شارع فانو. عثرتُ على صورة بيت المعيشة لشقة مؤثثة بشكل متقن في بناية كانوا يطلقون عليها، انطلاقاً من المسميات الرأسمالية، حديقة عدن، وكانت في الرقم 38 من الشارع. كانت الشقة تحتوي على غسالة الأواني، حديقة داخلية، فرن تسخين وتلفاز مع دي في دي. كنت قد رأيت ذلك الإعلان خلال أول بحث لي عبر الشبكة الرقمية، لكن لم يكن يعنيني كثيراً تسجيل عنوان وكالة من شمال أميركا كانت تؤجر شقة مفروشة في وسط باريس. كانت تُستأجر ليلاً، بيد أن الإعلان لم يذكر أنه كان يعيش هناك كارل ماركس، ولم تُحذر، بالتأكيد، من الشبح الذي كان على هيئة تهديد مُبهم، يجوب كل شارع فانو. من الواضح أنه لم تكن في الإعلان أية إشارة إلى الخيالات الملتصقة وغير المتحركة في النافذة ذات الطاقة الواطئة، ولم يُذكر شيءٌ عن حدائق ماتينيون ولا عن سوريا ولا عن تاريخ صيدلية دوبيرو. كانت الشقة غالية الثمن، 450 دولاراً لليلة الواحدة.

-5-

لم أغادر «القطار السريع». القطار الذي نحن فيه (الذاهب) يواصل تقدمه ويسير خلسة، بينما كنتُ في العزلة التامة لحجرة الفندق هذه بنافذتها المطلة على الهاوية أتذكر كيف أني لم أتأخر في صرف النظر عن قصة شارع فانو في الساعة التي قررتُ فيها الموضوع الذي سأُحاضر به في «جزيرة كارتوخا». استبعدتها لأن ثمة فكرة أكثر تشويقاً انبثقت في داخلي على حين غرة مساءً في إشبيلية، تتلخص في تطوير قصة انطلاقاً من الصورة الأولى التي جلبها الحظ إلى ذهني في اللحظة التي بدأتُ فيها محاضرتي. نوع من القصة القصيرة المُرتجلة حول المسيرة، مُرتجلة تماماً أمام جمهور كارتوخا. نوع من القفز الثلاثي دون شبكة، طريقة مباشرة لتوضيح كيفية خلق خيال إبداعي بصورة عفوية، وكيفية بناء قصة على نحو غير مدروس. طريقة لأثبت لنفسي أني قادر على التحكم بهذا النوع من المخاطر أمام الجمهور.

كان المطر يهطل في الخارج. في الخارج، يمكن لأيٍ كائن أن يثير تساؤلات مع نفسه حين يُلقي نظرة خاطفة على الكرّاس الذي أكتب فيه هذه الملاحظات. خارج حجرة الفندق التي أجدني فيها بالطبع. أنا الآن في غرفة بنافذة عريضة تنفتح على وهدة تنزلق بقوة نحو المدينة والبحر. من هنا أرى المدينة المشرقة، الجميلة جداً. وأرى أيضاً ورقة تسقط على حافة الأفق. الحقيقة أن المطر يهطل في الخارج. وأنا ما زلت أجهل كيف يمكن أن أركز ناظري على السطور القادمة، لكني أشك في إمكانيتها على الإحاطة بأحجية القاطن في الحجرة المجاورة لي.

الجار المحاذي لي، يمتلك المشاهد ذاتها (البحر نفسه، المطر، الوهدة والأفق الذي أراه)، لكنه يختلف عني بوجود شرفة خاصة به. حين يكون الجو رائقاً في الليل، يدخن سيكاراً كوبياً بصمت، متأملاً البحر. وأحياناً حين أطل من النافذة يرمقني بنظرة عاجلة مكتفياً بابتسامة. وفي بعض المناسبات، يحدثني باقتضاب عن الجو أو حالة البحر. قال لي إنه إيطالي الجنسية «من طليان الشمال». يجيد التحدث باللغة الإسبانية. وصل قبلي بليلتين. أراه يكتب في شرفته مساءً على جهاز كمبيوتر محمول، مما ولّد بداخلي إحساساً

بأنه كاتب. الأوضاع الخاصة التي يقوم بها تشي بأنه يكتب رواية. لا أريد أن أسأله ماذا يكتب، ولستُ اغرف في خرق هذه الخصوصية وهذا السحر. أحياناً أقول لنفسي إننا اثنان، مثل جيد وغرين، جاران في رحلة صراع من أجل كتابة أطول مذكرات شخصية في تاريخ فرنسا. هو لا يعرف أني أكتب، لحسن الحظ يجهل ذلك. لا يستطيع أن يراني أكتب، لأني أكتب بخط يدي على هذا الكراس نوع «موليسكيني». أفعل ذلك بقلم الرصاص لشعوري بأنه يقربني بدفء أكثر من القلم العادي، من فكرة الاختفاء ومن الغياب. أكتب مثل ممسوس، على أوراق كرّاسي. لا أريد أن يراني الجار، لأني أظن أن كاتبين قريبين بعضهما من بعض، مُفترِضاً أن الإيطالي كاتب أيضاً، هما قنبلة موقوتة في بعض الأحيان.

جاري، على أية حال، يعمل مُتطبعاً بعادات تختلف عن عاداتي، أقصد بقولي، جهازه المحمول. أميل إلى الكتابة هنا باليد لشعوري بأنها أكثر قرباً من فكرة الاختفاء، ولأسباب أكثر واقعية أيضاً، لأني تركت الآلة الحديثة التي أكتب عليها في المنزل. كلما يبرم قلم الرصاص، حروف هذا النص، أجدني أكثر مقتاً لهذا المظهر الآلي من الكتابة على الكمبيوتر، فأعود إلى قلمي سعيداً وهائماً به. أحياناً يذكرني جاري جسدياً، بالكاتب الإيطالي «أنجلو سكورسيليتي»، لكن أحياناً وليس دائماً. لو تمكن أحد من معرفة مكاني في هذا المخبأ ورغب في إزعاجي، فلا شيء يستطيع أن يفعله أفضل من وضعي في حجرة مجاورة لكاتب. في كثير من الأحيان تتملكني رغبة في التخلص من شكوكي، حين أوشك على سؤاله إن كان يعرف «سكورسيليتي»، أو أن أقول له ببساطة «حضرتك سكورسيليتي، صح؟».

وأنا، مَن أُشبه؟ مؤكد أن فيّ شيئاً من البهلوان الذي يتجول عبر سطور الوهدة، في إحدى جنينات نهاية العالم. أعتقد أني أتحرك مثل مكتشف يتقدم في الفراغ. لا أعرف، لكنني أتخبط في العتمة، وكل ما حولي غامض. كل ما أعلمه أن الكتابة عن الغموض المتولد عن غموض وجود العالم، يفتنني، لأني أعشق المغامرة الموجودة في كل نص يسطره كاتب، لأني أعشق الهاوية والغموض نفسه، وأعشق علاوة على ذلك، «خط الظل» الذي باجتيازه، ستقف على أرض المجهول، مساحة يبدو لنا فيها فجأة كل شيء

غريباً جداً، وخاصة عندما نرى، كما لو كنا في ملعب لغة الطفولة، أنه أزف وقت تعلمنا كل شيء، على الرغم من الاختلاف الذي نعوّل عليه، صغاراً، في إمكانية دراسته واستيعابه، بينما غابة شكوكنا في عمر «خط الظل» لا تفصح عن نفسها أبداً، إضافة إلى أن ما حدث منذ ذلك الحين، يجعلنا ندرك أنه لا وجود سوى للخوف، الظلام والأسئلة الكثيرة.

إذن حين نتعرض لأمر كهذا، أخال أن أفضل ما نقوم به، هو التقدم إلى الأمام، حتى لو طالنا الانطباع أننا نُدفع إلى الأمام بوساطة عجلة تنازلنا الشخصي عن التقدم. أنظر إلى جاري فأراه، وقد توقف المطر، منهمكاً في الغروب، فأبتهج وينقبض صدري في الوقت ذاته مُتصوراً التغييرات التي يحدثها في صفحته، يقطع هناك وهناك محرّفاً تسلسل كتابته، وهي مهمة لا تنتهي تقريباً في لغز الإبداع المسكونة هذه. أنظر إلى جاري مرة ثانية، ويتولد لديّ انطباع بأنه يعي تماماً ما يعتمل بين يديه، ويبدو أنه غير متأثر بخط الظل والعتمة. يظهر أن جاري كاتب ينظم حياته بصورة شفافة، ويسطر حروفه دون معاناة أو عراقيل ظلامية. لا يشبه في شيء، ذلك الشاعر الإنكليزي الذي يصفه «تشيسترتون» بالغامض، لأنه كان يعي تماماً ما كان يخرج من فمه وعليه لم يكن مضطراً إلى الإسهاب في شرحه أو التبرير.

أنا صديق لخط الظل المعتم في هذه السنوات التي قلبت فينا كل شيء على نحو غير معقول، وحين يخبروننا عن العالم، لا نعرف عن ماذا يتكلمون، فينتابنا شعور مؤكد أن هذا كله يمكن أن يكون بداية شيء قد يبقينا مستمتعين للغاية وربما مهووسين لفترة طويلة من الزمن، على الرغم من الذهول الذي يصيبنا دون أن نفهم شيئاً، دون أن نعلم ما تعنيه كل هذه الفوضى اللعينة التي تغلف الحياة والموت وبعض الترّهات، ودون أن نمتلك أدنى فكرة تعيننا لفهم هذا العالم، ولا نقول لفهم سوريا.

–6–

لنفسح المجال هنا لإحدى القصص التي يرويها مونتين (كان يرويها في بعض الأحيان حين يرغب في تضمين مقالاته، لقصة ما). لنستعرض هنا لمّا كانت دائماً، ذاكرتي الأولى المُختزنة من الطفولة –هناك من يقوم

بتحريفها، أنا لا – ولنقل قبل كل شيء إني وُلدتُ عام 1948 في برشلونة، نفس السنة التي انتهى فيها الرجال، في سباق طيفي مع الزمن، من بناء المقر الدائم للأمم المتحدة في نيويورك على امتداد نهر الشرق بدءاً من مجازر «تورتل باي». وُلدت في شهر آذار من تلك السنة في برشلونة، وبعد خمسين عاماً، في رحلتي الأولى إلى نيويورك، دلفتُ مساء يوم سبت إلى بناية الأمم المتحدة، بدلالة «تلما آباسكال، ثم قادتني إحدى موظفات» ONU نحو المصعد البرّاق الذي انطلق بي نحو المغاسل العملاقة والأنيقة للسيدات في الطابق الأخير من ناطحات السحاب التي كانت أكبر مشروع مدني في العالم، حين ولدتُ.

من هناك طالعني المنظر الرهيب لأفق سماء المدينة، وتذكرتُ الانتهاكات اليومية التي يتعرض لها ميثاق حقوق الإنسان، واغتصبتُ بسمة حين أدركتُ كيف كان الوقت يمضي سريعاً، منذ ذلك المساء النائي من شهر كانون الأول 48 في برشلونة التي حُملت فيها إلى منزل جدي لأبي، لأرسم على وجهه الفرحة قبل أن يموت. كان جدي ضعيفاً، دون أن تفارقه البسمة، وهو على فراش الموت. حييته، ويبدو أني أصبت في ما كان ينتظره مني لأني نطقت أول كلمة في حياتي حين قلتُ له «وداعاً». تأثرت جدتي كثيراً، ولم أرَ جدي بعد ذلك، لأنه فارق الحياة بعد أيام واختفى إلى الأبد. كان إيطالي الولادة ورجلاً باسلاً جداً، لم أعرف عنه الكثير.

أول وعي لي تشقق عن صورة اقترنت بفكرة الوداع والاختفاء. ربما هذا هو السبب الذي يجعلني أردّد مع نفسي دائماً، أن مَن يرغب بالذهاب هناك، فلابد أن يختفي. أخال أنني واثق من شيء، يبدو أنه توقي الشديد تحديداً، كان وراء اندفاعي نحو الذهاب بعيداً، وتكريس نفسي للكتابة ونيل شهرتي ككاتب ترافقها إرادة قوية في الاختفاء والغياب في النص. وشرعت أكتب لنفسي فقط، دون أية رغبة في النشر (مثلما أفعل الآن) وأنا أعي تماماً أن الأدب، مثل الولادة، يجد نفسه في جوهره الخاص مُكتملاً بالاختفاء. لكنني نشرتُ كتاباً فيما بعد، مما أفسد التركيز الجذري على بداياتي. كنتُ قد ولجتُ عالم الحروف مُعتبراً الكتابة نوعاً من الحرمان الذي لا نهاية له، موتاً متواصلاً لا عودة فيه. النشر يعقّد كل شيء. جعل مني كاتباً مشهور نسبياً

في بلدي وهذا الأمر مهّد لي التواصل مع رعب المجد الأدبي. «مَن كان يبحث عن النجاح، فليس أمامه سوى طريقين: إما أن يطاله وإما لا، وكلاهما مُعيبان»، يقول أمري كيرتز.

أصبحت كاتباً، أتمنى أن أتخلص منه الآن في حجرة الفندق هذه التي أكتب فيها لنفسي. محبوساً هنا، أروي قصة رحلتي إلى إشبيلية بالقطار، وأحاول في الوقت ذاته استنباط أفكار تنفعني لدراسة ذاتي وعزلاتي. أعتقد أن مَن يكتب هذا كله الآن، بقلمه الضعيف المحاط بأقلام أخرى وعدد لا بأس به من المباري، لم يعد نفس الكاتب القديم الذي نال اسمه شهرة واسعة لدرجة بدأ يشعر معها بالضيق المتزايد من ملاحقة بعض القرّاء له. أنا الآن أديب متحفظ مختبئ، قاص ذو طابع كتابي خاص، ينظر من النافذة نحو الفراغ والبحر، واعياً لمسألة مفادها أنه إذا تطلّع أحدهم إلى الهاوية، فالهاوية بدورها ستسترق النظر إليه أيضاً.

–7–

قلتُ إن الكتابة نوع من الحرمان الذي لا نهاية له، موت متواصل لا عودة فيه. والآن لابد من أن أقول إن مَن كان عليه أن يتوقف، هو القطار السريع الذي كان يتقدم بأقصى سرعته نحو «ثيوداد ريال» حيث يتوقف قليلاً هناك. أخال أنه لا مناص من قول ذلك، وحدث أيضاً أني قمت بإعادة السماعات إلى أذنـيّ، بيد أني لم أجد نفس المتعة التي كنتُ عليها قبل قليل مع الموسيقى الأندلسية، فقررتُ أن أنتقل إلى إذاعة أخرى. مصغياً إلى «تحت الأرض» لتوم ويتس، فكرتُ إن كنتُ محقاً في الاندفاع الشديد لهذا النوع من الرحلات التي نقوم بها دون أن يكون لنا أية فكرة عن العودة أو إن كانت ستُفتح لنا الأبواب وتغير حياتنا، رغم أني ما زلت أرغب بهذا النوع الآخر من الأسفار أو الرحلات القصيرة التي تقودنا في غضون ساعات قليلة إلى مينائنا من جديد دون مغامرات ودون أية أحداث طارئة. كل هذه الرحلات التي كانت تأخذنا حين كنّا صغاراً، إلى بيت العائلة خلال مواسم الصيف، تأخذنا الآن إلى منزلنا الحالي.

لكن يبدو أن تلك التي أنا فيها الآن، على الأقل في هذه اللحظات، رحلة

دون عودة، رحلة لا تظهر عليها علامات الرجوع القريب إلى البيت (لا أحد ينتظرني فيه)، وبدأت أتساءل أي نوع من الرحلات كانت بالضبط، تلك التي قمت بها ذلك اليوم. ولم أحر جواباً. ربما سأكتشف ذلك أثناء توغلي في القصة التي تتفتق عنها كل رحلة، سواء كانت مهمة أو تافهة. فكرتُ في هذا كله وفي الدور الذي تلعبه المَشاهد في تغيير نفسيتي حسب الموسيقى التي أصغي إليها. أنا الآن، مع توم ويتس، وحقول قشتالة التي أصبحت في نظري كئيبة شبيهة برجل المرور، لدرجة أن شجرة الدردار في الأفق بدت لي ضوءاً أخضر في إحدى الإشارات المرورية للجادة الخامسة في نيويورك. وكما هو معروف، «الخيال الخصب، يولّد الأحداث» مثلما يُقال باللغة اللاتينية.

هل أستطيع أن أشرح هذا كله، حين ألتقي إتساغا مساءً في إشبيلية لأتحدث أمام الجمهور عن العلاقة بين الحقيقة والخيال؟ مؤكد أستطيع. لكن اقترحتُ على نفسي أنه من الأفضل في هذه اللحظة، أن آخذ قسطاً من الراحة بعد أن أكون قد أحطتُ بما يكفي لكيفية التركيز على محاضرة ذلك اليوم في جزيرة لا كارتوخا وصرف النظر عن بعض الأفكار. وحدث أن جميعها، وعلى الرغم من توفر أفضل الظروف لتحليل العلاقة بين الحقيقة والوَهم، كانت قد اختفت بنفس السهولة التي ظهرت بها، وكأن «الاختفاء» يريد أن يشير لي أنه يجب ألّا أتحدّث عن سواه في ذلك المساء في إشبيلية، لأنه في الصلب، الموضوع الوحيد والمركز الحقيقي لهواجسي في ذلك اليوم.

باحثاً عن طريقة أخرى لتزجية الوقت، عدتُ إلى فتح الصحيفة التي اشتريتها من محطة قطار آتوجا، والتي بالكاد قرأت بعضاً منها، وطالعني خبر مرور مئة سنة، في اليوم التالي، على أول رحلة طيران على أحد شواطئ كارولينا الشمالية من قبل الأخوين «رايت» وهي التي تعد أول رحلة جوية في التاريخ. وجدتُ نفسي أتابع سطور قصة ذلك اليوم الذي ابتدأ فيه عهد الملاحة الجوية التي لم يعد العالم بعدها، كما كان عليه مطلقاً. وقرأت أن أولئك الذين يرعبهم الطيران، ينتهي بهم الأمر إلى الشعور بالقلق حول معرفة أن الفيزيائيين ومهندسي الطيران لا يزالون يتناقشون، بمودة، حول السؤال الأساسي: ما الذي يجعل الطائرة تحافظ على نفسها في الجو؟ على ما يبدو، ليس هناك جواب منطقي بسيط. على الرغم أن التفسير الشائع يقول

إن الهواء ينتقل على نحو أسرع فوق السطح الأكثر انحناءً للجزء العلوي من الجناح، من جزئه السفلي، إلّا أن هذا التفسير، رغم صدقه، لم يعطِ تبريرات حقيقية عن السبب الذي يجعل الهواء المتدفق فوق الجناح، يتحركُ بسرعة أكثر. وعدم معرفة ذلك، يثير الكثير من البلبلة. الحقيقة أنه لا أحد يفهم لماذا نستطيع الطيران. لكننا نسافر كثيراً رغم عدم إدراكنا شيئاً.

قرأت هذا وتساءلتُ ما الذي سيحصل لو كنتُ أقرأه في طيارة. ربما يثير فيّ رعباً. لكني لحسن الحظ في القطار، تهدهدني أغنية توم ويتس «تحت الأرض» في رحلة تحت الأرض بدلاً من رحلة مترو محفوفة بالمخاطر. مترو، قطار، طيارة. بدا لي أن الباص غير موجود، لتكتمل لوحة شرف وسائل النقل التي كنت أستخدمها. وعلى حين غرة، عثرت على نبأ حول سوريا في الصحيفة، ذكرني مجدداً بشارع فانو وهذا ما حملني على استرجاع الحرب العراقية وقذائف القطعات الأمريكية، والتي أرجعت ذاكرتي أيضاً إلى المؤتمرات التي كان يعقدها و. ج. سيبالد في زيورخ في نهايات خريف 1997 تحت عنوان «الحرب الجوية والأدبية»، مؤتمرات حول السكوت الآثم الذي يتكتم دائماً على همجية قنابل الحلفاء فوق ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية.

وبنظرة مفاجئة على تاريخ الصحيفة، هالني ما اكتشفت. ألم يمت و. ج. سيبالد بحادث سيارة في طريق النرويج في 14 كانون الأول 2001، ونُشر خبره الحزين يوم 16؟ فكرتُ أن السيارة التي قتلته، تستحق أن تُؤهل بجنازة، وتذكرتُ «كانت عربة الجنائز تتسكع في باريس»، عنوان إحدى الروايتين الإسبانيتين اللتين تخيلتهما يوماً ما. هذه الذكرى أرجعتني ثانية إلى روبرت والسر، وأيقنت بوجود خيط يربط بين الكاتبين. أمضى و. ج. سيبالد، طفولته برفقة جدته لأمه التي لم تكن معتادة على المشي لمسافات طويلة، مثل والسر، فحسب، بل تقاربه جسدياً، وليس من قبيل الصدفة، أن تموت في الثلوج أثناء تجوالها، وفي اليوم ذاته الذي توفي فيه والسر.

إذا كان والسر قد كتب خيالات شعرية أنيقة، واستوعب جوهر فن التلاشي، فإن أدب و. ج. سيبالد يستشهد أحياناً بأحد أنواع شعرية الزوال، وتفجع الكاتب حين يشعر بأن كل ما حوله يباب أو في طريقه إلى الاختفاء، وأن «التاريخ» نفسه ينقرض. «إنه ليس رثاء عاماً»، يقول و. ج. سيبالد

«الاختفاء موجود دائماً، لكن ليس بهذا الإيقاع. من المرعب أن تشهد هذا الكم الهائل من المواجع والتلاشي في العشرين سنة الأخيرة، بعملية مُتسارعة لا يمكن إيقافها. وأخال أن الأدب يتحمل مسؤولية هذا الذعر». كان و. ج. سيبالد واعياً للحاجة إلى أدب يفضح الإيقاع المميت لعمليات الاختفاء وإيواء بعض الشكوك، لكن في الوقت نفسه، إلى بعض الأمل حول إمكانية مقاومة الكتابة والدور الرئيسي الذي يمكن أن تلعبه في الإبقاء على تاريخ الذاكرة البشرية. ربما لهذا السبب، علّق، على نحو متعمد، على الكثير الذي كان يثير استغرابه من اختفاء أثر ما في الهواء لسنوات، لكن يمكن أن يبقى منظوراً عبر الكلمة المكتوبة. ذكر هذا الأمر في كتابه «خواتم زحل» حيث كان يتفحص في «غرفة قراءة البحارة» التابعة لـ«ساوثوولد»، الملاحظات الموجودة في كرّاس صندوق البوصلة العائد لإحدى الدوريات البحرية الراسية على الرصيف في خريف 1914، متأملاً الآثار التي اختفت فيقول: «كلما فككتُ رموز إحدى هذه الملاحظات، أتفاجأ بوجود آثار خيط جوي أو بحري ما يزال منظوراً هنا على الورقة».

آثار أموات. «جميع هؤلاء الأموات حولنا، أين يتم دفنهم، إن لم يكن في اللغة؟» يسأل أدونيس الشاعر السوري اللبناني الذي بدأت أقرأ له بعد أيام من نهاية تجربتي في شارع فانو. ومثلما حدث لي مع سوريا، عرفت ذات يوم عن طريق الصدفة، بوجود هذا الشاعر وبدأت أقرأ له. ولد عام 1930 في القصابين، شمال البلد. تحدث، في واحدة من أفضل قصائده، عن الناس الذين يرتدون ملابسهم في الصباح فيجدونها ضيقة. أنا أيضاً أجد ملابسي التي أرتديها في الصباح ضيقة، قلتُ لنفسي بينما كان القطار السريع يدخل ببطء في محطة ثيوداد ريال، وتأكد لي ذلك، بعد أن تمكنت من الهروب من أفكار ما يجب طرحه مساءً في جزيرة لا كارتوخا، لكني مع ذلك لم أتمكّن من انتزاع نفسي من عالم و. ج. سيبالد، عالم الانطفاء والكتابة. بدا كأن قضية الاختفاء أخذت مني حيزاً أكثر مما أخذته العلاقة بين الحقيقة والخيال. وقررت ساعتها، وإن أكن على خطأ، وانطلاقاً مما اعتمل في داخلي، أن «الاختفاء» هو الموضوع الوحيد والمرتكز الحقيقي الذي أثار هوسي ذلك اليوم، ومنه يجب أن انطلق بمحاضرتي مساءً في إشبيلية.

لكن، ماذا سأقول عن الاختفاء؟ كنتُ سئماً بالفعل مثل الشاعر السوري أدونيس، من «ضيق ملابس الغد التي تخصني»، من عدم القدرة على تهيئة شيء أعبر به عن حياتي سوى الموت والاختفاء. لكنها لم تكن سوى كلمات وأدب. واتخذت قراراً عاجلاً في التوقف عن المواربة، وإخفاء نفسي. الاختفاء، هذا التحدي الكبير. حاولتُ أن لا أنسى أني غالباً ما كنتُ أفكّر في الوسيلة التي تجعلني صغيراً إلى ما لا نهاية، وهو الكمال نفسه بالتأكيد. لكن، كيف يمكن للمرء أن يكون صغيراً إلى ما لا نهاية ويختفي من كل شيء؟ الأمر ليس بهذه السهولة. يكفي أن يتذكر كرّاس صندوق البوصلة العائد لـ«غرفة قراءة البحارة». لا أحد يغادر كل شيء، قلت لنفسي. بدا لي أن الاختفاء المطلق نوع من المحال، وإذا كان الأمر كذلك، فمن الواضح أن الاختفاء بالنسبة إلى و. ج. سيبالد كان دافعاً للسعادة أو للأمل، أما بالنسبة إلي، فليس سوى دافع للمزيد من الحزن.

-8-

مُخلفاً ورائي ثويداد ريال، سرحتُ مُفكراً في سحر الوداع الظامئ، في فتنة الوداع النهائي لأولئك الذين نعجب بهم كثيراً، حين نعلم أنهم كانوا قادرين على رمي كل شيء إلى الشيطان، فصفقوا الباب بقوة ورحلوا دون أي كلمة، دون أن يقولوا حتى «هنا يمكنكم البقاء أيها الأوغاد».

عندما يتناهى إلى أسماعنا أن شخصاً «ترك الجميع مشتولين»، بصمت وغضب مكتوم، نستحسن بسالته، نقاوته ودافعه الرئيسي. وكيف لا نستحسنه ونحن جميعاً نمقت عناويننا ونكره محلات إقامتنا التي وجدنا أنفسنا فيها؟ وأنا، على الأقل، كان قد تملكني هذا الشعور نحو منزلي. كنتُ متحمساً لقصيدة فيليب لاركين «نظرية الرحيل»: «جميعنا لا نطيق منازلنا الصغيرة التي / اضطررنا للإقامة فيها / أنا أكره حجرتي / وحاجياتها المُختارة بوجه الخصوص / طيبة الكتب والفراش / وحياتي المُنتظمة بدقة».

لكني ركزتُ تفكيري على سحر تلك البداية الفاتنة لتوماس الغامض على وجه خاص، وعلى رواية موريس بلانشوت الغريبة، لأنها عادة ما تُكتب بدافع المغامرة. لا أزال حتى اليوم، حين أتطلع إلى الهوة القائمة أمام

النافذة الكبيرة لحجرة الفندق، تجتاحني مباشرة ذكرى السحر الذي شعرتُ به نحو الاحتدام الغريب لرواية بلانشوت، والصفحات الأولى من توماس التي، حسب ما قيل لنا، تتجرأ تحت ظروف سيئة جداً على التوغل بعيداً في البحر، والوصول إلى الشاطئ في نهاية الأمر رغم حالات الغرق التي كادت تنال منها. المدهش في الأمر أن قارئ هذه الصفحات لا يجد فيها أي نوع من غصة الموت التي يشعر بها الشخص في صراعه الميئوس مع الأمواج، بل يجد تجربة غريبة وجذرية. البحر يهرب منه، فيفقد في الوقت ذاته، الإحساس بجسده. هو بشخصه والبحر، يبدوان له مادة للتفكير الذي يتقدم به مثل مكتشف يسير في الفراغ. وبدلاً من التفكير في إنقاذ نفسه، يتوغل بكامله، مثلما فعلتُ تواً مع ظلي، في ما يهدده. لا يمكن الحكم عليه بأنه خامل، لكن هذا الفعل كله داخلي، مُوّجَه لتأكيد ذاته كرجل ميت. ما يُلمس في صدر رواية توماس، هو نقطة تحول في طريقة التفكير والكتابة.

يتخلى عن الحياة الحقيقية، حين يستسلم للغة. يموت، لكنه مع ذلك، يظل حياً. تخيلته في هذه اللحظة، وما فتئت أتخيله حتى الآن، في مكان ما أمام نافذة كبيرة تطل على هوة تنزلق بقوة نحو مدينة وبحر. وفي زمن آخر، حين كان يعيش في مسقط رأسه، لم يكن يطيق منزله الصغير، ولا سريره ولا الحجرة التي كانت تتناثر فيها حاجياته المُختارة على وجه خاص، لكنه الآن -نعم الآن - غادر الحياة الحقيقية ولا يرى فيها سوى كلمات وبحر غارق فيه لكنه مع ذلك، يتلبسه إحساس أنه سيغدو في حالة من الكمال، حيث الوحدة، الجنون، الهدوء والحرية. لا يمكن أن يعبر عن تجربته إلّا من خلال التناقض الظاهري، وهو بذلك يُشبه على سبيل المثال، القطار السريع الذاهب إلى إشبيلية، يتملكه إحساس بأنه يمضي مدفوعاً إلى الأمام، بسبب رفضه للمضي قدماً إلى الأمام. وهذا ما ينفخ فيه شعوراً بالرفاهية، أو بالأحرى، بالتعاسة الجميلة.

-9-

ورقة تسقط دون جلبة وتلامس خط الأفق، هناك في «*جنينة نهاية العالم*». كل هذا يتجلى في مخيلتي في لحظة واحدة فقط، ثم تستقر فيّ ولا أعود

أراها سوى كلمات وبحر أغرق فيه، تداهمني بعدها، حين أنظر عبر النافذة، ذكرى رحلتي إلى إشبيلية مع ما حدث لي مساءً في «لا كارتوخا»، والتحدث عن العبقري المبدع مؤلف *«الحياة وأفكار الفارس تريسترام شاندي»*. وبدلاً عن شارع فانو أو ارتجال قصة حول الرحلة، أحدثهم عن لورنس ستيرن الذي ابتكر من خلال كتابه، الرواية -المقالة، وهو جنس أدبي اعتقده الكثير من الناس، بدعة رئيسية في أيامنا هذه بينما في الحقيقة أن الرواية- المقالة بمعالجتها المميزة للعلاقة بين الحقيقة والخيال، موجودة منذ سايرن، القارئ النهم لسرفانتس ومونتين، الذي أعاد ابتكارها.

كتاب ستيرن بالذات واحدٌ من الكتب القليلة التي كنتُ قد أحضرتها معي، وكأنني مسافر إلى جزيرة صحراوية لا تُحتمل، في حقيبتي الحمراء الصغيرة، إلى هذا المكان المقابل للبحر وللوهدة التي أكتب كل هذا منها الآن. أكثر ما شّد انتباهي لهذا الكتاب، محتواه السردي جداً (القاص – البطل لا يولد إلا في صفحات متقدمة من الرواية، مما يحدو بنا إلى قراءة «تريسترام شاندي» على أنه «حَمِل» الرواية) بما في ذلك استطراده المتواصل المجيد وتعليقاته الضليعة التي ترسم النص كله إضافة إلى «الولادة المبتكرة على الصفحات» بأشكال مختلفة مع علامات نجمية، علامات الوصل، صفحات بالأسود والأبيض مقلداً الرخام الأبيض. يفتنني عرضه السخرية السرفانتية، تعقيداته المُبهرة مع القارئ، استخدام «تدفق الوعي» الذي يساهم في اختراعه آخرون فيما بعد، لهجته الفكاهية الذكية: قصة ولادة تريسترام، على سبيل المثال، هي مثل الرواية بكاملها، قصة جِماع متقطع، يكفي استرجاع العبارة العبثية لأم تريسترام المستقبلية حين تكون مع زوجها في ممارسة كاملة على فراش الزوجية في ليلة العرس: «عفواً عزيزي، هل نسيتَ تدوير الساعة؟».

ربما كان اختراع ستيرن العظيم، هو الرواية المبنية، في مجملها تقريباً، على الاستطراد في السرد، والتي سيسلك مسارها ديروت فيما بعد. التجوال السطوري والاستطراد في السرد، هما استراتيجية متقنة لتأجيل الاستنتاج، مضاعفة الزمن داخل العمل، وهروب أبدي. هروب ممَّ؟ من الموت، يقول كارلوس ليفي في مقدمته للترجمة الإيطالية لـ«تريسترام شاندي» : «الساعة هي الرمز الأول لشاندي، بنفوذها تولد وتبدأ مصائبه التي هي عبارة عن أمر

واحد متعلق بالزمن. الموت مختبئ في الساعات (...) وتريسترام شاندي يرفض أن يُولد لأنه لا يريد أن يموت».

كل الوسائل، والدفاعات بأجمعها مناسبة لإنقاذه من الموت ومن الزمن. إذا كان الخط المستقيم هو الأكثر اختصاراً بين نقطتين قاتلة وحتمية، فإن الاستطرادات هي التي ستطيله. وإذا أصبحت هذه الاستطرادات التي يشير بها إلينا «ليفي» أكثر تعقيداً وتشابكاً والتواءً وعلى نحو أكثر سرعة لدرجة تجعلنا نفقد آثارنا الخاصة، «ربما لن يعثر الموت علينا، وسط تيه الزمن هذا، فنتمكن من إخفاء أنفسنا في المخابئ المتقلبة».

صعب أن أنسى في أيام لاحقة أن نيزك شاندي، كان يخترق عالمي كل يوم. يُبهرني ستيرن بروايته هذه التي بدت كمقالة حول الحياة، أكثر من كونها رواية، مقالة مُحاكة بخيوط روائية رقيقة، غاصة بالمناجاة الداخلية حيث احتلت الذكريات الحقيقية في كثير من الأحيان، مكان الأحداث المتصنعة، المُتخيلة أو المُبتكرة. لا يكاد الضحك ينفجر، حتى ينتهي فجأة بدموع. موجوع ومعتوه أنا. كانت حياتي مكتظة بالقفزات، بالذهاب والإياب لرحلات غير مُتوقعة، مثل خط الفكر المُتعرج لستيرن. أتذكر جيداً أن الموت حينذاك كان لا يزال مختبئاً في الساعات. أما في الوقت الراهن، فأنا مَن يختبئ. أتذكر، أتذكر جيداً هذا كله. كانت الحياة شاندي.

-10-

في أعالي «كورال دي كالاترافا»، صرفتُ النظر عن اللجوء إلى ستيرن، لأنه بدا لي أن قصة تجسسي على شارع فانو في الحقيقة، الأنسب لتفسير العلاقات الضيقة بين الواقع والخيال، من بين جميع الأشياء التي خالطتها واستبعدتها. لكني بعد فترة وجيزة عدتُ إلى تجاهل قصة شارع فانو، لأنني شعرت فجأة بالإغواء لفكرة الابتعاد عن هذا الشارع الباريسي، وعن العالم أجمع، حتى لا أشعر بالانتساب إلى شيء، ولا بالارتباط على سبيل المثال، بالدلائل التي يؤشرها العنوان العام للقائي مع إتساغا في إشبيلية.

وبعد هذا كله لا شيء يمنعني من التحول وسط المحاضرة نحو

«الاختفاء» والاستشهاد بخطاب مختصر ومكثف حول إعجابي بأولئك الذين أبدعوا في ممارسة فن الاختفاء بمهارة.

«مُتعَب منّي» بهذه العبارة سأبدأ ذلك المساء في إشبيلية. وسأجزم بذلك على نحو قطعي. «مُتعب منّي». وسوف أمضي في المحاضرة عن الصفة المتأنقة لهاملت التي كانت تؤكد على عدم وجود هوية ولا قسمات شخصية حتى. «الهوية مسؤولية ثقيلة جداً ولابد من التحرر منها»، سأضمنها بين الكلام. وسأذكر نصائح بولونيوس إلى ليرتس: «استمع إليهم جميعاً، لكن دع القليل منهم فقط يعرف نبرة صوتك ولا تدع أحداً يعرف ما تفكر به، دعهم يشرحون بالتفصيل. دع الآخرين يتحدثون وابقَ أنتَ في منازل الشتاء العائدة لك».

«كم يروق لي» سأقول لهم (وهكذا سأروي لهم الرغبة الجامحة التي تلبستني طوال الرحلة إلى هذه المدينة) «أن أُطبق نصائح بولونيوس على أرض الواقع، ذات يوم، وأعزل نفسي في غيبة حقيقية في منزل شتائي على البحر في مدينة لا تحمل اسماً وتتحول هويتي إلى فجوة فارغة لكل تجربتي التي تعبر عنها ذكريات رحلة القطار إلى إشبيلية، على سبيل المثال».

سألقي في مساء إشبيلية، خطاباً خجولاً قصيراً ومختصراً، ثم أترك الحديث لإتساغا ليكمله. إنها طريقة ثانية للاختفاء، في حالة كهذه، في الأماكن العامة. لكن، ما النظرة التي سيأخذها إتساغا عني حين يرى تنصلي الواضح في تلك المحاضرة عن الخيال والحقيقة؟ قلت مع نفسي حينها، إن كان من الأفضل، تقديراً لإتساغا، أن أتوسع في الخطاب الخجول والمختصر، مع مداخلات لأية مواضيع أخرى. يمكن أن أتحدّث عن روبرت والسر مثلاً. باستطاعتي أن أتحدّث عن ذلك الكاتب وعن فنه السامي في فن الاختفاء الذي يختبئ بين سطوره. وأضيف أن القليل من المؤلفين نالوا «الغيبة» بمهنية، بعد أن تلثموا بين كلماتهم الخاصة، مقتنعين بابتعادهم عن الأنظار.

«يا له من فجور غريب أن نفرح سراً بالتحقق من أن شخصاً ما غاب قليلاً»، أتذكر الآن ما كتبه والسر في إحدى المناسبات. كان كاتباً عرف كيف ينسل

ببطء نحو الصمت، ويتحرر، بدخوله مصحة هريساو، من المهام التي كان عليه أن يمارسها في ذلك الوقت، وينفك من اختناق هوية الكاتب الدامغة، باستبدالها بهوية جذلة لمجهول يسير على الثلج. المسير طويلاً حول مصحة هريساو، لم يكن بالنسبة إليه، سوى شكل من أشكال مغادرة «حجرة الكتّاب أو حجرة الأرواح». أما أسلوبه، فكان حقاً نثراً وجيزاً ومحاولات هروب، وهو أسلوب على الهواء الطلق يحمل إحساساً في غاية الذاتية لإنسان متشرد: «أنا لستُ متسكعاً، أنا أعيش دون شعور، ولا أمتلك بصمة الدخول إلى أي نوع من التجارب». ليس غريباً على شخص يقول أشياء كهذه، أن يرغب في أن يكون «كياناً ضائعاً ومنسياً في فضاء هذه الحياة الشاسعة».

كان يرنو إلى الاختفاء في الفضاء الشاسع لهذه الحياة. ذات يوم قالت له امرأة عابرة: «تعال معي. أنت مسكين وسط هذه الاضطرابات». كان والسر يستعد بالفعل لتلبية النداء، حينما حدث أمر غير مُتوقع، سحبه مع التيار البشري. كان الشارع صعب المقاومة بالنسبة إليه، أتاح له فرصة الاندماج فيه. ذهب والسر بعيداً وسار مع الكتل البشرية للحظة حتى انتهى به الأمر للابتعاد عنهم والتوجه نحو أحد المتنزهات حيث السكينة والهدوء الشاملان. كان يمكن أن يمكث أكثر لولا أنه سمع من البعيد ضجيج قاطرة. أبصر والسر على مسافة، قطاراً بنوافذ حمراء وخلفه درب يفضي إلى جبال تغطيها الثلوّج، درب سار فيه فيما بعد صاعداً ببطء قمة غير أمينة وسط عاصفة ثلجية خفيفة. ظل يمشي حتى وصل إلى حافة هاوية في نهاية العالم. «إن أردت الذهاب إلى أبعد من ذلك، فسأكون قد اختفيت» فكر والسر حينها.

-11-

توقف القطار السريع في محطة بويرتويانو. كنتُ غارقاً في التفكير بروبرت والسر وقطاره ذي النوافذ الحمراء، حين أبصرتُ بغرابة، العالم وكل ما يحيط بي. كان الشاب الذي كان يرتدي ملابس أنيقة، ويبدو كأنه مدير تنفيذي مبتدئ، هو الشخص الوحيد الذي رأيته يصعد العربة التي أنا فيها. ممَّ تتكون حياة ذلك الشاب؟ كان من المستحيل أن أعرف. لكني مع ذلك استطعت أن أخمّن أية حياة يعيشها هذا المسافر الذي كان قد دخل

العربة وجلس إلى جانبي في المقعد الذي كان فارغاً حتى تلك اللحظة، والذي تمنيت ألا يشغله أحد طوال الرحلة.

كان يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، وكان طويلاً جداً ورشيقاً، رأسه كبير وهائل تتدلى منه على الجبين خصلة من شعره الأسود، تعابيره تعكس روح جرأته وعفويته التي ربما -تخيلتُ- تكون من بقايا طفولة. من المحتمل أن يكون إسبانياً، لكني كنتُ واثقاً تقريباً من أنه ليس كذلك، بل هو من أحد بلدان أوروبا الوسطى. لا أعرف تماماً لمَ خُيِّل إليّ أن أمه هنغارية وأباه من بويرتويانو، أو العكس. في اللحظات التي تصورته من أصل هنغاري، تخيلتُ أن رؤياه عن العالم، كانت ترتكز على نحو أساسي، على المفاهيم الخيالية، الكارثة والفراغ الميتافيزيقي، وهي مفاهيم لابد منها لاستيعاب أوروبا الوسطى.

ثم قررت مع نفسي أن أكتفي بهذا القدر من التخيلات، وأعمد إلى التحدث معه لتجاوز الشكوك كلها. كيف حال بويرتويانو؟، سألته. «حسنٌ»، قال بلكنة أجنبية للغاية وكأن سؤالي لم يفاجئه، «لا يمكن تحمل بعض لياليها السيئة وأعتقد أن الإرهاق المُضني يسيطر عليها كلياً في الوقت الذي لا أحد يجب أن يكون مُتعَباً، لكن الجميع كذلك في بويرتويانو، كل العالم هناك يتحرك تَعِباً، دون أن يؤثر هذا الأمر على عملي، لأني أتحسن مع هذا الإرهاق».

نطقها ببطء شديد. الحقيقة أن إجابته كانت غير مكتملة تقريباً. قلت لنفسي إن جمله لم تكن منطوقة على نحو حسن لأنه أجنبي، ولم يقل مثل هذه الأشياء غير المفهومة، لأنه اقتصر على القول (مع الكثير من المواربة، نعم) إنه «كان يتحسن مع الإرهاق»، هذا فقط. أما الآن، أين شوهد شخص ما يتحسن مع التعب؟ إذا فكر أحد في الأمر، فسيرى أن ما قاله في الواقع، شيء غريب.

كان قد قال، «أنا أتحسن مع هذا الإرهاق». قلتُ مع نفسي إن من بين جميع ما قاله، لم أستوعب الجملة الوحيدة التي بفهمها يمكن أن تُفتح لي الفضاءات المجهولة المثيرة. «ربما تشعر بأنك في حالة حسنة حين يصيبك

التعب؟»، سألته. لم يمهلني حتى أُنهي سؤالي، إذ سرعان ما بدأ يقول لي (بنفس أسلوبه البطيء جداً) إنه منذ طفولته في إحدى القرى القريبة من بلغراد «كان يستمتع بالتعب الشائع، برفقة جميع أبناء القرية، من الذين كان بعضهم يجلس على المصطبة الوحيدة الموجودة في المكان الذي تُدرس فيه الحبوب، وبعضهم في مقدمة العربة، وبعضهم أبعد بقليل، يتمدد على العشب، وكان كل شيء جميلاً، مع سحابة من التعب غير المحسوس يوحدنا جميعاً، حتى يُعلن عن الرزمة التالية. في تلك الأيام، كان الإرهاق ينال مني مثلما ينال من الآخرين، لكن ليس كالتعب الذي ما إن ينتابني حتى أشعر بحالة أفضل من التي كنتُ عليها قبل التعب، فأتحسن بهذا الإرهاق».

أنا المُتعَب الآن. لم أفكّر في توجيه أسئلة أخرى له، رغم أن شخصيته أثارت فضولي، وتمنيت في أعماقي أن أعرف عنه أكثر. لكنه كان غريب الأطوار وأكثر بطئاً حين يتحدث لكن لم أجد من الحكمة سؤاله عن شيء. تذكرتُ أني، في حياتي، غالباً ما ألتقي أناساً فطنين جداً في القطار. الغريب في الأمر، أنه حدث العكس تماماً، إذ لم ألتقِ أناساً غريبي الأطوار في رحلاتي في وسيلة التنقل هذه.

عاد ليكلمني فيما بعد، دون أن أسأله، وعلمت أنه يُدعى فلادان وأنه من صربيا. كان قد قضى أواخر طفولته، خاصة، وبداية مراهقته في سوريا حيث نُقل والده للعمل كسائق في السفارة. وعاد بعد سن العشرين إلى بلغراد حيث شارك في الحرب وعشق القتال الرجولي، رجلاً لرجل. أما الآن فهو يسافر بين ربوع إسبانيا. كان قد عمل في بويرتويانو حتى عثر على متعة الإرهاق. كانت قرطبة، محطته التالية. كان يشعر بالحنين إلى أزمنة الحروب الطيبة. القتال من أجل صربيا، كان أحد الأسباب الرومانسية غير العادية في عالم لم تعد فيه الحروب مثل قبل، كما حدث في العراق، إذ أصبحت لا معنى لها في الوقت الراهن.

بينما كان فلادان يخبرني بكل هذا، استوقفتني بلا هوادة كلمة سوريا، هذا البلد الذي أصبح مألوفاً بالنسبة لي تقريباً، في الآونة الأخيرة. يبدو أن كلمة سوريا كانت تنبعث منها علامات ترشدني في مساء لا كارتوخا إلى ما يجب أن أقوله بشأن شارع فانو، السفارة السورية في فرنسا، حدائق ماتينيون،

وكيف استمرت قصة علاقتي مع هذا الشارع في اليوم ذاته، على نحو غير مُتوقع، في القطار الذي كان يقلني إلى هناك، إلى إشبيلية.

ثم بذلتُ جهداً وتوقفت عن التفكير في الشأن السوري لكي أكرّس نفسي أكثر للجانب الثقيل الظل الذي حدثني عنه فلادان وللفكرة المرعبة حول الحروب المنطقية التي استعرت في زمن آخر. «لا أريد أن أزعجك» قلتُ له واعياً تماماً أنني أنا مَن سيكون مُنهكاً، «رغم علمي أنه يروق لك أن تتعب، لكن اسمح لي بسؤال لكي أعود إلى قراءة الصحيفة، هل تعتقد أننا اليوم في طريقنا إلى فقدان أي إحساس؟». لم يجب. نظر إليّ كأنني هجين. وكسر الصمت بعد برهة ليدعوني إلى شرب شيء في كافيتيريا العربة. شكرته على الدعوة وقلت له إنني أحب أن أبقى في مقعدي.

بمغادرته، عدتُ إلى صحيفتي لقراءة بعض أخبار كرة القدم (الشيء الوحيد الذي يهمني في هذه الصحيفة) وتمكنتُ من إعادة سماعات الأذن أيضاً. قمتُ بتغيير المحطة، وعادت موسيقى الفلامنكو إلى الظهور، وذهبتُ مباشرة إلى أغنية يؤديها بيبو فالديس ولا ثيغالا. مع ذلك لم أستطع تجنبه. ما تزال ترن في مسامعي، أصداء كلمات فلادان حول المشهد البطولي الجميل لبعض معارك الماضي. حاولتُ أن أنسى ذلك كله، والتركيز على أخبار كرة القدم في الصحيفة، برفقة الأنامل المبدعة لبيانو الكوبي فالديز. لكن فجأة، وبنهاية أغنية «نسيت أنْي نسيتك» التي كنتُ أصغي إليها، رماني الصمت الذي أعقبها، في أحضان كلمات فلادان من جديد، حول البطولة وإحساس الكلمات القديمة. المغزى؟ وانتهى بي الأمر إلى استذكار حديث بارثيس عن المدينة الفاضلة في عالم «خالٍ من الإحساس» (مثلما يكون المرء معفواً من الخدمة العسكرية)، عالم يمكن العيش فيه دون أية علامات.

ما الذي كان عليّ أن أقوله حول هذا الأمر؟ هل كانت البطولة، كلمات فلادان، المعارك القديمة وحالة سوريا، ذات مغزى؟ وبعد كل هذه التساؤلات، انتهيت إلى التفكير في الفضاء الخيالي لإلغاء المعنى، وتخيلتُ أن هناك من لا يسعى إلى إضفاء مغزى على الأشياء المجردة، ولا على الحياة، ولا على العالم، ولا يمكن أن يتصور أحد ما بدوره، الإحساس الذي سيصل «فيما بعد»، فيضطر إلى أن يقطع شوطاً طويلاً في البدء، ليس أقل

من المعنى في مجمله، ليكون قادراً على إنهاكه وتحريره. التفتُّ إلى الوراء، وأدركتُ أننا كنا قد ابتعدنا عن بويرتويانو كثيراً، لكن بويرتويانو، الميناء القديم للرومان ما يزال، مع ذلك، ذا مغزى.

-12-

ورقة أخرى تسقط دون أية ضجة، وتلمس خط الأفق أيضاً، كل هذا يحدث في لحظة واحدة في مخيلتي، في هذا المساء الذي لم ينزل المطر فيه طوال اليوم. أنظر إلى جاري، الرجل الذي يُشبه سكورسيليتي، وأتخيل أنه يكتب قصيدة ليختفي فيها. أطوف في أعشار الثانية في تاريخ الذاتية الحديثة وأتطلع إلى الهوّة تحت قدمي، خطوة واحدة ترميني خارج الزمن، فعلاً، «خارج الوقت، داخله» الذي أتمنى، دون شك، أن أكتب عنه، مُفترضاً أن الخارج المحتمل، بعد الاختباء داخل ذاتي، يمكّنني من الكتابة، تحت لغز الخوف العتيد من الموت، قصيدة وداع كالتي يكتبها الجار، قصيدة أتساءل فيها: من أين تأتي كل هذه القدرة على الاقتلاع، على التدمير أو التغيير الذي تمتلكه بضعة سطور من قصيدة وداع، محدقاً في البحر من فندق يجاور حديقة منسية، أمام الهوة.

-13-

بعد أن اجتزنا بويرتويانو بكثير، قلتُ لنفسي إن الحقيقة الصارمة تشير إلينا أن كل شيء إلى زوال، كل شيء. من المؤكد أننا نكتب، لكنه هذا مرتبط بالضرورة الأبدية الكامنة في الزوال. تذكرتُ بعض العبارات التي كتبها بورخس في شبابه: «أجهل إن كانت الموسيقى تعرف كيف تقنط من الموسيقى، والرخام من الرخام، بيد أن الأدب فن يعرف كيف يتنبأ في الزمن الذي يخرس فيه، ومتى يجسد فضيلته، وكيف يُغرم بانحلاله الذاتي، ويغازل غايته».

سماعة الأذنين تأتيني بـ«*لم يهطل الليل بعد*» لبوب دايلان. تنتابني متعة حقيقية. أحدق في المناظر التي يمكن أن تُرى من خلال النافذة وتعود بي الذكرى إلى أيام شبابي حين كنتُ أتطلع إلى نوافذ القطار الصغيرة بكآبة.

كان كل ما حولي مضمخاً بالكآبة، ربما لأني كنتُ قد قرأت الكثير من الكتب التي منها استخلصتُ أن الناس في القطارات إما يقرأون وإما يتطلعون إلى المناظر التي غالباً ما تكون جنائزية، مثلهم. وفكرتُ فيما بعد في بعض الكتّاب الذين تعني لهم الكتابة، التقدم إلى الأمام، التقدم في عالم الآثار، نحو محو الآثار، جميع الآثار، لأنها تعارض المجموع، أي أنها تعارض الأثر الأصلي الذي لم يعد موجوداً. وفكرتُ أيضاً في كل أولئك الكتاب الذين يُغرمون بتفكك الأدب ويغازلون نهايته. هل يمكنني أن أتحدّث بأشياء كهذه، مساء ذلك اليوم في لا كارتوخا في إشبيلية؟ هل أستطيع أن أتكلّم، على سبيل المثال، عن الكتّاب الذين اختاروا صيغة الشخص الثالث المفرد للتحدث عن أنفسهم لأنهم أدركوا أن هذه الصيغة هي الأمثل للزوال وإجهاض أي خطاب أناني؟

هل يمكنني أن أتحدّث عن هذا كله، في ذلك المساء في إشبيلية؟ ولأني لا أعرف جيداً بما أجيب نفسي، أغرقتُ نظري ثانية في الصحيفة حيث وجدتُ فيها أخباراً عن دراسة الجماجم المتحجرة لبعض الفصائل البشرية، من قبل عالم إسباني وعالمين إيطاليين كانوا قد استنتجوا أن شكل المخ البشري الحالي تعرض إلى قفزة تطورية. ألم أكن قد قرأت هذه الخبر من قبل في مكان ما؟ ألم أقرأه مئة ألف مرة؟ وقررت العودة إلى أخبار كرة القدم. تسرني كثيراً قراءتها حتى لو كنت قد مررت عليها من قبل. كانت الأنباء الرياضية هي الصنف الوحيد من الأخبار التي كنتُ قادراً على تحليلها واحداً بعد الآخر دون أن أشعر بالملل. كانت تعينني على الاسترخاء والاستراحة من باقي الأخبار جميعها، لأنها كانت برمتها خطيرة دائماً على ما يبدو. قرأت، ولا أعلم كم مرة، معلومات حول استقالة اللاعب البلغاري خريستو ستويجكوف، بعد عشرين عاماً من الاحتراف. وكذلك خبر حصول اللاعب زين الدين زيدان على جائزة دولية مهمة، وإن لم تكن بارزة جداً.

وراودتني فكرة الذهاب إلى كافيتيريا العربة أنا أيضاً. ذهبتُ إلى هناك لأدخن سيجارة، ووجدت فلادان هناك يتكلم، وسط الجميع، مع رجل يبدو من مظهره عربياً على نحو لا يُخطأ. توقفتُ بعيداً عنهما قدر الإمكان، على مسافة آمنة، في مدخل البار. رأيتهما منغمسين في نقاش، رغم محاولة كل

منهما قمع غضب الآخر. بقيتُ هناك أدخّن، مراقباً أحد زبائن البار، رجل يتكئ بكوعه على العارضة محدقاً في قناني الويسكي الفارغة بنظرة بلهاء. كان يبدو في غاية الثمالة. كان يرتدي بدلة مخططة تشبه إلى حد ما بدلات رجال العصابات في الأفلام، تتدلى من جيبه نسخة من «الهروب دون هدف» للكاتب جوزيف روث. ومن النظرة الأولى بدا أن الثمل صاحب البدلة المخططة، كان يقرأ أدب أوروبا الوسطى، وربما يكون عميلاً سرياً يتجسس على فلادان والعربي، رغم أن هذا الاحتمال بعيد جداً. وربما يكون رجلاً ثملاً مستغرقاً في التفكير ليس إلّا. ومن جهة أخرى كنت مذهولاً – رغم أنني قد أكون الوحيد الذي يرى ذلك فيه– بالشبه الكبير الذي كان عليه من لاعب كرة القدم كوبا، المجد القديم لـ«ريال مدريد» في ستينيات القرن المنصرم. أكملتُ تدخين سيجارتي في نهاية الأمر وعدتُ إلى مقعدي في القطار. وبعد قليل رجع فلادان إلى مقعده أيضاً. ارتمى عليه بكامل ثقله، ولاحظت أنه كان عصبياً. «هل حدث لك شيء مع صديقك؟»، سألته وكأنني أعرفه شخصياً منذ زمن. «لا شيء، لكن، لمَ تقول إنه صديقي؟»، أجاب مباشرة. «لا شيء أبداً»، قلتُ أنا. وشرع يتفوه بكلام مبهم على حين غرة: «حفلات الزفاف هي أكثر العروض سخافة. أخبرني هذا الرجل بأنه لا يمل من خطيبته، والآن يتزوج. أما أنا الذي لا يشعر بالإرهاق مطلقاً، فكنتُ على وشك أن أفعلها لكثرة ما سمعته يتحدث عن أشياء سخيفة عن الزواج. رغم أنه بمزاج سيئ للغاية، لكنني أستطيع أن أكون غضبان لقرون دون أن ينال مني التعب».

لا أعرف كم مضى من الوقت وهو يحدثني بارتباك عن هذا الرجل الذي تزوج. أردت أن أقاطعه لأسأله إن كان قد تنبه في الكافيتيريا إلى الرجل الغريب صاحب البدلة المخططة. ولم أسأله شيئاً في النهاية. لم يتوقف فلادان عن الكلام إلّا بتوقف القطار في قرطبة. حين نزل، أو لأقُل، حين تلاشى في القطار، لم أره ينزل، وقررت أن أنوّه، على لسان الشخص الثالث (لكي أتحرر من أنانيتي وأختبئ بطريقة ما خلف صيغة الشخص الثالث المفرد) عن لقائي الغريب مع المسافر الصربي وأضيف لاحقاً بعض المعلومات عن إحدى النظريات الأدبية حول الصداقات الغريبة التي تحدث

مع المسافرين في عربات القطار. يمكنني أن أبدأ حديثي بالقول على سبيل المثال: «في رحلته بالقطار نحو إشبيلية، تبادل بعض الكلمات مع جاره على المقعد، حامل الجنسية الصربية، الذي كان عاشقاً للحروب التقليدية والذي ترجل من القطار في مدينة قرطبة، بعد أن أباح له حديثاً غريباً جداً عن سوريا، البلد الذي كان قد قضى فيه نهاية طفولته ومراهقته كلها...».

من هنا سأبدأ خطابي في لا كارتوخا وسأرى عند ذاك أين ينتهي. لكني تنبهتُ فجأة إلى أن استبدال «أنا» بـ«هو» كانت في الواقع وببساطة، محاكاة غير معقولة لاختفاء الأنا، أو ربما لم يطرأ على بالي ما حدث لرونالد بارثس حين كتب سيرته الذاتية بصيغة الشخص الثالث، واعترف بعد ثلاث سنوات برغبته التي لا تُكبح، والتي تُعد بالنسبة إليه ضرورة مُطلقة، في العودة إلى ضمير الأنا؟ «إنها الحميمية التي تحثني على التحدث عني»، كتب بارثس حينها، وكأنه ندم على هوى الشخص الثالث.

وفجأة تولّدت في داخلي قناعة، أنني ولكي أقوم بأي مشروع مستقبلي، فلابد لي أيضاً من العودة إلى الأنا، وكيف أتعايش عقلياً في أقصى بقعة في العالم، حيث أتجول وأمرّن أفكاري على قصص جديدة، وأزرع نفسي في الهاوية وأحاول أن أغادر بعيداً وأتلاشى بالطبع، لكن ليست بالطريقة السهلة جداً باستخدام ضمير «هو» بل بالاختفاء والتلاشي نهائياً.

ولكن، ما الطريقة التي أقوم به لأجل الاختفاء؟ هل حدث أن قام بها شخص ما حقاً؟ على عكس ما كنتُ قد فكرتُ به في قلعة مونتين، يبدو لي الآن أنه من العسير أن أختفي بالكامل. فكرتُ في آرثر كرافان، الذي اختفى في المكسيك دون أن يترك وراءه أي أثر، وقلتُ لنفسي، مهما يكن من أمر، أنا واثقٌ من أن روح كرافان ما تزال هناك في مكان ما. يبدو لي الآن أن الاختفاء من كل شيء هو مهمة الجبابرة الذين لم يُخلقوا بعد. لم أكن متأكداً تماماً من أني أستطيع أن أتحرر مطلقاً من كل شيء مني. «أوه، انتهاء كل شيء. الانتهاء هنا سيكون رائعاً، لكن أهو مُشوّق؟ نعم، هو كذلك. من المُشوّق، الانتهاء من كل شيء. سيكون مدهشاً، كائناً من أكون، أن أنتهي حيث أنا الآن، الآن في الحال، أتلاشى، سيكون الأمر رائعاً. آه، ليت كل شيء ينتهي بي هنا» هكذا قال (وأضفتُ عبارات مني) صامويل بيكيت في إحدى قصصه التي لا

أتذكر عنوانها الآن، لأني لا أحمل الكتاب في حقيبتي الصغيرة التي رافقتني إلى هنا، إلى هذه المدينة. لكن، هل كان من الممكن حقاً أن «أنتهي هنا»، وأختفي بالكامل؟ الفعل الولادي نفسه كان يحول بيني وبين الاختفاء من كل شيء لأني أكون قد اخترقتُ رقدتي الأبدية قبل ولادتي. هل كان باستطاعتي أن أختفي قبل أن أتمكّن من العودة إلى الجانب الآخر من الوجود، هناك حيث الشكوك، ولا شيء سوى الشكوك بعدم وجود شيء هنا؟

تذكرتُ أنطونين آرتاود: «أشعر بشهية» أن لا أكون «ليتني ما وقعتُ في معقل التفاهات». كنتُ أفكّر في هذه الأشياء جميعاً حين كان القطار يتقدم نحو إشبيلية، بينما أنا كنتُ أسير متطلعاً ببهجة نحو الخارج، واعتقدتُ أن «المدينة الزاهرة» قد لاحت لي أطلالها فجأة من بعيد، وسط سحابة من الغبار. الآثار تشير دائماً إلى شيء لم يختفِ كلياً. إذن أنا أطلال، بناءً على هذا الإحساس. كنتُ أتوق للاختفاء رغم علمي أنه لا يمكن أن ينتهي بي الأمر إلى الاختفاء ما لم أتحول إلى آثار. حدقتُ مجدداً في سحابة الغبار. قلتُ لنفسي إننا لا يمكن أن نستوعب شيئاً من الآثار ما لم نتحول ونصبح مثلها. أما القطار الفائق السرعة، فبدا مجازاً عن إسبانيا، حيث كان يتقدم بقوة، وهذا ما لا يُنكر، لكنه يفعل ذلك كأنه كان مدفوعاً إلى الأمام، من خلال تخليه عن المضي قدماً إلى الأمام.

-14-

أخال أنني يجب ألّا أتحدّث إلى الأبد، وكأنني أحد هؤلاء الرواة المعاصرين الذين يكتبون، في الكثير من الأحيان، من مدينة مجهولة الاسم. لقد انتهى زمن الروايات التي تزدحم فيها الشخصيات، مهما تكن قيمتها الفنية، للوصول إلى مدن لا اسم لها. لا، يكفي هذا. لستُ بصدد كتابة رواية هنا، لكني أشعر بنفس مسؤولية كتابتها. وبالتالي أريد أن أقول إنني هنا أمام بحر وهوّة، أرى خط الأفق وأتجول في الجنينات الافتراضية في نهاية العالم التي زُرعت في دماغي، لكني لا أكتب من مكانٍ لا اسم له. أنا أفعل ذلك من إحدى غرف الفندق الكائن في مدينة معروفة جداً. أما البيانات التي تحولتُ فيها إلى شخص حقيقي، فتقول على سبيل المثال، إن هذا الجار المجاور

لغرفتي، الذي يُشبه سكورسيليتي، غادر الفندق وتبيّن أنه وببساطة، المدير التنفيذي لإحدى مؤسسات تصنيع الجوارب القصيرة.

كم هو مثير للسخرية وتافه، وكم هو حقيقي أيضاً. وربما لا؟ في النهاية، تشير المعطيات الحقيقية أيضاً، إلى أنني منذ وصلتُ إلى هنا، وأنا أفكّر في التاريخ الحديث للاختفاء، وفي اختفائي الشخصي الذي أكتب عنه كذلك. يقولون أيضاً إنني أفكّر في مدى ضرر نشر الكتب على المدى الطويل والقيام بذلك إلى أقصى حد من أجل الحصول على شهرة معينة ومن ثم التمكن من إدارتها كبرجوازي جيد وينتهي بي الأمر بالإدلاء بتصريحات تافهة في الصحف والمجلات، عاجزاً عن امتلاك أصغر قطعة أرضية.

أكتب عادة، لتصوير مصير مرير.

وانطلقتُ أفكّر، أمام الهاوية، في سالينجر، الكاتب الذي يعيش متخفياً بسلام، وفي أشياء أخرى مشابهة، كالتي عند توماس باينكون. ثم قلت لنفسي إن ذلك لم يكن يعني شيئاً بالمرة، لكن الشهرة التي أتتني مع الزمن، حالة غير صحية، كما هو الحال الآن في هذه اللحظة الثمينة، التي أفكّر فيها أنه من غير الصحي السكوت لوقت طويل عن اسم المدينة التي تنتصب أسفل مني، المدينة التي رغم مرور أيام على الحبس، لم أتجول وأتشرف بها بعد. أعيش أنا في واحد من أحيائها المرتفعة في تشيايا، وبغض النظر عن المحاولة غير المتعمدة، التي يسببها اختفائي، لتكدير الكائنات العزيزة لديّ (إن كانوا لديّ فعلاً)، فقد جئتُ إلى هنا لكي أروي لنفسي قصة الاختفاء الغامض للذات في حضارتنا، والتحدث عنها من خلال استذكار مقاطع من حياتي، وكأني حُقنتُ بتاريخ الذاتية في الشرق، ولُقنتُ أيضاً كيف أحاول أن أختفي، وأتحدث خطوة بعد أخرى، عن كيفية تنفيذي، ببطء، مراسم غيبتي.

من غير المستحسن أن أظل ملتزماً الصمت لمدة أطول عن اسم المدينة التي أنا فيها الآن. لذا سأقولها دفعة واحدة. أنا أقيم في فندق ترويسي، في حي تشيايا، في مدينة نابولي. تتفتح اليوم عن جو شتائي مُشمس.

أكتب ذلك وأتفاجأ بنفسي أظهر وأختفي، على حين غرة، في مرآة الغرفة.

ظهور واختفاء. وكأنني كنتُ مُلزماً على أن أكون على حافة كلا الفعلين. ثم ألجأ إلى كتاب أحتفظ به في حقيبتي الحمراء الصغيرة، بطله يُدعى توندا، وأحزم أمري على قراءته في الحال. بعدها أذهب على نحو غريزي نحو النافذة وأنظر أمامي إلى الحديقة المُهملة ذات البهاء القديم، وأتطلع بعدها إلى الهوة وإلى البحر وأخطط، للمرة الأولى منذ وصولي إلى هنا، لمغادرة «حجرة الكتّاب أو الأرواح» هذا الصباح والقيام بجولة خجولة بالنزول إلى المدينة سيراً على الأقدام. ربما حان الوقت لأتحرك بطريقة مختلفة عن طريقتي في الأيام الأخيرة، وربما حانت الساعة لأتحرك، بصورة مبهمة، بين الحبس والتجوال، على الرغم من أنني كلما أحبس نفسي، أشعر بمساحة من الحرية أكبر، ولكن، وبتعبير أدق، لأن الحرية تنفث سمومها، أعتقد أنني بحاجة إلى الحيرة والضياع الذي يمكن أن يأتيني من السجن الذي يحوّلني عالمه إلى إنسان هائم على وجهه.

فندق ترويسي، نابولي، إيطاليا. الأيام جميلة هنا، لأن الشتاء أكثر اعتدالاً مما كان متوقعاً، على الرغم من أن كل ما حولي سيكون أفضل، لو لم أشعر أن وضعي يزداد غرابة. حسنٌ، في الوقت الراهن أرغب بالظهور مجدداً على نحو خجول، أمام العالم، والانتهاء هكذا مع جذرية أيام الحبس التي عشتها دون أن أرى أحداً ودون أن يعرف أحد أين أنا (أحاول أن أقلد الأيام الأحد عشر الشهيرة التي اختفت فيها أجاثا كريستي على نحو غامض، حتى وُجدتْ في منتجع صحي شمال بريطانيا العظمى. إنه لأمر مؤثر، أن أدرك أنني قادر على قضاء أكثر من أحد عشر يوماً، رغم وجودي هنا منذ أربعة أيام، دون أن يفتقدني أحد، على عكس كريستي التي كان «العالم كله» يبحث عنها) في الوقت الذي أخطط فيه للظهور، أي، الاتصال الخجول مع الحياة السابقة، أرى، مرة ثانية، أن الشروع بالكتابة هو ممر لاجتياز تجربة غالباً ما تكون مناقضة للكتابة ذاتها، إذ يكفي أن تلمس التناقض الكبير الموجود في الفعل نفسه في أن أحاضر الآن في موضوع ظهوري مرة ثانية بينما أنا في واقع الأمر، أو يجب أن أكون أكثر التزاماً ومشاركة من أي وقت مضى، في الانتهاء من سرد قصة اختفائي.

-15-

يتكون خليج نابولي من فوهة ضخمة مكشوفة ومحمية من الشرق بقوس من التلال التي تشكل مدرجاً طبيعياً نصف دائري. في أحد الفنادق الغافية على أحد هذه الهضاب، أجدني، محدقاً الآن في خليج فيزوبيو في الأسفل. هنا أتخيل، في بعض الأحيان، وعلى نفس الأراضي التي شكل فوقها هوميروس جزءاً من أوديسا، أنني في جزيرة قاحلة. لم يكن عبثاً وصولي إلى هذه المدينة بالملابس التي لابد منها وبضعة كتب في حقيبة حمراء صغيرة أليفة ورثتها من جدتي. أنا هنا الآن عالقاً في غرفة الفندق هذه التي تعزلني عن العالم، مرتبطاً بالكتابة الخاصة، شاعراً بغياب تام عن حياتي، دون أن يهتم لغيابي أحد في هذا العالم. الحقيقة أنه لابد من مواجهة الواقع بحزم ودون خوف. لا أحد يفتقدني ولا أحد يسأل عني.

لستُ أجاثا كريستي. مَن يقلق لأجلي؟ مَن أتوقع أن يكون مهموماً لغيابي؟ أتلك التي كانت زوجتي لغاية العام الماضي، والتي تكرس كل حواسها الآن في استلام الدفعة الشهرية مني؟ أم نورا ابنتي الميتة بسبب جرعة زائدة؟ أم سكورسيليتي؟ أم دار النشر المتعاقد معها في برشلونة؟ أم أصدقاء الشباب الذين انفضّوا من حولي جميعاً وابتعدتُ عنهم؟ أم والداي اللذان اختفيا في نهر هيدسون حين بلغا السبعين عاماً؟ أم المنظفة التي أنهيت عملها قبل يومين من ذهابي إلى إشبيلية؟ أم البواب؟

أخال أنني الآن سأبذل قصارى جهدي، لكي يستعد العالم للبحث عني. هل كانت أمي المسكينة ستفعل ذلك؟ الحق، أنها لم تفكر بي مطلقاً، والدليل أنها لم تأخذني بنظر الاعتبار حين غرقت، بجيوب مليئة بالحجارة، مع أبي في المياه المتجمدة لنهر هيدسون. مَن كان فعلاً إلى جانبي في العالم؟ ليست ابنتي بالطبع لأنها قبلت أن ترافق البطلة القاتلة. أما زوجتي، فأنا واثق من أنها لن تبحث عني أبداً ما دامت تتسلم الدفعات الشهرية مني بانتظام. أنا بالنسبة إليها، لا أمثل أكثر من ذكرى وجه صغير وسط حاشية كبيرة من طلاب المعهد الإيطالي في برشلونة للعام الدراسي 1967-1968، حيث تعارفنا وخرجنا نحو المذبح مباشرة دون أن نعرف ما كان ينتظرنا من

جحيم زوجي هو الأشد قسوة في تاريخ العالم المُتحضر، ذلك العالم الذي اختفى فيه الرب أولاً ثم الإنسان.

أنظر إلى البحر ثم إلى الجرف. يسقط على الأفق سور موجة، تتبعها أخرى. وأصبح شاعراً على حين غرة، قادراً على أن أكتب، على سبيل المثال، أن اليوم يحمل مع الريح، بشائر نور المراكب التي تنسل بحمولاتها وتضيع في البعيد. مراكب مدينة نابولي التي تظل بالنسبة إلي بعيدة ووحيدة. وكذلك مدينة قرطبة، والقطار الذي زاد من سرعته، ليتركها في ذلك اليوم وعلى حين غرة -مثلما يقول الشعراء عنها- مدينة بعيدة ووحيدة. في الخلف ظلت قرطبة تبتعد أكثر فيما كان القطار الذي لا يتوقف، يسير باتجاه إشبيلية، وأنا أحدث نفسي بأنني سأتكلم في جزيرة لا كارتوخا، عن تحرياتي حول شارع فانو في باريس، لكن دون الإسهاب في التفاصيل، سوى مختصر سريع عن تجربتي في ذلك الشارع وكيف أن اكتشافي في النهاية أدى إلى تأجير شقة كارل ماركس.

«540 دولاراً لليوم الواحد» سأقول لهم، «استأجرتُ هذه الشقة، حيث تفرّغتُ على مدار عطلة نهاية أسبوع، لوصف الاحتمالات المختلفة التي كان لابد من تحليلها اليوم أمام حضراتكم، عن العلاقة بين الحقيقة والخيال». وسوف تُعرض أمام جمهور لا كارتوخا، خطابات مختلفة أو مؤتمرات مختصرة عمّا حدث لي في القطار السريع إلى إشبيلية، وما كان قد وقع لي في الشقة الماركسية.

كان الأمر واضحاً. في هذه المؤتمرات القصيرة، وجدتُ نفسي أندفع بأسلوبي الشاعري وليد اللحظة. هل سيروق لي أن تظل هذه الشاعرية معطلة بسعادة، إن نفذتُ ذات يوم خطتي في الاختفاء، بنجاح؟ كان الأمر كما لو أن جواب السؤال ضمنياً يروق لي بالطبع، وبذلك سأكون قد اقتربتُ أيضاً من كمال تعاستي الجميلة. أو ربما لم يكن من المهم، بالنسبة لي، تغيير الحياة والعمل؟ نظرتُ من النافذة دون كآبة، ورأيتُ أن القطار بالفعل على بعد بضعة كيلومترات من إشبيلية. فكرتُ في السفر بشكل عام. وتذكرتُ المثل التبتي المأثور الذي يقول إن السفر عودة إلى الجوهر. هل كنتُ أفكّر في العودة إلى الوراء؟ ونظرتُ فجأة إلى ما هو جوهري عبر نافذتي ثم رأيته

ينمحي بسهولة يتعذر تعليلها. وتولد لديّ انطباع ساعتئذ بأني ذاهب إلى الأمام، وأن إشبيلية في الأفق.

–16–

في وقت لاحق تذكرتُ اليوم الذي اختفى فيه برناردو إتساغا في أعالي جزيرة كابري، مثلما حصل مع الدكتور باسافنتو في برج مونتين. حدث ذلك منذ بضع سنوات. دُعي عدد من الكتّاب التي تربطهم علاقة صداقة، إلى إلقاء محاضرات في نابولي. اتفق الكتّاب على اللقاء في مطار مدريد والسفر معاً إلى إيطاليا. كانوا آنياكي آباد، أغناثيو مارتينيث دي بيسون، بيدرو زارالوكي وبرناردو إتساغا. حال وصولهم إلى نابولي، أبلغتُ الكتّاب (كنتُ أعمل حينها أستاذاً في المركز الذي وجه لهم الدعوة، وكنتُ أعيش هنا في نابولي منذ ثلاث سنوات) بأن لديهم استراحة ووقتاً حراً ما بعد الظهر قبل البدء ببرنامج المحاضرات وبدأ النقاش فيما بينهم للتوصل إلى قرار لزيارة بومبيا أو السفر بالقارب إلى جزيرة كابري. لم يكن من الممكن أن يقوموا بالزيارتين في المساء نفسه، لذا كان عليهم أن يختاروا واحدة. بينما اعتبر اثنان من الكتّاب أن الواجب الثقافي يدعوهم إلى زيارة أطلال بومبيا، فضّل الاثنان الآخران الخروج بالقارب والتعرف على جزيرة كابري.

وعُوّل على الشخص الخامس برناردو إتساغا، في إقرار الكلمة الفصل للنقاشات الدائرة بين الأربعة. واختارني لهذا القرار الصعب. لم أكن أتوقع أن يتم انتقاء أستاذ ذلك المعهد ليقوم بمهمة التحكيم. لكني في ذلك الوقت كنتُ الأقرب إلى الجميع. «لأنك ستأتي معنا، أليس كذلك؟» أضاف إتساغا. ولم أكن أتوقع ذلك أيضاً. وعلى الرغم من تطلعاتي لأن أصبح كاتباً، فلم أكن قد نشرتُ أي كتاب بعد، ولم أتوقع مطلقاً أن يعتبروني جديراً بأن أشكل جزءاً من هذه المجموعة من الأصدقاء. أجبتُ بأسرع ما استطعت، وفضلتُ كابري التي لم أكن قد زرتها من قبل. «لمَ تود الذهاب إلى الجزيرة؟» سألني إتساغا حينها بجدية كبيرة أرعبتني. بدا لي أنني إذا اعترفت بالسبب الحقيقي وراء رغبتي في السفر إلى كابري، فسوف أخسر الفرصة مهما تكن، لذلك

قلتُ إني أفضل أن أشرح الأمر لدى عودتنا من الجزيرة. «لكن ستشرحه صح؟» قال زارالوكي الذي كان يود الذهاب إلى بومبيا.

حين وصلنا بعد الظهر إلى كابري، اكتشفنا أن أمامنا القليل من الوقت لرؤية شيء من الجزيرة، ولابد من اللحاق بمركب العودة الأخير الذي ينطلق بعد ساعتين. لن نفقده، ما لم نكن مضطرين لقضاء الليلة في الجزيرة. كانت الفكرة الأولى أن نظل في الميناء أو نستقل سيارة أجرة نتجول بها في المناطق القريبة. لكننا في نهاية الأمر، صعدنا في القطار الجبلي الذي حملنا بين الفضاءات الرائعة التي يتكلل بها الجبل. لو كنا أكثر فطنة، لما تحركنا من هناك، لكن إتساغا اقترح علينا زيارة وادي طبرية. وشرعنا في صعود الطريق الضيق الذي كان يطوف بنا بين البيوت والحدائق المليئة بالأشجار، والذي كان من المستحيل صعوده بسيارة الأجرة. إنه طريق قاسٍ جداً، ليس فيه سوى الصعود. درب غريب جداً لا يؤدي إلى العزلة في قمة مرتفعة فحسب، بل إلى عزلة رجل توفي منذ قرون يدعى طبريا، شاء أن يختفي من الحياة والابتعاد عن العالم الذي كان إمبراطوراً عليه.

كان إتساغا يتقدمنا دائماً أثناء الصعود، كأنه أحد طلائع رحلة استكشافية، يسير بخطى واثقة على الدرب الوحيد الذي كان يؤدي إلى الأطلال. طريق لونكانو، طريق سوبرامنتو، طريق طبرية. بوصولنا إلى القمة، عثرنا على منضدة غاصة بجرار الماء وأكواب بلاستيكية، وإعلان عن مؤتمر للدفاع عن براءة كنيو كالبورينو بيسون، الذي كان حاكماً لسوريا، وغادر طبرية نحو مصيره حين وجهت إليه تهمة تسميم جيرمانيكو. وفي ميدان صغير قريب، كان أحد الوعاظ يكيل التهم لطبرية وينذرها بالموت. ولأسباب قرابة منطقية، افتتن مارتينيث دي بيسون بالترميم التاريخي لـ«كالبورنيو بيسون» وصبّ جلّ اهتمامه عليه. أتذكر أنني بقيتُ أحدق مع زارالوكي وآباد في المنظر الجميل الذي كان يُرى من هناك: منظر خليج نابولي الذي يُعد من الخلجان الأكفأ في العالم.

حين قررنا العودة، وبدأنا بالنزول ناحية المرفأ -كان الوقت مضغوطاً لأننا يجب أن نصل إلى آخر مركب سينطلق إلى نابولي في اللحظة الحرجة- كان إتساغا قد اختفى. بحثنا عنه في كل نواحي طبرية ولم نعثر على أي أثر

له. كان قلقنا شديداً عليه. تحرينا عنه في كل ركن من أركان طبرية عاليها وسافلها -وقد أصبحنا على علم تام بها- لكننا لم نجد إتساغا. هل تعرّض لحادث؟ هل سقط في مكان ما من المنطقة ورقد هناك؟

كنا نمزح بعصبية. هل تأثر كثيراً بفكرة الانسحاب من العالم وطبّقها على أرض الواقع هنا؟ الحقيقة أننا لم نعثر عليه ولم يتبق أمامنا حل سوى النزول، إذا أردنا أن نلحق المركب الأخير من اليوم. وفي طريق هبوطنا ساورنا جميعاً شعور بالذنب للتخلي عن صديقنا، رغم أننا ما زلنا نطلق النكات حول الموت والمقابر. وصلنا إلى المرفأ محطمين، ولدهشتنا كان إتساغا هناك يتصفح بعض البطاقات البريدية، بعد أن اشترى لنا تذاكر العودة. قلقتُ كثيراً، أين علقتم؟ سألنا بهدوء شديد. أصابنا الذهول. كان قد ضاع، قال لنا، في صومعة وادي طبرية التي كانت تشهد حفلة عرس. دعوه إلى شرب كأس نبيذ وأهدوه بعض اللوز الملبس بالسكر ملفوفاً بورقة فضية. كنا جميعاً قد رأينا الزفاف، حين كنا في الساحة نستمع إلى الدفاع عن كالبورينو بيسون. كنا جميعنا قد شاهدنا العرس، لكننا لم نر إتساغا بينهم.

«قبّلتني العروس مرتين» قال لنا. وكنا جميعاً في تلك اللحظة قد صدقناه، يخالطنا شعور كبير بالراحة، لأنه لم يكن قد اختفى. «قبّلتني مرتين»، كرّر، «وحين لم أعثر عليكم، شرعتُ في النزول، خوفاً من فقدان المركب» أضاف. وصعدنا القارب جميعاً، سعداء. «والآن» قال لي زارالوكي بعد أن بدأ القارب بالابتعاد عن المرفأ، «حدثنا عن العبرة من مجيئنا إلى كابري». فكرتُ أن أقول له، لكي نرى كيف اختفى إتساغا في الجزيرة، لكني تجرأتُ أخيراً على قول الحقيقة: (لكي أتمكّن من أن أغني «انتهيت من كابري»). وبقيتُ اتطلعُ نحو منحدرات كابري الكبيرة التي كانت مساقطها تنفذ بقوة نحو المياه التي لم أرَ في حياتي مثلها، زرقة وشفافية. «اقتله، لكني أقتله». شرع زارالوكي يصرخ.

-17-

من الممكن أن أقول، في ذلك المساء في جزيرة لا كارتوخا بإشبيلية، إنني ذات يوم ومنذ سنين، تلقيتُ درساً أدبياً من برناردو إتساغا، في المركب الذي كان يعود بنا إلى نابولي، بعد زيارة قصيرة إلى كابري. كان الكاتب الذي لم

يكتمل نضجه بعد، أعني نفسي، يواجه الكثير من المشاكل لإنهاء كتابه الأول، وواحدة من هذه المشاكل كانت تكمن في الحاجة إلى التحدث عن شبح ظهر له كاشفاً عن أسرار مهمة حول الطبيعة الحقيقية للحياة. لكنه لم يكن يعرف كيف يجعل الظهور المُفاجئ للشبح، معقولاً. عرضتُ مشكلتي على إتساغا الذي أصغى إليّ بصبر. وفي لحظة ما، حين أسهبتُ كثيراً في عرض المشكلة التقنية، قاطعني. «الأمر بسيط جداً، يكفي أن تكتب أن شبحاً ظهر لك». وحدثني كيف أن أحد الكتب التي جرت أحداثها في كابري، أعجبته كثيراً. كان اسمه «تاريخ سان ميشيل». في وقت ما، ظهر له في أعلى قمة في الجزيرة، الدكتور مونثي، شخصية طويلة متلفعة بمعطف أحمر كبير، وأشار له إلى الفضاء الذي يمكّنه من الرؤية الواسعة، وقال له بصوت إيقاعي، إنه سيمتلك كل شيء إن كان مستعداً لدفع الثمن. «مَن أنت أيها الشبح الخفي؟»، سأل الراوي، الدكتور مونثي. «أنا الروح الخالدة لهذا المكان. أنا خارج حدود الزمن. منذ ألفي عام، كنتُ حيث نحن الآن، برفقة شخص آخر حضر هنا بإرادته، مثلما حضرتَ أنت. لم يطلب السعادة، مثلما لم تطلبها أنت، لكنه سألني النسيان فقط والسلام الذي كان يعتقد أنه سيجده في هذه الجزيرة المنعزلة».

«ما الثمن الذي تطلبه الروح الخالدة؟» التخلي عن الطموح لكي يكون له اسم، والتضحية بمستقبله. «وماذا سأكون؟»، «طريداً من الحياة» أجابه الشبح.

في تلك الليلة ذاتها، وفي شقتي الصغيرة في نابولي، تخيلتُ أنني أنا السعيد الطريد من الحياة، تعددية غريبة لكاتب كبير كان يعيش في برشلونة، وكنتُ أنا، ببساطة، ظله. وتخيلتُ أيضاً أنني عثرتُ ذات يوم على الكاتب الكبير، وبناءً على سؤاله عن سبب اكتفائي وقناعتي أن أكون ظلاً لآخر، طلبتُ إليه ألا يفكر في هذا الشأن كثيراً، وأن يؤمن بأن كل واحد منا، بعد نهاية الحسابات، هو ظل الجميع وأن الجميع هم ظل الروح الخالدة.

-18-

وصل القطار المغادر إلى إشبيلية في موعده، وكنتُ من أوائل الذين صعدوه. ورأيتُ أمامي على الرصيف، على مسافة خمسين متراً، صاحب

البدلة المخططة موديل شيكاغو، يسير بخطوات متعرجة قليلاً. شرع الرجل، حاملاً كتاب روث في جيبه (من الغريب والمثير للدهشة أن اللون الأحمر لغلاف ذلك الكتاب، سحرني) في صعود السلالم الميكانيكية التي بدأتُ بارتقائها أنا أيضاً بعده بثوانٍ. وفي نهاية السلم، لمحتُ من بعيد، سائق سيارة الأجرة الذي كان ينتظر، ليقلني إلى «زينيت» الفندق الذي حجزت لي فيه المؤسسة. كان السائق يرفع ورقة كُتب عليها اسمي بخط لم يرقَ إلى المستوى المطلوب. وأبصرتُ مندهشاً على حين غرة، صاحب البدلة المخططة يتوقف أمام السائق، بعد تردد قصير، ويحدثه معرفاً عن نفسه (لابد أنه انتحل شخصيتي) وغادرا معاً نحو بوابة الخروج يتكلمان بمرح.

أدركتُ في الحال أنني لن أجد مطلقاً، فرصة للهروب أفضل من هذه، وإن رغبتُ، فتلك هي اللحظة المهمة في حياتي.

كان عليّ فقط أن أواصل سيري ولا أُشغل نفسي بسيارة الأجرة ولا بالشخص الذي انتحل هويتي الحزينة. وهكذا فعلت. تركتُ هذا الشخص -الرجل صاحب البدلة المخططة وكتاب روث في جيبه- يغادر في سيارتي. خرجتُ إلى الشارع وشرعتُ بالسير بعيداً عن موقف سيارات الأجرة والمحطة، بخطى عصبية، كما لو أنني عثرتُ على بداية الهروب دون هدف.

ثم هدأتُ وأبطأت في سيري، أتسكع في شوارع مجهولة حاملاً حقيبة سفري. كنتُ أفعل ذلك وكأن الدافع الذي يحثني على التقدم، يهيب بي أن أساير ذاتي الميّالة للقيام به. مشيتُ لفترة حتى وصلتُ إلى شوارع وسط المدينة وانتهى بي الحال في الدخول إلى كاتدرائية، حيث جلستُ على إحدى مصطباتها لآخذ قسطاً من الراحة ولأسأل، في الوقت ذاته، من أنا ومَن سأكون في هذه الحياة.

كانت الكاتدرائية فارغة. ولأنني ملوث بقضية الغياب، شعرت أن الأمر يمكن قراءته كرسالة رمزية بأن الله ربما ما يزال موجوداً، لكن الإنسان العصري كان في طريقه إلى الاختفاء. أنا نفسي، انتهيت مختفياً الآن. وبدأ يجتاحني إحساس بالرفاهية في أني أُمحى من العالم، وانتهى بي المطاف في الكاتدرائية الفارغة، يراودني الشعور ذاته حين كنتُ يوماً ما في أعالي برج

مونتين محاطاً بالعزلة، بالصمت، بالجنون، بالحرية وبالحزن الجميل الذي يُعد واحدة من هذه الوهاد. مؤكد أن الحرية كانت الأسهل في التعامل، من بين الوهاد جميعاً، بحيث إني امتنعت عن الذهاب إلى لا كارتوخا، ونمتُ في أحد الفنادق التافهة في جادة كانساس سيتي (اسم رهيب وجادة رهيبة بالنسبة لمدينة جميلة جداً)، حيث قضيتُ الليلة متسائلاً عن الانحلال الغريب الذي كان يتملكني: النشوة الداخلية في التحقق أن شخصاً ما كان يتخفى قليلاً.

في اليوم التالي، طرتُ إلى برشلونة. التقطتُ من بيتي بعض الملابس (قطعتين) وبعض الكتب الأساسية، وأدخلتها جميعاً في الحقيبة الكبيرة الحمراء التي ورثتها عن جدتي. أودعتُ فيها أيضاً بعض الأشياء الخفيفة، لحلول الشتاء قبل أربعة أيام، وخرجتُ مجدداً نحو المطار. وهناك سألت عن أقرب طيارة يتوفر فيها مقعد فارغ. المُتاح أمامي، مدريد، فرانكفورت، لندن ونابولي. ويممتُ وجهي نحو نابولي. لم تكن المدينة مكاناً سيئاً للاختباء، لأنه لن يكون فيها، على أية حال، القليل جداً من الناس الذين كنتُ أعرفهم قبل خمسة عشر عاماً. ومن المؤكد أنني لن ألتقي مع أي منهم. إضافة إلى أنني لستُ مضطراً لرؤية المزيد. سأحبس نفسي داخل غرفة الفندق بهويتي التي تحولت إلى حفرة فارغة. في تلك الغرفة، ولكي أُشغل نفسي بشيء (الأيام طويلة جداً) مترقباً أن يُبحث عني أم لا، سأبدأ بكتابة قصة سفري إلى إشبيلية، قصة اختفائي، بشيء من الدقة وبطء قلم الرصاص الذي أشعر به الأقرب من باقي الأقلام لفكرة الغياب. سأقوم بذلك لكي أُشغل نفسي بشيء، كما قلت، خصوصاً أن الكتابة تُؤمّن لي الاحتمال الوحيد للحضور الداخلي.

وصلتُ إلى نابولي عند المساء وتوجهت نحو هذا الفندق الكائن في الجزء المرتفع من المدينة، منطقة «كورسو فيتوريا أمانويل». سألت نفسي -أعرف أنه سؤال ساذج جداً- إن كانوا قد شرعوا في البحث عني. طلب مني موظف الاستقبال، جواز سفري، وقرأ اسمي بعناية ثم سلمني مفاتيح الغرفة التي كانت بغير شرفة، لكن بإطلالة على الخليج. إنه مكان مناسب -فكرتُ- لعتمتي الشخصية.

- موعد الفطور من الساعة السادسة إلى العاشرة. تفضل هذه مفاتيح غرفتك سيد باسافنتو - تحدث معي بلغة إسبانية سليمة.

وعلى نحو غريزي، نظرتُ إلى الشارع، حيث كان بعض الصبية يتشاكسون فيما بينهم بحرية وبصوت عالٍ. قلتُ للموظف بعدها، بنبرة صوت تعمّدت أن تكون غامضة:

- اسمي باسافنتو، لكني سأُجيب على مَن يسأل عني عبر الهاتف، باسم الدكتور بينشون.

طلب مني الموظف أن أعيد على أسماعه ما قلته تواً، وفعلت.

- فهمتُ، سيدي. سأكتب هذه الملاحظة. وسوف ترد على المكالمات التي تسأل عن الدكتور أيضاً. تفضل، المفتاح سيد باسافنتو.

حدقتُ مجدداً في الشارع، ثم صححتُ للموظف:

- دكتور -قلتُ له- دكتور باسافنتو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

الشخص المختفي

-1-

أعرفُ فقط أنني قضيت أحد عشر يوماً في نابولي وأنني غادرت هذه المدينة البارحة، وكأنها بداية لهروب دون هدف. رحلتُ عنها فجأة، رغم أن أحداً لم يلاحظ ذلك، وذهبتُ مُتخفياً. أنا الآن في فندق شارع فانو في باريس، الذي أصبح مألوفاً لي في الآونة الأخيرة. بدا لي في حالتي هذه، ساعة التخفي، أحد الأمكنة الأمينة جداً في العالم، حيث لا أحد يفكر في البحث فيه عني، على اعتباره من المواقع الأكثر شهرة (وأعتقد أن السحر الذي يمارسه عليّ هذا الشارع معروف أيضاً). ورغم أنني تساءلت منذ وصولي، ماذا لو كان العكس وأنني لم أجئ إلى فندق السويد هذا لأختبئ بل لأكون عرضة في أن يجدوني في القريب العاجل. ربما قدمتُ راغباً في أن يُعثر عليّ؟

البارحة، بعد أن سجلتُ معلوماتي في المكتب الصغير للاستقبال، ذهبتُ إلى الحجرة الصغيرة المخصصة لاتصالات النزلاء بالإنترنت. فتحتُ بريدي الإلكتروني. ومثلما توقعت، وجدتُ فيه العديد من الرسائل من دار النشر المتعاقد معها في برشلونة، من بعض الأصدقاء والمعارف، ومن بعض الغرباء أيضاً الذين كانوا، في حالات معينة، يستغربون عدم ردي عليهم، لكن مع حالة الدهشة هذه، ينتهي كل شيء، كل شيء وعلى الإطلاق. بعد رسالتين قصيرتين أو ثلاث، ونكتة لمّاحة، لن يعود أحد منهم تقريباً، إلى مراسلتي ثانية، وكأن البريد الإلكتروني ابتلعهم أو جعلهم يختفون أيضاً.

لا أحد يسأل، على سبيل المثال، عن سبب عدم حضوري إلى لا كارتوخا في إشبيلية. أعتقد أني اختفيت ولا أحد تنبه إلى ذلك. لا أحد يهمه أمري. كنتُ أظن أنهم سيقومون بالبحث عني مثلما بحثوا عن أجاثا كريستي، وقتها. لكن من الواضح أني لستُ الكاتبة الإنكليزية. لا أحد يبحث عني.

ربما يعتقدون أني أتمتع بعطلة أعياد الميلاد. لكن لا أعرف، وأشك أن أحداً يسأل أين أنا، لأنه لا أحد يفكر بي وربما لا يفكرون حتى، أنني تمكنتُ من الاختفاء. الحقيقة أن الحياة تسير من دوني كما هي. يوماً بعد آخر يتضح لي أن محاولة تقليد مأثرة أجاثا كريستي (هذه الأحد عشر يوماً التي بحثوا فيها حتى تم العثور عليها في نهايتها) انتهت بغرقي كلياً، لأنها كشفت عن الأكثر أهمية وإثارة للشفقة لحقيقة حياتي: لا أحد يودني (الود العميق، الوحيد الذي أحسب له حساباً) أنا الكائن الزائد عن الحاجة، الذي أكثر ما يُستغنى عنه على وجه الأرض.

لا أحد يبحث عني، وأنا انتقاماً، لا أبحث عن أحد. ولا أستبعد أن أتعثر ذات يوم مع واحد من دزينة الأشخاص الذين بالكاد أعرفهم هنا في باريس، وربما مع شخص من دار النشر الفرنسية (لم تكن لديّ أية فكرة أفضل من الاختباء في فندق اعتاد التردد عليه أشخاص من دار نشر كريستيان بورغويس، لأسباب تخص عملهم) وبذلك يقضى على مناورتي في الاختباء. اكتشفتُ البارحة، بعد وصولي إلى هذه المدينة ودون الخوض فيها بعد، احتمالية أن يمر بهذا الفندق، في وقت أقرب مما توقعت، أحد الذين يعملون مع دار النشر الفرنسية التي أتعامل معها، وربما كريستيان بورغويس نفسه. وخرجتُ لأتجول قليلاً في باريس. رأيت على إحدى واجهات مكتبة «كومبانييه» إعلاناً عن حفل توقيع أنطونيو لوبو أنتونيس، غداً، مما يعني أن الكاتب البرتغالي يتعامل مع دار نشر كريستيان بورغويس أيضاً، ويُقيم في فندق السويد ذاته، وعلى هذا الأساس، من الممكن أن ألتقي معه في أية لحظة، أو مع أحد موظفي دار النشر. وتحسباً لأية عثرة غير مرغوب بها، لم أخرج من غرفتي بقية اليوم، على الرغم من سيطرتي البصرية التامة على مدخل الفندق من نافذتي. عند الساعة الرابعة بعد الظهر، استطعت أن أشهد وصول لوبو أنتونيس يترجل من سيارة الأجرة. كان وحده، وأنا أعلم أنه لا يعرفني. قلتُ لنفسي حتى لو التقيتُ به في الصالة، فلا خطر في ذلك على وضع اختفائي.

في أعماقي، شعرتُ بلذة كبيرة في أن أكون في حالة يقظة دائمة خشية أن أُكتَشَف. وهكذا، إضافة إلى الكتابة، كانت تدور في رأسي مشاغل عديدة.

لابد أن آخذ بنظر الاعتبار أن الأيام أصبحت طويلة جداً بالنسبة إلي، ولا أحد قادر على أن يملأها بالكامل بمتعة الكتابة الشخصية فقط. ما زلتُ كاتباً، على الرغم من كوني الآن «آخر»، لكني حالياً دكتور حصيف في الطب النفسي: الدكتور باسافنتو. وبانسحابي المؤقت من عملي، ازداد ولعي بالكتابة، التي أمارسها، في كل الحالات، على أنها نشاط شخصي بحت وخاص جداً.

وعدتُ، افتراضياً، إلى نابولي. بعد أن رويتُ لنفسي قصة رحلتي في القطار والاختفاء اللاحق في إشبيلية، ولأنه لم يكن لديّ ما أقوم به، أتذكر أنني شرعتُ في قراءة *«الهروب دون هدف»* لجوزيف روث، التي كانت من ضمن الروايات التي عبّأت بها حقيبتي الحمراء التي ورثتها عن جدتي. عثرتُ على رواية روث أثناء مروري بشقة برشلونة، بين أكوام الروايات التي اشتريتها منذ وقت قريب ولم أتصفحها حتى الآن. حين انطبع في ذاكرتي الكتاب الذي كان يتدلى من جيب المسافر ذي البدلة المخططة، لم أتردد في إدراجه ضمن الكتب التي سأنقلها في حقيبتي المرافقة لي أثناء رحلة «التخفي». ظننتُ أنه لا بأس من معرفة ما كان يقرأه الرجل الذي انتحل شخصيتي. ثم إن روث كان يعجبني كثيراً.

الحقيقة أنني قرأت الكتاب في ذلك اليوم في نابولي، دفعة واحدة. وأكثر ما شدّ انتباهي، هو روايته لشخصية كانت تعيش *«تخفيها»* بطريقة صادمة، تختلف تماماً عمَّا كنت أعيشه أنا. كان التخفي بالنسبة لبطل هذه الرواية، مأساة حقيقية. أما أنا، فليس كثيراً. بعد كل شيء، كنتُ أنا شخصياً مَن يسعى لكي أكون *«متخفياً»*. تتحدث رواية روث عن الضابط النمساوي الشاب توندا، الذي ظل يعيش، بعد أسره، بهوّية مزورة طوال فترة الثورة الروسية. مع كل ذلك، كان ثمة شيء يحثه على البحث عن شخصيته المفقودة في وطنه القديم. حين يكون هناك، في وطنه، سيتوجب عليه أن يتقبل أنه أصبح يُدعى بـ*«المتخفي»* في المصطلح البيروقراطي. كان يُعامل باحترام وألفة، تُشبه تلك التي تُمنح للأشياء الصغيرة المُنتزعة من سياقها القديم، لأن أوروبا بدأ يحكمها نظام سياسي وأخلاقي جديد، مثلما حدث معه شخصياً، حين أصبح وطنه في عداد المختفين.

كانت الرواية تتحدث عن الرحلة غير المنتظمة لهذا *«المتخفي»*، رحلة

مهدت له، بطريقة محتومة، العثور على ذاته. وانتهت هكذا «في تلك اللحظة، رأيت صديقي فرانس توندا الذي يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، مُعافى ومتيقظاً، شاباً قوياً يتوقد ذكاءً. كان في الساحة أمام «المادلين»، وسط عاصمة العالم، ولم يكن يعرف ما يفعل. لم تكن لديه وظيفة، ولا حب، ولا بهجة، ولا أمل، ولا طموح، ولا أنانية حتى. لم يكن أحد في العالم مركوناً على رفوف التهميش، مثله».

بانتهاء قراءة الرواية، اتخذتُ قراراً راسخاً في القيام بجولة، والظهور مرة ثانية في العالم، حتى لو كانت خجولة. وسرعان ما غادرتُ، بعد أربعة أيام من السجن، «حجرة الكتّاب أو الأرواح» وشرعت أنزل سلالم فندق ترويسي. أسرعتُ نحو «كورسو فيتوريا أمانويل»، في مزاج رائق غير مُتوقع. كنتُ أبدو تقريباً، واحداً من هؤلاء الصبيان النابضين بالحياة، الذين رأيتهم يلعبون أمام بوابة الفندق عند وصولي قبل أربعة أيام.

بدا لي عالم الصباح الممتد أمام ناظري، جميلاً جداً، كأنني أبصره للمرة الأولى. بدأت باكتشاف خجول لما حولي دون أن أقرر النزول ماشياً نحو المدينة. نظرتُ إلى الحديقة التي كانت مُزهرة قديماً، لفندق «بريطانيا» الكبير الذي كان إلى جانبي، وقد تحولت بعد إهمالها إلى بستان بري على نحو ملحوظ. ثم نقلت بصري، ممتعضاً، إلى السجادة الحمراء لمدخل هذا الفندق وقارنتها مع سجادة فندق ترويسي الأنيق، وأيقنتُ عن قناعة أنه ليس هناك أي وجه للمقارنة. ثم، كما لو كنتُ ندمتُ، قررت أن أعود أدراجي إلى غرفتي وكنتُ على وشك أن أفعل ذلك لولا القوة الغامضة التي جعلتني في نهاية الأمر مشلولاً أمام موظف الاستقبال الذي كنتُ سأطلب مفتاح غرفتي منه. ولكي لا يلاحظ تغيير رأيي في اللحظة الأخيرة، سألته إن كانت هناك خطابات لي. «كلا، دكتور باسافنتو»، أجابني دون أن يزعج نفسه حتى بالنظر إلى خزانة الرسائل. تصرف كأنه كان يعرف جيداً لا مبالاة العالم بي.

خرجتُ إلى الشارع مرة ثانية، مرتاحاً، وكنت على وشك التوجه إلى موقف سيارات الأجرة، لكني تصرفتُ مثلما فعلتُ قبل أربعة أيام في محطة إشبيلية، أي أني واصلتُ مسيري مُتجاوزاً الموقف. وسرعان ما اتخذت طريقاً مختصراً بين الحدائق لأنزل إلى مدينة نابولي. ولاحظتُ أثناء نزولي، امرأة

ترتدي تنورة مفتوحة عند الفخذين. وأعتقد أني اكتشفت أن المكان الأكثر إثارة للجسم، كان هناك، حيث تُفتح الملابس. كان بيني وبين الانعكاس الأبله، خطوة واحدة فقط، وخطوتها. وقدرتُ أن التقاطع هو الأكثر إثارة في الوجود: تقاطع الجلد الذي يتلظى شرارة بين قطعتي قماش، على سبيل المثال. وخطوت خطوة ثانية ناحية جنة الأفكار الحمقاء، حين فكرتُ أن هذه الشرارة كانت تمثيلاً واضحاً لقصر الحياة: مشهد الظهور- الاختفاء.

بقيتُ مُشتتاً بعد أن فكرتُ في حماقات مُشابهة (كانت تشي على نحو مأساوي بأني لم أتحرر بالكامل من شخصيتي السابقة). واصلت مسيري. كنتُ أدخل شيئاً فشيئاً مركز هذه المدينة الرائعة التي لا تنقطع فيها أفواج غفيرة من الناس عن المشي يومياً ليل نهار. لم أرَ مثل هذه الأعداد من الناس كما رأيت في نابولي، خاصة في شارع توليدو وكورسو كاريبالدي، الشريانين الرئيسين للمدينة. يتولد لدى المرء انطباع عند رؤيته لهذه الشوارع مطابقاً لما قاله زميلي الدكتور لويس فرديناند ثلينا: «موجات مستمرة لكائنات عديمة النفع تأتي من عمق الزمن لتموت دون انقطاع أمامنا، لكننا مع ذلك، ما زلنا هناك نترقب أشياء...».

واصلت السير حتى وصلتُ إلى «الدوما»، مكان لم تطأه قدماي مطلقاً في السنوات التي قضيتها في هذه المدينة. لم أستطع أن أمنع نفسي من الاعتقاد بأن الكاتدرائية، في مناسبة كهذه، ومثلما حدث لي في إشبيلية، ستكون فارغة تقريباً. وبالفعل كان ثمة شيء غريب جداً فيها. لم أشاهد الخرافي سان جينارو في أي ركن منها. سألت الصبية التي كانت تبيع بطاقات بريدية عند المدخل، حول اختفاء القديس، فقالت لي بصوت منخفض إن القديس خلف المذبح، محفوظ داخل صندوق قوي.

تأثرتُ لكون القديس في موضع مجهول تقريباً، يعيش مغامرة قريبة جداً من مغامرتي. أما الكاتدرائية الخالية من الأبرشيات نوعاً ما، فعادت لتذكرني ثانية بالرسالة التي كنتُ قد فكرتُ بها في كاتدرائية إشبيلية. ثم تناهى إلى عقلي، خلو دواخل الكنائس من لوحات الرسام الهولندي ساينردام، فنان غير معروف جيداً، لكنه في الواقع مثير للاهتمام من وجهة نظر أدبية، مثل فيرمير الشهير. تشكل لوحات ساينردام جزءاً من تاريخ الذاتية من مونتين

إلى بلانشوت، وتعتبر اليوم تجسيداً لأسطورة القرن السابع عشر حول «اختفاء الإنسان»، وليست نسخة من الواقع.

ذهبت إلى كنيسة جيسو نويفو، ولم يكن هناك أحد أيضاً سوى الصمت المختمر الثقيل منذ زمن لا يعلمه إلا الله. بقيتُ جالساً لبعض الوقت على إحدى المصاطب، منهمكاً في متعتي المعتادة في استحضار الأهداف المهمة في تاريخ كرة القدم، وخصوصاً أهداف مارادونا، اللاعب الذي وجد هلاكه في نابولي. ثم خرجتُ من هذه الكنيسة وسرتُ نحو كنيسة القديسة مارتا الخالية من الرواد أيضاً، وكذلك سان دومنيكو ماكيوري. لا أحد سوى أشخاص قليلين جداً في الداخل المُقفر. كل معابد نابولي الدينية، كانت خالية تقريباً. بدا كأن هناك معجزة عكسية. في سان دومنيكو تساءلت ما الذي ستكون عليه كنائس العالم في اليوم الذي تنتفي الحاجة إليها. هل الخرافة والإيمان، كان يجب أن يموتا؟ وكيف يمشي الموتى؟ سألت نفسي وما زلتُ أسألها، وأعتقد أني قادر على إجابة سؤال مشي الموتى، لأني رأيت أكثر من واحد في شوارع نابولي. ولكي أبدأ بنفسي، شرعتُ في السير دون توقف، فكنتُ أرى بين الفينة والأخرى، نفسي على إحدى العارضات وكنت أرى ميتاً يمشي.

أية شخصية تأمل أن تكونها؟ مثل نسخة هزيلة من أجاثا كريستي التي لا أحد يبحث عنها، سرتُ لساعات عديدة في نابولي دون هدف، مُلتفاً حول نفسي على نحو لا إرادي. اعتقدتُ في لحظة ما، وأفترض أنها بسبب الإعياء، أني أرى والدي الميت يسير في الشوارع. وهذا ما حثني على الإسراع في المسير، وأنا على وشك أن أُصاب بالدوار. نعم، ظننتُ أني كنتُ أرى أبي. كان يرتدي فوق رأسه قبعة من اللباد، مُتأبطاً مظلة مطرية، يمشي على وتيرة واحدة أمامي بقليل. لكن في اللحظة التي حاولتُ فيها أن أتجاوزه، استدار نحو أحد أزقة كوارتيره إسبانيولي، وحين وصلتُ إلى الزاوية، لم أعد أرى له أي أثر. كان هناك في الزاوية، بائع دبابيس ذهبية. عرضها عليّ بهمس، مرعوباً أكثر منه وجلاً، كأنه كان يتكلم من أعماق إحدى الوهدات. «محابس ذهبية. الأفضل في نابولي. محابس». كان الرجل ميتاً في الحياة، بقبعته السوداء، وعظامه الناتئة جداً، وعينيه الغائرتين ووجهه الشاحب جداً.

جلستُ في مقهى كامبرينوس الأنيق وطلبتُ كأساً. خلتُ أن الندل لن يقتربوا مني مأخوذين بمظهري المُتعب بسبب المشي الطويل. لكني سرعان ما تنبهت إلى وجود زبائن في كامبرينوس أكثر جنوناً مني، واستنتجت ذلك حين رأيت المعاملة الرائعة التي تلقيتها من أحد الندل الذين سرّهم وجودي على ما يبدو، بسبب هوسي الأصغر، حسبما تخيلت، وجنوني الصغير مقارنة مع جنون الكثير من الزبائن المخمورين الذين كانوا هناك. تناولتُ كأسي محدقاً في النساء اللواتي كن في الداخل، وانتقيتُ أكثرهن إثارة وبدأت أتخيل أني أمارس معها أشياء كبيرة على السرير. لكن عندما نهضت المرأة وغادرت، غادرت بطريقة كأنها كانت ممتعضة مني. لا أنكر أني كنتُ قليل الثقة بالنساء. هذا الإحساس راودني منذ زمن ولا أعرف كيف أجد مخرجاً لهذه المشكلة. كنتُ ضحية ذاكرتي المفرطة التي لم تسعفني في التخلص من ذكرى زوجتي التي هجرتني قبل أقل من سنة، من أجل رجل آخر ذهبت معه سعيدة، إلى ماليبو كاليفورنيا. كانت هذه الذكرى، تؤرقني أحياناً. من الغباء أن أعاني لأجل ذلك، لأني كرهتها في نهاية الأمر، وكان يجب أن أفرح في تلك اللحظة لأنها غادرتني. مع ذلك، حين حدث ما حدث، لا أستطيع أن أقول إنه أسعدني كثيراً، ربما بسبب الدهشة التي أخذتني على غير المتوقع، بعد أن كنتُ أظن أن العكس سيكون، وأنني أنا مَن سوف يهجرها. الحقيقة أن اختفاءها كان ضربة خفيفة لي.

في محاولة لوضع حل لهذا كله، وتجنباً لهذا الإخفاق المتواضع، بدأت أفكّر في الدكتور باسافنتو وكأن هذا الرجل لم يكن أنا، بل شخصية مُختَرعة. سيكون هذا الطبيب رجلاً جديداً، يحمل نفس «الوعي كونه متفرداً» مثلما كنتُ عليه أنا من قبل، حين كانوا يدعونني أندريس باسافنتو، مع مراعاة سيرته الأدبية البسيطة إن لم نقل الملغية، في حالته الجديدة هذه. هل يجب أن أفكّر بواحدة له؟ على أية حال، كنتُ أعرف القليل جداً عنه، وعلى علم بحاضره: كان الدكتور باسافنتو الذي ظهر حديثاً في العالم، رجلاً يشعر بأنه مختفٍ تواً، أو «منفصل».

الحفاظ على كينونته مُبعداً، ستكون السمة الضمنية لجميع لحظات الدكتور باسافنتو منذ ذلك الحين. لحظات سيتحرك فيها داخل عزلة تلك

الغرفة الغارقة في الضوء الرصاصي، للفندق النابولي الذي كان يؤوي بكل احترام رجلاً أصبح دون ماضٍ. من حيث الجوهر، كان قد تحول إلى كائن خارج كل شيء، ولا أحد يتابع عمله العشوائي غير الملموس سواي. لكن أي عمل؟ ما الذي يجب أن يقوم به الآن بعد أن تبخّر؟ انطلاقاً من كونه كاتباً (بعد أن روى قصة اختفائه، صار يجهل ما الذي سيكتبه، كمؤلف مختفٍ) ربما يتوجب عليه البدء في التفكير في إنشاء سيرة ذاتية افتراضية. لم يكن ليستطيع، دون شك، أن يكون فرد دون طفولة ولا شباب لفترة طويلة. إذا استمر هكذا، من المحتمل أن يتحول إلى كائن ضعيف للغاية وينتهي به المطاف إلى نفس الكائن الذي كان عليه. على أقل تقدير لابد من البحث عن والدين مغايرين، أكثر حكمة وبهجة، ولم يموتا انتحاراً في ميتة مأساوية في نهر هيدسون. ولمَ لا، كان يجب أن يبحث عن امرأة لم تهجره. عليه أن يفكر، على سبيل المثال، في أخرى شقراء، يهرب معها هو أيضاً إلى ماليبو كاليفورنيا، انتقاماً من زوجته.

عبثاً كنت أشجع نفسي. وفي النهاية أيقنتُ أنني كنتُ قد بالغتُ في رؤية الدكتور باسافنتو من الخارج فقط، وسيكون من الأفضل الاستدارة والعودة إلى الفندق. كنت بحاجة إلى معاودة رؤية الحديقة المُهملة، والبحر والجرف لأشعر من جديد بأني «منفصل» عن العالم، إلى الزمن الذي أعاود فيه الاتصال مع المواضيع التي كثيراً ما كانت تشغل تفكيري: الوحدة، الجنون، الصمت، الحرية وكذلك الاحتيال وفكرة السفر وضياع الأوطان، الموت، الاختفاء، الهوة والحزن الجميل.

نعم، إنها نفس مواضيعي في الآونة الأخيرة. لمَ لا؟ لابد من تغيير الحياة والعمل، لكن دون قفزات كبيرة. سأفعلها بالتأني الذي يتطلبه تغيير تلك الخصائص. وفجأة، بعد رحلة ذهنية مختصرة، ودون أن أدري كيف حدث ذلك، وبسبب انهماكي لساعات طويلة مع الشبح الذي كنته طوال اليوم، استطعت أن أنتهي من كتابة مقالة مقتضبة حول مستقبل أعمال كافكا. كان واحداً من المؤلفين المفضلين لديّ، ويجب ألّا نغفل أنه كان قد اعتنق بشدة موضوع الاختفاء، وفعله على سبيل المثال في روايته «*أمريكا*» (كان ماكس برود قد وضع العنوان على نحو استبدادي)، الرواية التي كان يجب أن يُطلق عليها حقاً، «*المختفي*»، أو لنقل ربما بترجمة حرفية أكثر، «*الشخص*

المختفي». سوف أربط الغياب العجيب لله في نابولي المتدينة مع مصير أدب كافكا. قلت لنفسي ذلك، لكني بعد أن عدتُ تواً إلى غرفتي في الفندق، عدلتُ نهائياً عن كتابة مقالة حول مستقبل شخص آخر لم يكن أنا (تحديداً أنا الذي لم يكن لدي مستقبل). درتُ في غرفتي دون أن أعرف ما الذي يجب أن أفعله. فجأة تبادر إلى ذهني الاختفاء الغامض للفيزيائي العظيم، أيتوري ماجورانا في الحرب العالمية الثانية. كان ماجورانا قد صاغ قبل صديقه الحميم هايسنبرغ، نظرية نواة الذرة المكونة من بروتونات ونيترونات. وبعد أن أدرك أنه بعمله هذا، قد قام بصنع القنبلة الذرية، غادر نابولي وبادر إلى كتابة رسالتين تعلنان عن نيته في الانتحار. أخذ جواز سفره وكل ما يمتلك من نقود، وركب إلى باليرمو. لكن ما إن وصل إلى صقلية، حتى أرسل برقية يعلن فيها عن عودته. ولم يره أحد بعد ذلك. فُقد بين باليرمو ونابولي. ولا أحد يعرف إن كان قد اُختطف أو أنه فضّل أن يختفي (هروب من العالم) أو اختبأ في دير كما تشير وثائق أحد رجال الدين.

بعد أن تذكرتُ أيتوري ماجورانا، شعرتُ مجدداً بنداء الشارع الذي عدتُ منه للتو. لم يكن لدي شيء لأكتب عنه، ولا أية رغبة في القراءة. بدوت كأني ماجورانا آخر وصل حديثاً إلى باليرمو تحدوه الرغبة في العودة إلى شوارع نابولي. وعلى الرغم من دخولي الغرفة تواً، قررتُ الخروج مجدداً. نزلتُ ثانية عبر السلالم، ومررت أمام البواب محاولاً أن أظهر بوجه فيزيائي نووي منهمك في مخاوفه، جرّاء مكالمة هاتفية مهمة جداً جاءته من الخارج وكان عليه أن يخرج مجدداً. حييتُ البواب بشكل رسمي وخرجت. وصلتُ إلى كورسو فيتوريا أمانويل مبتعداً من جديد عن موقف سيارات الأجرة، ثم سلكتُ الدروب بين الحدائق نازلاً باتجاه مركز نابولي. كنتُ أتجول بين شوارعها مرة أخرى دون هدف ولفترة طويلة. وبدأت أتشبه بهؤلاء المشردين الذين يتسكعون داخل المدينة عدة مرات يومياً، ويرسمون بخطاهم المُشرّدة دوائر حول أنفسهم.

هل تخطط لأن تظل تسير بقية حياتك؟ لم تكن فكرة سيئة أيضاً، على الرغم أنها لا تبدو صائبة نوعاً ما. كنتُ أمشي في الشوارع الضيقة لكوارتيره إسبانيولي، على ضوء المساء، مُلقياً نظرة متأنية على واجهات المحال

التي كانت تعرض جميعها تماثيل صغيرة لأعياد الميلاد إضافة إلى تماثيل مُصغرة للممثل النابوليني توتو. حين كنتُ أعيش في تلك المدينة قبل خمسة عشر عاماً، كانت تماثيل العبقري الهزيل تختلط مع تماثيل لاعب كرة القدم مارادونا، الذي يبدو أنه اختفى الآن من المشهد العام لنابولي. كان، مثل سان جينارو وايتوري ماجورانا، أحد الذين اختفوا من هذه المدينة التي يبدو أنها ستجد نفسها ذات يوم، دون آلهتها القديمة.

كما أن فكرة المشي ورؤية الأشياء لم تكن سيئة، إذ يتخللها بين فترة وأخرى، الجلوس في أحد المقاهي التي كنت أتوقع من ندلها المهذبين، أن يعاملوني، لبقية حياتي، كشخص عاقل. وبدأت أشعر كأنني صديق يتجول ويقطع فراسخ وفراسخ خلال أيام كاملة، رغم أني كنتُ واثقاً من عدم قدرتي على التحول إلى هذا النوع من المشّائين حين يصبح الأمر واقعاً. على أية حال، تجولتُ اليوم كثيراً حتى هدّني الإعياء وحال بيني وبين الاستمرار. ودخلتُ بعدئذ، إلى مقهى سان جينارو الذي كان يغص بأيقونات القديس ويخلو من الزبائن. كان فارغاً تماماً. أرعبني الغياب المطلق للرعية، لكني كنتُ خائفاً أيضاً من فكرة الاستدارة ومغادرتها، بحيث جلستُ في عمق الصالة الكبيرة وندمتُ على عدم حملي لصحيفة أو كتاب، شيء ألجأ إليه. تحملتُ لثوانٍ نظرات الاستغراب التي كان يلقيها عليّ الندل كبار السن، الطاعنون في السن. لماذا كان هؤلاء النُدل أو بدوا طاعنين في السن؟ أهو نوع من اللطف، أي، ليجعلوني اعتقد أني أصغر من سني الحقيقي؟ ربما يكونون ندلاً على درجة من الثقافة؟ طلبتُ نبيذاً، بوقار. جعلوني أردّد طلبي، كأنهم لم يسمعوه أو ربما أرادوا أن يسخروا من تصنعي. بينما كنت أنتظر أن يأتوا إليّ بالعصير، فكرتُ في الغياب الثقيل لنصف عام، للكاتب روبرتو بولانيو الذي كان قد اجتمع في نهاية شهر حزيران، مع كتّاب أمريكا الجنوبية في دير لا كارتوخا في إشبيلية، قبل ثلاثة أسابيع من موته.

-2-

بعد يوم الكنائس الفارغة والنبيذ البائس لمقهى سان جينارو، استيقظت متوتراً في اليوم التالي والعرق يتصبب مني كثيراً. كنتُ قد حلمتُ، بسبب

طريقتي الشخصية في كشف الواقع (متقدماً في الفراغ)، وعدم وجود تيار هواء بغرفتي الباردة في فندق نابولي، بأن هذه الغرفة تحولت إلى قعر مظلم وساخن لنهر هيدسون عند مروره عبر نيويورك، حيث كنت أصفع والديّ الميتين غرقاً، بتصرف لا يليق بابن. استيقظت وما زال أمامي فماهما ممزقين ومشوهين بسبب المرارة التي كانت وراءها الصفعة الهمجية والمائية. تنفستُ الصعداء وارتحتُ، دون شك، حين استيقظت وأدركت أن ذلك كله لم تكن لي به علاقة، وحتى والداي لم يكونا والديّ، أنا الدكتور باسافنتو، الاختصاصي في الطب النفسي والكاتب المتخفي. مكتبة .. سُر مَن قرأ

بتُ على يقين أنني لم أتحسن قط، بل على الأقل كان أحداً غيري. حلقت ذقني بالآلة القديمة التي صدئ نصفها وفكرتُ في شراء واحدة أخرى جديدة، ومظلة لدنة أمام وعيد المطر. على الدكتور باسافنتو أن يكون دائماً واثقاً جداً من نفسه، وألا يبتلّ تحت المطر كأي إنسان عادي محروم. كنت أفكّر كيف أملأ يومي الجديد؟ وحول ماذا كنت أفكّر أن أكتب، هناك في نابولي، بعد أن كنت رويتُ قصة اختفائي، حكاية مهمة لأنها تشمل سرد اللحظة الأساسية في حياتي، هناك في محطة سانتا خوستا في إشبيلية؟ هل كانت فكرة اللجوء إلى حقيبتي والانهماك في قراءة كتاب تلو آخر، فكرة مثيرة؟ أو كان من المتعة، الولوج ثانية إلى الشارع، والدخول مرة أخرى في الزحام، وضوضاء صياح سكان نابولي، الصخب الحيوي لهذه المدينة؟ أو كنت أفكّر في الرجوع إلى السرير وانتظار الظهيرة من أجل تناول الغداء، مرة أخرى، في مطعم الفندق التافه؟ كم مرة تناولت وجبة عشائي في مطعم تراوسي الممل؟ هل كنتُ انتظر فعلاً فكرة الجولة عبر كل المدينة من دون وجهة، من جديد؟ لمَ لا؟ إن ما نقوم به في الواقع حين نتمشى عبر المدينة، هو التفكير. ربما لم يكن يليق بي التفكير، الانكباب على الابتكار أو، بالأحرى، تحسين ماضيّ؟

تذكرتُ الأيام التي كنتُ أشاهد فيها أفلامي المفضلة التي غالباً ما يكون بطلها كاتباً، وخطر ببالي واحدٌ كان يروي قصة كاتب لا يمتلك مالاً، وعثر على مكان مثالي للكتابة، وهو صالة الآلة الكاتبة في سرداب مكتبة جامعة أوستين. كانت في الصفوف المرتبة هناك، اثنتا عشرة آلة قديمة نوع

ريمينكتون وإنديروود، كانت تستأجر بعشرة سنتيمات لنصف ساعة. أدخل الكاتب النقود فيما كانت الساعة تعلن عن تكتكتها المجنونة. انكب على الكتابة مثل متوحش من أجل إنهاء قصته قبل انتهاء الوقت.

الأمر بالنسبة إلي الآن، مغاير، إذ كان لديّ الكثير من الوقت دائماً. قررت أن أترك ما كنتُ أقوم به للحظ. ووقع الاختيار على رهان الخروج إلى الشارع الذي قدمت منه، والمشي ثانية بين سكان نابولي ومحاولة معرفة النوع البشري أكثر. معرفته؟ رباه، فكرت. وضحكتُ باحتقار وسخرية من النوع البشري. لكني سرعان ما انضممت إلى الجموع التي كانت تملأ شوارع وساحات نابولي، تاركةً الكنائس فارغة، حسب ما بدا لي. جلستُ في أحد مقاهي ساحة بيليني وهناك شرعتُ أنظر إلى كل المارة، كما لو أنني كنت أوسع معلوماتي، خاصة فيما يتعلق بالنوع البشري. وحدث شيء، كنت قد تكهنتُ بطريقة ما، أنه سوف يحدث لي، وصار فعلاً. اكتشفت في الزحام، أحد الذين كنتُ أعرفهم خلال السنوات التي عشتها في هذه المدينة. كانت ليونور، تسير بخطى ذات إيقاع جميل. تعرفتُ إليها عاجلاً. كانت متغيرة نوعاً ما، ولكنها هي. خمسة عشر عاماً مرت منذ أن رأيتها آخر مرة. لكن لم يكن لدي أدنى شك في أنها كانت هي، تلك الفتاة المتحمسة اليافعة من بلد الوليد، التي تشتغل في استعلامات معهد سرفانتس في نابولي عندما كنت أعمل أستاذاً هناك. ورغم المودة التي كانت بيننا فإنها تركتني (كانت تخشى في قرارة نفسها من زوجتي، وتخاف أن تكتشف هذه الأخيرة أمرنا) من أجل مورانتي، أستاذ آخر في المركز، عالم وسيم في الخمسين من العمر، ولو أن ذاكرته وصحته العقلية كانتا غير مستقرتين. عندما غادرت نابولي، كنت فقدت كل اتصال بتلك الفتاة ذات النظرات والإدراك الغائمين دائماً، رغم أنها كانت تملكُ حدساً غامضاً وعبقرياً في بعض الأحيان. سمعتهم يقولون إنها تزوجت من صيدلاني من بوسيتانو وإنها بقيت تعيش في نابولي، لكن لم أكن أعرف شيئاً آخر عن ليونور، ولا حتى سألت عن ذلك مطلقاً، على عكس ما كان يحدث مع البروفيسور مورانتي الذي كان مصيره يثير فضولي.

تذكرت تلك اللحظة، التي بدأت ليونور تخرج مع ريكاردو مورانتي.

وقرر جميع مَن في العمل أن ينادوها ليونيسا، ولم أفهم السبب في بداية الأمر. «ريكاردو وليونيسا»، كانوا يقولون إنهما بطلا إحدى قصص معهد سرفانتس. أنا فضلت الاستمرار في مناداتها ليونور. لم أكن أراها مثل ليونيسا ولا مثل ليونور، كنت أراها مثل ظل من الماضي يجتاز بإيقاع جميل ساحة بيليني. هل ما تزال مستمرة بالعمل في المعهد؟ كان قد مر وقت طويل حتى أصبح ذلك محتملاً. من المؤكد أنها كانت تشتغل بصيدلية زوجها أو أنها كانت تهتم بتربية الأبناء، لابد أن يكون لديها عدة أبناء. كانت ما تزال جميلة، لكنها لم تكن في بهائها السابق. كانت ترتدي ملابس عادية. قلت في نفسي ربما كان زوجها، الصيدلاني، لا يمتلك موارد مادية كافية. كنت أعرف نماذج كثيرة من الناس الذين ما إن يتزوجوا حتى يتدنى كل شيء. ولكن أن أفكّر بها على هذه الطريقة، ليس من الضروري أن تكون له علاقة مع أي نوع من الانتقام. لم أكن قد حقدتُ على ليونور، على الرغم من أنها تخلت عني. بعد كل شيء، تركتني بطريقة لائقة، طريقة مختلفة تماماً عن تلك التي تخلت فيها عني زوجتي بعد سنوات.

كنت دائماً أغفر لليونور ارتباطها بالهَرِم مورانتي. ما الذي يُجنى من هذا الرجل المثالي الذي كان يمجّد اعتقاد البعض بأن الذكاء، طفرة أخلاقية؟ ما الذي سيُكتسب من هذا المتقلب مورانتي؟ كنتُ على ما يرام معه. كان رجلاً يبدو كأنه قرأ كل الكتب، بروفيسور داخل وخارج المعهد، رجلاً ذا شخصية مهمة، لكنه، مع الأسف، كان يسيء التصرف بسبب الغيابات المفاجئة للذاكرة والحفر النفسية العميقة. كنتُ دائماً معجباً به. ظل مورانتي يسكن ذاكرتي رغم مرور السنين.

اجتازت ليونور الساحة برشاقة كبيرة استمرت لدقائق قليلة كنت عاجزاً فيها عن القيام بردة فعل على جميع الاتجاهات. بقيت متسائلاً حول ما كان يمكن أن يحدث، إذا ما أوقفتها وذهبنا معاً لزيارة معهد سرفانتس. من المؤكد أنني ما كنتُ سألتقي بأحد من الذين كانوا معي في المعهد، أو من الذين ما يزالون فيه، ومن الممكن أن ينظروا إليّ مثل شبح. وشعرتُ أخيراً بنوع من الراحة لأني لم أعترض خطاها في الساحة. ولكني ما فتئتُ أعيش هذا الإحساس عندما قطعتْ ساحة بيليني مرة ثانية، على حين غرة، وبالاتجاه

المعاكس، وفي هذه المرة بدا أنها كانت تنظر إلى شرفة المقهى الخارجية حيث أجلس أنا، ورأيت نفسي حينئذٍ عرضة للصيد وظاهراً للجميع.

ظلت تنظر في الاتجاه الذي كنتُ أجلس فيه، غير مُصدقة. اقتربت ببطء ونادتني باسمي السابق، قالت أندريس. «إنه أنت، أليس كذلك؟»، سألت بعفوية، كما لو أننا كنا رأينا بعضنا آخر مرة قبل ساعات قليلة. «لا»، أجبتها. «آه»، قالت وضحكت. بما أنني اعتدتُ أن أقرأ ابتسامتها، رأيت أن إدراكها ما يزال ضبابياً كما في الزمن الجميل. «أنا هو، ولكن لستُ هو»، أجبت. عادت لتبتسم. بدت سعيدة لرؤيتي، وأنا في قرارة نفسي، أحسست أني سعيد للحديث مع أحد بعد أن قضيتُ أربعة أيام من حياتي ضائعاً.

جلستْ دون أن أدعوها إلى ذلك، وسألتني عمّا أفعله بنابولي. كنت أعتقد أنها ترتدي ثياباً أسوأ مما ظننت. كنت أفكّر في الجواب حين قالت: «هل أنت في رحلة سياحة هنا؟» لا أعرف. دُعيت من معهد سرفانتس، أليس كذلك؟» توقفت ثم تابعتْ: «هل قدمتَ مع زوجتك؟» لم أكن أعرف ما أقول لها. هل قلتُ الكثير حين أخبرتها أنني هو؟ «لاحظت أنه لا أحد هنا من زملائنا» ، تابعت هي، «ومن المؤكد أنك أحسست بالغربة كثيراً. ولكن كان ممتعاً أن تعود إلى هنا ككاتب. أنت الآن شخص يجب التعامل معه بإعجاب. أليس كذلك؟ هل رواياتك جميلة جداً؟» . «لستُ أحداً» ، قلت مصراً. ضحكتْ معتقدة أنني ببساطة أمزح. أدركت في الحال أنه سيكون صعباً جداً عليّ أن أكون لا أحد في يوم ما (هكذا بأحرف كبيرة) وإن حصل ونلته، فسيكون الطريق في كل الأحوال طويلاً. لم أكن أندريس، ولا أحد، كنتُ الدكتور باسافنتو. «استبدلت الآداب بالطب» ، أجبتها دون أن أحرّك أية عضلة من وجهي. وعادت لتسأل إذا ما كنت في نابولي مع زوجتي. «الحقيقة أنني كذبت عليكم جميعاً في تلك الأيام، كذبت عليكم حين قلت إنني متزوج» ، أجبتها.

لا أدري حتى الآن لمَ زورت حقيقة كهذه. ظلت ترمقني مستغربة بما فيه الكفاية، دون أن تفهم شيئاً. أدركت أنها كانت تنتظر المزيد. «انفصلنا، بعد عودتنا إلى برشلونة. وبقيت ابنتنا نورا معها. في الحقيقة أن أقل شيء كان يمكنني تحمله من زوجتي هو إصرارها على القول إننا كنا متزوجين».

«آه، أكمل»، قالت ليونور، «أنتَ تمزح معي كالعادة؟». بدا وجهي متكلفاً. «قبل السفر إلى نابولي، كنتُ نادراً ما أتكلّم معها. ثم جئنا إلى هنا، وأخبرنا الجميع أننا كنا متزوجين، وأعتقد أننا أنفسنا لم نصدق الكذبة، لأننا لم نعد نتكلم مع بعضنا قط، كزوجين حقيقيين». لاحظت أن ليونور لم تكن مقتنعة بتاتاً بأن ما أقوله كان صحيحاً. «أسوأ ما في الأمر»، تابعتُ بغير تأثر، «أنها كانت تحب القراءة مثلي، لكنها لم تكن تشتري لنفسها كتباً. كنت أنا شخصياً أحمل كل يوم إلى المنزل روايات من مكتبة المعهد وكانت تختار كل ما لا يعجبني، ليس احتراماً لي، بل للتصرف عكس ما أبغيه».

رأيتُ أن ليونور كانت تبدو كل مرة أكثر قناعةً بأني، كما في السابق، اخترع قصصاً. غيرتُ النغمة. تطرقت إلى شيء كان مع الأسف حقيقياً، وهو وفاة ابنتي نورا. رويتُ لها حكاية البطل، حدثتها عن قساوة المخدرات، وكل هذا صدّقَته فعلاً، ولمست فيه واقعاً. لكني لم أكن أريد أن أتوقف ولو دقيقة حتى أسرد ما هو ضروري في القصة. نظرتُ إلى ليونور بتركيز أكثر مما كان قبل ثوانٍ واكتشفتُ أن طريقة لباسها لم تكن في الواقع سيئة. بل أكثر من ذلك، كانت ترتدي سواراً يبدو من الذهب، وأنه بسبب نظراتي السطحية، لم أرها جيداً في اللحظات الأولى.

«لا تتوقعي»، قلتُ لها، «أنني انزعجتُ لأنك تركتِني من أجل البروفيسور. أتعرفين لماذا؟ كان رجلاً أكن له كل الإعجاب. شخصاً مختلفاً، وعالماً، رغم مشاكله العقلية. أين هو الآن؟». لاحظت أن سؤالي أربكها. ماذا حدث له؟ هل مات مورانتي ولم تتجرأ على إخباري؟ تصرفت كأنها لم تسمع وانعطفت بمسار الحديث نحو الطقس البارد في نابولي، والأمر الفائق للوصف للمواقد الرائعة التي تستعمل للقضاء عليه في أسطح مقاهي تلك المدينة. بعد وقت قصير، حين أدركنا أن لا شيء يجمعنا نحن الاثنين، وأنه من الأفضل أن نعود إلى سابق عهدنا قبل خمسة عشر عاماً، عدتُ أحمل عبئي، وتوقفت عن إظهار اهتمامي من جديد بمكان البروفيسور مورانتي، ومعرفة إن كان ما يزال حياً، وماذا كان من حياته الهشة والذكية. روت لي ليونيور، منحنية الرأس ساخنة الدمع، أن البروفيسور كان يقطن في سكن كامبو دي ريكا، التابع لمركز الصحة العقلية للمدينة، وأنه سيقضي بقية حياته

هناك. كان قد دخل هناك بعد أزمة أكثر حدة من تلك الأزمات التي كنت أنا شخصياً شاهدة عليها، أو بالأحرى، تلك الأزمات العابرة.

في تلك اللحظة، اقتربت منّا فتاة رشيقة وشاحبة -بلباس أخضر لوزي- وأهدتنا مانوليا مع ابتسامة في غاية الجاذبية. لا أرى من اللائق إخفاء الأمر، فكيف يُحتمل أن أخفيه عن نفسي أنا بالذات: ذكرتني بابنتي نورا. أحسست بشيء من الضيق. استبعدتُ هوسي في رؤية الأموات يمشون أحراراً في نابولي. ليونور لم ترها حتى، أو لم ترغب في رؤيتها. كانت فتاة الفستان الأخضر جميلة جداً. «البروفيسور يقيم في كامبو دي ريكا منذ فترة طويلة، أما أنا...»، قالت ليونور بصوت خافت، وبنبرة مُشبعة بألم أربكني في بداية الأمر. بدا من المستحيل الاستمرار في الحديث. «وأنتِ، ماذا عنك؟»، سألتُ قلقاً بعض الشيء. عمّ صمت طويل قبل أن تقول: «ما زلتُ ليونيساه، رغم أنه لا يعترف بذلك في واقع الحال. يناديني ليونيسا دون أن يعرف من أنا، يقول إنه لا يتذكر أي شيء عني». كانت ليونور تعاني لهذا السبب. كانت تعيش سعادة معتدلة مع زوجها (الذي لم يكن صيدلانياً، كما كنت أعتقد، ولا من بيزا، بل كان خبيراً في الأمور المعلوماتية وكانا يمتلكان الكثير من المال، ومن المؤكد، أن السوار كان من الذهب)، لكنها ما فتئت تحب مورانتي أكثر. لم تتعرف على رجل أكثر جاذبية منه على الإطلاق، وتعتبرها أجمل قصة حب في حياتها، «تراثها الثمين». كان ذلك كله محزناً. الحقيقة أن البروفيسور مورانتي لا يعترف بأي أحد ينتسب إلى ماضيه، رغم أنه لا يمكن القول، ولو أقل من ذلك، إنه كان يعاني من مرض ألزهايمر -وعيه الشخصي كان عالياً- بل كان يعاني من غياب الذاكرة والارتباكات العقلية المستمرة، رغم أن خرفه الأخير في هذه المرة، كان قد طال أكثر من المعتاد وبدا كأنه نهائي.

بات مؤكداً أن مورانتي سيقضي بقية حياته في السكن. بعد كل شيء، كان هذا أفضل ما يمكنه عمله. كان قد تقاعد ولم يكن يمتلك المال. ربما كان واعياً لهذه الحقيقة، ومن أجل المكوث بقية حياته في السكن، كان يضطر إلى القيام بحركات توحي أنه في غاية الجنون، بين الحين والآخر، في حين أنه ليس كذلك تماماً. ولكن البشع في الأمر، كان عندما يناديها باسمها

«ليونيسا» بشيء من اللطف، ثم يُنكرها بعد فترة وجيزة. «أنتِ لست ليونيسا فاتابروم -بروم- براغ؟»، كان البروفيسور يقول فجأة، ناسفاً كل التوقعات التي تغالبها في كونه قد تعرف عليها أخيراً، ينسفها جزئياً لأن فاتابروم - بروم- براغ تلك كان لها رنين لا يستطيع الفكاك منه. ليونيسا كانت تشك أن البروفيسور يعرف جيداً مَن تكون.

طلبت منها أن تروي لي أشياء أكثر عن مورانتي. شرحت لي أن البروفيسور كان يعيش في غرفة غير مريحة في السكن. كانت هناك غرف أحسن وهو يعرف ذلك، ولكنه لم يكن يشتكي. كان يقول إنه سينتظر حتى يصير من رواد المركز. «إن مستقبلي، غرفة أكبر ومشمسة»، اعتاد أن يقول. في فترات الصباح، كان يساعد الممرضات في تنظيف غرفته الصغيرة وغيرها من الغرف الأخرى، وفي المساء، خلال يوم العمل العادي، كان يتحرك في المطبخ، ويقوم مع مرضى آخرين، بفرز العدس عن الحمص أو ترتيب الأكياس الورقية، أو أي شيء آخر يمكن أن يعود بالنفع على المركز. ممرضات من السكن روين لليونور أنه كان متفانياً في عمله وأنه يدمدم كلما أزعجه أحد. كان قد زاره شخص ما في السكن، لكنه أنكر معرفته بأولئك الذين اقتربوا منه ليروه بنية صافية. في أوقات فراغه، التي كانت كثيرة، كان يقرأ المجلات الصفراء أو الكتب القديمة، وكذلك الكتب الجديدة التي كانت تصل إلى مكتبة سكن كامبو دي ريكا. كان لديه شغف غير مُعلن، لكن جميع مَن في المركز يعرف ذلك في الواقع. اعتاد أن يكتب في مكتبة المركز الصغيرة، نصوصاً قهرية على قصاصات ورق، يوثقها بعد ذلك في مجلد أحمر. كانت هناك أيام لا يكتب فيها، لا يقرأ، لا يعزل العدس عن الحمص، لا يساعد في ترتيب الأسرّة، فيدخل في نوبة قلق عقلية مظلمة، ويستحسن لنفسه القيام بجولات طويلة حول مقر إقامته، الذي يماثل مركز الصحة العقلية في المدينة، بوجوده في قرية برج ألغريكو على بعد اثني عشر كيلومتراً من نابولي، القرية التي قضى فيها الشاعر الكبير ليوباردي فترات طويلة. اعتاد البروفيسور مورانتي أن يخرج للتنزه وحيداً. وكان يعود مُتعباً ومتذمراً على نحو فظيع. في كل الأحوال، كان القائمون على السكن يعتبرون أن النزهات هي الحل الأنجع للمريض الذي ينتاب عقله ظل أسود.

تاه في أكثر من مرة، بين تلك الطرقات، لكنه كان ينتهي بالعودة إلى السكن بعد أيام قليلة. الأغلبية كانوا يعتقدون أن البروفيسور كان يعود للتأكد من أن المجلد الذي يحتفظ فيه بكل أوراقه، كان على قيد الحياة.

كان من المستحيل عدم التفكير في بعض أوجه الشبه بين البروفيسور وروبرت والسر. كنت أقول هذا لنفسي حين أدركتُ أنني، بصفتي الدكتور باسافنتو المتخصص في الطب النفسي، أمتلك الصلاحية لزيارة مورانتي. سيكون من الروعة إن لم يتذكر أي شيء عني، وبذلك سأسمح لنفسي ألا أكون شخصاً آخر فحسب، بل أن أكون حقيقة أحداً غيري، على الأقل في عينيه. كان البروفيسور مورانتي قادراً على أن يمنحني الشرعية التي أحتاجها، بصفتي الدكتور باسافنتو. قررت توديع ليونور. قبلتها مرتين وتمنيت لها الحظ السعيد، الكثير من الحظ السعيد في الحياة، وقبل أن أمضي أخذت منها المعلومات اللازمة للاتصال بالسكن. سأتصل دون أن أعلمها بذلك. قلت لها إنني سوف أغادر نابولي هذا اليوم وفي جعبتي المزيد لأخبرها به. شرحتُ لها أنني كنت تزوجت ثانية في كاليفورنيا، بشقراء كالبلاتين، هائلة تُوْقع كل العالم عند مرورها، امرأة ساحرة كنت أسميها بحنان، القنبلة. «حبي الكبير»، أضفت. ابتسمت ليونور، مرة ثانية غير مصدقة، وعدتُ أودعها بقبلتين جديدتين، وعبرت لها مرة أخرى عن رغباتي الصادقة في أن تعيش حياة رغيدة. وداعاً وإلى اللقاء يا جميلة.

اتصلت بالسكن بعد دقائق. «معكم باسافنتو، الدكتور باسافنتو». بعد بضع كلمات مع إحدى الممرضات، أوصلوني بالدكتور بليفيتي، كبير الأطباء في المركز، وتحمستُ على الفور تقريباً (قبل إعلامي بأن المريض قد لا يتعرف عليّ) لاقترابي من زيارة صديقي القديم، البروفيسور مورانتي.

-3-

توجهتُ ناحية كامبو دي ريكا. كنتُ أراجع كل ما أعرفه عن مورانتي. إن لم أكن مخطئاً، ينحدر البروفيسور من عائلة كانت تقطن طليطلة ثم انتقلت للعيش في برشلونة في الثلاثينيات. بعد سقوط الجمهورية، نُفيت أولاً إلى مدينة آلبي في جنوب فرنسا ثم إلى روما حيث درس الشاب ريكاردو في

أحد معاهد «فيا باوينو» (كثيراً ما كان يتحدث عن هذا المعهد وعن الشارع الروماني الذي كان يعتبره مركز الكون) لكن بسبب الاعتراضات، انتهى به الأمر إلى جنيف، حيث ظهرت عليه بوادر الاضطرابات العقلية المبكرة التي أدت به إلى حياة متخلخلة بين المصحات وقاعات المحاضرات. حين التقيتُ به للمرة الأولى، كان في مرحلة الشفاء من إحدى الأزمات، وبفضل توصية من رجل مُحسن في مدريد، بدأ يعمل وهو في الخمسين من العمر، في معهد سرفانتس - نابولي المُفتتح حديثاً، لكن سرعان ما بدأت تصيبه انتكاسات صحية جديدة، كثيراً ما كان يتجاوزها، حتى ضربته جلطة دماغية قاتلة وهو على أبواب التقاعد، بعد سنة من مغادرتي المدينة.

عدتُ أفكّر بها: ضربة قاطعة، على حد تعبير والسر. بدا أن مصير مورانتي مُشابهاً إلى حد ما، في واقع الأمر، لمصير والسر، وبالحالة ذاتها، لمصير هولدرين الغريب. تذكرتُ الكلمات المؤثرة لوالسر عن جنون وصمت هولدرين على مدى السنوات الست والثلاثين التي قضاها محبوساً في برج توبنغا: «أنا على قناعة بأنه، على مدار الفترة الأخيرة، لم يكن يشعر بالتعاسة كما يروق لأساتذة الأدب أن يتصوروه. أن تنغمس بهدوء في تكريس نفسك لـ«أن تحلم في كل الزوايا»، دون أن تقوم بالواجبات طوال الوقت، لا يُعد استشهاداً. الناس العاديون فقط يفعلون ذلك».

عندما وصلتُ إلى مقر كامبو دي ريكا في برج غيركو، كان في انتظاري البروفيسور مورانتي مضطرباً بعض الشيء، برفقة ممرضة شابة في الطرف العلوي من الدرج المؤدي إلى مدخل ذلك المركز. كان البروفيسور مورانتي، الذي يُشبه إلى حد ما فيتوريو دي سيكا في أواخر أيامه، يرتدي ملابس أنيقة ولم يفقد سحره بفعل الزمن، بل ازداد. كان يلبس بدلة مخططة، وإن كانت قديمة، ذكرتني بمسافر قطار إشبيلية، ويعتمر قبعة صغيرة من اللباد. وفي وقت لاحق، في أحد بارات القرية المجاورة لفيزوف، سئم من «الشعور بثقل في رأسه» رفعها ووضعها جانباً لصق جسده، مثلما اعتاد أن يفعلها جدي كلما خرج في نزهة (حسب الصور التي تمكنت من رؤيتها) وجد و. ج. سيبالد (حسبما قال لي) وكذلك جد روبرت والسر (حسب الصور التي عملها له في ذلك الوقت صديقه كارل سيلغ).

«أهلاً وسهلاً، دكتور» قال لي مورانتي مبتسماً. ودون أن يبدي أية إشارة على أنه تذكرني، مدّ لي يده من أعلى السلم، ليصافحني بنبل. قالت لي الممرضة: «دكتور باسافنتو، كنا في انتظارك. يتعين عليك التوقيع على بعض أوراق التصريح. إجراءات بسيطة». تبعتها إلى أحد المكاتب حيث حييتُ الدكتور بليفيتي، وبعد أن أخذتْ مني بعض البيانات، وقعتُ على بعض الأوراق باسم الدكتور باسافنتو. غمرتني سعادة كبيرة لأني قمت في النهاية بما يجب أن يقوم به الطبيب النفسي الذي كنته.

تحدثتُ مع الدكتور بليفيتي حول بعض الاضطرابات العقلية المتعلقة باستهلاك الأفيون. كانت محادثة مقتضبة بين زميل وزميل، تفرعت بعدها إلى مواضيع غير متوقعة. كان الدكتور بليفيتي يبلغ الأربعين من العمر وتبدو عليه سيماء رجل متحضر. كان يعلق قرطاً في أذنه اليسرى ويدخن غليوناً ماركة بوب، وكان مغرماً بـ«لاكان». كان يبدو متحذلقاً جداً ومتعجرفاً. «لكن لاكان أخبرتني بذلك، دكتور باسافنتو،...»، قاطعني عدة مرات. استخدمتُ نظريات المعالجة النفسية التي كنتُ قد تعلمتها في شبابي من دروس البروفيسور أوسكار ماسوتا في برشلونة، ونجحتُ في ذلك فعلاً. كنتُ مدهشاً ومقنعاً أمام كبير الأطباء الذي لم يكن من جهته نابغة.

كان البروفيسور مورانتي يقف على عتبة باب المكتب برفقة الممرضة، مصغياً بصمت صارم -كما لو كان مندهشاً من علميتنا أو خائفاً حتى- إلى المحادثة بين الطبيبين النفسيين. كنتُ أقتبس أحياناً من الأسطورة رونالد ديز لاينغ، الطبيب الذي كان يعتبر زعيم المضادات النفسية في الستينيات. وكنتُ أستمتع بالضياع الذي يلف الدكتور بليفيتي حول هذا الموضوع.

عندما انتهت المنافسة لرؤية أي من الاثنين أكفأ، خرجتُ للتنزه مع البروفيسور مورانتي. تمنت لنا الممرضة وجبة غذاء لذيذة، فتطلعنا إليها معاً مندهشيْن لثوانٍ. وتذكرتُ إحدى ممثلات هوليوود، لكن لم أكن أعرف أيهّا. سألتُ مورانتي إن كانت الممرضة تذكّره بشخص ما. «بالممرضة نفسها»، ردّ عليّ بجفاف واكفهرار. وبدأنا جولتنا بعد قليل. قبل كل شيء أردت أن اتأكد -قدر الإمكان- إن كنتُ أنا أيضاً أذكره بنفسي، أي بالدكتور باسافنتو الذي عرفه تواً. ولكي أتحقق من هذه المسألة، قلتُ له: «تعتقد أنك سلبتني

حبيبة». «لم تأتِ لتحدثني عن النساء طوال الوقت؟» ردّ عليّ مورانتي مبتسماً دون أن أدرك شيئاً من إجابته. «إذن هل تتذكر ليونيسا؟» سألته. رمقني بنظرة من الأعلى إلى الأسفل، كما لو أن الوقت قد حان لدراسة مظهري الجسدي وطريقة ارتداء ملابسي. وتسمّر هناك لعدة ثوانٍ يتفحصني، وكأنه يلومني على شيء، لكني لم أكن أعرف جيداً ما يمكن أن يكون. رأيته يركز على أحد أزرار معطفي. وبدلاً من أن يحدق في المعطف كله –اشتريته من فينيسيا منذ خمسة عشر عاماً، وكنتُ أتبجح به في أغلب الأحيان، ربما بسبب لونه الأحمر الخمري الذي يسر الناظرين– كان يركز على زر واحد.

«لو كانت الأزرار، أو بالأحرى، النساء، قد عرفت الملل لتحولت إلى رجال» قال أخيراً. تساءلت إن لم تكن العبارة مُحْكَمة أو متصنعة، هدفها إثارة الجنون ربما. وسألت نفسي أيضاً إن كان يحاول أن يخبرني بأنه كان يفكر دائماً في التصرف بهذه الطريقة، ليضلل عليّ معرفة إن كنتُ أرى نفسي فعلاً الدكتور باسافنتو أو إنساناً مسكيناً سرقوا منه في زمن ما، حبيبة تُدعى ليونيسا. لذلك غيرت الموضوع على الفور، واعتقدتُ أنه من الأفضل أن يراني كأستاذ أخذوا منه حبيبته على أن يراني طبيباً نفسياً بشوشاً وحكيماً. وتماشياً مع ما أخبرني به، تطرقتُ إلى كلامي معه عن الملل. سألته إن كان يعتقد فعلاً أن الرجال يشعرون بالملل وأن النساء لا. «قبل كل شيء»، قال، «وقبل أن أجيب عن سؤالك، لابد أن أعرف إلى أين نحن ذاهبون، إلى أين تريد أن تأخذني أيها *السيد* الدكتور». قال كلمة السيد باللغة الألمانية وظل يكررها بعض الأحيان. قال ذلك مستغرقاً، كما لو كان طفلاً أخرجوه بنزهة وفتنه المنظر. كان ثمة صرير غريب، نعم، فيما يخص كلمة *السيد* الدكتور التي بدا أنه كان يصوبها ببعض السخرية. بعد استعراض عدة أمكنة محتملة، قررنا أن نذهب بعيداً قليلاً، على الرغم من كونه في نفس الوقت قريباً بما فيه الكفاية ليتمكن من العودة إلى كامبو دي ريكا في الموعد الذي اتفقت به مع الدكتور بليفيتي.

ركبنا الباص من فيا إنريكو دي نيكولا وهو الموقف المجاور لمقر الإقامة، وتوجهنا عبر طرق ثانوية إلى القرى المتناثرة على سفوح جبل فيزوف. بالكاد تكلمنا أثناء الطريق، بحيث تولّد لدي انطباع بأنه لم يكن يثق

بي كثيراً. في كل الحالات، كان عليّ أن أفكّر بأنه إذا لم يتذكر فعلاً أنه سبق لنا أن تعاملنا كثيراً في وقت ما ليس بالبعيد، فمن المنطقي جداً أن يرتاب في الطبيب الجديد الذي ظهر على عتبة باب مقر إقامته. وفي الوقت ذاته، فإن فعل الشك يتناقض مع تحيته الواثقة عند باب المدخل. وبطريقة شبه مؤقتة، توصلتُ إلى استنتاج بأن جنونه كان غامضاً قبل كل شيء، حقيقي أحياناً وفي أحيان أخرى متصنع جداً، مما يعني أنه كان في حقيقة الأمر يتذكرني تماماً في بعض الأحيان، شيء لم يكن ليزعجني لأن الذي كان يهمني في النهاية، هو أن أمرن خطواتي الأولى كدكتور باسافنتو وأن أكتشف بنفسي مَن كنتُ، أي، مَن كان هذا الدكتور الذي أصبحته.

نزلنا من الحافلة في إحدى القرى الغافية على سفوح فيزوف وعزمنا على شرب الجعة في حانة خارج هذه القرية، حانة ومطعم في نفس الوقت، ارتأينا أن نظل جالسين لتناول طعامنا فيه. كان مكاناً مريحاً ذا شرفة تطل على البركان. وبسبب البرد، قررنا أن نبقى داخل الحانة لكن بالقرب من النافذة الزجاجية البانورامية المُتاخمة للشرفة.

كانت ترن في الحانة أو *لوحدي أنا* للمغنية النابولية بيترا مونتيكورفينو، بنسختها الغريبة الجميلة. هل يتناول البروفيسور مورانتي الكحول؟ سألته. بجنونه المبهم مشوباً ببعض السخرية، أجابني: «جنوني طاقة». قلتُ له في الحال: «المجانين لا يعترفون بجنونهم أبداً، ألا تعرف ذلك؟» ابتسم. «أنت تجهل أيضاً أنه حيثما وُجد معتوهان اثنان، ينعدم العالم إلّا منهما»، أجاب.

لم يكن هناك زبائن كثيرون في المحل. جاءتنا نادلة غليظة وقصيرة بوجه عابس قليلاً لأننا أزعجناها في الوقت المخصص لتناول طعامها. ران علينا الصمت لهنيهة حتى بادرتُ إلى كسر الجليد بالسؤال حول ما إذا كان يروق له تأمل البركان. سؤال تافه لأنه لم يُظهر أي اهتمام بالجبل مطلقاً، بل بالسماء فقط. لكني اعتقدتُ أن سؤالاً في غير محله يمكن أن يتمخض عن أجابات أكثر عدداً من السؤال التقليدي. حدجني بنظرة بين الاستغراب والتسلية وعاود النظر إلى الأعلى ثم قال: «أنا آخر كاتب سعيد». كنتُ سأسأله لمَ يقول ذلك حين أضاف: «تُعجبني الغيوم، مثلاً. الغيمة يمكن أن تكون اجتماعية مثل رفيق طيب وصامت».

أدركتُ أنه كان يُلمّح إلى التزام الصمت. لم يكن يهمني الكثير سوى الحاجة إلى أن يناديني دكتور باسافنتو من وقت إلى آخر. «حسنٌ، ما هي مهمتك، دكتور؟»، سألني على حين غرة. لم أكن أتوقع منه هذا السؤال، فأجبته بأسرع ما يمكن. «أن أصغي إليك. وفوق كل شيء، أن أستمع إليك، بروفيسور مورانتي»، قلتُ له. رمقني مستغرباً جداً. «وما الذي جعلك تأتي من الخارج، لتصغي؟»، سأل. كان سؤالاً حكيماً جداً وعسير الإجابة حتى بيني وبين نفسي، وتساءلتُ ما الذي أفعله أنا هنا، بحق الجحيم، مع عجوز مجنون على منحدرات فيزوف. وعرجتُ من جديد على العمل: «سوف تمنحوني صلاحية العمل في السكن إن نجحتُ في المهمة الصعبة التي أُوكلت إليّ، بشأنك». «هل لهذه المسألة علاقة بي، أيها *السيد* الدكتور؟»، قال. وكأن الخيال جمح بي فجأة، أردت أن أشرح له ما هي المهمة. «في معرفة كيفية الإصغاء إليك، مثلما قلتُ لك تواً»، أجبت. «لكن الإصغاء إلى ماذا؟»، سأل. رانت علينا بضع لحظات من الشك، فأجبته بما يعتمل في نفسي، وبكلام نابع من الروح فعلاً: «الإصغاء إلى ما أجعلك تخبرني به. مثلاً، يعجبني أن تحدثني عمّا تكتب في تلك الصفحات التي تعكف عليها في المكتبة كل يوم». ظل ساهماً. «ما الذي يهمك من نصوصي المصغرة جداً؟» قال أخيراً. لم أتجرأ على النظر إلى عينيه. بدا لي أن السماء التي كان غائمة بكثافة آنذاك، لن تتأخر في إسقاط مطرها دناناً. «سوف تمطر»، قلت. شرع يضحك قائلاً إنها مطرت قبل أربع ساعات ثم قال إنه يشعر بثقل قبعته على الرأس. رفعها ووضعها جانباً لصق جسده. «هل تدعوها نصوصاً مصغرة جداً؟» سألته.

كان من المحال أن لا أتذكر أن روبرت والسر أنتج، منذ العشرينيات وحتى 1933 (العام الذي دخل فيه أولى المصحتين الاثنتين، والدوا، وأوقف كل نشاطاته الأدبية) ما عُرف لاحقاً باسم «الميكروغرام»، وهي نصوص تُكتب بقلم الرصاص وبحروف صغيرة، لا على الصفحات البيضاء فحسب، بل على الوصولات، البرقيات، وأوراق أخرى مشابهة أيضاً. وساد الاعتقاد لفترة من الزمن أن هذه النصوص تم تحريرها بنوع من الكتابة التي لا يمكن فهمها، اخترعها والسر شخصياً، حتى اكتُشفت ببساطة أن خطاً ألمانياً مشبّكاً يختفي وراء صغر الخط.

كان مورانتي، على أية حال، يكتب نصوصه المصغرة جداً في مستشفى المجانين بينما انقطع والسر عن ممارسة أنشطته الأدبية حين أُدخل في هريساو. مع ذلك، كان من غير الممكن الالتفات إلى التشابه بين كلمات النص المصغر جداً والميكروغرام، الذي كان مقارباً أيضاً لشخصيتي البروفيسور مورانتي ووالسر، رغم أن المرء لن يتأخر في اكتشاف التناقض بين شخصيتيهما في نواحٍ أخرى كثيرة.

«حسنٌ»، بدأ كلامه ناظراً إلى البركان للمرة الأولى، «أشكر رغبتك في توجيه أسماعك نحو أحد نصوصي المصغرة جداً، لكن من المناسب أن تعرف أنك لن تصل إلى نهاية ما أرويه لك، وبنفس الطريقة هي ليست بداية، رغم أنها قد تكون، كمكافئة، بداية لصداقتنا». صارحته بالحقيقة. قلتُ له إنني لم أعرف بالضبط ما يحاول أن يشير إليه بقوله هذا، وإن كان بالإمكان أن أدون هذه الجملة في كرّاسي لكي أمحّصها في الفندق ليلاً. رفع أحد حاجبيه، وبقي ساهماً. حدّق في كرّاسي نوع موليسكيني -الثاني الذي كنت أستخدمه منذ اختفاء الأول في إشبيلية- ونظر إلى قلمي الرصاص الذي كان حرفياً يزداد صغراً كل يوم.

رأى دفتر الكتابة مغلقاً بإحكام. «ماذا تضع، مضغوطاً، بداخله؟»، سألني. «لا شيء»، قلتُ له، «أدون فيه ما جرى لي منذ أيام، وينفعني أيضاً في تدوين الملاحظات الطبية، كما هو الآن». «ومن هذه الملاحظات، ما الذي ستدرسه هذه الليلة في الفندق، على وجه الخصوص؟». لم أكن أعرف ما أقول له، ولم أخبره بالملاحظات التي سأدرسها الليلة. «ما اسم فندقك؟»، سأل. أعطيته اسم ترويسي وانهمكتُ في ملاحظاتي الطبية. سجل اسم الفندق على أحد المناديل واحتفظ به في جيب بنطاله. ابتسم ابتسامة غامضة. أخبرني بعد قليل، بأن المكان الذي كنا فيه تحديداً، على الطريق الذي يؤدي صعوداً نحو البركان، جرى فيه تصوير لقطات من *فياجيو في إيطاليا*، الفيلم الذي يروي قصة حياته.

الفيلم الذي يروي قصة حياته، أعادها مرتين. وحدث أيضاً، قال، أنه كان قد عمل لفترة طويلة من الزمن، على كتابة نصوص مصغرة جداً، أو الاسترسال في كتابة تعليق على مقطع من فيلم روزليني هذا، دون أن

يعرف عند أية نقطة ستتوقف مقالته. وحتى حين أنهى مقالته، لم يكن يعلم أين ستأخذه كلماته. كان يفتنه، قال لي، هذا النوع من النصوص المصغرة جداً التي كان يكتبها كما لو كانت نزهة غير منتظمة، تمكنه من الخروج في أي وقت يشاء، نحو الأغصان، لأنه في النهاية لم يكن يعرف في أي وقت وفي أية أرضية مقالية، أو إلى أي جزء يتوجه افتراضياً. «أشياء مجنون. لهذا السبب حبسوني»، اختتم ناظراً اليّ بسخرية.

سألته إن كان قد قرأ لوالسر. نظر إليّ بتعبير من لا يفقه شيئاً، وأضاف أنه لم يقرأ سطراً واحداً لهذا المؤلف، لكنه سمع عن حماسته المُضحكة في عهد العبودية. «ألا تعرف أنه كان محبوساً لسنوات عديدة في مصحة نفسية؟»، سألته، فأجابني بسؤال آخر: «هل كان خادماً في مستشفى المجانين هذه؟». قال لي بعدها إن ثمة مسائل أخرى كانت تشغل باله: «التقدم الباهظ للعلم، على سبيل المثال. الثقوب السوداء. الثقوب أكثر أهمية من الخدم. ألم تفكر فيها ذات مرة، أيها *السيد* الدكتور؟» فوجئت بسؤاله ولم أعرف ما أقول. تناول مورانتي جرعة من البيرة، وكأنه يعلم في تلك اللحظة أنني كنتُ شيئاً غير محميّ، شرع يسرد *لي* نصه المصغر جداً عن محيط فيزوف قائلاً إنه في أيام النصف الثاني من شبابه، في السبعينيات، كان كل شيء إجبارياً ولابد من القيام به على أفضل وجه. جميع الأمور على سبيل المثال لها بداية مثلما لها نهاية. وطبقاً لذلك، حدثت له آنذاك مفاجآت عديدة، ولم ينس مطلقاً بعض تصريحات الممثل السينمائي غودارد التي أعرب فيها عن إعجابه بدخول صالات دور السينما دون أن يعرف الساعة التي بدأ فيها الفيلم، دخوله عشوائياً لأية لقطة وخروجه قبل أن ينتهي الفيلم. مؤكد أن غودارد لم يكن يؤمن بالفحوى. وربما كان على حق. لم يكن من الواضح قط، أية لقطة من حياتنا، يمكن أن تكون قصة مغلقة، ذات فحوى مع بداية ونهاية. الأمر برمته، كان يتعلق جوهرياً بالأدب، وليس برواية حياتنا. كان يتصور أننا حين نكتب، نوجه مصيرنا نحو أهداف معينة. «الأدب»، قال لي، «يمنح حبكة الحياة، منطقاً لا تمتلكه. يبدو لي أن الحياة تخلو من الحبكة، وعلينا تقع مسؤولية وضعها، نحن الذين اخترعنا الأدب».

كنتُ أتفق معه تماماً ومع كلماته الرصينة. هل يمكن لشخص يتحدث

بهذه الطريقة، أن تعتبره مجنوناً؟ أعتقد نعم، من الممكن أن يُقال عنه هكذا، بالطريقة ذاتها التي نطلقها على جنون ألونسو كيخانو الذي أثبت أن الكتب والثقافة تمتلك نوعاً من السم الذهني. لكن، على أية حال، كان مورانتي يتكلم -هكذا هو دائماً- بذكاء أكثر قدرة من ذكاء البروفيسور العادي. كان يبوح بأشياء لا أستطيع إلّا أن أوافقه عليها، مثل قوله إن الحياة لا حبكة لها، ونحن الذين نضع لها حبكة. كنتُ أفكّر مثله أيضاً، وما زلت. الرحلة، لنضرب الآن مثلاً من واقع الحال تقريباً، أصبحت قديماً، الحبكة المثالية، لأنهم اكتشفوا أنه إذا كان لشيء بداية ونهاية، فهي الرحلة. ولم يكن يُعرف آنذاك ما تعنيه رواية قصة، لكن كان رحلة بالتأكيد. كان للرحلات بداية ونهاية. وهذا ما كان يضع نظاماً للأشياء، إذا ما أراد شخص ما أن يروي قصة ويختزلها بطريقة يجعل لها بداية ونهاية. وعليه فمن المؤكد أن «الأوديسة» على اعتبارها رحلة، هي واحدة من أوائل القصص المروية. نحن نعرف اليوم أن أي شخص يذهب في رحلة، يمكنه أن يكرر تجربة «عوليس» إلّا إذا قرر عدم العودة إلى المنزل مطلقاً. وحين تقلع الطيارة، فلابد أن تكون هناك دائماً قصة، نهايتها العودة إلى الوطن، ما لم ندخل في *الهروب دون هدف* الذي تكلم عنه روث. والآن، من أية نقطة تبدأ هذه القصة؟ هل تبدأ من تهيئة الحقيبة أو حين نستقل سيارة أجرة نذهب بها إلى المطار، أو حين تبتسم لنا المضيفة حين تقدم لنا الصحف أو عندما بدأ حلمنا قبل عشر سنوات، في أن نقوم بهذه الرحلة أو ربما حين غفونا أثناء الطيران وحلمنا بأننا لم نطِر؟

أكثر ما كان يثير انتباه مورانتي في *فياجيو في إيطاليا*، كان روزليني، حين يزرع في المشاهدين، في الثانية الأولى من المقطع الأول من الفيلم، انطباعاً بأنه كان قد دخل إلى الصالة بعد بدء الفيلم. «مع هذا المقطع الأول»، قال لي، «أعتقد أن روزليني كان واعياً أن السرد يمكن أن يبدأ في أية لحظة وقد يكون من منتصف أي حوار على سبيل المثال، آخذاً بنظر الاعتبار أن الحياة نسيج متواصل وأن أي مبدأ إنما تعسفي. الا تراه هكذا أيضاً؟»».

تطلعتُ إلى فيزوف وفكرتُ أنني في واقع الأمر أراه هكذا أيضاً، وما زلتُ أراه هكذا. يبدأ فيلم *فياجيو في إيطاليا* بلقطة أولية يدخل منها المشاهد فجأة إلى نقاش مطروق -يُلاحظ أنه كان لابد أن يبدأ قبل وقت، ولم تكن

بالتأكيد بداية محددة جيدة- لزواج إنكليزي (إنغريد بيرغمان وجورج ساندرس) يسافر فيه الزوجان إلى جنوب إيطاليا بالسيارة. إنه لأمر مثير، لأننا دخلنا في شيء لا نعرف كيف بدأ، ومع ذلك فهمناه في الحال، رغم أننا في نفس الوقت لا يمكن أن نقول إننا استوعبناه كلياً، ليس لأننا لم نفهم شيئاً من العالم، بل لأن انطباعاً تولّد لدينا أيضاً، في أننا توغلنا في فيلم تنقصنا منه المَشاهد الأولى، أو كمن ينغمس في كتاب، صفحته الأولى ممزقة.

«أنا في الواقع»، قلتُ لمورانتي، «أتفق معك كلياً، ليس لأن عملي يلزمني بعدم مناقضته. أنا أتفق معك لأني أؤمن أيضاً أن الحياة نسيج متواصل وعليه فإن بداية أية قصة لابد أن تكون قسرية. مثلاً، في أي وقت تحديداً، التقينا أنا وأنت؟». ابتسم مورانتي سعيداً ثم قال: «انظر إلى هذا الطائر»، وأشار إلى كوليبري، الطائر الطنان الذي كان على الشرفة يشرب الماء متلذذاً. كان يرفع رأسه ويُنزله، «من المؤكد أن تعارفنا، أنا وأنت، سيبدأ على أرض الواقع، في لحظة تحليق هذا الطائر».

كان يبدو كأنه حكيم أو راوٍ صيني. أكملتُ شرب الكأس الثانية من الجعة، وبدأ الجوع ينفذ إلى دواخلي. كنتُ سأسأله إن كان يرغب بتناول طعام الغداء هنا، عندما طار الكوليبري. لدى رؤية تحليقه، شرع مورانتي يحدثني عن اليوم الذي نام فيه داخل الطائرة حين كان يقرأ رواية وحلم بأنه لم يكن يطير، وأن الضابط كان يختم الجوازات على الأرض. طلبتُ قائمة الطعام من النادلة ثم أخبرتُ مورانتي: «واجبي أن أصغي، لكني إن لم أكن مضطراً للقيام بذلك، سأكون ممتناً أيضاً بسماع آرائك حول بداية ونهاية القصص. الحقيقة أنني منذ أن استيقظتْ في أعماقي ميولٌ معينة لعمل الخير، وأنا أغالب الزمن هنا في نابولي. ولهذا أدوّن في دفتري كل ما يصادفني، أكتبه بتشنج تقريباً. الأيام طويلة جداً ولا يحلها لي سوى قلمي الرصاص». وأومأت له بالقلم الذي أكتب به هذه السطور. نظر إليّ وابتسم قائلاً بقليل من السخرية إنه لم يحن دوره في الاستماع إليّ، لكن إذا كنتُ أرغب في أن ألفته إلى «شخصه المتواضع بعيداً عن الطب» فسوف يفعل. «أعرف ببساطة»، قلتُ له، «أني أحب أن أستمع إليك وأن أسجل بعض الملاحظات، لأني معجب بك منذ سنوات قد لا تتخيلها. والآن لابد أن

تخبرني عن الرؤية الجوهرية لنصوصك المصغرة جداً حول هذا الطريق المحاذي لفيزوف، والذي لم أستمكنه حتى الآن سواء في طريقك أو في مقالاتك».

«عفواً، لكن هل قلتَ إنك إنسان مُحسن؟»، سأل بصورة مباغتة وبتعبير مُستاء. اعتقدتُ أنني ما كان يجب أن أقيّم نفسي بهذه الطريقة ربما، لأن المُحسن في نهاية الأمر، هو شخص يحب مَن يماثله، وموارنتي أوحى إليّ بأنه لا يحتاج إلى الحب، بل إلى مَن يصغي إليه، وبمهنية عالية. على أية حال، لم أعد أستطيع التراجع. نظر موارنتي مرة ثانية إلى البركان وقال لي: «حسنٌ، كنتُ أخال أن نصي المصغر جداً كان قد انتهى عند مقر الإقامة، لكني أراه الآن غير مكتمل في خضم حديثنا أنا وأنت هنا في هذا المطعم. إن نصي المصغر جداً يتطرق إلى كيفية تعارفنا أنا وأنت على أرض الواقع، عزيزي المُحسن، قبل قليل بعد منتصف النهار على سفوح فيزوف، حين طار الطائر من على الشرفة. ويتطرق أيضاً إلى كيفية أننا الساكنون الوحيدون في هذه اللحظة التي لن يعرف أحد أن يحدد متى بدأت». وافقته بحركة من رأسي كأني فهمته تماماً، ودوّنت الملاحظات المناسبة لكي أتذكر الجملة. «في الواقع»، أضاف، «أن نصي المصغر جداً هو رؤيا حول الغياب واختفاء اليقين الذي كان ثابتاً بيننا حتى قبل سنوات، اليقين من أن كل شيء لابد أن يبدأ في لحظة ما».

دونتُ ذلك وناديتُ على النادلة لتأتي لنا بالطعام. وعاد موارنتي ليعتمر قبعته. «سوف تُمطر بالفعل. المطر يعود في الساعات الأولى من هذا الصباح»، قال. ونزع قبعته ثانية. «لكننا هنا مُحصنون جيداً، أيها *السيد* الدكتور»، قال مبتهجاً باسماً مثل طفل. كان يبدو في الواقع كاتباً سعيداً، مثلما قال لي من قبل. هل سبق أن التقيت كتّاباً سعداء، ذات يوم؟ فكرتُ مجدداً في جميع هؤلاء الكتّاب الذين اختبأوا إلى الأبد من عيون العالم، بعد أن صدر لهم كتاب. كانوا غالباً ما يثيرون فيّ الحسد، وغالباً ما يبدون سعداء. وكنتُ آمل أن أصبح مثلهم عاجلاً بكتابتي الخاصة كدكتور نفساني تقاعد مؤقتاً. كانت لحظات تتملكني بالفعل أفكّر فيها بأنه لم يعد أمامي ما يجعلني كاتباً سرياً.

لم نتفوه بكلمة تقريباً طوال فترة تناولنا لطعام الغداء أنا والبروفيسور مورانتي. عملياً، فتحتُ فمي فقط لأخبره بأنني أود لو التقينا ثانية بعد يومين، يوم عيد الميلاد، لنأخذ جولة في مشهد مختلف، ربما أقرب إلى مقر الإقامة. «يمكن أن نواصل حديثنا عن هذا المكان الغامض الذي منه تبدأ القصص»، قلتُ له. «جولة يوم عيد الميلاد»، أجابني ببريق غريب في نظراته. «نعم، لمَ لا؟»، قلتُ مسروراً نسبياً لأن الفكرة لاقت قبولاً حسناً لديه. «يا له من اقتراح عظيم! لا أحد في حياتي مطلقاً، ولا حتى في ذلك اليوم. هل لديك أحد في أعياد الميلاد؟ أن جاء أحد للبحث عني. ستكون جولتنا مختلفة عن جولة اليوم، نعم. ثم إني سأقترح عليك موضوعاً آخر، ونصاً آخر مصغراً جداً، وسوف أكتبه خصيصاً لك. ما رأيك، أيها *السيد* الدكتور؟». بقيتُ صامتاً دون أن أعرف بماذا أجيبه. «سأكتبه في عشية عيد الميلاد، دون أن أتطرق إليها»، قال مبتسماً واثقاً من نفسه، كالذي يعتقد أنه كان قد تفوه بعبارة عبقرية.

كان لديّ انطباع بأن هناك جانباً في شخصية البروفيسور مورانتي، يجذبني، وآخر، بدلاً من ذلك، يثير نفوري. الجذب والاستنكار، كانا حالتين تبدوان متطابقتين للحظات رصانته وجنونه. كان في حالة تعقل، حين انتهى من الطبق الثاني، قال لي: «يعجبني هدوؤك. يذكّرني بقول بترونيو إن الطبيب سلوى للروح لا غير». شكرته. «على أية حال»، قال، «لم ألمس فيك توقاً للتقدم العلمي». سكتُ، لم أكن أعرف ما يرمي إليه، كما لم أكن أعلم إن كان يسخر مني في أعماقه. وظل هو صامتاً أيضاً. ران على كلينا صمت طويل قطعه بقوله: «هل تعرف أنه ربما يجب ألا نولي اهتماماً كبيراً لأنفسنا، للأنا فينا، لأنهم يقولون إن الوعي هو ببساطة كيمياء عصبية سنتعرف عليها قريباً جداً؟ هل كنت تعرف ذلك، عزيزي بترونيو؟»

وتشتتُ للحظات. لم أذهب إلى هناك، لكي أسمعه يناديني باسم بترونيو، بل لأدعم نفسي كدكتور باسافنتو. ومن جهة أخرى، فإن هوسي بقصة الذات في العالم الغربي، وهوسي في الوقت ذاته، بتعزيز شخصيتي كدكتور، كانا الاحتمال الوحيد، لأن يكون ما قاله مورانتي، صحيحاً –أن أتمكّن في القريب العاجل من رؤية أنا جديد متحوّل إلى ركام كيميائية عصبية– ولن أشعر بعدها بمزيد من الإحباط. أحسستُ أنه لابد من الاحتجاج، وأخبرتُ

مورانتي أن يتذكر أنه من أجل الإجابة عن سؤال *«ماذا أنا»*، قام مونتين بدراسة أو، لأكن دقيقاً أكثر، باختبار لذاته محاولاً في الوقت ذاته العثور على قاعدة أخلاقية لحياته، وبإيجاز، على ما كان مونتين شخصياً يدعوه *علمياً*. قلتُ لمورانتي إن ذلك لا يزال يثير اهتمامي، وليس ذلك الذي كان يتحدث عنه، والذي حوّل كل شيء إلى طبيخ من الكيمياء العصبية، مأسوف عليه.

«وماذا حصل لمونتين، هل استحسن الحالة؟» سألني متلبساً الجنون فجأة، كمن يسأل عن زميل دراسة جامعة مشترك. لم يكن من السهل الرد عليه. التزمتُ الصمت. قال حينها شيئاً لم أجد له أي معنى واضح. قال: «اليوم ذاته يمر». سألته ما كان يعني بقوله. «يسعدني»، أجاب، «أن أتمكّن من تسهيل جملتي لأجعلك تستوعبها، لكنني صدقاً، لا أستطيع القيام بذلك». وصمَتُّ من جديد. ما الذي أقوله أو أفعله حيال أمر كهذا؟ شملنا صمت قصير. شعرتُ أن لا فائدة من سؤاله إن كان يتصنع أو أصابه بعض الجنون. لن ينفعني بشيء. وأنا بكامل قواي العقلية، بدأت أشعر بالحاجة إلى معرفة إذا ما كان يعتقد أنه أمام دكتور نفساني أم أمام أندريس باسافنتو.

تناولنا في فترة الحلويات، نوعاً نابولياً لذيذاً جداً، كان له الفضل الكبير في مساعدتي لاسترجاع توازني أمام رفيقي، وحتى في رسم الفرحة والمزاج الرائق. مؤكد أنه كان عليّ أن أنسى إذا كان يراني أندريس أو دكتوراً نفسانياً. ضحكنا في انسجام تام. لم تدم تلك اللحظة طويلاً، على أية حال. إذ سرعان ما خطرت في بالي فكرة باردة. بحتُ بها لمورانتي حرفياً هكذا: «في هذه اللحظات الحلوة، خطرت في ذهني فكرة باردة». قلتها له بطريقة بدت كأنني أنا المختل عقلياً وليس هو.

لم تكن الفكرة الباردة، جديدة. كانت متعلقة برغبتي الشديدة في الاختفاء. قلتُ له. أظن أني قمت بهذا الاعتراف أمامه، لكي أرى إن كنتُ سأتحقق في النهاية من أن هناك تواطؤاً صامتاً بين الاثنين، أي التحقق ما إذا كان قد تعرف عليّ، لكنني كنت أفضل عدم الإفصاح عن ذلك لنفسي. اعترفتُ أمامه وكلمته مطولاً عن هوسي بموضوع الاختفاء بشكل عام. أصغى إليّ باهتمام، ولم يعلق بشيء حين انتهيت من حديثي. ربما أحد الجوانب الجديرة بالذكر لشخصيته المجنونة الغامضة، كان ليونته في

التظاهر بالاستماع، بينما هو غائب في واقع الحال. قلتُ لنفسي: رباه! نعم، إنه يعرف كيف يختفي. ثم فكرتُ في شيء قاله ڤالتر بنيامين حول روبرت والسر: «يمكنك أن تقول إنه يغيب عند الكتابة».

انهمرت أولى قطرات المطر، وقبل أن تمطر وابلاً، خرجنا من المحل باتجاه القرية ثم إلى موقف الباصات لنبدأ رحلة العودة. كانت عودة بطيئة. سألته إن لم يكن قد سمع عن والسر بالفعل. «هل تود التحدث عن الخادم الشخصي مرة ثانية؟ ما الذي يهمك منه؟» قال. «أشياء كثيرة»، أجبت. «مثل ماذا؟». وران صمت طويل. «مثلاً»، قلت، «كان مفتوناً بممثلة، قامت بتمثيل دورها على أسوأ ما يكون وبقصور كبير، في أحد مشاهد *ماري استيوارت* لتشيلر. أعجبه هذا. كان يعتقد أن القصور في شيء، له عطر وطاقة أيضاً».

عاد مورانتي يغيب مرة ثانية. في لحظة ما، جربتُ إن كان يسمعني هذه المرة. «في واحدة من رواياته، *يعقوب بن جونتين*»، قلتُ له، «قال إن منزل عائلته الفاخر، كانت تنقصه الحديقة، لكن هذا الأمر، مع ذلك، لم يقلل من شأنه. كان بنظره أجمل من البيوت التي فيها حديقة غنّاء، متقنة وحلوة. كانت النواقص فيه تزيده فتنة». لم تكن هناك أية ردة فعل من طرف مورانتي. «ألم تكن مهتماً بما ذكرته لك، أم إنك، ببساطة، غبتَ كلياً؟»، تجرأت على قول ذلك. «من كل ما حدثتني عنه، فقط أتذكر كلمة المسرح»، أجابني بنغمة بدت لي جافة على نحو متعمد.

لم أتأخر في تغيير الحديث، لأني أدركتُ أن مورانتي كان يوحي لي بأنه غائب تماماً حين لا يعجبه حديثي، وأجد نفسي في طريق ضيق لا مخرج له، لذلك اضطررت إلى تغيير الموضوع. وسرعان ما انغمسنا في حديث عن مسرح سان كارلوس الكبير في نابولي، حيث سيقدم في موسميه الوحيدين، أوبرا *فاوست* من تأليف تشارلز جونود. نتكلم بشكل خاص عن كيفية تناوب العاطفة والعقل في المدينة على نحو رائع. بدا لي أننا حين كنا نتحدث عن نابولي، فكأننا نتحدث بالصميم عن مورانتي بشخصه الذي كان بارعاً في تبديل عقل متزن بآخر مجنون، سواء كان حقيقياً أو مزيفاً.

حين وصلنا إلى سلالم مدخل مقر إقامته، دقت أجراس إحدى الكنائس

القريبة التي تخيلتها فارغة. «سأبوح لك بشيء»، قال لي على حين غرة، عندما توقفت الأجراس عن الرنين وعاد صوت انهمار المطر الرتيب، يجوس بيننا، «قبل بضعة أشهر جاء إلى هنا رجل مثلك، أخضر العينين، وشعر فاحم مثل شعرك. قال إنه دكتور وأعطاني اسماً لا أتذكره، لكني لم أصدق أنه اسمه الحقيقي مطلقاً. أوصاني أن أتجاهل التقدم العلمي وأن أعيد النظر في وجود الوعي، قال لي هذا، وأضاف أنه في نهاية المطاف، كل شيء يتلخص في محاولة فهم الحياة نفسها، والطريق المتعرج الذي تتفرع منه، وكذلك الإصغاء إلى السؤال عن كيفية الوصول إلى هذه الحالة، وإيجاد تفاسير عن سبب وجودنا دائماً في وسط طريق وفي منتصف حوار، محاولة شرح لماذا عليك أن تعيش الحياة التي عشتها ولماذا تعيشها الآن في سكن، تحمل أوجاع رجل ضائع داخل الزمن، لكنه دائماً مرتبط باسمه الشخصي، يودع اليوم صديقاً جديداً تحت المطر».

-4-

أغرقت ناظري هذا الصباح في حدائق ماتينيون، الحدائق المثالية لرئيس الوزراء الفرنسي، وهو المنظر الذي أستطيع أن أتأمله من غرفة الفندق هذه في شارع فانو في باريس. شعرتُ بانجذاب نحو الجرف المُخضَر، وبعد فترة وجيزة أصابني دوار جعلني أتراجع خطوة إلى الوراء وأجلس على سريري. كان هدوء الصباح مُرعباً، بدا شبيهاً بالهدوء المريب الذي يسبق انفجاراً عنيفاً. وتمكنت من تدمير هذا الدوار حين تذكرت أنه لابد أني وضعت داخل الحقيبة الحمراء الصغيرة نسخة من الرواية التي نسيتُ أن أحملها معي من منزل برشلونة، والتي كانت بالنسبة إلي دائماً بمنزلة وثن. كتاب مرتبط بعالم والسر. بمجرد تذكره، هدأت. وقررت حينها الذهاب إلى مكتبة لا هونه، في جادة سان جيرمان، والتحقق من وجود نسخة من *سنوات العقاب الجميلة* لفلور جيجي.

قمتُ بالجولة المطلوبة في باريس، بعد أن كتبتُ البارحة عن أولى جولاتي مع مورانتي في نابولي. وقبل أن أغادر الغرفة، بقيتُ أفكّر في كمال العبارات الأولى من *الجولة* لوالسر باللغة الإيطالية (حفظتها عن ظهر قلب

منذ سنوات)، وكنتُ أرتلها بصوتٍ عالٍ. بعد كل شيء، كانت مرتبطة بما كنتُ على وشك القيام به: *«في الصباح الباكر، استبدت بي رغبة في القيام بجولة. اعتمرتُ قبعتي وغادرت غرفة الكتّاب أو الأرواح واتجهتُ مسرعاً نحو الدرج ومنه إلى الشارع مباشرة»*.

إلى الشارع مباشرة. هذا ما فعلت. غادرتُ غرفة الكتّاب أو الأرواح، وفي غضون ثوانٍ نزلتُ عبر الدرج الضيق ووقفتُ أمام المكتب الصغير لاستعلامات فندق السويد. غير بعيد عني، كان أنطونيو لوبو أنتونيس يجلس على أحد الكراسي المجاورة لباب المدخل، يقرأ بهدوء *لي فيغارو* (الصحيفة المتوفرة في الفندق). لا يمكن القول إني فوجئتُ كثيراً برؤيته. رفع نظره عن الصحيفة ونظر إليّ من فوقها، ومثلما افترضت (وتمنيت)، لم تبدُ عليه أية علامة واضحة على أنه عرفني مطلقاً. جلستُ على أريكة قريبة، كما لو كنتُ أنتظر أن يبحثوا عني. كنتُ ألعب بالنار، لأنه من الممكن في أية لحظة أن يظهر أحد من طرف دار نشر كريستيان بورغويس. لكن في الحقيقة أن مجازفة أن أُكتَشَف ما تزال تثيرني. ومن جهة ثانية، أشعر أنني بدوتُ منظوراً للجميع بحيث من الممكن رؤيتي، كما في قصة بوا، *الرسالة المسروقة*. ومن الأريكة المجاورة، انهمكتُ في استحضار مستشفى لشبونة للمجانين الذي كتب فيه لوبو أنتونيس رواياته. كان يكتب كل يوم في مستشفى ميغيل بومباردا في لشبونة، بناية معمارية من القرن الثامن عشر، كانت تؤوي بين ردهاتها مرضى مصابين بأمراض نفسية، ذات عوارض عقلية مختلفة. لعدة سنوات، كان لوبو أنتونيس يعمل طبيباً في هذا المستشفى، رغم أنه توقف منذ سنوات عن العمل كاستشاري، لكن مكتبه ظل هناك يكتب فيه كل صباح ما دام في لشبونة.

فكرتُ في أوجه الشبه بين لوبو أنتونيس والدكتور باسافنتو الذي زار مقر كامبو دي ريكا في نابولي حيث كان مورانتي، أي أني فكرتُ في هذه النقطة المشتركة (الطبيعة الطبية) بيني وبين لوبو أنتونيس. تظاهرتُ أنني أنظر إلى الشارع، لكني في الحقيقة كنتُ مُنشغلاً بمراقبة حركات لوبو أنتونيس، ما أمكنني ذلك، وكأنه مريضي المحجوز في مستشفى لشبونة للأمراض النفسية، لكن بإفراج مؤقت هنا في باريس. بدأت أستحضر مستشفى ميغيل

بومباردا ذلك الذي قرأت عنه كثيراً دون أن أكون فيه أبداً. بقيتُ أتذكر -كما لو أنني زرته ذات يوم- جميع المرضى الذين يتجمعون حسب ما رُوي لي، أمام مدخل البناية الرئيسية، كأنهم يرغبون بالهروب والخروج إلى الشارع، إضافة إلى الأعداد الكثيرة الهائمة في الحديقة. وفكرتُ في مستشفى الأمراض العقلية الذي يكتب فيه لوبو أنتونيس كل صباح، والذي أُدرج فيه غالبية المرضى المحبوسين، بأسماء وعناوين مزورة، لأنها الطريقة الوحيدة أمام عوائلهم للتخلص منهم، وبهذا لن يُضطروا إلى معاودة زيارتهم على الإطلاق. ومن مقعدي هناك في صالة مدخل فندق السويد، وعلى الرغم من قساوة أقاربهم، شعرتُ فجأة بالحسد العميق لجميع مجانين لشبونة، أولئك الذين، على العكس مني، لديهم على الأقل عوائل في العالم، وإن كانوا قد تبرأوا منهم.

وسط حيرة فكرة الخروج إلى الشارع، ذهبتُ إلى الحجرة الصغيرة المخصصة لاتصالات النزلاء بالإنترنت. فتحتُ بريدي الإلكتروني وتحققتُ أني ما زلت خارج دائرة البحث. عدا بعض الرسائل الإضافية المتعلقة بالأمس، لم أجد على أية حال، ما يشير إلى أن أحداً ما تبصر في احتمالية اختفائي. لا أحد يبحث عني، هذه هي الحقيقة. كلما تمر ساعة، أتألم أكثر. لم أتوقع شيئاً كهذا. كنتُ أعتقد أن اختفائي على المدى الطويل في أقل تقدير، سوف يُلاحَظ. لكن مضى على غيابي أسبوعان تقريباً، دون أن يبرق أي وميض اهتمام من أي شخص، رغم أن البعض ربما يعتقد أني أتمتع بعطلة أعياد الميلاد. لكن الحقيقة أن أحداً لم يحرص على معرفة أين أنا سوى معجبة مكسيكية تقول إنها تبحث عني وتتساءل أين أنا:

«بروفيسور باسافنتو: اسمي فيوليتا توليدو من المكسيك. أنا الآن في مدريد، أحاول العثور عليك لأني أحمل معي نسخة من كتابك الأخير وأتمنى أن يكون توقيعك عليه. أرجوك أن تمد لي يد العون، إذ راجعت سفارتنا هنا وبعض المعاهد هنا في إسبانيا حتى عثرتُ على بريدك الإلكتروني. أطلب إليك أن تحدد لي موعداً سواء في برشلونة أو في مدريد أو حيث تكون أنت الآن، لأتشرف بتوقيعك على نسختي. ثق بي، إن العودة إلى بلدي دون توقيعك، سيسبب لي خسارة كبيرة».

شعرتُ أني أتبلبل. حتى مناداتها لي بكلمة بروفيسور، تركتني محتاراً وكذلك كلمة *خسائر*. من الواضح أنني لن أعود أشتكي من أن أحداً لا يبحث عني. أشعر أني تعيس جداً. ولكي أهدّئ من روعي، دخلتُ إلى المواقع الإلكترونية للصحف الإسبانية، وهناك تمكنتُ، بعد بحث طويل، من التأكد أن لا أحد، لا أحد على الإطلاق، تطرق إلى خبر اختفائي، وبناءً على ذلك لم ينشروا أي خبر عني. وبدل أن يُفرحني هذا (في الأعماق، خطوة نحو المزيد من الاختفاء) وجدتُ نفسي، في الواقع، قلقاً أكثر. شعرتُ بالذعر لأني لم أعد أخطر على بال أحد قط (لا برواياتي ولا باختفائي) ولأني تحولت بهذا الشكل إلى كاتب *ملعون* (على نقيض ما كان يحدث من قبل، حين يُصابون بالقنوط ويضطرون لتناول شراب الإبسنت، بدا أن الكتاب الملعونين اليوم، هم ببساطة أولئك الذين لم يعودوا يخطرون على بال أحد)، لكني سرعان ما رأيت في ذلك صدمة كبيرة لدكتور وكاتب مختفٍ مثلي، تنتابه مخاوف من هذا النمط. وقررتُ أنه الوقت المناسب لأنأى أكثر عن الكاتب المعروف الذي كنته، وأخترع طفولة جديدة لي، إذ لا يمكن أن أتماشى في العالم بطفولتي المعتادة. الدكتور باسافنتو يجب أن تكون له طفولة مختلفة.

هذا ما قلته لنفسي في غرفة إنترنت فندق السويد، وإن اخترعت فترة شباب أيضاً، فليس من المستبعد أن أرويه للدكتور مورانتي في جولتنا المقبلة في نابولي، (شباب قاسٍ لكن مُفرح في برونيكس)، وذكريات طفولتي ومراهقتي التي لم يسرقها أحد بعد، والتي كرستُ نفسي لرسمها، وحان الوقت الآن لصياغتها.

كنتُ بحاجة إلى طفولة ومراهقة لتكتمل بهما سيرتي الذاتية الجديدة. قلتُ هذا لنفسي ثم عدتُ إلى صالة المدخل. كان هناك سائح من أمريكا الشمالية يقف أمام مكتب الاستقبال وبيده خريطة كبيرة لباريس، يتحدث بصوت عالٍ. كان يطلب منهم، بحنق ملحوظ، أن يعيدوا عليه كيفية الوصول إلى برج إيفل سيراً على الأقدام. لم يعد لوبو أنتونيس موجوداً. حين تحققت من ذلك، رفعتُ أحد حاجبيّ وضحكتُ في نفسي من نفسي. المختفون مثلي، لديهم ساعات حرة طويلة، ويمتلكون الوقت الكافي للضحك من أنفسهم. من المرعب جداً والمأساوي أنه ليس لديّ أحد في هذه الدنيا يثير

فيّ رغبة الضحك، حتى أشعر على الأقل بأن هناك مَن يشاركني ضحكتي الخاصة. العزاء الوحيد في الواقع كان في معرفة أن الوحدة، هي السبيل الأنقى للتواصل، لكنه لا يبدو لي عزاءً مثالياً.

هل كان لوبو أنتونيس، وحيداً أيضاً في هذا العالم؟ سألتُ نفسي بعد وقت قصير من رؤيته وقد اختفى. إنها رغبات في طرح أسئلة ساذجة، فكرتُ في وقت لاحق. ليس من شأني إن كان لوبو وحيداً، وما كنتُ لأستطيع أن أعرف ذلك، لكن المؤكد في الأمر أنه لم يعد هناك. خمنتُ حينذاك وبدقة، لمَ لم يكن هناك. ربما يكون خارجاً في الشارع مع أحد منتسبي دار نشر كريستيان بورغويس، مما يعني أن خطر اكتشافي ما يزال غير مدفون، ومن الممكن أن ينتشر الخبر في برشلونة بسهولة.

«صباح الخير سيد باسافنتو» قال لي الموظف بلهجة فرنسية حين مررت من أمام مكتبه الصغير. بدا أن لقبي تردد صداه في كل أرجاء الفندق. حجبت وجهي باللفاع، لبستُ نظاراتي السوداء وخرجتُ إلى الشارع. وفي الحال رأيتُ أنه لا أحد في الشارع سوى الشرطة التي تقوم بحماية مقر ماتينيون ليل نهار. كان شارع فانو ما يزال تحت تأثير هذا التوتر غير المنظور الذي ظننتُ أني اكتشفته في إقامة سابقة في هذا الركن من باريس، أي أنه ما يزال هناك ذلك الرعب الجحيمي الأصم من عوالم على وشك الانفجار.

يبدو أن هناك طاقات متوترة في هذا الشارع تخرج ليل نهار من السفارة السورية باتجاه ماتينيون، وبالعكس. في اليوم ذاته وقبل أن يصيبني الدوار بساعة، اعتقدتُ أن لديّ رؤى غريبة متعلقة بذهني أكثر مما هي متعلقة بالواقع، لكن فعلياً يستحيل عليّ الاستغناء عمّا بدا لي أني أراه أو بالأحرى، أتكهنه وما زلتُ إلى الآن (من المعروف أن الخيال القوي يولّد الوقائع). وملخص القول أنه في الوقت الذي يصدر عن السفارة السورية وماتينيون نوع من الموجات الكهربائية الثابتة غير المرئية، التي تمنح كلتا البنايتين حيوية ملحوظة، كان العقار الذي عاش فيه ماركس، خاملاً لدرجة يبدو كأنه ميت أو نائم تماماً.

بالقرب من جادة سان جيرمان، وبينما كنتُ أعبر من خطوط المشاة، كبحت سيارة غير بعيدة عني، فراملها، وكأن سائقها كان يخشى أن أكون

قد سقطت تحت عجلات سيارته. تجمدتُ في مكاني. وعلى الرغم أن الدهس يولّد عادة مشاكل لدى الآخرين، فإن السائق بدا لي على أية حال أول شخص يوليني اهتماماً لم ألمسه منذ فترة طويلة، وبالتالي، منحني إيماناً كنتُ على وشك الشك فيه، منحني ثقة بوجودي. وكما قال بيكيت، *أن تكون* ليس نقيضاً لأن يُشعر بك.

في إشارة المرور التالية، فكرتُ، ربما لو كنتُ ابناً وحيداً، لكان لي إحدى عشرة أختاً (أحد عشر، نفس عدد الأيام التي قضيتها في نابولي) ولأحبتني إحداهن، وأنشدت لي الأخريات، مثل ديك. أخت واحدة فقط من بين إحدى عشرة، ستكون كافية للقضاء على وحدتي في هذا العالم. أخت واحدة بشرتها وردية ناصعة، مشعثة الرأس دائماً، جذلة بعينين وقادتين... أصوات زمارات عالية. كنتُ سأُدعس من سيارة فورد سوداء فارهة. تساءلت إن كان تخيل وجود أخت، يمكن أن يكون ذا خطر كبير. ألا يمكن أن تكون هذه السيارة، *عربة الجنائز التي كانت تتسكع في باريس*، حسب عنوان إحدى الروايات التي كنتُ قد تخيلتها سابقاً؟ فكرتُ أنه من الأفضل أن أنظر إلى الأمور بمزاج حسن. وتذكرتُ، وأنا في مزاج حسن، أن واحداً من الإعلانات الدعائية لشركة فورد، وواحداً من مبادئ القرن العشرين كان يقول: «يمكنك أن تقتني اللون الذي تريده، كلما كان الأسود». فكرتُ في نورا، ابنتي. المخدرات حطمت إمكانية أن يكون لي أحد في هذه الدنيا. وانتهى بي الحال سائراً بخطوة أكثر ثباتاً من تلك التي تحملني، رغم أنها كانت في الأعماق، خطوة مخيفة. عند باب مكتبة لا هونه في جادة سان جيرمان وأمام كشك بيع الصحف والمجلات، رأيت ذلك المثقف الواعي *الـ«متشرد»*، يجلس على الأرض وكأنها عادته منذ سنين. كان زميلاً لصديقي القديم أنجلو سكورسيليتي. إنه رجل مهذب، ليس بسبب تصرفاته الرائعة فحسب (يلقي تحيات الصباح الرقيقة بأدب شديد، على المارين الذين يتوقفون أمام كشك الصحف والمجلات، أو يدخلون إلى المكتبة) بل لأنه كرّس نفسه لقراءة الكلاسيكيات، وهو جالس هناك فوق الورق المقوّى الذي وضعه على الأرض تحته، متأملاً العالم من حين إلى آخر. وفي بعض المناسبات، ينتصب واقفاً على حين غرة –رأيته

أكثر من مرة- ليدخن بتباهٍ كبير وقناعة واضحة، سيجاراً كوبياً كبيراً وثميناً، متجاهلاً المارة.

سمعته ذات يوم يستشهد بمقولة كلاسيكية. كنتُ على وشك دخول لا هونه، عندما قال لي، وكأنه كان يعرف أني إسباني: «أراني أموت بين الذكريات الحزينة». اقتباس لمقولة لغارسيلاسو. عِلِقَت تلك اللحظة في ذهني. في يوم ما من العام الماضي، التقيتُ بسكورسيليتي، عندما كنتُ اشتري صحيفة من الكشك، وقررتُ أن أتخذ الخطوة التي أخذت مني شهوراً من التأمل، وطلبت إليه أن يحدثني عمّا اعتاد أن يتكلم به مع صديقه *المتشرد*. أتذكر أني طلبتُ منه هذا بينما كنا نمشي على الجليد. كان الثلج يتساقط في باريس في ذلك اليوم. أما القصة التي رواها لي سكورسيليتي، فحدثت في أحد مساءات باريس التي كان ينزل فيها الثلج أيضاً. كان وحيداً في هذه المدينة يتملكه شعورٌ بالملل في شقته في شارع الجامعة. وقرر أن يخرج للقيام بجولة، ولم يجد أحداً حتى عثر على صديقه *المتشرد*، الذي حدثه عن قلقه في هذا اليوم الشتائي. ودعاه الرجل بكل عفوية إلى أن يجلس إلى جانبه ويرى العالم من منظاره المتواضع من على الأرض. لم يتردد الكاتب لحظة في قبول الدعوة. وران عليهما صمت ثقيل، وهما عند مدخل المكتبة يتأملان من الأسفل، الخطوات العاجلة والناشزة اللامبالية دائماً، للعابرين الشتائيين حتى قطع *المتشرد*، الصمت ليقول له: «هل رأيت يا صديقي؟ يمر البشر ولا أثر للسعادة على وجوههم».

أما هو، فكان يعتبر نفسه سعيداً. حين أفكّر في هذه القصة التي رواها لي سكورسيليتي، أقول لنفسي إن *المتشرد* يمتلك شيئاً من تلك الحيتان السعيدة التي تصف الإنسان في حكاية *سيدة بورتوبيم*، كتاب تابوجي حول الصقور. تقول الحيتان في هذه الحكاية المقتضبة، بحنان مأساوي، إن البشر الذين يقتربون منها «سرعان ما يشعرون بالتعب، وحين يهبط المساء، ينامون أو يتأملون القمر. يبتعدون منزلقين في صمت، وهم حزانى، أكيد».

ورأيت *المتشرد* في هذا الصباح. عندما أصبحت على مسافة أربع خطوات منه، تساءلتُ إن كان سكورسيليتي قد مرّ من هنا، وسألتُ نفسي أيضاً ما الذي سأفعله لو التقينا به. هل سأحاول أن أغض الطرف عنه، وأضع

اللفاع على نظارتي؟ أو يقدمني إليه كدكتور باسافنتو، أحد المعجبين به، ويطلب منه توقيعاً بنفس الحماس الذي طلبته مني المتضررة فيوليتا توليدو في بريدها الإلكتروني؟ واصلتُ متقدماً أربع خطوات، وحين اجتزتُ عتبة المكتبة، حيّاني *المتشرد* بصوت حميم وهامس، بتحية الصباح ولم أتجرأ على الالتفات إليه. قبل أن أجد كتاب جيجي، كدتُ أُصدَم ببدعة أدبية أثارت استغرابي، رواية اسمها *الهجوم على شارع فانو*. رأيت أن مؤلفها مارك بيريت. تصفحته سريعاً وتبيّن لي أنه يتكلم عن الهجوم الوحشي الذي كان سيحدث في شارع فانو بالقرب من منزل أندريه جيد. إنها محض قصة خيالية، لكنها أمدّتني ببعض السكينة. ثمة كاتب كان يدعى لوفرتاد، قرأ على شاشة جهاز كمبيوتره، حادث اغتيال منظّم وعجيب، قبل لحظة موته تماماً. لو استوعبته جيداً، فإن هذا المنظّم يقول: «جميع الكتّاب هالكون. الغياب بالنسبة إلى بعضهم، هو الحل الأمثل. الله أكبر». أغلقتُ الكتاب، ولم أشأ أن أقرأ المزيد. ربما أسأتُ فهمه. على أية حال، ظننت أنني رأيت فتوى وكاتباً وموتاً وشارع فانو يجتمعون في الكتاب. صدف كثيرة تعترض حياتي، وربما لا.

أغلقتُ هذه البدعة الأدبية غير المتوقعة، وسألتُ عمّا إذا كانت لديهم رواية *سنوات العقاب الجميلة*، وعثروا لي عليها عاجلاً. وقبل أن أشتريها، قرأت هناك في المكان ذاته وبسعادة، الصفحة (الوالسرية) الأولى لكتاب فلور جيجي: «في سن الرابعة عشرة، كنتُ تلميذة في مدرسة داخلية في أبينزل، الأمكنة التي كان روبرت والسر يتجول فيها كثيراً عندما كان في مصحة هاريساو، غير بعيد عن معهدنا. مات في الثلج. هناك صور تُظهر آثاره ومكان جسده على الثلج. لم نكن نعرف الكاتب. ولا حتى أستاذة الأدب كانت تعرفه. أفكّر أحياناً، كم هو جميل، أن يموت المرء هكذا، بعد نزهة، ثم يسقط في قبر طبيعي، على جليد أبينزل، بعد ثلاثين عاماً تقريباً من المكوث في مستشفى المجانين في هاريساو. خسارة حقيقية، أننا لم نكن نعرف بوجود والسر، وإلا لكنا قد قطفنا له وردة. كان أيضاً تسمر في مكانه قبل أن يموت، حين قدمت له امرأة مجهولة، وردة. في أبينزل لا تستطيع مقاومة إغراء التجوال».

وعلى الرغم من أنه ما كان يجب القيام به لأني أرغب بالتخلص من كل ماضيّ (أو على الأقل أن أدع طفولة ثانية ومراهقة وشباباً تتسرب مني) فكرتُ في مدرستي، المعهد الإيطالي في برشلونة، ثم وسط مجموعة من الأفكار الشريرة، فكرتُ في مستشفيات المجانين في كل العالم، وخاصة في هاريساو. كل هذا ساورني لحظة كنتُ هناك في المكتبة، بما فيها التفكير في مواضيع مثل الوحدة والجنون، المواضيع التي يتشابه فيها أحياناً والسر وجيجي بشعورهما اللذيذ بعدم الراحة، على الرغم من أسلوبيهما المختلفين المتقاطعين. فكرتُ في هذا كله ثم اشتريتُ الكتاب وخرجتُ إلى جادة سان جيرمان. وبينما كنت في طريق العودة إلى الفندق، عاودني التفكير في جمال التنزه ذات يوم في مقاطعة أبينزل والذهاب إلى هاريساو ورؤية مستشفى المجانين الذي قضى والسر بداخله ثلاثة وعشرين عاماً محبوساً، حتى عثر على قبره الطبيعي في أعياد ميلاد 1956.

-5-

التفكير في اليوم الخامس والعشرين من كانون الأول الذي مات فيه والسر، قادني إلى يوم عيد الميلاد للأسبوع السابق، حين ذهبتُ في منتصف الظهيرة للبحث عن مورانتي في سكن كامبو دي ريكا في برج غريكو. كنتُ أمشي تحت الجليد المتساقط في نابولي، مغطى بصورة جيدة بلفاع عنق طويل. في مساء ذلك اليوم، وبعد أن تناولتُ طعامي في مقهى كامبرينوس، سرتُ بين الجموع إلى جانب البروفيسور مورانتي في شوارع نابولي المكهربة، تذكرتُ أن روبرت والسر كان يكتفي بالمشي في الزحام لكي يشعر بالسعادة. يبدو أن السير وسط الجموع بالنسبة إليه، ممتع للغاية.

مضيتُ نحو فندق السويد سيراً على الأقدام، مُفكراً في يوم عيد الميلاد النابولي للأسبوع السابق. كانت خطاي تتسارع بعض الشيء، كأن رغبة تستبد بي في الحديث عن قصة جولتي الثانية مع البروفيسور مورانتي، الجولة التي اكتشفتُ فيها شبابي في برونيكس. سأبدأ في كتابتها حتماً حالما أصل إلى غرفتي. أو ربما من الأفضل إعادة قراءة كتاب جيجي؟ وتنبهت إلى أنني كنتُ أسير بكثير من القلق، فقللت من سرعة خطواتي في جادة سان جيرمان

وشرعتُ في جمع عبارات والسر التي كثيراً ما كانت تبدو لي أنها تنزلق في صمت جليدي، مثل عبارات جيجي. وعبرت إلى ذهني الذكرى الوحيدة التي تستحق أن تُنقذ وتُحفظ في ماضيّ الحقيقي. تذكرتُ كيف أنني في المعهد الإيطالي في برشلونة، اتخذت قراراً في السر، أن أتوقف عن التهيؤ لدخول العالم، بل الخروج منه دون أن يلاحظ أحد ذلك. كان لهذا قيمة في مدرسة، على العكس من معهد بنياميتنا *يعقوب بن جونتين*، كانت تعلّم حصرياً كيف تشق طريقك في الحياة بنجاح. عبرت إلى ذهني هذه الذكرى، وتذكرتُ أيضاً كيف قررتُ يوماً، مع قليل من الحظ، الطاعة والصبر اللذين كانوا يغرسونهما، أن أحصل على هذا النجاح، لكن ليس النجاح الذي كانوا يوصوننا به، بل النجاح الداخلي.

أتذكر يوم كنا طلاباً في الجامعة، كنا نتظاهر، ونحن في قاعات المحاضرات، بأننا منهمكون في القراءة والدراسة، بينما كنا في واقع الحال جميعاً ومن دون استثناء، بعيدين تمام البعد عن التعلم والدراسة. كانت مدرستي تروق لي، لأنها ولّدت لديّ انطباعاً لا إرادياً، بأن أساتذتها البدائيين المغفلين، بدلاً من أن ينمّوا فينا *بناء الشخصية* (مثلما يُقال في المصطلحات التربوية)، كانوا يُفسدونها ويفككونها. أحببتها هكذا. كنتُ أجد نفسي مشدوداً *للطبقات الدنيا*، واكتشفتُ بعد سنوات أن روبرت والسر كانت تعجبه أيضاً. كنتُ أركز نظري حصرياً على أصغر الوقائع، على كل شيء كان يبدو مؤقتاً وعابراً. لم يكن اهتمامي منصباً على الكلمات المبهرجة، وإذا صادف أن شاركتُ ذات مرة في مسابقة الإنشاء للمعهد الإيطالي المغمور، وكتبتُ نصوصاً ذات عبارات فصيحة وعناوين برّاقة (ثناء الوطن، على سبيل المثال) فالحقيقة أنه تُلاحَظ على الفور، ميولي التي لا تُكبح نحو *الطبقات الدنيا* في جميع هذه النصوص، وبعد الانطلاق المهيب، المتكون من عبارات طنانة متعالية على العالم، أتسلل بسرعة نحو الأشياء الصغيرة، التي كنتُ أصلها عبر مجموعة رئيسية من الأفكار التي تحملني إلى أرضية لا كِبرَ فيها، بل إنها متواضعة بلطف شديد تنتهي بالانشقاق نحو نقطة اختيارية لنهاية العبارات التي كانت تُذكّر ببداية متعجرفة ورسمية.

بقيتُ مخلصاً *للطبقات الدنيا* لسنوات، كنتُ فيها أتحرك بخطوات

محسوبة ومتقنة نحو بلد «الصفر إلى اليسار»، ووفياً، لفترة طويلة وقبل أن أعرفه حتى، لبطل أخلاق المستقبل، روبرت والسر الذي كتب: «إن نهضت، ذات مرة، يد أو فرصة أو موجة، وحملتني نحو الأعالي، هناك حيث تسود القوة والهيبة، فسوف أمزق الظروف التي تأخذني إليها، وأرمي نفسي إلى الأسفل، في العتمة الدنيا المهمشة. أنا لا أتنفس إلا بين الطبقات الدنيا».

كنتُ وفياً لوالسر قبل أن أعرف أنه كان موجوداً حتى. فقط حين تفجرت شهرتي (متأخرة بعض الشيء، أكيد) ككاتب معروف، وأصدرت أول كتبي الذي استُقبِل من القرّاء على نحو مقبول، لاحظتُ أنني خنتُ المبادئ الأخلاقية التي أسستها سراً في المعهد الإيطالي التابع إلى منديث فيكو في برشلونة. غالبني شعور بالاشمئزاز لأني تخليتُ عن تلك المبادئ، وساورتني هواجس مستمرة للعودة إلى الطبقات الدنيا التي كانت تُلاحقني منذ ذلك الوقت، حتى بدأتُ أول خطواتي في محطة إشبيلية، سانتا خوستا، لأجل أن أعود ذلك الكائن الذي لن يهيئ نفسه لدخول الدنيا، بل للخروج منها دون أن يلاحظني أحد. ثبّتّ هناك في إشبيلية أول حركة لأعود ذلك الذي يهوى فكرة أن يزداد صغراً كل يوم ليتمكن من أن يكون صفراً فعلياً على اليسار، في طريق الاختفاء ذات يوم.

بعد كل هذا، إذا كان لديّ اليوم بعض اليقين، فبسبب وجود ظلم كبير في العمل الفني. يُكتب بوجع مَن يرى نفسه مُنتَهَكاً نتيجة عمل رديء. إن فشل أي عمل يجر إلى خيبة شخصية كبيرة، لأن صاحبه لم يستطع أن يُثبت ذكاءه ولا موهبته. بين الطبقات العليا، يظل المرء مثلاً مبتذلاً طموحاً، متسلقاً بنصف شعر. لذلك غالباً ما يسيطر الضيق والغم لتحقيق العمل الفني، لكن هذا ليس أسوأ ما في الأمر. الأسوأ يحصل حين لا يصل الفشل، بل حين يُحتفى بالعمل الأدبي على نحو ما ويحظى بالتصفيق، لكنه مع ذلك لا يأخذ صداه بين الجميع ولا يُشعَر اتجاهه بالقناعة الحميمة. على أرض الواقع ليس هناك اعتراف كلي بالشيء. العمل الناجح يعيش حياته الخاصة، ويكون في بعض الأماكن، على الهامش ولا يفعل الكثير لأجل مؤلفه. بين الطبقات العليا، يُثقَل المؤلف بتهانٍ سطحية، على حين غرة، تصفيق شرفي مشكوك به، حركة يد تشجيعية على الظهر، طلبات

تافهة للحصول على توقيع، رسائل حب كئيبة، ودعوات لشد الحبل على العنق لأجل أية جائزة دولية.

آخذاً بنظر الاعتبار هذا كله، لن يبدو غريباً إن قلتُ اليوم، وأنا أسير في جادة سان جيرمان عائداً إلى فندق السويد، إنني حاولتُ أن أُقنع نفسي بأنه من حسن حظي، أن أكون واعياً، بأن الدكتور باسافنتو في نهاية الأمر، لم ينشر شيئاً على الإطلاق وعليه لم يُثقل كاهله بعمل أدبي، وليس لديه ما يندم عليه، وبإمكانه العيش في عمق تعاسته، في ما يسميه «أخلاقيات الجليد والإحباط». سعيدٌ أن ليس لي عمل أدبي، كنتُ أمشي على غير هدى نحو الفندق، مُفكراً في عبارة والسر المبهمة: «الله مع أولئك الذين لا يفكرون»، التي لو تمعن أحد فيها، ربما لكان قد فسرها على أن الله الكائن في أعماق كل واحد فينا، قادر على أن يمنحنا الحرية الرصينة. على أية حال، قلت لنفسي بتهكم، ما نفع الحرية الرصينة، مادام لم يعرف وجودي سوى سائقي سيارات الأجرة، خوفاً من المشاكل التي يمكن أن يسببها دعسي؟

وأنا في غرفتي الآن، قررتُ أن أتهيأ لكتابة لقائي الثاني مع مورانتي في نابولي، لقائنا يوم عيد الميلاد. في هذه المرة يجب أن أبتدئ بهذه العبارة التي أطلقها البروفيسور:

- كم طال شبابك، دكتور باسافنتو؟

-6-

كنتُ أتهيأ حينها للتصدي لقصة جولتي الثانية مع مورانتي، عندما ساورني التفكير في نوع آخر من الجولات. فجأة اعترض طريق تفكيري «متنزه سان خوان» في طفولتي. في طفولتي؟ وجدتني عل حين غرة، أخترع طفولة مختلفة عن طفولتي، التي جرت في متنزه آخر في برشلونة، وليس في متنزه مدينة سان خوان بالتحديد. سرّني أن أبرهن لنفسي أني في نهاية الأمر، أنشأت طفولة للدكتور باسافنتو، وقلتُ لنفسي إن هذا الدكتور ربما يشترك بالشيء الوحيد مع الكاتب الذي كنته (أقصد أنا، لكن الآن بشكل شخصي فقط) في الطفولة التي كانت تجمعنا معاً، كجارين في «بورت دي لا سيلفا»

مع عائلة شاعر المستقبل أنجلو سكورسيليتي. كنا نلعب جميعنا مع الطفل سكورسيليتي خلال صيف طفولتنا القصير، على الرغم من أنني أسارع الآن وأضيف هنا أنها ذكرى مُخترعة تماماً. في الواقع، هذا يفسر بشكل أفضل إمكانية أن يشترك شخصان مختلفا الماضي كلياً، في الذكرى نفسها.

لا يهمّ إن كانا مختلفين بنسبة قليلة أو متشابهين بعض الشيء. درس دكتور المستقبل، على سبيل المثال، في مدرسة الإخوان ماريستاس في متنزه سان خوان في برشلونة، وليس في المعهد الإيطالي التابع إلى منديث فيكو. كانت عائلتي ستأخذني إلى هذه المدرسة الدينية لأنها تقع قريباً من شارع روزليون، إلى جانب متنزه سان خوان الذي كنا نقطن فيه. كان المتنزه يمثل بالنسبة لي، ما يمثله شارع بابوينو بالنسبة لمورانتي، أي، مركز الكون. جميل أن أفكّر أن مَن وضع على أرض الواقع، مركز العالم في متنزه سان خوان ذاك، هو الذي كان قد عاش حقاً هناك، ابن خالتي أرتورو، الذي درس في مدرسة الإخوان ماريستاس وعاش مع والديه في شارع روزليون، والذي صادفته، في ثلاثة فصول صيف في أيام الطفولة وفي برجين متقاربين في سانت إندرو دي لافانيراس.

عندما كنت أخترع الصور والذكريات حينذاك، عن علاقتي الطفولية في بورت دي لا سيلفا، مع الصغير سكورسيليتي (اختراع متعمد سيُنشر في كل مكان، للتشويش على السيرة الذاتية مع سكورسيليتي) تسندني في ذلك دائماً الوقائع الحقيقية التي كانت تدور حول جاري الصيفي وابن خالتي أرتورو. وهذا ما سهّل لي كثيراً بعض مفردات الاختراع. أرتورو يمتلك شيئاً من الطفل سكورسيليتي، وبورت دي لا سيلفا، أصبحت سانت إندرو دي لافانيراس. وعلى الرغم من أني لم أرَ أرتورو منذ سنين، فإنه كان لدي خزين جيد عن طفولته لأننا كنا صديقين حميمين، وكنا لا نخبئ بعضنا عن بعض شيئاً، حتى جاء اليوم الذي أُرسل فيه إلى مدريد ليدرس الطب وهو ابن سبعة عشر عاماً، ولم نر بعضنا بعد ذلك قط. بعد خمسة وثلاثين عاماً من الفراق، عرفت أن أرتورو ما يزال في مدريد يمارس مهنة الطب، ومن الأخبار القليلة التي كانت تصلني عنه من زملاء، عرفتُ أيضاً أنه كان مواظباً على حضور مؤتمرات الطب والأدب التي كانت تنظمها مؤسسة علوم الصحة. أكثر من

زميل واحد أخبرني أنه وقَّع أحد كتبه لابن خالتي أرتورو، واتفق الجميع على أنه إنسان لطيف جداً، وأنه كان يشيد بابن خالته، لكن كان طبيباً غريب الطباع لأنه كان يوصي بالتدخين. لم أكن أعرف عنه أكثر. وعليه لم أكن أعرف حتى قسماته الحالية. بدأت أتخيله وفقاً لملامح السبعة عشر عاماً، بشعره الأشقر المقلوب إلى الوراء وجلده الممتلئ بالنمش، يدخن سجائر رامبو. كان ابن خالتي الحقيقي، بحيث إنه لم يكن يدعى الدكتور باسافنتو مثلي، بل -بالطريقة الأكثر تواضعاً التي أفهمها- الدكتور سانجيث.

كنت أحفظ عن ظهر قلب، طفولة الدكتور سانجيث في «متنزه سان خوان»، وقد امتلكتها أنا في هذا الصباح، وأصبحت طفولتي أنا منذ عدة ساعات في هذه الغرفة التابعة لأحد فنادق باريس. من الرائع سرقة أو اختراع ذكريات عن ابن خالتي أرتورو، وإعادة تمرير ذكريات هذه الطفولة المرتبطة بمتنزه سان خوان، آخذاً بنظر الاعتبار على وجه الخصوص، البؤس الذي يرافق ذكرى طفولة الكاتب الفقير باسافنتو في أحد أحياء المعهد الإيطالي في برشلونة، وهي طفولة تستحق أن يُنقذ منها فقط ذلك الدافع الذي بسبب هشاشته، كان يحملني في بعض المناسبات على تدوينه في كراسة مدرسية بقيت أحتفظ بها حين كبرت، وحلمت أن أكون جندياً متواضعاً في جيش نابليون.

وهكذا أستطيع أن أقول الآن إن متنزه سان خوان كان بالنسبة إلي، مركز الكون، مثلما كان شارع بابوينو بالنسبة إلى مورانتي. كنت أرى في فترات ما بعد الظهيرة، بعض الممرضات يتجولن فيه، لكنها ستكون كذبة كبيرة وغليظة أن أضع لها الآن -لا أتعاطف كثيراً مع الدكتور فرويد- رسم علاقة مباشرة بين الإثارة التي يسببها الزي الرسمي بالتنانير القصيرة لتلك الممرضات ومهنتي اللاحقة كطبيب.

منذ وقت ليس ببعيد، عدت إلى طفولتي في متنزه سان خوان، ورجعتُ إلى الطريق الذي اعتدتُ أن أقطعه طوال عمري (حوالي خمسة عشر ألف مرة). أحفظه جيداً عن ظهر قلب، لكنه باقٍ على قيد الحياة في ذاكرتي، في مخيلتي لأن هذا المسار الرئيسي من البيت إلى المدرسة لم يعد كما هو قط، أجروا تغييرات كبيرة عليه، مؤكدين أن بقاء مدينة طفولتك على قيد الحياة، تجربة حديثة. العالم وخارطة الكون يمتدان من 343 شارع روزليون

حتى زاوية فالنسيا مع متنزه سان خوان، حيث كانت تقع مدرسة الإخوان ماريستاس. كنت أقطع هذه المسافة المكثفة مع بعض الزملاء حاملين شراب الكاوكلات (نوع من المشروبات الساخنة بالكاكاو) في صباحات الشتاء التي عادة ما تكون باردة. رحلة قصيرة مثل الطفولة ذاتها، تبقى محفورة في ذاكرتي، وما زالت إلى الآن تمثل بالنسبة إلي العالم وخارطة الكون. أما البقية، ما كان خارج الطريق، فكان -وما يزال بالنسبة إلي- مساحة فارغة لا معنى لها تقريباً، شيئاً يشبه هذا الفضاء المتخيل الذي كان يجتذب دائماً آرثر رامبو. كان يتألف من شارع يمتد من الأسيجة وحتى الميناء المصبوغ على نحو عشوائي لمدينة كان يجب أن تكون الحافة الأمامية لصحراء.

في هذا النوع من الشوارع الآرثرية، المقدم للطفل مثل قنبلة سرية متوحشة جداً، كان يتمركز العالم بأجمعه للشاعر الفرنسي: الكاتدرائية، منزل الأستاذ المتمرد، المدرسة، متجر القبعات التركية، المكتبة، شعار الشرائط الملونة، المشروب القوي مثل معدن منصهر، وفي نهاية الطريق («لابد أن تكون نهاية العالم في نهايته»، كان يعتقد) ذلك السنجاب المحبوس في قفص من الخوص الذي رأى كيف كانوا يصعدون إلى بارجة دنماركية.

بالنسبة إلي، فإن رسم خرائط الجنة وشارع آرثر، كان في ذلك الزمان، قنبلة سرية متوحشة أيضاً، يمتد عبر ست نقاط حيوية تبدأ من متنزه سان خوان، وستة فضاءات ما زلت قادراً على زيارتها في ذاكرتي كما كنت أسافر وأنا طفل يضع أصبعه على خرائط أطلس العالم: الضوء البحري لبوابة منزل والديّ، المتجر المظلم لبائع الكتب اليهودي العجوز الذي كان يبيعني القصص المصورة، سينما تشيلي المبهرة وبرنامجها السينمائي، ملعب البولينغ المهجور، السكن الغامض للصم والبكم، وفي نهاية الطريق الحواجز الحديدية الحادة لمدخل كنيسة المدرسة.

هكذا كان العالم وما يزال. هذا الطريق كان يختصر العالم لي، يحتويه. فيه كان يوجد كلُّ ما هو جوهري بالنسبة إلي: الوالدان، القراءة والحرية التي كانت ترافقها، السينما، غربة المناظر المهجورة، الصمت وجنون المدرسة العديمة النفع. لا حياة خارج هذا العالم الحي جداً في ذاكرتي، بمواسم الحب الستة والوجع الذي ما زال يعشّش في أعماقي. أثناء عودتي من

المدرسة في فترة ما بعد الظهر الشتائية، كانت بوابة بيت والديّ (اللذين ماتا موتاً طبيعياً في سن محترمة جداً) تعكس لوناً كئيباً جداً لدى الاقتراب منها، لكن ليس كثيراً عندما تتأملها عن بعد. كنتُ غالباً ما أربط المدرسة بالبرد ورحلة الشتاء. عند رؤيتها من بعيد، كانت بوابة منزل العائلة تكتسب لوناً غريباً، وحين يسقط عليها ضوء ما بعد الظهر، تصبح قريبة جداً من عالم جول فيرن ومن بوابات أيكسامبل الحديدية التاريخية في برشلونة أيضاً، بزجاجها القاتم بسبب الرطوبة، التي كانت تقدم للأطفال، من مسافة معينة مدعومة بالمصابيح الصفراء، إحساساً بالظلام البحري في قمرة الكابتن نيمو.

كان يُلاحظ في متجر الكتبي اليهودي العجوز، في 341 من شارع روزليون، أن «شيئاً أصمّ من الماضي البعيد» يتنفس -رغم أن الطفل كان يجهل ذلك تماماً- مأساة الشعب اليهودي المُضطهد الحديثة العهد، ويتنفس الغموض أيضاً معجوناً بالبخور وبالرائحة الغريبة للبلدان البعيدة، والسلع الدخيلة التي كنتُ أفترض أنها -كما في شارع طفولة رامبو- كانت مُخبأة في مخازن حصينة أو في الغرف الخلفية لهذا التاجر العجوز: حرائق البنغال، خزانات سحرية، صناديق موسيقى نورمبرغ (المدينة التي هرب منها التاجر)، كتب غريبة، سجاد مغبر ممتلئ بنقوش قصص تاريخية من الماضي المروّع، وجرائم ما تزال حديثة العهد للغاية.

من الممكن أن ترى، أمام متجر اليهودي العجوز، الضوء الأبدي المشتعل لبهو سينما تشيلي. ثم وأبعد منه بقليل، قبل أن تصل إلى شارع بروفينثا، ينتصب ملعب البولينغ المهجور، يليه عند الوصول إلى دياغونال، سكن الأطفال الصم البكم الذي يبدو كأنه قلعة ساحرة. وأخيراً المدرسة التي لم تكن تعلمنا شيئاً، مثل معهد بنياميتا، سوى أننا إذا تقدمنا أبعد من هناك، سنكون قد دخلنا نهاية العالم.

عدتُ قبل فترة، إلى متنزه سان خوان هذا، ورأيتُ أن لا شيء من ذكرياتي، هناك. ورجعتُ إلى الطريق الذي سلكته كثيراً في حياتي، ورأيت أنه خُرّب وقاموا بتغييره عمداً بدلاً من تحسينه. وبدلاً من الضوء البحري للبوابة، يُرى اليوم ضوء كهفي كئيب، وفي مكان سينما تشيلي، موقف سيارات عمومي يحمل اسم السينما العتيقة. ومتجر اليهودي

العجوز، أصبح اليوم «سناك بار بويز» القذر المشؤوم. أما ملعب البولينغ، فغدا فرعاً من صندوق الإدخار. والقلعة الساحرة للصم والبكم، البالاو ماكايا، بناية المصمم المعماري المُجدد بويك أي كادافلاش، تحولت إلى متحف للنشاطات الثقافية عائد إلى مصرف كتلوني. ولم تنجُ من هذا سوى المدرسة التي بقيت كما هي بحواجزها الحديدية الحادة مثل رمح، وتلامذتها الذين لا يختلفون عنّا أبداً حين كنا نواظب على الدوام وندرس دون أن نفهم شيئاً أو نتعلم.

بانوراما غريبة لهذه المعركة الخاسرة: الطفولة. ربما تكون الشيخوخة نعمة، لكنها من المؤكد تنفع أيضاً للتحقق من أننا مشينا وأن الزمن يمشي معنا، تنفع للتحقق من أننا تقدمنا عبر كثبان متحركة قادتنا على ما يبدو إلى نهاية رحلة وضعتنا على الحافة الأمامية لصحراء، إذا نظرنا منها إلى الوراء وحاولنا استعادة شيء من شارع آرثر، لا نستطيع أن نرى سوى طريق قديم خطّ عليه «الزمن» نهاية وعرة لعالمنا. نحن نعلم أنها نهاية العالم إذا تقدمنا خطوة إلى الأمام. ونعلم أننا سنختفي إن تقدمنا أكثر. نخطط للقيام به لأننا نعتقد أنه من الأفضل أن نتذكر أن هذه الخطوة قام بها آخرون من قبل، وهؤلاء الآخرون كانوا دائماً مستكشفينا المفضلين، الذين أعجبنا بهم كثيراً عندما رأيناهم يتلاشون في ظلال الفراغ اللزجة.

-7-

«كم من الوقت استمر شبابك، دكتور باسافنتو؟»، سألني مورانتي بوقاحة حالما رآني أمامه في السكن، عشية عيد الميلاد. يبدو أنه قضى ليلة الميلاد بأكملها يُهيئ لهذا السؤال. كنتُ سأجيبه، لولا أنه غيّر السؤال وإن كان على نحو طفيف جداً: «كم من الوقت استمر شبابك، دكتور فاوست؟»، وضحك. كانت ضحكة مجنون هذه المرة.

لم أشأ أن يراني أتردد كثيراً، وهناك في نفس المكان عند درج مدخل المركز، سرقتُ شباب رجل مُتخيل، شاب كتلوني مهاجر من عائلة باسافنتو، مثلي، كان سيقضي طفولته ومراهقته في برشلونة وجزءاً من شبابه في برونيكس الإيطالية في نيويورك، يعيش في نفس الشارع الذي كان يسير فيه

شباب أصبحوا مشهورين فيما بعد: روبرت دي نيرو، دانيال ليبسكند، دون ديليلو وكولن باول، أصدقاء جيدون في الحي، حيث كانت تعيش عوائلهم جميعاً في المبنى ذاته تقريباً.

«ويمكن القول حتى، إن سكورسيزي استلهمني في *«الشوارع الشريرة»* بشخصية الشاب الذي يذهب لدراسة الطب في مانهاتن»، قلتُ له. نظر إليّ مورانتي دون أن يراني. يبدو أنه كان يقوم بذلك عمداً، دون أي تعبير في عينيه. واصلتُ حديثي له، هناك في المكان ذاته عند درجات المدخل تلك، عن الأجواء الكثيفة لبرونيكس وكيف يقضي أحدهم حياته في الشارع، محاطاً *بعصابات* من الشباب التي كانت تسيطر على رياضة كرة السلة والبيسبول. حدثته أني عملتُ حارساً في موقف السيارات ومحرراً للإعلانات بالكلمة، حتى ادّخرت ما يكفي، بمساعدة أمي، لكي أتمكّن من التسجيل في كلية الطب – قسم الطب النفسي.

«تخرجتُ في قسم الطب النفسي – الكآبة»، واصلتُ حديثي له أثناء نزولنا السلم الخارجي، «وكنتُ ميالاً للأهواء الشعرية. كنتُ أكتب قصائدي في المساء، حين يتملكني شعور بالملل وأنا وسط بعض الأطباء المكتئبين في أحد مستشفيات مانهاتن. كنتُ أقضي فترة ما بعد الظهر وحدي بهدوء مرتدياً صدريتي البيضاء. كانت مساءات صافية ومثالية لكتابة قصائد تتحدث عن المساءات الرائقة تحديداً. كان زمن قصائد المستشفى والأبيات المكتوبة بين الراهبات والأنوار القطنية. أحياناً كنت أستقبل صديقي المعماري دانيال ليبسكند الذي كان يقوم بقراءة قصائدي ويقارنها مع الأبنية التي كان قد حلم بها. عدتُ بعدها إلى بلدي وعملتُ في أحد مستشفيات جادة مرديانا في برشلونة، حيث كنتُ أستثمر بعض المساءات الصافية لكتابة المزيد من القصائد، حتى إني كتبتُ واحدة في وداع سنوات شبابي».

أطبق الصمت على مورانتي. «شباب شعري»، أدليتُ برأيي ناظراً إلى الأرض، محدقاً في بقعة دهنية كانت على إحدى درجات السلم الخارجي. ثم رفعت نظري ببطء نحو مورانتي، في محاولة جديدة لسبر أغوار درجة الريبة في نظرته التي كان قد استقبل بها نسخة سنوات شبابي. كنتُ أحاول أن أرى إن كان سيربّت على كتفي ويقول لي بطريقة ودية إنني حسناً فعلت

بالظهور كشخص آخر، وإنه تجاوزني فيما يخص قصة برونيكس، أو إنه على العكس، تقبل الرواية التي قدمتها عن شبابي، دون مشاكل، بسبب مرضه العقلي الغامض.

«من هو كولن باول؟»، سألني ببساطة.

ورغم أنني لم أكن متأكداً تماماً، بدا لي أنه كان يسخر مما رويته له، ولم يكن هناك دوافع للتفكير في احتمال آخر غيره. «قل لي الحقيقة»، قلتُ له حينئذٍ، «أنت تتذكرني تماماً منذ أيام المعهد، أليس كذلك؟». صمتٌ طويل وثقيل. نزع مورانتي قبعته، وضعها إلى جانبه، بالطريقة ذاتها التي كان قد قام بها مرات عديدة قبل يومين، وبدأت أستوعب أن هذه الحركة كانت تشكل جزءاً من طقوسنا في التجوال، وأن ذلك يعني بالنسبة إليه، شيئاً معيناً بالتأكيد. وهذه الإيماءة الفخمة ربما تعني: «لنغير الموضوع». تركنا السلالم الخارجية خلفنا ووصلنا إلى شارع إنريكو دي نيكولا. «هل تتذكرني أم لا؟»، أصررتُ بلا هوادة، ثم إنني يجب أن أقول له كل شيء، شيء يبعث على الأسى. «لم أسمع بك من قبل. أنا وأنت نمزح، وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد»، قال لي.

بدأت ندف الثلج تنزل في نابولي، وأنا بلفاعي وياقتي الطويلة، ومورانتي بقبعته التي أركسها في رأسه بقوة، بدلته المخططة، ومعطفه الرمادي القديم لكن الأنيق الذي كان يصل حتى قدميه، والذي قال، أعتقد مازحاً، إنه يعود إلى غابرييل دي أنونزيو. «معطفي»، أردت أن أحدثه، «اشتريته من فينيسيا. في وقت ما، كان يروق لي كثيراً إن أرتديه، لأني كنت أعرف أنه يجذب الانتباه». أوصلتنا سيارة أجرة إلى مقهى كامبرينوس، حيث كنا قد حجزنا طاولة. في وقت آخر، كانت وجبات أعياد الميلاد مؤلمة بالنسبة إلي. في ذلك اليوم، لم أكن قد اخترعت بعد، طفولة في أحد شوارع آرثر (لم أكن أعرف أنه عليّ أن أنتظر هذا اليوم، هنا في باريس، لمثل هذا الاختراع). طوال فترة تناول الطعام مع مورانتي، كنتُ أنشغل بعض الأحيان، بصمت، في استذكار طفولتي، لنقل إنها الحقيقية، في استذكار تلك الأيام التي كانت فيها أعياد الميلاد الصعبة، مرتبطة بالحاجة إلى الهروب منها، وفي الوقت ذاته بالالتزام الرهيب بالاحتفال بها. ولحسن الحظ، سرعان ما تلاشت تلك الذكريات التعيسة.

إن تناول الغداء مع مورانتي فاقد الذاكرة، بصرف النظر عن كونه تعويذة لغربتي، بدأ يتبدى كطريقة ذكية للهروب من أعياد الميلاد ومن ذاكرته. الحقيقة أنه في بداية الغداء، لم يكن هناك ما يدل على أنني ربما أكون قد أخطأت. أقسم أن مورانتي كان يُراهن، كتحدٍ شخصي، على أن يُنسيني جراح أعياد الميلاد القديمة التي كنتُ أقضيها مع عائلتي. كنتُ أراه جذلاً، لكنه يكون هكذا فقط في الساعات الأولى. في نهاية اليوم، بالغ في إظهار سعادته، فتكدّر كل شيء. كنتُ أشعر بالسعادة في البداية، لكن مع مرور كل دقيقة، كنتُ أظن أني أرى بوضوح مورانتي، الشخص المثالي الذي يُنسيني اليوم الذي كنا فيه، ويُنسيني أيضاً كل علاقة لي مع الماضي، ويثبّت في أعماقي، في وقت واحد، سيرتي الجديدة، سيرة ذاتية جديدة لا تنفي الأخرى أبداً. كنتُ أصنع لنفسي حياة بمرحلتي شباب، على سبيل المثال. لم أكن سيئاً. يستطيع المرء أن يتنفس أفضل هكذا، مع مرحلتي شباب. أصل إلى الثانية حين أفشل في نيل الأولى. لكن أثناء تناول الحلويات، بدأ كل شيء يأخذ منعطفاً قاتماً نوعاً ما. بدأت أرى في مورانتي، تهديداً مباشراً لبناء مرحلتي شباب. إذ إنه سرعان ما بدا لي، بالكثير الذي ما كان من المفروض أن يُظهره، أنه كان يحافظ على خزين ذاكرته السليمة، بما في ذلك بالطبع، عني أو عمّا كنتُه أنا. وبدأت تتنامى في داخلي شكوكٌ حول ذاكرته المتقنة عني، حتى أصبحت في نهاية الأمر، مُرعبة. لاحظت أيضاً أن كفة ميزان الإعجاب به بدأت تميل أكثر نحو النفور الجسدي. طريقته في الإمساك بالشوكة، على سبيل المثال، كانت تبدو لي مبتذلة وخرقاء للغاية. وعندما كان يتكلم، أحياناً، أجده لا يطاق، وهو أمر لم يحدث لي في بداية تناولنا الطعام. مورانتي المسكين، بعالمه النقي وفق المقاييس الدقيقة ربما كان يذكرني بنفسي في الأيام التي أسستُ فيها المبادئ الأخلاقية ورؤيا جديدة للعالم، أنا بنفسي خنتها فيما بعد. وهذا ما جعلني، ربما، أشعر بحاجة ماسة إلى الابتعاد عنه. كان مورانتي يذكّرني باستمرار، دون أن يعي ذلك، بأني كنتُ أرغب في أن أكون رجلاً متحفظاً على الرسائل غير المرتبطة بالفقاعات المهيبة لهذا العالم. رؤيته قابعاً ضمن *الطبقات الدنيا*، بكثير من الهدوء والصرامة، بدت لي أمراً لا يطاق، لأنه أثار فيّ الحسد.

لم تكن تهدّئني في الفترة الأخيرة، سوى فكرة أن أصبح كاتباً سرّياً. لم أعد الرجل الذي كان قد سقط تحت زوبعة الاعتراف أمام الملأ، هذا النوع من الغار الذي يخطفه المرء دائماً في الواقع من الآخرين، ومن بين هؤلاء *الآخرين* بعض الكتاب الحقيقيين الذين، مثلما قال كانيتي تماماً، لأنهم كتاب انتهوا حقاً «بالانطفاء أو بالاختناق»، مُخيّرين بين العيش كمتسولين يزعجون العالم كله أو في مستشفى الأمراض العقلية.

حين فكرتُ في هذا كله، أدركتُ مدى سروري بالقرار الذي كنتُ قد اتخذته في الاختفاء. مع ذلك، تولّد لديّ انطباع بأنه ما يزال ينقصني الكثير لأكون ضمن *الطبقات الدنيا* بنفس الخفة المذهلة والمقيتة التي قام بها مورانتي. نظرتُ إليه. رأيته يبتسم لي بطريقة غامضة. شرعتُ أتصرف كأنني في عجلة من أمري لأتقصى، مرة واحدة وإلى الأبد، مثلما بدأت الشكوك تراودني بقوة، إن كان يتذكرني تماماً، عندما كنتُ أعمل في معهد سرفانتس.

«بروفيسور، ألا تتذكر شيئاً؟»، سألته بالتزامن مع وصول الحلويات. صمتٌ طويل ومهيب. في هذه المرة، تناول قبعته وارتداها ثم ثبتها بقوة على رأسه أكثر من أي وقت مضى. ابتسم ثم نزعها عنه مرة ثانية وأثنى على «الكورفو» الشراب الصقلي الذي شربنا منه لغاية الآن ثلاث قنانٍ ونصفاً. وحين انتهى المديح، اكتسى وجهه صبغة مكفهرة. «دكتور فاوست، يجب أن تعرف»، قال لي، «أن المقالة المصغرة التي كتبتها البارحة حتى أتمكّن من أن أحدثك بها اليوم هنا، لن أقرأها بل سأرويها لك، كنوع من الرحلات الضالة حول موضوع الشيخوخة والسعادة».

كرهته في هذه اللحظة، كما لم أكرهه من قبل. بدا لي، مع كل الخبث الذي يمتلكه، أنه كان يتذكر أني أردت في يوم ما أن أكتب مقالات ضالة دون أن يكون لي نية لنشرها. أسوأ ما في الأمر، أني لم أتجرأ على أن أمنعه من إخباري عن مقالته المصغرة. تابع يحدثني عن قصة عيد الميلاد التي جرت وقائعها في قرية تساقطت فيها الثلوج لأول مرة في تاريخها، ودون أن تكون هناك علاقة بين السبب والنتيجة، اكتشفوا أنه حُكم عليهم بعدم تذوق طعم السعادة إلى أبد الآبدين.

بعد هذه القصة الموجزة التي وجدتها تافهة، اعترف مورانتي بأن أحد أكثر المجانين في السكن الذي يقيم فيه، روى له هذه المقالة المصغرة المستلهمة من إحدى قصص سفيفو، التي كان مورانتي يرى أنها على ارتباط مع قصة القرية التي حُكم على أهلها بعدم تذوق نكهة السعادة. إن قصة سفيفو، خرافة مريرة ونسخة ثانية لأسطورة فاوست، التي كنت على دراية بها. إنها قصة رجل طاعن في السن -يمكننا أن نطلق عليه عجوزاً متوحشاً- على وشك أن يضطجع إلى جانب زوجته العجوز التي كانت تغط بالنوم وتشخر. حين يشرع في خلع ملابسه، يفكر أنه منتصف الليل وأنه الوقت المناسب لاستدعاء ميفيستوفيليس واقتراح العقد القديم عليه، ويفكر أيضاً أنه سيكون على استعداد للقيام بذلك والتخلي عن روحه دون أن يعرف ما الذي يمكن أن يسأله مقابله: الشباب؟ لا، لأنه أحمق وقاسٍ على الرغم من أن الشيخوخة لا تُحتمل، الخلود؟ لا، لأن الحياة لا تُطاق، رغم أن استنتاجاً كهذا لا يخفف من معاناة الموت. يدرك العجوز حينذاك، أنه ليس لديه ما يطلبه من الشيطان، فيتخيل حيرة المسكين ميفيستوفيليس، ممثل شركة لا تمتلك شيئاً جذاباً تقدمه للفت أنظار الآخرين. حين يتصور «الشيطان» المسكين وهو يحك رأسه في جهنم، يقهقه بصوتٍ عالٍ أثناء انسلاله في الفراش حيث زوجته نصف المستيقظة بسبب الضحك، تهمس له بين الأحلام: «ما أسعدك وانتَ تتنعم برغبة في الضحك، هذا الليل».

من هذه القصة التي كتبها سفيفو، وكما هو الحال في قصة القرية التي تساقط فيها الثلج للمرة الأولى، استنتج مورانتي أن الألم الأكثر وجعاً، لم يكن يكمن في التعاسة، بل في عدم القدرة على نيل السعادة. قهقهة الرجل العجوز التي كانت تخفي وبسخرية، في الحقيقة، خيبات الأشخاص الذين لم يعودوا ينتظرون شيئاً، كانت بالنسبة لمورانتي، الشاطئ الأخير. «الشاطئ الأخير؟»، سألته. ساورني شعور بعدم الاطمئنان في التحدث إليه. «المرحلة الأخيرة التي وصلت إليها العدمية في الغرب»، أجابني. طأطأ رأسه على حين غرة، مثل طفل ارتكب سيئة تواً. بعد قليل، طلب من النادل صندوق السيجار الكوبي. «الغرب»، غمغم. «الغرب، ماذا تقصد؟»، قلتُ له فاقداً أعصابي تقريباً. «في الغرب»، أجابني، «يجب أن نحاول الذهاب إلى ما بعد الشاطئ

الأخير الذي نلناه. لابد أن نكون قادرين على العودة إلى البحر. البحث عن سبل جديدة، أن نتفاءل، أن نؤمن بالسعادة. ما رأيك، دكتور فاوست؟».

قال هذا كله، ثم التزم الصمت بعدما مُدّ بساط الطعام بطريقة غير لائقة. تتحدث المقالة المصغرة لمورانتي عن قنوط الأشخاص الذين لم يعودوا يأملون شيئاً، وينزاح هذه التأمل شيئاً فشيئاً نحو مسألة السعادة والحاجة التي كثيراً ما يكررها مورانتي. الشيخوخة، قال لي، هي في الواقع قدر مثالي، لأننا من خلالها نطال الحرية التي لم نكن نمتلكها من قبل. وتصاعدت في الجو نفحة كبيرة من الدخان بعد هذا القول، وغضب مكتوم من جهتي. بدا جذلاً ومحاطاً بسعادة قصوى. قررت أن أسأله إن كان يبدو له الفحش الذي لا يُطاق، سعادة. أجابني كما لو كان قد اكتشف الكراهية التي تملكتني نحوه في تلك اللحظة، وشاء أن يزيدها، فقال لي إنه يستأذنني، وإن كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً، لمواصلة الحديث في أفكار عديدة عن السعادة، وآخرها يدور حول السعادة في تدخين سيجارين أصليين في عيد الميلاد. ثم بدأ يفوه بكلام مبهم وطويل حول فكرة سنوات الشيخوخة إذا كانت حرة وعصية على القيود. قال إن الرجل العجوز بشكل عام، هو رجل حقيقي، لأنه يعرف أنه إنسان في غير مكانه، شخص يملأ بالحياة الفضاء الفارغ للحياة، ويستوعب اللعبة أفضل من اللاعب نفسه لأنه حين يكون خارج المكان، لا يشتته الجهد الذي يفرضه المشارك فيه.

أدركتُ أنه كان يعاملني كشاب، وهذا ما شجعني، وجعلني أتصالح معه قليلاً. «أنا رجل عجوز، وأرى الحل الذي طال انتظاره، يقترب مني. سأذوب في خضم التدفق المتنامي لسكان هذه المدينة»، قال بعد فترة قصيرة بطريقة ذات أبّهة نوعاً ما. شربنا نخب اختفائه، وكنا ثملين بما فيه الكفاية نحن الاثنين، وخاصة هو. طلبتُ مزيداً من النبيذ. أربع قنان من «كورفو» شربناها بالكامل وبقيت زجاجة خامسة، خرجنا بعدها إلى الشارع.

كانت شوارع نابولي باردة مع ندف الثلج الساقطة. كنتُ مع لفاعي، بلوزتي وياقتي الطويلة، أسير متخماً ببعض القلق، لكني في داخلي أشعر بالراحة لأني برفقة الرجل العجوز الذي كان يتبعني بخطوة واثقة شبه مترنحة بسبب آثار الكورفو. اعتقدت أن هذه الشوارع الغاصة بالناس الذين يتجولون بعد وجبة

العائلة الكبيرة في يوم عيد الميلاد، كانت في الواقع مكاناً مناسباً للذوبان في التدفق المستمر للجماهير، في التدفق السعيد لجميع الموجات المستمرة من كائنات، جاءت منذ عصور سحيقة من جوف الزمن لتموت بلا هوادة في تلك المدينة الخالدة. ومع ذلك، ظننتُ، ما زلنا هناك بانتظار الأحداث، أننا نجهل أياً منها. هل كنت أتوقع شيئاً؟ ما الذي كان عليّ أن أقوله لميفيستوفيليس؟ وما الذي كنتُ أترقب أن أسأله بالمقابل، في حال ظهوره؟

عندما كنا نمشي وسط الجموع، كنت أتمنى أن أقول لمورانتي إنه ليس هناك مدرسة لتعليم الحياة، أفضل من التي كنتُ أقترحها عليه باستمرار وهي اكتساب الخبرة من تجارب الآخرين. وقلتُ له أيضاً إن الرحلات تقدم هذا الشيء، الرحلات التي لا تنسى أبداً في شوارع نابولي الملأى دائماً بفيضانات الناس. كنت أريد أن أقول كل هذا لمورانتي، منتشياً بتأثير زجاجات كورفو إلى حد ما، لكنه كان يمشي متمايلاً بعض الشيء، غارقاً في الفرحة التي أتاحها له وضعه كرجل عجوز خارج اللعبة، كاتب سعيد، ومجنون. كنتُ أسير مرتاباً منه، مع تزايد شكوكي في أنه يمتلك ذاكرة سليمة عني.

كنتُ أعوّل على آثار النبيذ في أن ينتهي بالاعتراف أمامي بالحقيقة. لكن، ما إن خمنتُ أني على وشك أن أصطادها منه، حتى بدأ مورانتي يقول أشياء غريبة: «انتهى التوتر الفاوستي. أنتَ لم تدرك ذلك، لكن التوتر بين الاثنين كان قد تراخى بالفعل، في العالم كله بشكل عام. التوتر الفاوستي انتهى عند الجميع. أتعرف لماذا؟ أنتَ لا تمتلك أدنى فكرة عمّا أتكلّم به، أنت لا تمتلك سوى الشك على الرغم من شعورك بالانتشاء بسبب كورفو. أنا لا أتحدّث من أجل الحديث. أنا لا أمتلك دفتري المولسكيني. لو كنتُ أحمله معي، كنتُ سأتوقف للحظة في الشارع كما أعتقد، وأدوّن بعضاً من عباراتي الغريبة». وفي معرض حديثه عن قصة سفيفو، قال لي –بطريقة مربكة نوعاً ما– إن إنسان اليوم الذي يفتقر إلى الوحدة، لم يعد يرغب في أي شيء، لأنه لم يعد مثل أقرانه القدماء، ولم يعد قادراً على امتلاك العواطف. هو الآن مجرد حفنة من تحصيل حاصل، نوع من البشر المتشظي، لا شيء، وفي الوقت ذاته، قهقهة يائسة.

بدا لي، وهو يتحدث عن قصة سفيفو هذه، أنه كان يحاول أن يتكلم

عني مباشرة. كنت أود أن أقول لمورانتي ألا يقلق، لأني في أحسن حال، وسعيد باستبدالي من حالة سيئة إلى حالة أخرى غير مؤكدة، جذل في الارتياب بحياتي كدكتور. حالة من عدم يقين فتحت لي، على الأقل، أبواباً على المستقبل، أبواباً لم أمتلكها من قبل حين كنتُ أعيش، ببساطة، حالة من الملل واليأس ككاتب ذي شهرة تافهة نسبياً. كنت قد أسستُ حياة الطبيب غير المستقر فيّ، على أمل أن يكون لديّ شيء ما محدد أقترحه على ميفيستوفيليس حين يقرر الاقتراب مني، رغم أني لم أكن أعرف بعد ما الذي سأطلبه منه مقابل التنازل عن روحي له. ربما سيساعدني في الاختفاء من أرض الواقع.

وعلى الرغم من أن أحداً في العالم لم يعلم أنني كنتُ قد اختفيت، إلا أن فعل الاختفاء بحد ذاته، مثل مفعول كلمات مورانتي المُفرحة حول الشيخوخة، قد أعاد إلي شبابي. كان البروفيسور مورانتي رجلاً عجوزاً (حراً وسعيداً، يجب أن أؤمن بذلك)، أما أنا الذي كنتُ قبل قليل، عجوزاً، فأصبحت شاباً، بفضل كلمات الرجل العجوز، وانتابني شعور مفاجئ بأني على استعداد تام للتخفيف من توتر أسطورة فاوست. الاختفاء (رغم أنني لم أكن قد اختفيتُ كلياً بعد، لأنها ليست مسألة دق الأجراس بسرعة وينتهي الأمر) كان قد جعلني في حالة أفضل للحوار مع «الشيطان» عندما يأتي متشوقاً لزيارتي. وعلى هذا الأساس، ولكوني شاباً، حُرمتُ من الحرية التي يتمتع بها كبار السن والتي فتحت أمامي أبواباً كثيرة على المستقبل، لم تكن في مخيلتي حين كنت أشعر بأني عجوز. لهذا السبب كنت أتمنى أن أقول لمورانتي ألّا يقلق من أجلي، وألا يجعلني أشعر بأني أشبه بقاطع طريق، أو مثل شخصية والسر التي كانت تعاني متمزقةً بين الضغوط والتزامات السعادة التي يفرضها الآخرون، («لقد انشغل العالم كله بمصلحة قطاع الطرق كثيراً، بل أكثر من اللازم») وألا يضغط عليّ بنظراته الوقائية، لأني كنتُ أشعر بأني في أفضل حال وغير متكيف مع الشكوك المتعلقة بجموحي الشخصي.

دخلنا في بار بيزا دانتي، وهناك واصلنا حديثنا عن الرجل المُسن في قصة سفيفو، وفي الوقت ذاته، عني أنا الذي لم أكن بحاجة إلى رعايته - كما كررتها عدة مرات -. «بعد رفض المسكين ميفيستوفيليس»، قال لي متكئاً

على عارضة البار، «تنفجر ضحكة المعرفة من عجوز قصة سفيفو بخيبة أمل، نفس التي تقوم بها. ألاحظ شخصيته المنكسرة، ضحكته المؤدبة وخيبته الأنيقة، وهذا كله يقودني إلى استحضار لوحة السحب المتغيرة». توقف قليلاً، كأنه يستجمع قواه، وهو في حالة انتشاء ملحوظة، ليكمل ما بدأه، ثم واصل بهذا الشكل تقريباً: «أنا أميل إلى السعادة، أما أنت، فلا. أنت تنتظر أن أكون سكران لأُظهر لك روحي الحقيقية. لكن صديقي نبيذ كورفو، لا يخونني ويجبرني على قول الحقيقة، بل يقوم بالكشف عن قصة الماضي المنسي، فقط الأشياء التي خرجت من قبل، وليست أشياء المستقبل، ولا أشياء الشخص التي يمكننا أن نتقمصها».

«لا أدرك ما تعنيه»، حرصتُ أن أقول له، بشيء من القلق. ابتسم. «النبيذ رهيب»، واصل، «هل تريد أن تعود إلى ما كنتَ عليه؟ إذن تناول كأساً أخرى. تناول أخرى، دكتور فاوست، وستعود إلى الماضي في الحال. ثم إن المستقبل بعد كل شيء، ليس سوى خطاب بليغ». كنتُ على وشك أن أطلب منه أن يخفض صوته ويقلل من إثارته عندما حدث شيء لم أكن أتوقع أن يحدث بالضبط في هذه اللحظة. هبّ مورانتي يتذكر شبابي كله. ما كنتُ أخشاه كثيراً، بدأ يحدث لي. كان مورانتي يعرف عني أكثر مما أعرفه عن نفسي. برعب مهول، أيقنتُ أنه كان يمثل تحديداً، كل ما كنتُ أهرب منه. ولم يكن ينقصه سوى أن يناديني «أندريس». شرع يتذكر سيرتي عندما كنتُ أستاذاً في نابولي، ثم حدثني عن الكتب التي سنحت لي «جرأتي لنشرها»، وأنّبني على هجري للمبادئ الأخلاقية التي كنت قد أقررتها في شبابي. كان يذكر أو يعرف كل شيء عني تقريباً. حالات الحب البائسة التي مررت بها. والديّ الغريقين. رقة قلبي المكبوتة، مخاوفي، عاداتي البالية، تصرفاتي البرجوازية المثالية، موت نورا، عباراتي المُؤلمة التي يفترض أن تكون بارعة في المقابلات، شقائي اليومي، روحي التجارية ونعمتي المتواضعة في كل شيء.

مع عودته الطارئة هذه إلى الماضي، بما تحمله من مفارقات، تزعزت هويتي تماماً وغدت غير مرغوب بها. مع مورانتي لم يكن قد ظهر ذلك الشخص الذي اسمه أندريس باسافنتو من جديد فحسب، بل عادت أيام الماضي كلها مع مورانتي. كان من الواضح أنني ارتكبتُ حركة كاذبة

حين اقتربت من البروفيسور الغامض المجنون، لأنه قادني إلى اكتشاف أن الحقيقة، في الواقع، لا تكمن في نبيذ كورفو، ولكن في الماضي المعلق هناك، الذي لم يرحل، بل ظل يتدفق مع تدفق الزمن وما يزال إلى جانبنا، يرفض أن يغادر، لا يريد أن يغرق خلف الأفق المفترض أمامنا.

سبق أن تخاصمت مع أكثر من صديق في الماضي، لأنني كنتُ أتذكر الماضي. واعياً بأن شخصيتي الشبابية كانت مرعبة، أنهيتُ علاقتي مع أكثر من صديق وصديقة في ذلك العهد لكيلا أشعر مطلقاً بأي ارتباط مع واقع بائس وماضٍ كان يرعبني كثيراً. لا أمتلك أية صورة لذلك الماضي ولم أعد أطيق ذلك الزمن. ليس من الغريب أن الظهور المفاجئ للماضي، الذي وصل إليّ على حين غرة على يد مورانتي، دليل لا يقبل الشك على أيامي السابقة في نابولي كأستاذ وتابع مثابر في مسيرتي الأدبية، تركتني أرتجف رعباً. أود أن أقول إنني ما فتئتُ كذلك. إن كنتُ لجأت إلى باريس بسبب شيء، فبسبب هجمات مورانتي الذي تحوّل فجأة في نابولي وأمام عينيّ الخائفتين، إلى متحدث باسم ماضيّ، أصبح العقبة الأخطر بالنسبة لي في أن أكون *آخر* وأستطيع أن أغيّر حياتي وعملي، وأتمكن من أن أكتب عن كيفية الاختفاء تدريجياً ثم في اللحظة المناسبة، أحاول أن أختفي كلياً، وهو الفعل الأصعب، لأننا يجب أن نضع بعين الاعتبار، أن المرء إذا أراد أن يتجاوز أعماله، فعليه أن يتجاوز حياته أولاً ويختفي، وهو فعل شعري جداً قبل كل شيء، لكنه محفوف بالمخاطر للغاية أيضاً، مما يعني أنه يجب أن يكون في عمق القصيدة أو في أي اختفاء حقيقي ونهائي: مجازفة خطيرة.

أنظر الآن إلى حدائق ماتينيون، ويبدو لي كأن التوتر الفاوستي بأكمله، يتصاعد من شارع فانو. العالم بأجمعه في حالة حرب والكثير يعرفون أنه في هذا الشارع عاش أندريه جيد لسنوات طويلة، وفيه تغفو اليوم ذكرى كارل ماركس. أتطلع ناحية ماتينيون المثالية، وإلى قمم الأشجار التي يخرج منها هواء أبيض يخترق نافذتي المواربة، كاسياً كل شيء ببحر من الضباب يصيبني بالدوار ويضطرني إلى التراجع نحو سريري، حيث أضطجع وأشعر من جديد بالعودة إلى الماضي، ذكريات تراجعي إلى *نجاحي الداخلي*، عودة جميع الوهاد. «الدكتور باسافنتو يتحدث إليكم»، أتكلّم مع نفسي بصوت منخفض

جداً وناعم. وأعود لبضع ثوانٍ إلى الماضي، وفي حالتي هذه، ماضيّ الذي يمكن احتماله أكثر، وليس الآخر القريب بالطبع. أعود إلى اللحظات الأخيرة من يوم عيد الميلاد، عند باب سكن برج إلغريكو المغلق ليلاً، ثملين نحن الاثنين، مورانتي وأنا، بعد أن انتهينا من قصة عيد الميلاد المثيرة للشجون، تلك التي كنا قد عشناها معاً، سُكارى وضائعين. كنا على سلالم المدخل حين دقت أجراس الكنيسة المجاورة، التي تخيلتها فارغة.

«سأخبرك بشيء»، قال لي مورانتي حين توقفت الأجراس، «جاء لزيارتي هنا منذ شهور، رجل مثلك، بعينين خضراوين وشعر أسود فاحم مثل شعرك. ادعى أنه طبيب وقدم نفسه باسم، لا يحضرني الآن، لكني أيقنتُ آنذاك أنه لم يكن اسمه الحقيقي مطلقاً. قال لي إنني انتزعتُ منه حبيبته، ورأيت أنه لم يكن يعرف أن حبيبته هذه، ليونيسا، كانت تدفع سراً مصاريف إقامتي في هذا السكن، ولم يكن يعلم أيضاً أنها حين عادت إلى زيارتي، تظاهرتُ بعدم معرفتها، لكي أتجنب علاقات الحب، ولا أضطر إلى تقديم الشكر إلى المسكينة المتهورة، ولكي أتمكّن من كتابة مقالاتي المصغرة جداً بهدوء. ليلة سعيدة، دكتور».

-8-

غادرتُ بصمت، متأثراً بما سمعته تواً بالطبع. ولأنه لم يكن من السهل العثور على سيارة أجرة في هذا الوقت من الليل، ذهبتُ للبحث عن الحافلة الليلية في شارع إنريكو دي نيكولا، نفس الحافلة التي كانت قد أوصلتنا أنا ومورانتي إلى محل إقامته. وبما أنه كان يجب أن أنتظر في الموقف، كان لديّ الوقت في أن أقرر مع مخيلتي الثملة، أنني في حالة ظهور ميفيستوفيليس، سأقوم بالاتفاق معه على الاختفاء الجذري لشباب أندريس البائس. كنتُ على علم بأن ما أطلبه منه مقابل التنازل عن روحي، هو التخلص من حماقاتي كلها، وماضيّ الذي لا أهمية له، مما سيسهل لي الكثير من الأمور، ومنها على سبيل المثال التوق إلى مرحلة شباب جذاب وفريد من نوعه في شوارع برونيكس.

عندما وصلت الحافلة أخيراً، تمكنت مني فكرة الانسحاب للبكاء في

الفندق، على الأقل، أنا مَن سينسحب، الدكتور. وعدتُ لأكون الدكتور من جديد. هل حقاً عدتُ لأكونه؟ هل تلاشى ماضيّ المُعرقِل؟ ربما إذا تم محو ماضيّ فلأنني كنتُ قد وقعتُ العهد، دون أن أتنبه لذلك. كان رأسي يؤلمني، كنتُ ثملاً للغاية، لكني واعٍ أن أفكاري كانت متداخلة في ارتباك كبير. في لحظة ما، حدث أن نظرتُ ناحية الخلف، إلى الجالسين خلفي في الحافلة. ومن بين الذين كانوا يغنون أغاني رهيبة عن أعياد الميلاد، اعتقدتُ أني أرى ميفيستوفيليس المحتال باسماً، يؤكد لي بغمزة سريعة من عينيه، أنه حليفي وأن العهد المُوقّع، كان ممهوراً بالتاريخ المسيحي ليوم عيد الميلاد.

في اليوم التالي، وبعد أن حاولتُ أن أتغلب قدر المستطاع على صداع الكحول، تظاهرتُ بالقوة وأنا في غرفتي في فندق ترويسي. وبينما كنت أتخيل وأدوّن في كرّاسي، قصصي الماضية في حي برونيكس (الذي دعمتُ فيه ذكرياتي حول مرحلة شبابي الأمريكية)، رفضتُ أن أستقبل البروفيسور مورانتي، الذي كان قد خرج أو هرب من السكن، ربما لغرض واحد: العودة لتذكيري بشخصيتي السابقة. اتصل بي مكتب الاستقبال تلفونياً، لإخباري بأن السيد مورانتي في انتظاري في الأسفل. ومن غرفتي، تكلمت معه عبر الهاتف، وأغدقت عليه بجميع أنواع الاعتذارات حتى لا يصعد لرؤيتي. بقيتُ هناك طوال اليوم مضطجعاً شبه دائخ بسبب بلودي - ماريز الذي طلبته على أمل التخلص من الصداع ونسيان مرحلة الشباب التي قام مورانتي بإعادتها إلى الحياة.

في ساعة متأخرة من المساء، جيء إليّ بنسخة من صحيفة الماتينو، لأني رغبت أن أعرف أكثر عن أخبار الرياضة التي كنتُ قد سمعت عنها في التلفزيون، وهناك طالعتُ بعد الانتهاء من صفحات الرياضة، أن جوقة سان كارلو التابعة للمدينة، كانت قد وقفت وقفة احتجاجية بسبب مشهد تجديفي في أوبرا *فاوست* للمؤلف تشارلز كونود: «أُعتبُر الدوس على الصليب أمراً غير ضروري ومشيناً، من قبل خمسة عشر عضواً، من أعضاء الجوقة الثمانين، الذين وقّعوا على رسالة احتجاج موجهة إلى عمدة نابولي».

لا أعرف كيف ولا لماذا، لكن المؤكد أن أخبار الماتينو هذه، كانت بالنسبة إلي بمنزلة حبة مُسكّنة، مثيرة ومنوّمة، منحتني الحلم ذاته الذي

كان سيمنحني إياه خمسة عشر خروفاً رفضت الدخول إلى إحدى الكنائس الفارغة في نابولي، وانتهى بي الأمر إلى النوم مستذكراً المثل السويسري في أوبربورن، وعلى جدار أحد المنازل المشيدة بجوار المرج، حيث شوهد روبرت والسر برفقة كارل سيلغ: «الشقاء والسعادة / اصبر عليهما / لأنهما زائلان / مثلما ستزول أنت».

نمتُ مفكراً في أحد الذين تطرقوا إلى الحديث عن عبارات والسر الموحية، كتب يقول إنه كان يستخدم في *البؤس الجميل* كلمات مهذبة ليصف طريقة للعيش كنتُ على علم تام بها. بحث في أسلوب الحياة، *العلم*، الانزلاق الفَرِح نحو الصمت وأخلاقيات القنوط. نمتُ ولم أعد أفكّر في شيء، في أي شيء، لا شيء على الإطلاق. اختفيت في الحلم، بسهولة مفرطة.

-9-

وبراحة مماثلة، استيقظت في اليوم التالي بمزاج رائق، مفكراً في شبابي الجذل، رغم عسره، في برونيكس، متذكراً علاقتي الغرامية في ماليبو مع ديزي الشقراء (وكيف كنتُ أحياناً أخونها مع أخريات، بقدر تعلقي بها) وتذكرتُ أيضاً النصائح التي ألقاها عليّ الشاب دي نيرو في ذلك اليوم الذي قمنا فيه بغارة خطيرة على قرية غرينتش. كان دي نيرو صديقاً طيباً، لكنه سيكون الأفضل لو قرأ لوالسر. ما كل ما يتمنى المرء يدركه. ممثل هوليوودي مثله مثل أغلبية مواطني الولايات المتحدة الأمريكية، مُدانون، محكوم عليهم بعدم استنشاق الهواء النقي لجبال سويسرا التي تجول فيها والسر. هذا لا يعني أنهم أناس أنقياء، على العكس، لكنهم لا يقرأون والسر أبداً. إنه مؤلف لا يلائمهم. ثم إن الهواء الجبلي، بالنسبة للمواطن الأمريكي ليس سويسرا، مثلما لم يفكر والسر مطلقاً في التجوال في أخاديد جبال كولورادو. ولأسباب مشابهة، لم يستطع دي نيرو قط أن يُترجم المغامرات الثابتة للدكتور فاوست، سينمائياً في نابولي. هل كنتُ أنا الدكتور فاوست هذا؟ أكيد، قلتُ لنفسي. وذهبتُ لأنظر عن قرب إلى النسخة طبق الأصل للوحة الرسام بيير أوغست رينوار، التي كانت أمام سريري، والتي كنتُ أتطلع

إليها منذ مجيئي إلى الفندق، بإهمال وبرود. كانت اللوحة بعنوان خليج نابولي وفيزوف، عكستْ صخب أحد مساءات نهاية القرن التاسع عشر للشارع الواسع الذي يحيط بالخليج، غاصاً بالناس الماشين وبالعربات. وكذلك صخب البحر الممتلئ بالمراكب، وفيزوف غائم في الأعماق.

وتذكرت العبارات التي أخبرني بها برناردو إتساغا حول هذا البركان، منذ خمسة عشر عاماً في نفس المدينة التي أنا فيها الآن. لقد أعاد إليّ التفكير في أيام الماضي، بعض الاكتئاب الخفيف، وكان عليّ أن أعود بذاكرتي إلى حياتي في برونيكس، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً. تذكرتُ الصالة المظلمة، مقهى نابوليتان كراند الكائن في طرف الحي النيويوركي، حيث كانت بعض النساء المُسنات الجالسات على كراس من المخمل، يتناولن المشروبات المثلجة بملاعق شاي طويلة، في اليوم الذي دخلنا فيه أنا والشاب سكورسيزي إلى هنا. حين شاهدنا هذه البانوراما، غرقنا في ألف ضحكة. «هل رأيتَ كل أولئك الأميرات الروسيات المنفيات اللواتي من أجلهن تتحرك عقارب الساعة؟»، تذكرتُ ما قاله لي سكورسيزي، على وجه التقريب، وبشيء من الرحمة. بعدها عدتُ للتفكير في إتساغا. ألم يخامره الشك حتى، بأنني كنتُ في عداد المفقودين؟ وماذا عن دي نيرو؟ ودليلو؟ ألم يسألا أنفسهما شيئاً؟ لم يكن أحد ليبحث عني، ثم إنه ليس لديّ أحد في هذه الدنيا. أو بالأحرى ليس لديّ سوى الغربة، التي ربما تكون أفضل رفيق. تذكرتُ أغنية للفنان سيرجي ريجياني. كنتُ لا أمل من الاستماع إليها في أحد البارات الفرنسية في برونيكس: «لستُ وحيداً، في وحدتي».

ولم أكن وحدي، بالطبع، عندما كان مورانتي إلى جانبي يحاول إعادة الحياة التي هربتُ منها. لكن ذلك كان أكثر من مصيبة، كانت نكسة. كان عليّ أن أهرب من الشخص الوحيد في العالم الذي بدا مهتماً برؤيتي. نظرتُ إلى لوحة رينوار ثانية ثم فكرتُ إن كان أحد يعرف ماذا يعني تغيير الاسم. كان برناردو إتساغا تحديداً، هو الذي استبدل اسمه الحقيقي، جوسيبا أيرازو، باسم آخر يعود إلى أحد زملائه في المدرسة. وأصبح مشهوراً باسم زميل رحلته المدرسية. وذات يوم وبينما كان يسير في شوارع بلباو، قابله وجهاً لوجه، ولدى اعتذاره عن سرقته لاسمه، جاءه ردٌّ غير متوقع من زميل

المدرسة القديم: «لكني كنتُ اسمي نفسي دائماً كورنيليو وليس برناردو، اسمي كورنيليو إتساغا، ولا أفهم كيف يمكن لاسم كهذا أن يُنسى».

شغلتُ التلفزيون وبحثتُ في القنوات عن أخبار جديدة لكرة القدم (في كل يوم تصبح أكثر ندرة بسبب موسم أعياد الميلاد) وحين مررت على القناة 2 وأنا شبه غافٍ، رأيتهم يعلنون عن فيلم الليلة، *العودة إلى الماضي*، للمخرج جاك تور –نيور، وهو فيلم بدا لي أن عنوانه كان يحمل كل المظاهر ليكون إشارة موجهة إليّ مباشرة، إشارة تحذير لشيء ما، وربما من الخطر الشديد الذي شكله البروفيسور مورانتي بفكرته في *إعادتي* إلى الماضي. لم تكن المرة الأولى– كان يكفي استرجاع ذكرى شارع فانو – التي تحمل فيها، بعض الإشارات أو رسائل من العالم الخارجي، كل المظاهر التي تتجاوز بها الصدفة، وتكون في واقع الحال، أشبه بمحرك واعٍ كان يسير بقصة حياتي إلى الأمام بصمت، أي قصة اختفائي.

قررت أن أترك التلفزيون وأنظر إلى ناحية أخرى، أتطلع إلى لوحة رينوار مرة ثانية. كانت لوحة انطباعية جميلة تعكس النشاط الميناتي الكبير لأحد المساءات البعيدة في زمن ما، ولم ألاحظ من قبل أن من بين الشخصيات التي ظهرت هناك، ذلك التمثال اللطيف الموجود دائماً في مشاهد أعياد الميلاد في نابولي، ذلك الفتى الذي اضطجع على العشب ونام نومة أبدية. إتساغا شخصياً كان قد أهداني تمثال هذا النائم على العشب، عندما مر في نابولي منذ خمسة عشر عاماً، واحتفظتُ به دائماً كتعويذة لجلب الحظ.

نعم، افتقدتُ النائم النابولي في لوحة رينوار، ثم لا أحد في هذا العالم، كائناً من كان، يفتقدني أنا. رجعتُ إلى السرير وقررتُ ألا أعود للبحث عن المتعة الكسولة، وإن عدتُ ربما، وكنتيجة منطقية لاختفائي، سيكون استلقائي التدريجي، عودة إلى حالتي الطبيعية.

لكن، هل كنتُ قد اختفيتُ فعلاً؟ هناك مضطجعاً، فكرتُ في الزّبابة[1]، تلك الزواحف الصغيرة. ثم قررت استذكار أسماء الأطباء، كما لو كنتُ أخوض مسابقة تلفزيونية. تذكرتُ أولاً أولئك الذين كان نابوكوف يكرههم

1– الزّبابة: هي نوع من الحيوانات الصغيرة التي تشبه الفأر لكن بأنف طويل

أكثر: الدكتور فرويد، الدكتور زيفاغو، الدكتور تشويتزر، الدكتور كاسترو. ثم تذكرتُ الآخرين: الدكتور جيكل، الدكتور مورو، الدكتور لا أحد، الدكتور لا، الدكتور فرانكنشتاين، الدكتور جونسون، الدكتور مابوس، الدكتور أيرا، الدكتور كاليجاري، الدكتور فاوستو، والدكتور ريب. ثم فكرت في حشرات الزبابة مرة أخرى. وانتهى بي الأمر إلى التفكير في نوعٍ آخر من الحشرات، بواب منزلي في برشلونة. دون تردد، اتصلت به هاتفياً. وبمحاولة مني للتحدث بلغة إيطالية سليمة، تصنعت أني رجل من نابولي يسأل عني. «عبثاً أحاول الاتصال به منذ أيام. هل تعلم إن كان قد تم إخفاؤه؟ تناهت إلى سمعي إشاعات حول هذا الأخير»، قلتُ له. صمتٌ قصير على الطرف الآخر من الهاتف. «حقيقة لا أعرف. لديّ هنا الكثير من الرسائل له»، أجابني بأفضل لهجته المقيتة. «من أنت، وكيف عرفت رقم هاتفي؟»، أضاف. لم أتوقع السؤال، لكني استطعت الخروج من هذا المأزق. «الدكتور سكومبارير، من الشرطة الإيطالية»، أجبته. وأغلقت الخط. ربما، من هذه اللحظة فصعوداً، سيولي بوابي المزيد من الاعتناء والاهتمام في معرفة مكان وجودي أنا. على أية حال، تأكد لي أكثر أنه لا أحد يبحث عني، لا أحد يفتقدني، وأن كل ساعة تمر، تحيلني إلى أكثر رجل منسي على الأرض.

وكي لا أشعر بالخيبة، عمدتُ إلى التفكير في حبيبتي التي كنتُ أكن لها كل العشق في سنوات شبابي، المثيرة ديزي الشقراء. تذكرتُ اليوم الذي رأيتها فيه للمرة الأولى. كانت تتكئ على عارضة «فلامنكو دي ماليبو»، فسألتها عن اسمها من بعيد. كانت شقراء لامعة في غاية الجمال، رشيقة، مهيبة واثقة جداً من نفسها. كان غروباً للشمس لم أرَ مثله في حياتي. نظرت إليّ من شرفة وردية. (اسمي شارلين، رغم أن الجميع ينادونني ديزي الشقراء، وأنا «القنبلة»). هذا ما قالته لي عندما أصبحت على مسافة شبر منها، طريقة لطيفة لتقديم نفسها. كانت انفجارية في كل شيء، والسنوات التي قضيتها معها، كانت من السنوات الجميلة في حياتي. من بين فضائلها، أنها امرأة لم تكن تبدي اهتماماً للذكريات. ومن الممكن القول إن القنبلة ديزي الشقراء العظيمة، كانت قد نالت شيئاً أُرسل إليها، ونجحت في أن تجعل من ماضيها «سلسلة زائلة ومتقلبة، فيلماً غير مكتمل يعرض أحداث شخصيات

غير معروفة»، كما ستقول دورثي باركر التي أحبت أن تقول عبارات طنانة عن هذا الأسلوب وكانت تميل -مثلي- إلى النساء الشبيهات بـ«القنبلة».

جرفني الحنين نحو شبابي الماضي مع ديزي الشقراء، وتذكرتُ بطريقة وبأخرى تقريبية، بعض كلمات *فاوست*: «أعد إليّ الاندفاع دون رصانة، السعادة المؤلمة في الأعماق، قوة الكراهية وسلطة الحب. أرجِع إليّ شبابي مرة ثانية».

كان ميفيستوفيليس قادماً. لم أكن أعرفه بعد، لكنه على وشك أن يطرق بابي. كان يسير في نابولي طليقاً أكثر مما كنتُ أتخيل. غادر سكنه في برج غريكو حين استبدت به رغبة في ذلك. كان خطيراً بعض الشيء، أو بالأحرى، هكذا أراد أن أراه أنا. طرق باب غرفتي حين كنتُ أقرأ في إحدى الصحف مقالاً عن سر الاختفاء الجسدي في عام 1959 لكاميلو سيينفويغوس الصديق الثوري لفيدل كاسترو. كنتُ أسأل نفسي كيف يمكن لسيينفويغوس أن يختفي عندما سافر من كامغوي إلى هافانا، دون أن يترك أي أثر. هل يمكن للإنسان أن يتبخر بهذه السهولة؟ هل يمكن للمرء أن يتلاشى على السواحل الكوبية دون أن يترك وراءه أي أثر، أو علامة؟ كنت منغمساً في هذه التساؤلات حين طُرق بابُ غرفتي. فتحته معتقداً أنها المسؤولة عن خدمات الغرف. كان مورانتي. وسرعان ما رأيته ميفيستوفيليس. كان مورانتي وميفيستوفيليس في الوقت ذاته. كنتُ أعرف أنه قادم لتوقيع صفقة معي عندما قال لي، بطريقة مؤدبة جداً، إنه قادر على أن ينسيني شبابي المنكوب (لاحظتُ حينذاك أن ذكره يزعجني كثيراً) إذا سمحت له أن يدخل الغرفة وأصغي له لبضع ثوان. اعترضتُ بشدة. أخبرته أنه ما دام ميفيستوفيليس، فلا مانع لديّ، في كل الأحوال، من إبرام عقد يعيد بموجبه إليّ شبابي، لكن الشباب الذي قضيته في برونيكس. لم يرد عليّ، بدا أو تظاهر بأنه مرتبك. وتدفق مني آنذاك، تيار وحشي من الكلمات. «أمسك عن الكلام، إذا كنتَ تريدني أن أستمع إليك»، قاطعته.

جلب معه مقالة مكثفة أخرى. كان نصاً يعالج حيرة كاتب يقرر على نحو سيادي، نوع الجنس الأدبي الذي سيكرس نفسه له. «هل تريد حقاً أن تحدثني عن هذا الآن؟»، قلت له بغضب. «نعم، حين لا يجد الكاتب نفسه

في الرواية، ينبغي له أن ينسحب إلى صَدَفة حلزونة القصة القصيرة والمقالة الأدبية»، قال. لا يمكن أن أصدق! ليس لهذا كله أدنى قدر من الفكاهة. ما الذي يقصده من «صَدَفة حلزونة»؟ مجرد وجوده في غرفتي يبشر بعودتي إلى الماضي مدعومة بعراقيل ترسيخ شخصيتي كطبيب في علم النفس متقاعد مؤقتاً. «لستُ مهتماً بالأدب»، قلتُ له، «تهمني حالته السريرية فقط. لستُ أديباً ولا رغبة لي في أن أكونه. أنا طبيب نفساني». نظر إليّ بوجه ممتلئ بالرعب، كمن لا يفقه شيئاً. «أضف إلى ذلك»، أكملتُ، «ليس لديك أي ميثاق تقترحه عليّ، ولا أي ماضٍ تذكرني به. إن تمكنت من العودة إلى أية لحظة من لحظات حياة ذلك الشاب الذي كنت تعرفه منذ سنوات، فإني أحذرك كطبيب نفساني، أن أقوم بجعلهم يطردونك من المصحة، لعدم وجود ما يدل على أنك مجنون. هل سمعتني جيداً؟ سأرميك في الشارع».

لم أتخيل قط أن ميفيستوفيليس يمكن أن يبقى بهذا التعبير الغريب جداً من عدم فهم أي شيء. هذا الأمر جعلني أفكّر في الرسوم المتحركة لكاثي بيند حول حياة والسر، وهو كتاب بعنوان *الذي لا يدرك شيئاً*. على أية حال، لقد فهم البروفيسور مورانتي شيئاً. كان قد عرف بعض الشيء. «لا أتذكرك، لا أتذكر منك أي شيء، أقسم على ذلك، لا أمتلك أية معلومة عن شبابك، ثق بي»، قال لي متكلماً مثل طفل تقريباً، على حين غرة. تململ، وبإيماءة حزن عميق، أخرج من جيبه مقالته المصغرة. مرة أخرى، بدا لي أنه كاتب صادق وهذا ما زاد إعجابي به، لكن في الوقت نفسه، لم أكن أتحمله. بدا لي أنني اكتشف في كل مرة عظمته الحميمة وتواضعه ككاتب، لكن أكبر صفر على اليسار، رجلاً حالماً دون طموحات. فكرتُ في عبارة كنتُ قد قرأتها منذ زمن، قال فيها أحدهم إن أفضل مكان يبقى للشاعر الحقيقي في عالم اليوم، هو مستشفى الأمراض العقلية. نعم، كنتُ معجباً به، لكنني لم أكن أستطيع تحمله. ذلك الرجل يعرف الكثير عن ماضيّ، وهو العقبة الكبيرة في طريق تقدمي لبناء هذه الحياة الجديدة التي لي كل الحق فيها.

وتذكرتُ والسر مرة ثانية، وحالته الدائمة في السير أثناء النوم. كائن منفصل عن الحياة العامة، يقطّر في وحدته أدباً أصيلاً للغاية. رجل بلا طموح. حاقد بعمق للشهرة، لهذا الالتزام فيما ينبغي أن يكون عليه أحد

ما في الحياة، كاره للسلطة. كاتب، مثل النائم نومة أبدية على العشب النابولي، لا يعلم أي شيء، أو يتظاهر أنه لا يعرف شيئاً، بينما يقف خلف عبقريته ليوحي لنا أشياء لا يمكن تصورها. إنسان متواضع، واعٍ تماماً لما يعنيه الانسحاب والاختفاء فعلياً. رجل لم يكن يرغب بشيء سوى أن يبوح بحقائقه البسيطة قبل أن يغرق في الصمت. إنسان يحاول جاهداً أن يخبئ معاناته. وهو بالنسبة للعالم كله تقريباً، كاتب رائع يروي تحت غياب مطلق للنوايا والمقاصد. مالك وسيد الثرثرة للكتابة من أجل الكتابة. البطل السري لمعركة خاضها بالرسائل ضد الروايات. المبدع الذي يكتب ليغيب.

جاء مورانتي إلى الفندق بحثاً عني لأنه كان يخاف –ويخشى كثيراً– أنني لم أكن أبحث عنه لشخصه، إنما كانت رحلة بحثي عنه كرفيق، وعلى وجه الخصوص، ما يمكنه من قراءة مقالاته المصغرة على مسامعي. كان هذا كل ما في الأمر، قال. لكن «كل ما في الأمر» هذا، كان خطيراً بالنسبة إليّ. إن لم أتحرر من مورانتي، فسأبقى خاضعاً طوال العمر إلى الاستماع إلى مقالاته المصغرة متذكراً شبابي، ليس المتعلق ببرونيكس، لكن ذلك الذي اعتقدتُ أنه مرّ فعلاً. كان يجب أن أكون واعياً لاتخاذ التدابير اللازمة لأصبح طبيباً نفسياً بصورة تامة، منسحباً بصورة مؤقتة. لذا كانت المعادلة بسيطة جداً: إما هو وإما أنا.

«سأمرر تقريراً إلى بليفيتي، كبير أطباء مقر الإقامة»، قلتُ له، «وسأشرح له في هذه الأوراق أنك تعتقد نفسك ميفستوفيليس. ويكون هذا جيداً بالنسبة إليك، لأنهم سيعتبرونك مجنوناً تماماً، ولن يرموك في الشارع، وستكون عندها قادراً على مواصلة كتاباتك للمقالات المصغرة والكذب على حاميتك ليونيسا، التي ستكذب بدورها على زوجها. لكن اخرج من هنا الآن، إن كنت لا ترغب أن أحدثك عن سنوات شبابي في برونيكس وسنواتي في أحد مستشفيات جادة مرديانا في برشلونة. ارحل، هيا ارحل».

رأيتُ كيف كان يحدق بي، رأيتُ كيف كان يفكر بأني مجنون رسمي، ورأيتُ أيضاً كيف أنه، مرعوباً بشدة، لم يجرؤ على الرد عليّ. «لم تعد لديّ الرغبة في التحدث معك»، انتهى هامساً بندم وبصوت واطئ جداً، كما لو كان مسيئاً. ورحل. كان مثل معجزة، لكنه غادر. ذهب مع مقالاته المصغرة.

لكن كان أمامه بعض الوقت لإهدائي قبعته المصنوعة من اللباد. لم يكن من المجدي إخباره بأني غير راغب بها. حين رحل، جربتها أمام المرآة، ثم خلعتها عن رأسي ووضعتها جانباً قريباً مني. وتنبهتُ إلى أنني كنتُ مسروراً لامتلاك تلك القبعة. بدأت أشعر بالسعادة تطفو من حولي، وكأن القبعة جلبت لي على حين غرة فرحة كبيرة. كان كل شيء على ما يرام. فجأة أصبح كل شيء رائعاً. مع رحيل مورانتي، انتقل شبابي الحقيقي مئة مليون كيلومتر. نظرت من النافذة وتأملتُ خليج نابولي لفترة طويلة. ثم تذكرت اليوم الذي رأيت فيه ديزي الشقراء لأول مرة. رشيقة، مهيبة بيدين ناعمتين تستندان إلى الردف، تتطلع إليّ من تحت شرفتها البسيطة الوردية اللون من الفلامنكو، في غروب رائع لشمس كاليفورنيا، مع رياح هادئة تقريباً كانت تراقص لهب الشمعة الموضوعة فوق الطاولة حيث ستجلس بعد ذلك بوقت قصير، كأنها مستلقية. كانت الحب. وكانت قنبلة. لم أكن أعلم حينها أن العشق مبتذل جداً.

-10-

ورحلتُ على حين غرة. كنتُ سأقول إنني رحلتُ فجأة دون أن أخبر أحداً، لكن هذا لا يعني شيئاً. مَن يجب أن أخبر؟ غادرت فندق ترويسي دون أن أحمل شيئاً سوى حقيبة جدتي مع قليل جداً من الملابس الضرورية، بعض الكتب المُختارة والنابولي النائم. كان بوسعي أن أغادر دون أن أدفع، مثلما فعلتها مراراً -بصفتي الابن المدلل لبرونيكس- في شبابي في بعض الفنادق التي عبرت طريقي. لكنهم في فندق ترويسي شاهدوني أصل، حاملاً تلك الحقيبة فقط، وربما كانت لدى البوابين تعليمات لأن يكونوا على جانب من الحيطة حتى لا أهرب مع أمتعتي المحمولة. ودفعت. ثم ارتديت قبعتي اللباد، قبعة المجنون، قبعة والسر. كان الوقت مبكراً من الصباح بحيث لم تكن هناك سيارة أجرة في الموقف الكائن قرب الفندق. وتمشيتُ في الشوارع المهجورة التي لم أكن أعرفها. حين وصلتُ إلى ميدان ركوميرو، لاحت لي الحافلة. حثثتُ خطواتي، عبرت الجادة راكضاً وصعدت إليها. جلستُ خلف مسافرين حزينين. كانت جميع وجوه ركاب الحافلة تشي بالنعاس، في الساعة السابعة صباحاً، وهم في طريقهم إلى العمل. لم أكن

أعرف أين أذهب. جلستُ في الخلف، في المقصورة الدائرية. كان يتملكني خوف شديد لم أرَ له شبيهاً في حياتي، رعب مقابلة شخص يعرفني. ثم ودون سابق إنذار، غزتني صورة تافهة جداً لزجة. وبقيت أستذكر شواخص الحدود، وهي علامة طريق تحدث عنها كارل سيلغ، بصورة عابرة، في كتابه جولات *مع روبرت والسر*. هل كانت تلك طريقة شريرة لتوديع موارنتي المسكين؟ أمضيتُ بعض الوقت تحت تأثير تركيزي المفاجئ على هذه الشواخص التي، حسب ما قرأتُ (وتأكدتُ منه في الحال عندما راجعتُ كتاب سيلغ الذي كنتُ أحمله في جيبي) كانت تنفع في الفصل بشجر التنوب الأسود، بين منطقة أبينزل – أوسرهودن وسان كالين. لمَ بدأتُ أفكّر في تلك الشواخص المتواضعة عديمة الأهمية؟ كيف حدث وبقيت تلك العلامة المتواضعة محفورة في ذاكرتي؟ هل كانت تشير إلى شيء ما؟

حاولتُ أن أنسى هذا الشأن، وبرأس مائل بصورة خفيفة على نافذة الحافلة، انهمكتُ في مراقبة شوارع نابولي المهجورة في ذلك الوقت المبكر جداً من الصباح، كأنها طريقة توديعية. حين توغلت الحافلة في أحد الأحياء التي لم أكن قد رأيتها في حياتي، نظرتُ إلى الشاب الذي كان يجلس إلى جانبي. وعندما بادلني النظرة، فكرتُ أنني يجب أن أُخفي وجهي بالقبعة، وبهذا أتجنب أن أكون معروفاً. ثم عدت إلى الواقع. ضحكتُ وحيداً وأعتقد بخيبة أمل. «أي حيّ هذا؟»، سألتُ الشاب. ربما كان من الأفضل ألا أسأله شيئاً. «آسف، لا أعرف»، أجابني بعد أن فكر لبعض الوقت. شعرتُ حقاً بالضياع. بدأت السماء تمطر. إحدى السيدات الجالسات إلى جانب الشاب، أغرقت نظرها في حقيبتي. وغرقت أفكاري في الشواخص من جديد. أخبرتُ نفسي أن التركيز الشديد على هذه العلامات الحجرية، بدأ يُشعرني بالقلق. وعدتُ أنظر إلى المرأة التي كانت ما تزال تغرز نظرها في حقيبتي. «هل تعرفتِ على جدتي القديسة؟»، كنتُ على وشك أن أسألها. بدا لي أن تركيز تلك المرأة على الحاجة التي كنتُ قد ورثتها أنا من جدتي، يمكن أن يكون شبيهاً لذلك الشاخص البسيط في أبينزل. وفجأة أدركتُ أن قروناً يمكن أن تمر، وربما الأبدية كلها، دون أن يعرف الشاب أو المرأة، من أنا. كانت تلك الحافلة مكاناً مثالياً للاختفاء عن العالم. المؤلف المجهول

تماماً. كل ما كنت أبحث عنه، حصلتُ عليه تواً، بالكمال، في تلك الحافلة. بدأت تمطر أكثر وبحزن كثيف. هناك، في عمق تلك الحافلة، لم يكن من الضروري أن أكون طبيباً نفسانياً حتى، ليس من الضروري أن تكون أي شيء. في العالم المغلق والخالد تماماً لتلك الحافلة، لم يكن أحد ليحتاج مساعدة من أي نوع، يكفي أن يسافر بصمت إلى الأبد: أن ينام دون أن يستيقظ أبداً، مثلما فعل التمثال النابولي المستلقي الذي أهداني إياه إتساغا ذات يوم. هناك، في عمق تلك الحافلة، لم يكن من الضروري حتى أن تكون متخفياً، ليس من الضروري أن تكون أي شيء، رغم أن السؤال كان ما يزال معلقاً هناك. من أنا؟ شخص قرر أن يختفي نهائياً؟ شخص بقبعة من اللباد؟ شخص لا يفكر إلا بشواخص أبينزل؟ الحق يُقال، أنا إنسان بدأ يمل فعلاً من الكثير من الإشارات التي تتكرر أمامه يومياً. واستحضرتُ في ذاكرتي رسالة مقتضبة كنتُ قد قرأتها في مناسبة ما، رسالة وداع من أحد المرضى، كان راقداً في مستشفى مانهاتن وشنق نفسه تاركاً رسالة صغيرة إلى العالم: «الجميع سواء، مَن يزرر ومَن يترك الأزرار مفتوحة».

كل يوم يسحقني الروتين أكثر، وكل شيء بدأ يصبح مُملاً. نستيقظ، نرتدي ثيابنا، نأكل، نكتب، نتغوط، نخلع ثيابنا وننام. حفظته كله عن ظهر قلب، حد الجنون. كم مرة، على سبيل المثال، رأيتُ السماء تمطر في حياتي؟ كتبتُ قصيدة افتراضية تتحدث عن أشواقي الملتهبة في القيام برحلة في الهزيع الأخير من الليل، رغبة متنامية في السفر دون عودة. عندما أنهيتُ القصيدة، لاحظتُ أنها كانت تمطر أكثر من ذي قبل، ولم تعد الشوارع تُرى، وانمحى الفضاء الخارجي بالكامل. كان من الممكن تماماً، السفر عند نهايات الليل.

فجأة، وبنفس المفاجأة التي غادرتُ بها الفندق، غادرتُ. حملتُ حقيبة جدتي ونزلتُ من الحافلة. ثبّتٌّ نفسي تحت ستارة كثيفة من الماء في شارع سكارلاتي، مُحتمياً بقبعة المجنون المصنوعة من اللباد. كانت العتمة والمطر يلغيان أية فكرة في رؤية أي شيء على مسافة مترين. مشيتُ قليلاً مثل إنسان ضاع في غابة من المياه على نحو أعمى، وبقيتُ سائراً حتى لجأت إلى بوابة جميلة في شارع سكارلاتي. نظرت إلى الداخل، نحو غرفة البواب، التي

كانت فاخرة جداً. وشعرت ببعض الميل لدخول ذلك المنزل، ربما لأني تذكرتُ فجأة أن أفضل القصص الكلاسيكية، هي تلك التي تبدأ من الجزء الغامض، مع بطل تباغته العاصفة فيلجأ إلى منزل تقطنه فتاة عذراء في غاية الجمال، برفقة أبويها العجوزين، وتقع في حبه. لكني مع ذلك لم أكن بطلاً. وعليه لم أكن لأستحق أية فتاة عذراء. وبهذا انتهت تأملاتي الشعرية التي كانت تنقذني دائماً في نهاية المطاف عندما ينفد كل شيء من جعبتي وأكون غارقاً حتى هامتي في اليأس. أسطورة، فتاة عذراء، ديزي الشقراء، غالباً ما يحضر الخيال أو القصيدة، لنجدتي. لكن في تلك اللحظة شعرت أن لا شيء يمكن أن يسعفني. وعدت أنظر إلى داخل البوابة الفاخرة التي كانت توازي الدخول إلى نفق مظلم دون مخرج. وفي الشارع استمر المطر في الهطول بقوة لم يسبق لها مثيل.

لم أكن بطلاً، بل إنساناً يخجل من التوقف عن مواصلة ما كان عليه من قبل: حاقداً بعمق على الشهرة، حاقداً على هذا الالتزام فيما ينبغي أن يكون عليه أحد ما في الحياة، كارهاً للسلطة. هو عاشق لزمرة الكتّاب أصحاب الملامح الغامضة والبلاغة الأدبية.

بقيتُ مُحبطاً لبعض الوقت، عاجزاً عن أن أجد أي مخرج من الاكتئاب، حتى غادرتُ تلك البوابة فجأة وسرتُ تحت المطر المنهمر بقوة، مأخوذاً بالضياع أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من أنني لم أعد مكتئباً جداً. عثرتُ على سيارة أجرة في شارع توليدو. حين أصبحت بداخلها، قررت أن أتوجه إلى المطار. لكن لم تمضِ دقيقة واحدة على صعودي في المركبة، حتى بدأ السائق الطائش يخبرني بأنه سبق له أن رآني في نابولي. وسرعان ما أحسستُ أنني أمام نكسة أخرى، خاصة عندما واصل حديثه معي قائلاً إن سبب معرفته لي مباشرة ربما تعود إلى «المعطف الذي أرتديه بلونه الأحمر اللافت للنظر». الحقيقة أنه رآني في أحد مقاهي ساحة بليني، حيث اعتاد أن يوقف سيارته هناك. كان قد رآني برفقة سيدة من المنطقة. أليس كذلك؟

صدمتُ ثم أصابني الرعب حين أدركتُ أني كنتُ *مُشاهَداً* أكثر مما تصورت. وما إن أخبرته بأني من برشلونة، حتى شرع يحدثني عن رجل قصير من هذه المدينة، يرتدي ثياباً سوداء دائماً من رأسه حتى أخمص قدميه،

اعتاد أن يزور نابولي مرة واحدة في السنة حيث كان يجلس في أحد مقاهي «الميدان». كان هذا السيد مُغرماً بتمثال *المسيح المُبرقع* في كنيسة كابيلا سانسيفيرو، وأنه كان يقضي ساعات في زاوية من هذه المدينة، قريباً من «الميدان»، إذ كان يقول إن هذا الركن يصبح أجمل مكان في العالم، ساعة الغروب. صرت أعرف هذا الرجل القصير جيداً لأني أوصلته إلى الفندق مرات عديدة. كان يشبهني في بعض الصفات، ربما لأنه كان من برشلونة أيضاً. لكنني على أية حال، أطول منه ولا أطلق لحيتي مثله، ولا أبدو مثل رجل دين. «هل أنت فيلسوف مثل السيد لونا البرشلوني؟»، سألتُ سائق سيارة الأجرة على حين غرة. بدا لي أنه كان يعرف جيداً مَن أقصد. الممثل السينمائي بيكاس لونا. واستفسرتُ منه إن كان نفسه السيد لونا الذي تكلمتُ عنه، فيلسوفاً. كلا، لم أشأ قط أن أعرف شيئاً عن تخصصه، لكن طريقته في الكلام كانت توحي بأنه فيلسوف. أوضحتُ لك فقط أنه كان معروفاً في بلده وفي إيطاليا أيضاً بسبب مهنته وعُرف عنه أيضاً نزعته الجنسية الثنائية، إن كان ذلك صحيحاً، لأنه كان يعيش مع زوجته ويحبها كثيراً.

«السيد لونا»، همس السائق، بنبرة تشي بالإعجاب. في الخارج، كان المطر ما يزال ينهمر بعناد ملحوظ. تركتُ سائق سيارة الأجرة يسترسل في حديثه عن زبونه البرشلوني المحبوب، بينما كنتُ منهمكاً تماماً، في الوقت ذاته، في التفكير بالمسكين مورانتي الذي عاملته بطريقة سيئة للغاية لم يكن يستحقها، إذ ما الذنب الذي جناه ذلك الرجل حين قام بتذكيري بتفاصيل كثيرة عن ماضيّ، وأي خطأ ارتكبته أنا، عندما جسّدت شخصية الكاتب الذي كان يطمح أن يكون صفراً إلى اليسار ذات يوم، وانسحب من العالم ليتفرغ له؟

«يبدو أنه راهب»، سمعت السائق يقول في معرض حديثه المتواصل، بطريقة مزعجة، عن لونا المعجب به. بالكاد تحملتُ ثرثرته. أصبح طريقي إلى المطار طويلاً، وكان من الواضح أنني لم أعد أستطيع تحمله. «إنه متخصص بتمثيل الأفلام الإباحية»، قلتُ له. «آه!»، تنهد بطريقة مضحكة. «أوصلني إلى مستشفى المجانين في برج غريكو، بدلاً من الذهاب إلى المطار»، قلتُ له بلهجة زاجرة بسبب ثرثرته المجنونة. «أصحيح ما تقول؟ السيد لونا مُحب للنكتة أيضاً».

غادرتُ سيارة الأجرة على عجل، ونزلت عند أول إشارة ضوئية. أكرمتُ السائق بمبلغ لا بأس به، حتى لا يكون لديه سبب للاعتراض، بعيداً عن الطريقة الفظة التي كان قد تصرف بها معي. غادرت فجأة، وتهتُ في المطر حاملاً حقيبة جدتي، قبعة اللباد والمظلة. بعد ساعة وصلتُ إلى مقر إقامة برج غريكو. كنتُ أفكّر في توديع مورانتي وأعتذر له عمّا بدر مني. لم يأت دكتور بليفيتي إلى عمله بعد، الأمر الذي حال دون رؤيته يدخن غليونه ماركة بوب، وحال أيضاً دون مسايرته في الحديث، الذي لم أكن أرغب به مطلقاً آنذاك، عن لاكان. وبمساعدة ممرضة لطيفة، عثرتُ على مورانتي الذي كان يقوم بتصنيف صناديق من الورق المقوى في بعض الغرف القريبة من المطبخ، برفقة اثنين من الكادر التمريضي.

ما إن رأيته حتى ركعت، وبحركات مسرحية صادقة للغاية، طلبتُ إليه أن يغفر لي المعاملة السيئة التي عاملته بها في الساعات الأخيرة. رويتُ له ما أثار غضبي الشديد عليه. «لا يمكن أن أتصور أنني كنتُ أحسدك»، قال لي بوجه مَن لا يعرف شيئاً، هو العالم بكل شيء. فضلتُ أن أتظاهر بعدم سماعه، ونهضت. شكرني كثيراً وهو يقول: «أوه، دكتور فاوست، يؤلمني أن أراكَ على الأرض، متواضعاً بهذا الشكل، فقط من أجل أمر تافه، لا لشيء سوى أني أكتب دون أن أرى. أصنع لي معروفاً دكتور وانظر إلى وجوه الممرضات ووجوه أصدقائي. نحن جميعاً نشعر بالخجل من تصرفك، دكتور فاوست. يبدو أنك تريد البقاء هنا».

نظرتُ إليهم. كانوا جميعاً يشعرون بشيء من الرعب فعلاً. لكنني كنتُ مثلهم أيضاً، ليس بسبب سلوكي الخشن فحسب، بل لمناداتي بدكتور فاوست أمام الكادر الطبي. «انشغال تفكيرك في الاختفاء»، همس حينئذٍ مورانتي بلهجة تهكم. «ماذا قلت؟»، سألت. «لا شيء»، قال. وعادت إلى ذهني صورة شواخص إبنزال، وتذكرتُ والسر، في محادثة له في هاريسو مع سيلغ: «لا أطمح أكثر من هذا. في المصحة أمتلك السلام الذي أحتاجه. وليثيروا الصخب، هؤلاء الشباب. ما يناسبني هو الاختفاء، أبسط تفاصيله تُلفت انتباهي».

«انشغال تفكيرك في الاختفاء»، كررها مورانتي مرة ثانية هامساً، لكن

كمن يفكر بصوتٍ عالٍ، وهو يقوم بحركة بدت لي متعجرفة. وندمتُ على زيارة تلك المصحة. وندمتُ أكثر عندما أخرج من جيب سترته، مقالة مكثفة، قال إنه كتبها الليلة الفائتة، ويسعده أن يقرأها لي. كان النص، حسب ما قال لي، يتحدث عن تقلب الأمور البشرية عدة مرات، وبحركة بسيطة، من حالة إلى أخرى على نحو مختلف. «مثلك أنت»، أضاف بغموض يجمع بين السخرية والتراجيدية. كان مورانتي قد تغير كثيراً، ولم يكن يتصرف كعهدي به في لقاءاتنا السابقة، بل كان يبدو مثالاً للمزاجية. سألته إن كان يهزأ مني. «شيء من هذا القبيل»، قال، «أرى أنك تود البقاء للعيش هنا. إنه مكان مثالي بالطبع للكتابة والاختباء من العالم، ثم تغادره دون أن يلاحظ ذلك أحد، باستثناء قبعتك، التي هي قبعتي».

وغادرتُ بطريقة فجة جداً، غادرتُ دون إبطاء، وفكرتُ أن هذه المرة، ستكون الأخيرة لي في هذا المكان، سأغادره ونختفي معاً. في طريقي إلى الخروج، أسقطتُ برجاً كاملاً من صناديق الورق المقوى، ولم أتوقف لجمعها. وسرعان ما عدتُ مع حقيبتي تحت المطر. لكن راودتني في ذلك الحين، فكرة شائنة بالعودة إلى الداخل لمعرفة الانطباع الذي خلفه رحيلي. لا شيء. شرعوا بالتقاط الصناديق من على الأرض. أما مورانتي، فكان في أحد الأركان، يمزق مقالته المكثفة ويرميها في سلة المهملات ضاحكاً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث

أسطورة الاختفاء

-1-

في صباح اليوم الأول من شهر كانون الثاني، استيقظت من بعض الأحلام المضطربة. وجدتني في سريري، وقد تحولتُ إلى طبيب نفساني، قام طبيب آخر أثناء الليل، طبيب فظيع دون شك، بزرع ذاكرة متكاملة جداً، فيّ. كانت ذاكرة اصطناعية، غريبة وسليمة، ذاكرة تختلف تماماً عن التي كانت لديّ قبل النوم.

كنتُ مرعوباً. من المستحيل ألا أفكّر على الفور في الخبر الذي كنتُ قد قرأته حول «مختبر دراسات الذاكرة» في أدنبرة، حيث شرعوا في التحدث عن إمكانية زرع ذاكرة متكاملة للمرضى الذين يعانون من «ألزهايمر»، بسبب الشيخوخة أو الجنون.

لقد أُتيح لي أن أمتلك الذاكرة الوحيدة الحصرية للدكتور باسافنتو، تلك الذاكرة، وليس غيرها. أما باقي ذكرياتي فقد انسحقت كلها، جميعها عدا (ربما بسبب قربها من الوقت الراهن) تلك التي تتعلق بالليلة السابقة، ليلة رأس السنة. لكن لو أردت أن أسترجع شيئاً ما حول الشخص الذي كنته قبل تلك الليلة، فلابد لي أن أسعى إلى المكتبة المحمولة داخل حقيبتي أو إلى دفاتر الملاحظات حيث كنتُ أهتم، كما استطعت أن أرى بعد نظرة سريعة، بتدوين قصة اختفائي.

ولأن عقلي لم يعد يعمل بالطريقة ذاتها التي كان عليها في الليلة السابقة عندما كان فرانكشتاين ما يزال مزعزعاً بالذكريات، أي، عندما كان لغزاً بذاكرات شخصية عديدة متعايشة فيما بينها، لم أتردد في الحكم على أن محاولاتي لتغيير هويتي التي كانت بعيدة بما فيه الكفاية، ولعبتي الرصينة، انتهت بين عشية وضحاها لتكون شخصية الدكتور باسافنتو الخالية من التصدعات، المُحكمة والمثالية على نحو مخيف، المتكاملة جداً، والتي

لا تمتلك سوى ذاكرة وحيدة وحصرية هي ذاكرة ذلك الدكتور. لا تدين لي بأي فضل، ولا أدين لها بالحياة. أردت أن أؤمن بأن فرض تلك الذاكرة الاصطناعية كان مؤقتاً ونتيجة فظة للرحلات الذهنية المُقلقة التي احتفلت بها عشية ليلة رأس السنة.

ليلة رأس السنة! كنتُ أشعر بالغثيان قبل أن تدق الأجراس اثنتي عشرة مرة مُعلنة نهاية العام. هاجمني وجع الرأس على حين غرة وأقعدني على الفراش لكي أستريح للحظة. وحين مللت، نهضت وبدأت أذرع أطراف غرفتي جيئة وذهاباً. شعرتُ ساعتها بأني أكثر قوة من قبل لدرجة لن أضل أو أتيه أبداً، وأني في الطريق الصحيح لتوجيه نفسي من جديد، الأمر الذي جعلني أطلق بعض التنهيدات المضحكة. ولم أكن قادراً حتى على أن أواري أمام نفسي حقيقة الضيق الذي كان قد ألّم بي. ورأيت أشعة المدفأة حينها تبتسم. وحين وصلت إلى هذه المرحلة قلتُ لنفسي، هل كانت الوحدة المفرطة تحطمني ببطء في الأيام الأخيرة؟ وبعد أن سألت نفسي هذا السؤال، رأيت أشعة المدفأة تبتسم بطريقة ساخرة من سكونها المشع الرابط الجأش. «لا شيء يؤثر فيك» صرختُ فيها بغضب وسخط حقيقي، «أنتِ لا تتأثرين لأنكِ لستِ خاضعة لأي نوع من القلق. النكبات لا تُحزنك. ولم تُخطئي بالطبع. وهذا ما يجعلك تشعرين باعتداد النفس، بالتأكيد».

كنتُ خارجاً عني. قاتلة، ليلة عيد رأس السنة هذه، فكرت. وجلستُ على السرير ثانية. وبعد خطابي للمدفأة، سألت نفسي إن كنتُ قد أصبحت مجنوناً رسمياً. وكما لو كنتُ قد رأيتُ سابقاً ما كان يحدث معي، أي، كما لو كنتُ رأيتُ، بعد الأحلام المزعجة، ما كان سيحدثُ لي في صباح اليوم التالي (أي، كما لو أنني أشاهد الآن نفسي أستيقظ بذاكرة مزروعة مرعبة) وسألت نفسي إن كان لديّ وعي مُبرمج على مصير يمتلك أوراق لعب محددة يحرك خيوطها بين فترة وأخرى ويقوم بنقلها بما يكفي ليمكنني بها من التكلم إلى المدافئ ويرتكب بي مزيداً من الحماقات بهذا الأسلوب، وينتهي بيَ المطاف ضحية وحدتي المتطرفة التي تدخلني مستشفى المجانين.

لم يفكر أحد بي. وجدتُ نفسي في مأزق عسير يصعب الخروج منه في غرفة الفندق هذه في باريس. كنتُ قد عشت وحدة قاسية أيام ما قبل ليلة عيد

رأس السنة المأساوية. ولكي أهرب من الوضع الذي كان يحاصرني، لم أجد أفضل من التفكير في مستشفى المجانين في هريساو. في أي مكان من سويسرا الغامضة، تختبئ تلك المصحة؟ هل تحرص مستشفيات المجانين على الاختفاء أيضاً؟ وهنا يظل السؤال قائماً، ألا يمكن أن تكون هريساو، مكاناً مثالياً ليتوارى فيه الدكتور باسافنتو عن العالم نهائياً؟

فكرتُ في هذا كله وتساءلتُ إن كانت خلف رغبتي المتنامية في معرفة تلك المصحة، الصارخة بالحقيقة، بداية جنوني المحتمل، وأسطورة الاختفاء. كنتُ قد فكرتُ كثيراً في الاختفاء في ذلك الوقت، لكن لم أفكّر في الأسطورة. هل هناك أسطورة للاختفاء بالفعل؟ ولمَ لا تكون هناك؟ بالنسبة إلى الكثير من الأشخاص، يمكن العثور على هذه الأسطورة، على سبيل المثال، خلف الخيال الشعري لـ«باتاغونيا»، أي وراء فكرة الغرق في غربة نهاية العالم، في ذلك المكان، باتاغونيا حيث يعي الإنسان تماماً أن الجمال يمكن أن يقوده إلى الشعور بالوحدة، أحياناً بصورة مباغتة، وأحياناً أخرى بسبب اعتياده على الجمال ذاته، ورؤية الأيام تمضي بالروتين ذاته. فكرتُ في هذا وتذكرتُ جنينة *نهاية العالم* التي مررت بها ذات يوم. وتناهت إلى ذاكرتي مؤخراً عبارة أجهل قائلها: «السفر إلى باتاغونيا، لابد أن يكون، كما أتخيل، شبيهاً برحلة نحو حدود مفهوم ما، أو كما الوصول إلى نهاية الأشياء».

قلتُ لنفسي إن باتاغونيا أو مستشفى هريساو للمجانين، هي مَجاز بالطبع. منذ بضع دقائق كانت مستشفى هريساو للمجانين تمثل بالنسبة إليّ كناية شخصية عن نهاية العالم. وباتاغونيا، من جهة ثانية، كانت استعارة عن ملكية العالم بأجمعه. كلما فكرت فيها أكثر، يزداد يقيني بها على نحو أوضح. يبدو أن هريساو مكان مناسب جداً للاختفاء، ومن المحتمل جداً أنهم سيبحثون عني في باتاغونيا أكثر مما في مستشفى المجانين في سويسرا الشرقية، رغم قناعتي شبه المطلقة أنه لا أحد سيبحث عني في أي مكان. هل كنتُ أرغب في ذلك بالفعل، أم إنه على العكس تماماً؟ لم أعد أميّز جيداً، لكن من المؤكد أنني اعتدتُ على فكرة أنني لستُ *ملموساً* لأحد، مما يمكن أن يُترجم على أنني أسير بسرعة ملحوظة، في طريق خسارة حضوري.

بدأت أعتاد فكرة أنني أكاد أكون إنساناً غير مرئي تماماً، ومنكوباً أيضاً. نعم، هكذا هو الأمر، إنساناً لا يمتلك رفيقاً إلا مخيلة تمهد له السبيل ليكون الكاتب المخفي الذي كثيراً ما تمنى أن يكون كذلك. عدتُ إلى النافذة وأصغيتُ إلى الزئير المُتخيل وعواء الريح في شارع فانو. ساعات قليلة تفصلنا عن أجراس نهاية السنة. أليس من المفروض أن أهرب من الخلط بين الشباب والطفولة الذي يتملّكني الآن؟ حول هذه المسألة وجميع المسائل الأخرى، أجد نفسي قادراً على اتخاذ قرار يريحني، أكثر من أي وقت مضى. في نهاية الأمر، أنا لم أعد كائناً في منتصف ليلة نهاية العام تلك، بل كاتب مخفي وطبيب نفساني يمارس الكتابة لنفسه.

واعتقدتُ أن ثمة أصواتاً كانت تصل إلى مسامعي، لعربة من القرن التاسع عشر تتقدم في شارع فانو، يختلط هديرها مع دقات الأجراس الاثنتي عشرة وعويل الريح، لتدخل جميعها من نافذة شقة ماركس العتيقة، ثم تعاود الخروج منها نحو الشارع والتسلل إلى غرفتي في الفندق والعبث بقبعة اللباد المتواضعة التي كان مورانتي قد أهدانيها في نابولي. وأدركتُ أن جنوني الآخذ في الازدياد لم يستغرق مني وقتاً طويلاً. هل كنتُ أنا المخطوف بشارع فانو، دون أن أعي ذلك؟ وتذكرتُ أنني في عهد ما حين كان لديّ أصدقاء، طلبتُ منهم أن يُعلموني باليوم الذي أصبح فيه مجنوناً. بمَن أثق الآن، لأعرف إن كنتُ قد فقدتُ صوابي؟ كان كرّاس أرقام التلفونات المُعطل الخاص بي مفتوحاً على الدوام فوق المنضدة الصغيرة. تطلعتُ إليه في تلك اللحظة وكأنها المرة الأولى التي أراه فيها هنا. تصفحته، ومثلما حدث في مناسبات عديدة من أيام سابقة، استخلصتُ نتيجة مفادها أنه لا أحد لديّ أتصل به. كانت هناك أسماء لبعض الأصدقاء القدامى بالطبع. لكن الاتصال بهم يمكن أن يفسد الاحتمال الضعيف في أن يفتقدوني ذات يوم، مهما كان بعيداً، إضافة إلى كونه لا يضفي أية فرحة عليهم. لم تكن هناك ضرورة إلى الخوض في هذه المسألة أكثر. لم يكن لديّ أحد ألتجئ إليه لمعرفة إن كنتُ قد أصبحت خرفاً بالفعل. لم يكن لديّ ولا حتى الصديق الطيب ماريو غومبريث الذي اختفى من برونيكس في وقت مبكر، الصديق الحقيقي، الصديق الذي اتصلتُ به لإخباره أنني

سأكون أباً لابنة اسمها نورا، سألني خائفاً جداً، إن كان هناك أحد يضمن لي ألا تموت هذه الابنة مقتولة.

فكرتُ في ماريو غومبريث ثم في المقتولات وصريخهن وعويل صفارات سيارات الإسعاف التي تنقل القتلى في نيويورك، وفي بعض الأبيات الشعرية حول هذه المدينة التي تقول «لا حدود للدم/ في لياليكم الفاغرة الفم». سألتُ نفسي عما إذا كان الإنسان سيواصل استخدامه للغة لفترة طويلة من الزمن أم أنه سوف يستعيد العواء شيئاً فشيئاً. وتمكّن مني الحزن أكثر. هل انتهى كل أولئك المصابون بالجنون، إلى العواء؟ قررتُ أن أغير نشاطي الذهني وأبحث عن مسليات أخرى لليلة عيد رأس السنة الجديدة الرهيبة. وتذكرت أحد توجيهات جورج بيريك: «اكتشف شارعك. واكتشف أية جادة أخرى. ثم قارن». عثرتُ على تسلية مؤقتة. تمددتُ على السرير وشرعتُ أتخيل أنني أكتشف النقاط الدالة لشارعي. أي واحد، أعتبره شارعي؟ شارع فانو بالطبع. يحتوي على ست دلالات أساسية، مثل متنزه سان خوان في طفولتي الذي كان يحتوي على ستة أماكن رئيسية أيضاً. كانت دلالات شارع فانو شواهد في غاية الوضوح: مسكن جيد، السفارة السورية، القصر الغامض ذو الظلال الثابتة، صيدلية دوبيرو، شقة ماركس وفندق السويد. تصورتُ بعدها، أنني كنت اكتشف الأماكن الرئيسية في متنزه سان خوان المتعلق بطفولتي: البوابة ذات اللون البحري، سينما تشيلي، متجر المكتبي اليهودي، النادي المهجور، القلعة الناظرة والمدرسة.

قمتُ بالمقارنة. كان هناك تطابق واضح بين كل واحد من أمكنة شارع فانو ومتنزه سان خوان. بدت القلعة الساحرة المبهمة، على سبيل المثال، متناضرة مع القصر الغامض للظلال الثلاثة الثابتة. مدخل سينما تشيلي يحمل نفس أبعاد صالة فندق السويد،...إلخ. وارتبطتُ للحظة ما بشارع مع آخر حتى استنفدتُ كل المجاميع الممكنة، وانتهى عالمي الذهني إلى الاقتصار على جادتين اكتشفتُ أنهما في الحقيقة جادة واحدة، الجادة الوحيدة والمتفردة في حياتي.

نظرتُ إلى قنينتي الويسكي والكعكة التي اشتريتها، قانطاً، من حانة تونسية في شارع فارين. كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عندما

حزمت أمري وقررت أن أجرب الويسكي والتفكير في فترة مراهقتي. وسرعان ما بدأت استعيد مذكرات مراهقتي التي أهدوها لي في ليلة عيد الميلاد، والتي شرعت أكتب فيها منذ شتاء 1963. كانت صورة متنزه سان خوان خلفية لها، تشبه إلى حد ما الكراريس التي شرعت أكتب فيها منذ أيام قصة اختفائي. بدأت بها يوم 31 كانون الأول من عام 1962، أتذكر هذا التاريخ جيداً، وكتبتُ وقتها حاشية مقتضبة «أخشى على والديّ من الموت». حاولتُ أن أعصر ذاكرتي أكثر لأتعمق في سر تلك العبارة. هل كانت صيغة طبيعية لافتتاح دفتر مذكرات مراهق؟ تذكرت أخيراً أنني في تلك الأيام اعتدتُ أن أوحي لوالديّ بأني غير موجود في المنزل، فكنتُ أختبئ تحت السرير وأبقى هناك أفكّر لساعات كاملة. كانت أوقاتاً أستمتع فيها بالوحدة بجنون حقيقي. كان والداي يخمّنان في بعض الأحيان أن ثمة شخصاً آخر في المنزل، فيدخلان غرفتي ويتجسسان على محتوياتها. كنتُ أحبس أنفاسي بشدة، مخافة أن أُكتشف، وأشعر بلذة كبيرة وأنا ألمس نجاحي في التخفي هناك تحت السرير، بعيداً عن أعين العالم أجمعين.

في أيام مراهقتي كانت لديّ ميول معينة نحو التخفي. أما ميولي للظهور، فهي تقتصر في الحقيقة على الأوقات التي أنشر فيها أحد كتبي فقط. وبينما كنتُ أحدثُ نفسي بهذا الموضوع، سقطتُ في الساعة الخامسة من الفجر بعد أن شربت قنينة ويسكي ونصف القنينة، في نوم عميق على خاصرتي لأجل أحلام مضطربة تسهل عمل الدكتور غير المنظور، المتخصص بالكيمياء العصبية للدماغ، الذي كان سيزرع الذاكرة الصناعية الرهيبة، بجدارة.

في الصباح التالي، فتحت عينيّ على اتساعهما دون أن أتجرأ على النهوض من الفراش، بعد أن تحولت، على نحو لا يُخطئ، إلى الدكتور باسافنتو المرعوب من اكتساب هوية مُحكمة ومتفردة، تؤكد مرة أخرى على أن الهوية عبء ثقيل جداً. تناهت إلى سمعي زقزقة عصافير حدائق ماتينيون وسط الصمت المُطبق في شارع فانو، وهو الصمت الذي يلي احتفالات نهاية السنة، الصمت الذي يمتد ليشمل كل أنحاء باريس. لابد أن الثلج كان قد تساقط فجراً. وضربت ريح عاصفة، نافذة الغرفة دون أن أعرف متى، فيما كان ضوء شديد، غير حقيقي تقريباً، يوحي بأني استيقظت في العالم الآخر.

كنتُ في أحد أركان الجنة السماوية، لكن مع ألم شديد في الرأس وذاكرة متفردة لدكتور نفساني.

مبهوراً ومضطرباً بهذا النور، وبكوني الدكتور باسافنتو *فقط* أيضاً، أردت أن أؤمن بأن كل ما كان يحدث لي، هو ببساطة وعلى نحو جلي، نتاج صداع قوي. إذا ركزنا أكثر في الأمر، هل يُحتمل أن ثمة طبيباً، ضليعاً دون أدنى شك، وربما يكون متخصصاً في كيميائية أعصاب الدماغ، زارني أثناء الليل، وأنبت فيّ ذاكرة الدكتور باسافنتو كاملة؟ طرحتُ على نفسي كل هذه الأسئلة، موجوعاً جّراء صداع في الرأس يتزايد مع زقزقة عصافير حدائق ماتينيون.

لم أستطع أن أتوقف عن التفكير أنني يجب أن أكون الدكتور باسافنتو فحسب، طوال حياتي المتبقية، لكن الأسئلة كانت لا تزال تضج بداخلي. ماذا لو لم أكن في الحقيقة مخطئاً في الاعتقاد أن النور الشديد والغريب للثلوج الذي كان قد غيّر غرفتي، كان يُعلمني بأني توفيت الليل بطوله، وفتحتُ عيني حياً في العالم الآخر؟ كان يتفصد مني عرق بارد وخوف. هل جُننتُ؟ هل أنا إنسان ميت؟ هل أنا جثة إنسان مجنون؟ هل تماديتُ في تناول الكحول؟ تذكرتُ أن كاتباً سويدياً من القرن السابع عشر، يُدعى الدكتور سويدنبرغ، دعم نظرية مفادها أن الإنسان حين يموت، لا يدرك أن الأجل وافاه، لأن كل ما حوله سواء. يجد نفسه في منزله، مُزاراً من الأصدقاء، يجري في شوارع مدينته، ولا يفكر أنه ميت، لكنه يبدأ بعد حين في ملاحظة شيء يسعده في البداية، يحزنه فيما بعد، يلاحظ أن كل شيء في العالم الآخر أكثر حياة من هذا العالم.

ارتجفتُ قليلاً حين أدركتُ أن ذكرى سويدنبرغ، كانت في الحقيقة غريبة عني دائماً، وبتعبير ثانٍ، كنتُ قد قرأت القصة في أحد الكتب، ثم نسيتها فيما بعد، ولم أعد أتذكرها مطلقاً حتى بزغت في هذه اللحظة. ربما كانت ذكرى شخصية جداً تعود للدكتور باسافنتو، قد تفسر كل شيء. وربما كانت ذكرى مركزية مزعجة لذاكرتي المزروعة.

توقفتُ عن التفكير في هذا الشأن عندما رأيتُ أنني فقدتُ وهج نور الثلج الذي كان يلج من نافذة غرفتي في باريس. كم من الدقائق مضت منذ

أن كرّستُ نفسي لاسترجاع نظريات الدكتور سويدنبرغ؟ هل كان ذلك بعد وقت قصير من استيقاظ المسخ فيّ، وعدت إلى النوم بعد أن انتصر عليّ الصداع والجنون الذي كان يحاصرني؟ وتوّلد لديّ انطباع، في هذا اليوم الأول من السنة، بأن العام الماضي مر أسرع من المعتاد. هل أنا ميتُ بحق؟ أطللتُ من النافذة ولاحظت وجود شواهد متحركة في شارع فانو أكثر من ذي قبل، رغم أن الشارع، كما هو الحال دائماً، يسجل هذا المستوى السمعي من الهدوء والجمود الذي يبدو أنه يسبق انفجار الكراهية الكبير والرعب الأصم لعوالم على وشك الصراخ. لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا أتطلع إلى الشارع. الحقيقة أنني شعرت بتجمد في أطرافي وشيء من الخوف حين أدركتُ أن الدكتور باسافنتو الوحيد والحصري، قادر على أن يتذكر بعض الأشياء التي أنا بصدد تذكرها الآن. ربما تكون عقوبة لمحاولتي انتحال حياة مزدوجة، دون وجه حق. الآن وبسبب جسارتي الكبيرة، لا يمكنني إلّا أن أكون ذلك الدكتور الذي أصرّ على أن أكونه مؤخراً.

ربما تحولت إلى مجرد مرشح مثالي للحجز في مستشفى هريساو للأمراض العقلية. أن أكون مجنوناً، ليس بالضرورة أن أضفي على الأمر بعض الشكوك. يكفي أن أؤمن أن دكتوراً ما سكن في أعماقي لدرجة كنت أتخيله بشعر مصفوف على الطريقة الحديثة التي تحاكي أشعة المدفأة، مسترسلاً مثل دب متعطش يسيل لعابه -هكذا بدأت أتصوره- متخصّصاً في الكيمياء العصبية للدماغ.

لكن، هل كان هناك بالفعل، دكتور داخل دكتور كنته أنا؟ بعد أن أعياني التفكير في هذا كله، عدتُ إلى النوم متعرقاً، في محاولة لإزالة جميع السموم التي سببها كحول الليلة السابقة. مع صداع الكحول، حلمتُ بأعراس الجنون. عند الساعة الرابعة عصراً، استيقظت. كان الصداع قد خفّ كثيراً، لكني مع ذلك ما زلتُ بذاكرة الدكتور باسافنتو كاملة. وكأنه بدا لي أنه لم يعد بالإمكان افتراض أن الصداع اللعين كان مشروطاً مع ذاكرتي، رأيت أنه لم يتبق أمامي سوى خيارات قليلة لتفسير الحالة التي مررت بها. فقط تبقى عليّ (متغاضياً عن التفسير المتطرف، بأني في عداد الموتى) أن أثق بحصافة من أنني أعاني من حالة جنون. أخال أنه من الأفضل أن أؤمن بأني مجنون

على أن أكون ميتاً. مَن كان سيخبرني بأنني كنتُ أفكّر في هذا ذات يوم؟ وانطلاقاً من ذلك، أعتقد أن الجنون مع قليل من الشر، يكون مرغوباً أكثر. مجنون مستشفى الأمراض العقلية، مجنون مثالي. مجنون رسمي لدخول هريساو. وهذا يفسر على نحو لا يقبل الشك، أنهم زرعوا فيّ ذاكرة متكاملة. فكرتُ في هولدرلين الذي أطلق على نفسه أسماء مبهمة، في إحدى نوبات جنونه، بوناروتي، سكارتنيلي أو كيلاسيمينو، وطلب أن يمنحوه لقب أمين مكتبة. تذكرتُ مكتبتي المتواضعة في حقيبتي الحمراء الصغيرة، وجلستُ على الفراش، باكياً. في الخارج، كان إعصار أورواوا يعوي مطولاً في مدخنة قصر ماتينون وكذلك في منزل الظلال الثابتة. يبدو كأن كل شيء كان يهدّئ من التوتر المهول، كما لو أن أثاث السفارة السورية كان ينتفخ والزجاج على وشك أن ينفجر في أية لحظة، وشبحاً على هيئة عربة جنائزية على استعداد للطواف في ربوع أوروبا. أصبحت مجنوناً. هذا هو الواقع. بوناروتي، سكارتنيلي، كيلاسيمينو. مرحى للتعددية العظيمة! يا له من تنوع في الأسماء! كم يثير فيّ، حسداً! أن عبقرياً مثل هولدرلين يمكن أن يُسرف في الأسماء. نهضت من السرير وواصلت بكائي. يا للعار! يا للرعب! يا للكمد! لم أكن إلّا الدكتور باسافنتو.

-2-

في مساء اليوم الأول من العام، راودتني رغبة في القيام بجولة على الأقدام. لم أعد أتذكر الساعة التي قررت فيها ذلك. وضعت قبعة اللباد على رأسي، وغادرتُ «حجرة الكتّاب أو الأرواح» ونزلت الدرج في طريقي إلى الخروج إلى الشارع لأطأ الثلج. على قدر ما أتذكره اليوم، شعرتُ بنوع من الإزعاج الخانق حين مررتُ بشارع فانو. كانت آثار الصداع الذي داهمني في ساعات سابقة، ما تزال تعصف برأسي على نحو أقوى. هل كنتُ حقاً أبدو كطبيب نفساني انسحب بصورة طارئة؟ لحسن الحظ كنتُ قد قرأت في كراريسي، أجزاء من قصة اختفائي وهذا ما ساعدني على التخفيف من حدة سوط الذاكرة الكاملة التي زرعت فيّ حديثاً. لم يكن من السهل أن أعرف، وأنا متدثر بين اللفاع الذي يغطي نصف وجهي وقبعة اللباد. ربما

كان ذلك ما يفسر عدم رؤية إيف بورغويس لي حين كنتُ خارجاً في الشارع فيما بعد. كانت إيف المسؤولة عن العلاقات العامة في دار النشر، تصطحب لوبو أنتونيس حينذاك إلى الفندق. التقيتُ بهما على مقربة من منزل أندريه جيد. كان من الواضح أن الكاتب البرتغالي، بعد قراءته في مكتبة كومبانييه، كان قد قرر البقاء في باريس حتى نهاية العام. أما الآن فقد عاد إلى غرفته بعد أن انتهى من الجولة.

عندما رأيتُ أني أعرف تماماً مَن يكونان، أدركتُ، على الرغم من ذاكرتي المشوشة وغيبوبتي القسرية في الساعات الأخيرة، أنني لا أحتفظ بذكريات عن الدكتور باسافنتو فقط. كان لوبو أنتونيس وإيف منهمكين في الحديث لكن هذا لم يمنعهما من رؤيتي جيداً. ولأنه كان يجهل من أكون، كان تجاهل لوبو أنتونيس لي، ردة فعل منطقية. لكن إيف حدقت فيّ ونظرت إليّ دون أن تعرفني، أو خُيل إليها أنها رأت نسخة غريبة مني. باسافنتو مستنسخ بمظلة ولفاع وقبعة لباد. اتسع بؤبؤ عينيها، وكأنها رأت مفاجئة لنسخة مشوهة مني، لكنها لم تلقِ عليّ التحية ولا أي شيء من هذا القبيل.

هل غيرتني ليلة رأس السنة إلى هذا الحد بحيث أصبحت مجهولاً في أعين الأشخاص الذين كانوا يعرفونني؟ ربما معطفي الأحمر الخالد، لم يكن يشي بي؟ بقيتُ متذبذباً بين الحيرة والتيه، أتأمل السماء أو بالأحرى، الطابق السادس للعقار الذي كان يقطنه جيد. «كلما زادت غرابة الأشياء، ازداد النظر إليها»، كان يقول صديقه باول فاليري. لابد أنني كنت أحمل شيئاً من الغرابة، لكن يلزمني الكثير كي أكون غير منظور. يبدو أنني كنتُ غير مرئي، وغريباً في الوقت ذاته. على أية حال، الشيء الأكثر غرابة أن إيف لم تعرفني. هل حقاً تغيرتُ كثيراً؟

كنتُ أفكّر في هذا كله للحظات، حتى استدرتُ وعدتُ أدراجي. قررتُ أن أتبع إيف ولوبو أنتونيس، خلسة، ربما على أمل أن يعودا على حين غرة لرؤية هذا السيد ذي الوجه المرعب، اللفاع، المظلة وقبعة اللباد، الذي مرّ بجانبهما وها هو الآن يتبعهما. لكن هيهات. لم يعودا بل بقيا يتابعان الحديث في شؤونهما. حين دخلا الفندق، دخلتُ أنا في دوبيرو التي كانت مفتوحة في ذلك اليوم كصيدلية خافرة. طلبت حبوب وجع الرأس. وفي الحال رأيتُ

أن الصيدلانية التي تعمل في الداخل لم تكن نفسها التي شاهدتها في المرة السابقة حين دخلت وطلبت حبة أسبرين أيضاً. بدا لي أن ذاكرتي المدمجة المرتبطة بالدكتوراه والشخصية المتفردة، بدأت تتراخى أكثر فأكثر. عادت ببطء شخصيتي المركبة التي كانت تعود لي في اليوم السابق قبل وقت قصير من تناولي الكحول بشراهة، مما يؤكد أنها توقفت عن أن تمتلك ذكريات الدكتور باسافنتو فقط. أعطتني الصيدلانية حبات الأسبرين. في تلك اللحظة كنتُ مأخوذاً بعودة ذهنية مختصرة وعاتية استحضرتُ فيها لحظة كنتُ في نيويورك أشاهد كيفية استخراج والديّ من قاع نهر هيدسون.

«سبق لي أن رأيت هذه الصيدلية على الإنترنت»، قلتُ للصيدلانية هكذا على حين غرة، ربما كنتُ عصبياً بسبب الصورة المفاجئة للغريقين. «حسن، جيد جداً»، أجابتني محدقة فيّ بنصف ابتسامة. وأخيراً، ثمة مَن يراني. صمت، كسرته أنا. «هل قرأتِ *الهروب دون هدف* للكاتب جوزيف روث؟»، سألتها. افترّ ثغرها عن ابتسامة عريضة، كما لو أنها كانت تبحث عن دافع للضحك. «مؤكد أنك كاتب. فندق السويد يغص بالكتّاب عادة. هل تنشر في دار كريستيان بورغويس؟»، قالت. كأنهم يطرحون عليّ السؤال الأصعب في العالم. «أنا كاتب سري، فكيف أقوم بالنشر هنا؟»، أجبتها. فهمتْ قولي خطأً أني من المباحث السرية. «هذا هو شارع المباحث السرية، بدأت أتعب من هذا الأمر. على الأقل كانوا في السابق، مباحث سرية فعلاً دون أن يظهر عليهم. العالم يتغير بسرعة كبيرة»، قالت. أوضحتُ لها أنني لستُ شرطياً وعرفت أن اسمها شانتال ولم تكن تعمل هنا، لأن إجازة ممارسة المهنة الخاصة بها كصيدلانية كانت منتهية الصلاحية، وكانت دون عمل. وعندما شاهدتها هنا تلبي طلبات الزبائن، فلأنها ببساطة كانت بديلة عن صديقتها في يوم العطلة.

«أعـرف صديقتك»، أردت أن أقول لها، لكني التزمتُ الصمت. «صديقتك تظهر أيضاً في الإنترنت خلف العارضة»، فكرتُ أن أقول لها، لكني توقفتُ مجدداً. «ما تكون إذن، إن لم تكن شرطياً؟»، سألتْ. كنتُ أبدو مثيراً للشك وأنا أبحث يائساً عن إجابة. «هل تعرفين شيئاً؟ كثيراً ما يسألني آخرون من أنا، كنتُ أضطر إلى أن أريهم جواز سفري»، قلتُ لها. «وما

مكتوب في جواز سفرك؟»، سألت بإيماءة جذلة، مع شيء من عدم الارتياح بسبب محادثتي المطولة معها. «أنا الدكتور أنغرابايو»، أجبتها. خرجت العبارة من روحي، أو بالأحرى، من داخل هذياني. بدا لي أنها خرجت من أعماق ذاكرتي المزروعة حديثاً، كأن من هذا الأعماق، كان ينبثق صوت غير متوقع، نوع مغاير لصوت سيرجي ريجياني الذي كنتُ قد سمعته آلاف المرات في حانة فرنسية في برونيكس «لستُ وحيداً، في وحدتي». لكنه كان صوتاً يذكرني في الوقت ذاته بذلك الصوت الداخلي أو الشبحي الذي كنتُ قد سمعته في أعلى برج مونتين. هل كان الدكتور إنغرابايو، وحدتي؟

دفعتُ وابتسمتُ لها.

الدكتور إنغرابايو! في الصمت القصير الذي أعقب ذلك، تذكرتُ الدكتور انغرابايو المختلف بعض الشيء، ذلك الارتيابي والشرطي الحكيم لرواية *تلك المشاجرة في شارع مرولانا* للمؤلف كارلوس إميليو غادا. «لستُ طبيباً»، كان يرددها بلغة إيطالية، بصبر على أسماع جميع الذين كانوا ينادونه على هذا النحو. «لستُ طبيباً»، قلتُ للصيدلانية البديلة، باللغة الإيطالية. «أوه، تفضل هذا هو الأسبرين. صحة وعافية»، أجابتني ضاحكة مرة ثانية، واستدارت عائدة إلى داخل الصيدلية، وفي فمها كلمة معلقة لم تبح بها. مؤكد أنها كانت تعبة مني مع بعض الظنون، إن لم أكن مخطئاً. كنتُ متأرجحاً بين الضياع، وصداع نهاية العام واحتمال الجنون المدوّي.

خرجتُ إلى الشارع. وعلى الرغم من عدم قناعتي بكل ما حولي، شعرتُ بأني إنسان مهزوم ومنفي من العالم. وبطريقة متواضعة ومنافية للتحولات التي حلّت بذاكرتي، قررتُ أن أطلق على نفسي اسم الدكتور إنغرابايو، على الأقل خلال بقية اليوم الأول من العام، ذلك اليوم الذي كان في طريقه للتلاشي، انتقاماً من الطبيب غير المرئي، بأخلاق الدب الذي زرع فيّ ذاكرة كاملة. ابتعدتُ من هناك سيراً على الأقدام نحو سان جيرمان بخطى عاجلة لبضع دقائق حتى وصلتُ إلى الكشك المجاور لمكتبة لا هونه، حيث اشتريت صحيفة دون أن أنتبه إلى أني كنتُ قد اشتريتها وقرأتها في اليوم السابق.

«الثلج لا يبعث بـرداً»، قال لي من على الأرض *المتشرد* صديق

سكورسيليتي. «أوافقك الرأي، لا يبعث»، أجبته بأدب ولطف مع ابتسامة عريضة، اعترافاً مني بمكانته كـ«متشرد»، وكأفضل صديق وشريك أيضاً، وهو ما كان عليه بالفعل. دخلتُ إلى لا هونه، المفتوحة طيلة أيام العطل. وجدتُ مجلة أدبية كان يُعلن على غلافها مقابلة مع جوزيف ويرل، «ممرض والسر في هريساو». لم يكن في نيتي أن أشتري أي شيء من لا هونه، لامتلاء حقيبتي بالمجلات والكتب، لكن وجود هذه المقابلة مع ممرض لم أسمع به مطلقاً من قبل، حملني على الفور إلى اقتناء هذه المجلة. هل كان اقتحام هريساو لحياتي بغتة مرة ثانية، صدفة؟ سألت نفسي ثم خرجتُ إلى الشارع وانعطفت على فلور حيث حجزتُ طاولة وجلستُ دون أن ألوي على شيء. تجرعتُ حبة أسبرين مع قهوة سادة. لم يمهلني تأثيرها كثيراً –أعتقد أن الأسبرين على وجه الخصوص والقهوة التي بدت لي لطيفة– بل سرعان ما غيّر فكرة ما بداخلي، واحدة فقط لكنها وافية. وتوقفت عن الاعتقاد بضرورة أن أكون الدكتور انغرابايو وعدتُ لأكون ما كنتُ عليه سابقاً، الشخصية التي لا تهدأ أبداً.

حين فتحت الصحيفة وقرأت عناوين مقالة حول الكيمياء العصبية الخاصة بي، أدركتُ أن هذا كله كنتُ قد قرأته مساء البارحة. في المقالة، أكد فرانسيس كريك، مكتشف تركيبة الحمض النووي مع واتسون، أنني نشأتُ من مزيج من السكر والكربون. «قبل الشك في أن كريك مجنون»، قلتُ لنفسي، «عليك أن تفكر بأن حبة واحدة من الأسبرين يمكن أن تغير فكرة ما، حتى لو كان السبب مجهولاً من الآخرين. إذا كانت حبة أسبرين قادرة على أن تفعل هذا كله، فما الذي لا يستطيع أن يفعله الطب بأدمغتنا؟». لدى قراءتي للمقال الملاصق، بعد فترة وجيزة، وجدتُ خبراً آخر مقروءاً أيضاً، يتحدث عن مختبر دراسات الذاكرة في أدنبرة، حيث كانوا يجهزون هناك أدمغة كاملة للمرضى جاهزة للزراعة. لمستُ قفاي، وكأنه المكان الذي أُدخلت لي منها الذاكرة الكاملة للدكتور باسافنتو. مع تقدم ملموس في عقلي، يبدو أن حبة الأسبرين جعلت مني إنساناً أكثر فاعلية من المعتاد، بعد أن شفتني من الصداع. أم إنها كانت مجرد تعزيز لحالة الجنون بداخلي؟ شعرتُ أن الدكتور إنغرابايو كان يلمس قفاي. الطبيب إنغرابايو. نفس

الشخص الذي انسلخ مني الآن. مرعوباً بعض الشيء، مع الذعر يداهم أعماقي، أركستُ قبعة اللباد في رأسي أكثر. توصلتُ إلى قناعة تامة بأنني كنتُ إنساناً لا يمكن التعرف عليه. كانت إيف بورغويس على حق حين لم تتعرف عليّ. في تلك اللحظة، تماماً في تلك اللحظة، طلبوا مني توقيع كتاب. لقد خلطوا في العرس، بيني وبين الكاتب المصري العظيم ألبرت قصيري، الزبون المنتظم للمحل. أزعجني الالتباس كثيراً، لكني أهديتُ لهم الكتاب. سألتهم عن أسمائهم. ميشيل وماريا. كتبتُ لهما: «إلى ميشيل وماريا اللذين ذهبا إلى عشيهما ولم يعودا». لاحظتُ أنه كان يروق لي كثيراً أن أهدي الكتب التي كتبها آخرون.

بعد نصف ساعة، بدأت حبة الأسبرين والانهيار التدريجي للصداع، في زيادة إيقاع تغيير الأحوال، وشيئاً فشيئاً شرعت تتسلل إلى ذاكرة الدكتور باسافنتو الغاصة بذكريات الشخصية الأولى التي كانت قبل أن تتفرغ للطب النفسي. ارتحتُ حين تحققت أنه لا يتيه مَن يؤمن أن هذا الخوف كله ليس سوى نتاج صداع قاس في نهاية المطاف. ومع كل دقيقة تمضي، كنتُ أسترجع على نحو جلي، ذاكرتي المزدوجة. ولحسن الحظ امتزجت من جديد ذكريات الطبيب والكاتب مثلما كانت عليه قبل ليلة رأس السنة الجديدة. وأدركتُ أنني أصبحت في النهاية، رجلاً بماضٍ مزدوج.

تشجعتُ حينذاك. ودون أي وازع للخوف ومن أجل أن أكون أكثر تماسكاً، قررتُ أن أُوجز شخصيتيّ الاثنتين، في اسم ثالث، وتثبيت ذاتي في هوية ثالثة، طريق ثالث نحو الحقيقة. وبسبب الظروف، بدا لي في تلك اللحظة أن اسم الدكتور إنغرابايو سيكون أكثر إنصافاً وملاءمة، رغم أني كنتُ قد تراجعتُ عن إلصاقه به قبل قليل. ليزرعوا ما شاءوا من الأدمغة في الآخرين، وليتركوني بسلام. إن كنتُ قد أصبحت تواً إنغرابايو، فلماذا لا أجرب أن أكونه الآن؟ ثم، ألم يكن قد أسرى بالعزلة في داخلي؟ ألم تكن تلك العزلة نوعاً من الدب المدمدم الذي كان يرافقني في انسياقاتي؟

وعلى الرغم من أنني بانتصاري على الصداع، فقدتُ جنوني، فقد لاحظتُ أن الجنون، في كل الحالات، لم تكن لديه نوايا في التراجع عن كل شيء. كلمتُ الدب القابع في أعماقي: «أعتقد أنك لا تنزعج إن سميتُ

نفسي بك؟». وتظاهرتُ أنني كنتُ أتحدّث بالهاتف المحمول (لم يكن لديّ أحد، ولا أفكّر مطلقاً أن يكون لي أحد، إذ لم يعد لديّ اليوم مَن أتصل به) وبقيتُ أتكلّم مع دبي، مع دبي الداخلي، مع جرّاح الكيمياء العصبية الأقرب إليّ. قلتُ له، على سبيل المثال، إني كنتُ على علم أن الجنون المُفترض لشخصيات مثل هولدرلين، نيتشه، آرتاود أو روبرت والسر، لم يكن سوى خطابات أدبية معتوهة انتقت وسيلة تواصل أقل شيوعاً وأكثر جلاءً ربما.

غادرتُ فلور وذهبتُ لأتناول العشاء في مقهى دو ماغوتيس المحاذي، حيث أعطيتُ اسمي للنادل بعد أن جسلتُ ونشرتُ أمامي الصحيفة المقروءة. «أنتظر مكالمة هاتفية، أنا الدكتور إنغرابايو»، قلتُ له، ثم فكرتُ أنني يجب أن أضيف: «الطبيب الشهير الذي يزرع ذاكرة كاملة للمرضى الذين يعانون من الشيخوخة أو الخرف».

لم يتصل بي أحد بالطبع. لكني بين الحين والآخر، في لعبة خاصة متواضعة وشريرة، كنتُ أحدق في عيون النادل، كأنني أسأله كيف لم يتصل بي أحد حتى الآن. «الاتصال من سويسرا وسيأتي من طرف *الجميلة المنكوبة*»، أردت أن أقول له. أو بالأحرى، ألا يوجد حتى الآن خبر عن المجاز الشخصي لنهاية العالم؟ «لكني كظمت كلماتي وابتلعتها، نوع من السيطرة على جنوني الشخصي. ثمة طريقة أخرى لاحتوائه، من خلال ابتكار ذكريات لها علاقة بعاملي الفندق والهواتف المحمولة. وتذكرتُ أنني كنتُ أجلسُ ذات يوم في حانة أحد فنادق جنيف، صامتاً وخائفاً بين خوان بينيت وآلفارو بومبو. كانوا يتكلمون عنك وعن «دون خوان» و«دون آلفارو». وأتذكر أن أحد الأزرار المثبتة في لوحة، لمع فجأة، معلناً عن مكالمة تلفونية. نظر بومبو ناحية اللوحة بينما كان يقول بنوع من التهكم: «أعتقد أن هذه المكالمة لي». صمت قصير. «مَن سيتصل بك دون آلفارو، مَن سيتصل؟»، قال آنذاك، بينيت المكّار.

إلى جانب ابتلاع كلماتي أو استرجاع مشاهد من الفندق، انبثقت من مخيلتي طريقة أخرى لاحتواء الجنون، من خلال الشروع بالقراءة. فكرتُ أنني حسناً فعلت بجلب كتاب معي، لأن مقابلة ويرل لم تعد نافعة لي، إذ لم تكن سوى مجلة تنشر مقابلات تافهة جداً. نظمتُ كتاباً خاصاً في مخيلتي،

مقالة تتحدث عن دورتنا الثقافية التي بدأت بشخصيات مزدوجة «أبو الهول، القنطور، الآلهة التي لها رأس كلب» ونحن الذين انتهى بنا المطاف بذروة الحياة المزدوجة، نفكر دائماً في شيء مختلف عمّا كنا متهيئين للتفكير به. ليس هذا فحسب: حين نباشر بالكتابة، مثلاً، نكتب دائماً شيئاً مغايراً لما كنا قد فكرنا به (مختلف عما كنا نفكر به)، وينتهي بنا المطاف في تسطير شيء، على الورق، لا علاقة له بما خططنا.

بعد بضع دقائق، تخليتُ عن ذلك الكتاب الخاص في ذهني، وانغمستُ في العمل الأكثر تواضعاً، القراءة. ولعدم وجود أمر آخر، سلمتُ نفسي لفتح المجلة التي كانت تحوي مقابلة الممرض جوزيف ويرل، رجل مثير للسخرية وواهم، إذ يؤكد أنه كان يرى، والسر في هريساو، يكتب حواشي في وريقات ويدسها في جيب بنطاله، وغالباً ما كان يختفي ويغيب عن نظر القائمين على رعايته. وكما هو معروف أن والسر لم يكتب أي حرف على مدى الثلاثة والعشرين عاماً التي قضاها محبوساً في هريساو (وكذلك في والداو، أول مصحة، أيضاً). فكرتُ أن من المحتمل جداً أن ويرل، الذي كان قد سمع أكيداً عن النص المكثف (والموجود شيء منه على وريقات) ألهمه في اختراع ذلك.

لكن اختراع ويرل ترك فيّ بصمة. سرعان ما تملّكتني، بعد فترة وجيزة، رغبة في كتابة بعض الحواشي في أول ورقة أصادفها، أو حتى في كرّاسي هذا. طلبتُ من النادل ورقة فارغة، ودون أن أعرف بالضبط ما ستكون عليه، سطرتُ عليها مباشرة، نصي المُرتجل، تحت عنوان جنون. فكرتُ أن كتابته يمكن أن تكون علاجاً لإيقاف عجلة الاغتراب الذي كان يقودني لسماع أصوات (أصوات إنغرابايو، سيرجي ريجياني وأصوات اثنين من باسافنتو في الوقت ذاته) وهي ظاهرة سمعية تشبه تلك التي وصلت إلى والسر في أحد فنادق بيرن حين شرع يسمع بعض الأصوات.

وضعتُ العنوان، جنون، وتركت النص على أمل إكماله فيما بعد.

ظاهرة والسر السمعية. يُقال إن أوائل أطباء الكاتب، اعتبروها ببساطة «هلوسة سمعية». مهما يكن من أمرها، فقد اقتحمت تلك الأصوات، حياة الكاتب على نحو مباغت، في أحد فنادق بيرن، ساعة غروب يوم شتائي،

ويبدو أن ساعة الغروب هذه مألوفة لدى جميع سير الكتّاب. فجأة تناهت إلى سمعه أصوات، في الوقت الذي كان منزعجاً من الزبائن الذين كانوا إلى جانبه يتناولون طعام العشاء في صالة مطعم الفندق. «لكن كيف يمكن أن تهمسوا بهذا الشكل؟» قال لهم بغضب ظاهر. كانت المرة الأولى التي تظهر فيها على والسر بعض أعراض الاختلال العقلي الخفيف.

في وقت لاحق بعد الحادث، كتب بنفسه رسالة إلى أخته، ليزا والسر، أعرب فيها، وهو على وعي تام برعب مشهد مطعم الفندق، عن قلقه من أن تكون تلك الأصوات قد أدخلت في جسده، أحد الأمراض التي كان قد عانى منها الكثير من أفراد أقاربه قديماً، وهو مرض ينتج عنه الهذيان والانتحار اللذان يشعر والسر بالرعب منهما، لكن، حسب ما أخبر ليزا في رسالته تلك، لم يمنعه هذا كله من أن يكون شاعراً: «أعاني من مرض عقلي يصعب تحديده. يبدو أنه غير قابل للعلاج، لكنه لا يمنعني من التفكير فيما يبعث البهجة إلى قلبي، أن أكون لطيفاً أو أستمتع بالأشياء، مثل وجبة لذيذة، على سبيل المثال. هنا، من هذا المكان الشبيه بالمعقل، أمام المدينة، كتبتُ مجموعة جديدة من القصائد».

فكرتُ في جمال كلمة «المعقل» وتخيلته معاقل طيران. وعلى الرغم من أني ما زلتُ جالساً في دو ماغوتيس، فإن فكرة التهيؤ للطيران إلى هناك بدأت ترمي شباك إغوائها عليّ، وكذلك فكرة إثارة فضيحة على النادل لعدم إعلانه عن المكالمة الهاتفية الوهمية. كلما كنتُ أراه يمر من أمامي، تزداد رغبتي في أن أوقفه لأقول له مثلاً: «هل يمكنك أن تأتي لي بحبة أسبرين من تلك التي تساعد على العيش مرتين؟». أو: «هل تعتقد أن تسريحة الدب بداخلي، تشبه تسريحة أشعة المدفأة؟».

الحقيقة أنني كنتُ متوتراً بعض الشيء، لذلك بدأت أثور على حالة اللامبالاة التي أواجهها من العالم كله، وكنتُ على وشك أن أنفجر هنا في دو ماغوتيس، لأسترعي انتباه الجميع مرة واحدة وللأبد، لمعرفة إذا ما كان من الممكن أن يتنازل أحدهم وينظر إليّ في نهاية الأمر، حتى لو بإيماءة واهية، لكي أشعر بوجودي. لكن يبدو أن جذب الانتباه، لم يكن يناسبني كثيراً، لدرجة أنني فضلتُ البقاء هناك في محاولة لكبح جماح رغبتي في

التمرد والفضيحة، ومحاولة إيقاف اندفاعاتي كذلك. كانت تساورني رغبات كبيرة للتوجه نحو شخصين كانا يجلسان على الطاولة المجاورة وأقول لهما: «لكن كيف يمكنكما أن تهمسا بهذا الشكل؟».

كنتُ أرغب بأشياء كهذه، ورأسي يضج بجلبة قوية، تشكلت على نحو جوهري من صوتَيْ باسافنتو، وريجياني والدكتور إنغرابايو. هذا الدوي كان يفتح لي طريقاً للبحث عن مشاكل مع فنوني وأفكاري السيئة للغاية، لأن الأصوات كانت تنصحني أن أصرخ لألفت نحوي أنظار الزبائن لبضع ثوان. لكني كنت خائفاً جداً مما سيحدث لو وضعت تلك الفكرة موضع التنفيذ، إذ أخشى أن يمنعوني من مغادرة مدخل المحل، وهذا ما جعلني أتراجع.

اكتشفتُ فجأة أن الدكتور إنغرابايو لم يكن لديه نفس الاهتمامات التي لدى شخصيتَيْ باسافنتو، إذ لم يكن يعنيه كثيراً أن يطلق تلك الصرخة، وفي اليوم التالي يُمنع من دخول المقهى. الدكتور إنغرابايو -أدركتُ ذلك في الحال بوضوح تام- لم يكن لديه ما يجعله تابعاً، كما في حالة شخصيتَيْ باسافنتو، ويختفي دون أن يكون له وقت محدد للظهور ثانية في هذا العالم. كان لديه الحق في أن يعيش حياته، وأن يطل قليلاً بين الفينة والأخرى، على العالم الخارجي. الصديق والعدو كان عليهما احترام سعادته حين يخرج لاستنشاق الهواء الدنيوي في باريس. أما شخصيّتا باسافنتو، مع ذلك، فلم تكونا تسمحان له ولا حتى بالتحرك. «هل أخذت فكرة عن المكان الذي أنت فيه؟ ألا ترى أنك يجب أن تبقى في الحجر الداخلي ولا تطل أبداً على الخارج؟»، سمعتهم يسألونه بصوته الناضج.

أخذتُ المعطف الأحمر، واحتفظتُ بورقة *الجنون* في جيبي. ناديتُ على النادل، دفعتُ له الحساب وغادرت بأقصى ما يمكن من تكتم، مثلما كان سيفعل والسر. في الشارع سمعت الدكتور إنغرابايو يقول: «لكن، كيف يمكن لشخصيتَيْ باسافنتو أن تهمسا بهذا الشكل؟». ودخلتُ دو ماغوتيس ثانية، يرافقني العواء الرهيب لدب متعطش جريح، لا أتمنى أن يعود لي، رغم أنه عوائي في الحقيقة، يعود لي، لن أخدع نفسي الآن. كان العواء أولاً، تبعه سؤال على شكل صرخة سمعها جميع رواد دو ماغوتيس: «مَن سيتصل بك دون آلفارو، مَن سيتصل؟».

-3-

ذُهل بعض الزبائن، كما لو أن شيئاً ما قطعهم. عندما لمستُ نوايا النادلين القادمين نحوي، غادرتُ بأقصى ما أوتيتُ من سرعة. رحلت، عبرت شارع سان جيرمان بملامح يتناوشها الخجل، والخوف والأسف. بعد فترة وجيزة، انزلقتُ على الثلج وسقطتُ بصورة مضحكة على مؤخرتي على الأرض على مسافة مترين من بوابة مصنع ليب للجعة، وشعرت للحظات بأني الرجل الأكثر حماقة على سطح الأرض. وتساءلتُ ما الذي سيحدث لو مددت يدي في تلك اللحظة، ناظراً إلى السماء في طلب صدقة. هل سيهتم بحالي أحد؟ هل سيراني أحد المارة ويرأف بي؟ أخشى كثيراً أن لا، وأن أظل على هذا الوضع دون أن أسترعي انتباه أحد إلّا إذا عاود الدب البري القابع في داخلي صراخه. كنتُ ما أزال هناك جالساً على الأرض أحدق في الرصيف الآخر، حيث كان *المتشرد* صديق سكورسيليتي، وشرع عقلي يهيم مثل عجلة طاحونة كانت على استعداد للدوران بمفردها، وبدأت أقول لنفسي -حتى لا أغرق - إنني في الواقع قصيدة. مؤكد أن لا أحد يتصدق على قصيدة، لكن ليس هذا أهم ما في الأمر. لابد أن أشعر بالسعادة لما كنتُ عليه، فرح أن أكون قصيدة هائمة. قلتُ لنفسي بعدها إن الشاعر الذي كان قد كتب هذه القصيدة، كان قد فقد هوّيته في جولة أبدية ثم أضاع اسمه. أما القصيدة، فكانت تقول إنه ليس هناك هوية واحدة بل هُوّيات متعددة، وحتى الهويات، هي عبء ثقيل جداً، وكان يتحدث على نحو عابر عن الكثير الذي اضطره للتشكيك في الأيديولوجيات التي تمجد المزايا القابلة للمناقشة لمفهوم الهوية. في نهاية المطاف، لم تكن القصيدة تابعة لأي طرف، بل كانت ضالة، في حركة دائبة تتحدث عن التيه الجنائزي الذي كانت تسافر فيه الأسماء.

وانتهى بي الأمر أن مددتُ يدي طالباً النقود لأجل قصيدة. لم يعطني أحد أي شيء. نهضتُ بعدها وسلكتُ طريق العودة إلى الفندق. مشيتُ طويلاً مأخوذاً بقرار داخلي، وبخطوات إيقاعية موزونة على القصيدة التي اخترعتها بنفسي، ربما خطوات شعرية تشبه خطوات والسر عندما كان يتجول حول مستشفى المجانين في أيام السبت والأحد والأيام التي يُسمح

له فيها بالخروج من هريساو. «كان السيد والسر شديد الانضباط، يعود في موعده دائماً. اعتاد أن يقول إن الانضباط صفة من صفات الأسياد» قال الممرض ويرل في إحدى المقابلات التي قرأتها تواً.

مشيتُ بإيقاع القصيدة هذه. حال وصولي إلى شارع فانو، أوقفتُ طوافي الشعري حين رأيت الشقة الفاخرة القاتمة لماركس عن بُعد، وسرعان ما استعدت الإيقاع القديم لخطواتي الشعرية عندما وجدتُ نفسي أمام باب فندق السويد. قررتُ ألا أدخل مباشرة قبل أن ألقي نظرة أخيرة على شارع فانو. اكتشفتُ أن مقر إحدى المؤسسات التي تُدعى مورتيس والمتخصصة بالقضاء على الفئران والحشرات في البيوت، تقع في الرقم 23. ثم عكفتُ على السفارة السورية وتأملت واجهتها طويلاً، دون أن أرى شيئاً جديداً لم أشاهده من قبل. استدرتُ بعدها وفي نيتي الدخول إلى فندق السويد. حين أوشكتُ على أن أقوم بذلك، ساورني إغواء شديد في النظر نحو القصر الغامض بظلاله الثلاثة الثابتة، ومصابيحه الخافتة الأنوار. نظرتُ إليه بخوف قبل أن أحدق به. وربما يكون الخوف مصدر فضولي للتطلع إليه، ومن الممكن أن يكون المخيال القوي هو الذي ولّد الحدث، لكن الحقيقة أنني رأيتُ هذه المرة في الطابق السفلي، الخافت الضوء، أربعة ظلال غير متحركة بدلاً من الثلاثة، ملتصقة بإطار إحدى النوافذ. أربعة ظلال، وللأمانة أقول إن أحدها لم يكن ثابتاً، إذ كان يتحرك مثلما تحرك الريح بعض أوراق الشجر الحيرى. أردت أن أعاود النظر إليه، لكني فضلتُ ألا أشتتُ حياتي أكثر، فواصلتُ طريقي.

بين الجلاء والعتمة، ظهر لي الشارع ثانية في حالة غريبة من الركود، كأنه يتوقع كارثة. حين دخلتُ الفندق، لاحظتُ أن شرايين يدي أصبحت خشنة أكثر من المعتاد. ولكيلا أموت رعباً، حييتُ البوّاب الذي لم يرد على سلامي له، كما لو أنني عدتُ غير منظور من أحد. في الغرفة أمسكتُ باللحاف الصوفي دون أن أعرف لماذا بدا لي منسوجاً على نحو متقن، مثل غطاء السرير. وقلتُ لنفسي، إن تمكنتُ من أن أحشر نفسي في فتحته الضيقة، فسوف أشعر بالدفء، كما لو أنني داخل كيس هواء حراري. وتحقق لي ذلك ونمتُ مقتنعاً أن لا أحد في العالم سيفترض أنني مختبئ في مكان مثل هذا. نمتُ مثل حيوان كبير قابع في جحره.

-4-

الدكتور النفساني الذي ظل مستغرقاً في نومه على سرير غرفته، كان لديه أربعة آباء، ثمانية أجداد، مرحلتا طفولة، مرحلتا شباب، مرحلتا نضوج، والدان غريقان، زواج فاشل، ابنة ميتة، جواز سفر واحد، دبٌّ متعطش بداخله، هوية ثلاثية كانت عبئاً ثقيلاً جداً، كتابة واحدة (خاصة)، لا حب ولا فرح أو ربما واحدة، تلك الكتابة الخاصة التي كانت تجمّل بؤسه.

حين استيقظ في اليوم التالي، كان الدكتور ما يزال يدور في رحى هذا كله. تحقق منها بسهولة، لكنه كان يعاني من مشكلة، نفس المشكلة التي يعاني منها الآخرون أيضاً لدى النهوض من النوم. ما الذي سيكون عليه كل واحد منا لو كان من دون ذاكرة؟ ذاكرة كل منا، ذاكرة فائضة عن الحاجة كما أعتقد، لكنها ضرورية في الوقت ذاته. لكي أكون أنا -واصلتُ تفكيري- ليس من الضروري أن أستعيد ذكرى حياتي، على سبيل المثال، في برشلونة، نيويورك، ماليبو ونابولي. مع ذلك، يتعين عليّ في الوقت ذاته أن أشعر بأنني لستُ الشخص نفسه الذي كان في تلك الأماكن، إنما آخر. تلك هي المشكلة التي لن نتمكن من إيجاد حل لها، مشكلة الهُوّية المتغيرة.

فكرتُ في هذا كله ثم تذكرتُ سان بابلو الذي كان يقول إنه يموت يومياً، وبورخس الذي علّق على هذه العبارة قائلاً إنها لم تكن عبارة مثيرة للشفقة على أية حال: «الحقيقة أننا نموت في كل يوم، ونحيا في كل يوم. إننا نولد ونموت باستمرار. لذلك، مشكلة الوقت، تلامس شغافنا أكثر من المشاكل الميتافيزيقية الأخرى، لأن المشاكل الأخرى مجردة. مشكلتنا الحقيقية في الزمن. من أنا؟ مَن كل واحد منّا؟»

الطبيب النفسي الذي استيقظ ذلك اليوم في شارع فانو، تذكر سان باولو وسان بورخس ثم انتقل إلى مرحلة الشك في وجودنا هنا على وجه الأرض على أنه خطأ كوني، أي الشك في أننا مخصصون لكوكب آخر بعيد، على الطرف الآخر من المجرة. الطبيب الذي استيقظ ذلك اليوم في شارع فانو، بدأ يتساءل كيف سينتظم أولئك الذين قّيض لهم أن يعيشوا هنا، وكيف سيكون حالهم هناك في الكوكب الآخر. وشعرتُ بقشعريرة قصيرة. كانت تعود للدكتور باسافنتو. لم أكن على قناعة أكيدة، لكن من الأفضل أن أكون

هذا الطبيب النفسي. لديّ أربعة آباء -عدتُ إلى التفكير فيه - ثمانية أجداد، مرحلتا طفولة، مرحلتا شباب، مرحلتا نضوج، والدان غريقان، زواج فاشل، ابنة كان اسمها نورا ميتة الآن، جواز سفر واحد، دب متعطش في الداخل، هوية ثلاثية كانت عبئاً ثقيلاً جداً، كتابة واحدة (خاصة). لا حب ولا فرح أو ربما واحدة، تلك الكتابة الخاصة.

أعلمُ أنه فكر في نفس الأمر مرتين تقريباً، لأن الذي استيقظ هناك، كنتُ أنا، هو نفسه الذي يروي الآن كل هذا من خلال كتاباتي الخفية. أنا الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يعرف أني في ذلك اليوم بعد الاستيقاظ، فكرتُ في «الزمن» وفي هوياتي الثلاث. ومن أجل تجنب المزيد من المتاعب قررتُ أن أكون ببساطة الدكتور باسافنتو، أمام العالم الخارجي. ولكي أؤكد شخصيتي هذه، عدتُ بذاكرتي إلى مقطع شاهدته في سينما تشيلي عندما كنتُ طفلاً. واستعدتُ كلمات ساندوكان عند شاطئ الملايا، كلمات ذلك القرصان الأنيق الذي كان بطلي المثالي في الكثير من الأحيان: «بذلتُ جهداً جباراً في عملي حتى لا أقوم بشيء».

يا لها من كلمات غريبة من إنسان مثل ساندوكان، فكرتُ في الحال. لمَ تذكرتُ هذه الكلمات بالذات وليس غيرها؟ كانت نادرة من شخص فعّال جداً وعدائي مثل *نمر ماليزيا*، ذلك الفارس القرصان المدعو ساندوكان الذي كان يمقت الرجال البيض والذي كان قد قرر، بدافع حقد مُبرر، تكريس حياته للانتقام. كانت تلك الكلمات غريبة من شخص مثل ساندوكان، وأكثر من ذلك، إذا تذكر المرء ما تبع هذه الكلمات من صمت مذهل في شريط من الأحداث، بالكاد توفر لحظات من السكينة. لكنها كانت الكلمات الوحيدة التي أتذكرها من ساندوكان، رغم غرابتها، ولا أعرف كيف عنّ لي تذكرها كأنها بحد ذاتها رواية كاملة، واحدة من روايات روبرت والسر (قاطع الطريق، على سبيل المثال) التي تلتزم فيها الشخصيات بالصمت *وتترك للأحداث أن تتكلم عنها*، كأنها إحدى الشخصيات. حدث لي أن تذكرتُ تلك الكلمات كأني استقيتُ منها روح والسر التي قال عنها موسيل إنها تستحضر الثروة الأخلاقية لواحد من تلك الأيام الخاملة وغير المجدية ظاهرياً، والتي تسترخي فيها قناعاتنا الصارمة لتصبح لا مبالاة ممتعة.

عدم القيام بشيء. مؤكد أن ساندوكان تحدث في حياته مرة واحدة فقط عن عدم القيام بشيء، لكن لحسن الحظ أن هذه العبارة هي الوحيدة التي انطبعت وبقيت منقوشة في ذاكرتي. عدم القيام بشيء. الآن وفي هذه اللحظات الدقيقة، يبدو لي مثيراً أن أرى ساندوكان من بين الأبطال السلبيين للأدب، رغم أن هذا لا يحمل الكثير من الإثارة ربما. فساندوكان بعد كل شيء، لديه الكثير من المتناقضات، لكن هناك قاسماً مشتركاً، واحداً فقط، مع بطل رواية *قاطع الطريق*: كلاهما كائنان عاجزان تماماً عن التوافق مع النظام الأخلاقي والسياسي السائد، لأنهما لا يمتلكان أياً من المؤهلات التي يقرها النظام، إضافة إلى كونهما يرغبان بالبقاء بعيداً. على أية حال، فإن وضعهما متناقض جداً، بعيد عن القاسم المشترك الذي يجمعهما. في حالة سندوكان، تصبح الشكوى ضغينة. يقول قرصان مومبراسيم: «الرجال البيض لم يكونوا رؤوفين معي. ألم يخلعوني بحجة أنني ملك متوحش لابد أن يكون متحضراً؟ أفكّر بالانتقام منهم انتقاماً مريعاً». في حالة قطاع الطرق، كل شيء مختلف تماماً، لأنه بالنسبة لشخصية والسر، من المهم تقديمها عل نحو وافٍ حتى تكون منظورة، وتكون قادرة على الاختفاء بالتالي، مُذابة بسبب تصدعات النظام القائم.

قاطع الطرق الوالسري هذا، يذوب ويكمن كثيراً في النص الذي ينتهي بالانقسام إلى دورين: دور بطل القصة ودور الراوي. الحقيقة أن القصة تحوي على روح الدعابة. «أثناء إنشاء هذه الصفحات، وجدتُ نفسي مضطراً إلى الضياع في الحقيقة»، يقول في نهاية هذه الرواية المحيرة حول موضوع الفوضى التي هي قاطع الطريق. هذه الرواية التي فكرتُ بها صبيحة يوم 2 شباط، ذاك اليوم الباريسي الذي تذكرت فيه ساندوكان ووالسر ثم نزلتُ، بخطى القصيدة، إلى صالة السويد الرصينة، وهناك، بعد أن رحبت بي مديرة الفندق بلغة فرنسية على غير توقع («صباح الخير سيد باسافنتو» شعرتُ معها بالرعب لاعتقادي أنها لم تكن تعرف اسم عائلتي، لأنها غالباً ما كانت تظهر أمامي جافة وغير مكترثة) جلستُ على كرسي عريض متطلعاً إلى أوجه الشبه بين هذه الصالة ومدخل سينما تشيلي في طفولتي.

في الجانب الأيسر من صالة الفندق، ثمة زاوية مزينة بواجهات زجاجية

معروض بداخلها كتب دار نشر كريستيان بورغويس، ومن بينها كانت نسخة مترجمة من إحدى رواياتي التي كتبتها في حياتي السابقة، وتحديداً «*هوايتي المفضلة*». تلك العارضات الزجاجية كانت تذكرني بأكثر زاوية سحرية لمدخل تشيلي، الزاوية اليسرى من البهو الذي كانت تُعرض في واجهاته الزجاجية صور الفيلمين اللذين سيُعرضان ليس في الأسبوع القادم فحسب (البرنامج يتغير كل أسبوع) لكن لأسبوعين مقبلين رغم أن اللوحة التي كان يُعلن عليها لم تكن تقول «في غضون خمسة عشر يوماً» بل شيئاً كانت له جذور أكثر غموضاً، إذ بدا كأنه يريد إخفاء كلمة «المستقبل» عن الطفل بعد أن تم استبدالها بملصق لا يُنسى ذي حروف حمراء كبيرة على أرضية بيضاء ناصعة كُتب «قريباً».

كنتُ أفكّر في ذلك الملصق البهي والمميز بالنسبة لي، حين مددت يدي إلى جيب بنطالي وعثرتُ على تلك القصاصة التي كتب فيها كلمة جنون فقط. كانت عنواناً لا غير والباقي فراغاً كبياض الثلح أو الخَرَف. فكرتُ حالاً في شطب العنوان واستبداله بآخر. لكني في نهاية المطاف لم أمحُ شيئاً ولم أقم بشيء في فترة جلوسي الطويلة على الكرسي بغير حراك حتى قررت أن أتناول فطوري. وبدلاً من أن أتناوله كالعادة في غرفتي، سأفعل ذلك على إحدى الطاولات المخصصة لهذا الغرض في نفس الصالة. وفطرتُ في الحديقة الصغيرة التي تفصل بين مجموعة الغرف ذات النوافذ المطلة على شارع فانو عن التي تطل على الجزء الخلفي من البناية. أما بقية العام فاعتدتُ على تناول فطوري داخل الصالة. لم أكن قد قمت بهذا حتى ذلك الحين لكيلا أتعرض لمخاطر لا وجوب لها، لكن بدا لي في ذلك اليوم، حاجتي إلى ممارسة بعض الأحاسيس بين فترة وأخرى. وهكذا انتقلت من الكرسي إلى إحدى الطاولات وتناولت فطوري بشهية غير طبيعية وتأخرتُ قليلاً لدرجة كنتُ أرغب فيها أن يكتشف أحد ما أخيراً أنني مختبئ هنا، مختفٍ في باريس كلياً. عدتُ بعدها إلى غرفتي. في لحظة دخولي إليها، ولن أنسى ذلك مطلقاً، لا أعرف لماذا باغتت مخيلتي فجأة وعلى نحو بائس، أجمل عبارة عرفتها عن والسر، قالها لصديقه كارل سيلغ المهتم بمعرفة إن كان ما يزال يكتب، حين كانا يقومان معاً بجولة حول مستشفى الأمراض العقلية:

«لستُ هنا لأكتب، بل لأُصاب بالجنون». تذكُّر العبارة دفعني إلى كتابتها تحت العنوان الذي كنتُ قد سطرته أنا في تلك القصاصة التي وجدتها حديثاً في جيبي. وتحولت القصاصة إلى قصة قصيرة للغاية.

جنون

لستُ هنا لأكتب، بل لأُصاب بالجنون

-5-

كتبتُ القصة القصيرة جداً ثم أخرجتُ من الحقيبة الحمراء، كتاب أسطورة اختفاء ملك البرتغال دون سباستيان، وعدتُ أتأمل، بنفس اللهفة المعتادة، أسطورة الملك الشاب الذي اختفى عام 1578 في حرب القصر الكبير. في غرفتي أعدتُ قراءة كتاب أسطورة اختفاء دون سباستيان، الأسطورة التي لم تكن ذات قيمة لو لم ترافقها فكرة الظهور مرة ثانية، بنفس الحال التي بدت لي، في قصة الاختفاء الحديث، من أن الشغف بالاختفاء هو في نفس الوقت محاولة لإثبات الـ«أنا». عند منتصف النهار أغلقتُ الكتاب وعدتُ للظهور في صالة الفندق تتقدمني خطواتي نحو غرفة اتصالات الإنترنت. مضى أسبوع كامل منذ أن راجعت بريدي الإلكتروني آخر مرة، وفكرتُ ربما أصبح من الضروري معرفة كيف تسير الأمور على شاشة حياتي الاصطناعية.

دون أي أمل في أن يبحث عني أحد، فتحتُ بريدي الإلكتروني، ورأيت أن هناك كل شيء إلا الرسائل التي تنم عن قلق الآخرين لغيابي. تهاني أعياد الميلاد، بعض الهدايا المصورة. الملوك السحرة الثلاثة المضحكون، مثلاً، وهم يجتازون الشاشة بمركبتهم وبأقصى سرعة، من اليمين إلى اليسار. كانت هناك الكثير من الفايروسات أيضاً، كأنها كانت تريد أن تنضم إلى عالمي مع أعياد اللامبالاة الكبيرة. كانت هناك أيضاً دعوات لإلقاء محاضرات على الطاولة المستديرة، وبعض المقترحات التي تغريني بالقبول لشيء لم أعد أشعر به قريباً جداً: دعوات لكي *أُظهر* نفسي، وأتحدث عن أي موضوع. كانت هناك أيضاً رسائل من غرباء يعرضون فيها عليّ تجارة دنيوية لم تكن تستهويني. وأخيراً، بعض الرسائل من الناس الأقرب. من بين هذه الرسائل،

كان هناك سؤال مماثل طرحه ثلاثة أشخاص مختلفين من ثلاث رسائل بريد إلكتروني مختلفة: «أين أنتَ الآن؟». لكن الشكوك بشكل عام لم تبعد أكثر من ذلك، ولم تعكس القلق المفرط من أي طرف. ومن بين رسائل البريد الإلكتروني الغريبة جداً، كانت من صديق افترضَ أني كنتُ أقضي إجازة أعياد الميلاد في التزلج (لم أتزلج مطلقاً من قبل) في لا مولينا، في البيرينيس الكتلونية. لكن أغربَ هذه الرسائل الإلكترونية وأكثرها أهمية بالنسبة إلي، كانت من إيفيت سانجيث التي كتبت لي من بازل. كانت تعيش في هذه المدينة مع زوجها وابنهما، وتعمل أستاذة في جامعة سان غالين على بعد ساعتين تقريباً من منزلها في بازل: «أخبار سعيدة جداً. علمتُ تواً أنني حصلتُ على كرسي للأدب اللاتيني في جامعة سان غالين. هل ستأتي هنا ذات يوم؟ سنحتفل بهذا» الكرسي «في عيد الملوك ونقيم حفلة في منزلي في بازل. سنرقص ونبكي. *لو ريد وباتا، باتا مريم ماكيبا*. تحياتي. إيفيت».

كنتُ في بازل قبل سنتين، بدعوة من إيفيت لحضور معرض كتاب هذه المدينة، وتكلمنا هناك عن إمكانية السفر برفقتها، إن سنحت فرصة ثانية، إلى جامعة سان غالين في شرق سويسرا، لإلقاء محاضرات في قسمها في الجامعة ثم نذهب إلى مستشفى هريساو للأمراض العقلية، الذي يبدو أنه ليس بعيداً عن هناك، ذلك المكان الذي كنتُ قد قلت لها إنه يثير فضولي لزيارته.

لم يبدُ لي أن هذا كله يمكن أن يكون مجرد صدفة. هل كانت محض صدفة أن أقضي تلك الأيام مهووساً بوالسر أكثر من أي وقت مضى، وفجأة تنبجس من بريدي الإلكتروني فرصة الاقتراب من هريساو، أملي المنشود؟ لم أكد أنتهي من قراءة رسالة إيفيت الإلكترونية تلك، حتى أيقنت أن هناك بالفعل، كانت تختبئ إحدى تلك العلامات التي كانت، منذ إقامتي الأولى في شارع فانو، ترسل إليّ من العالم الخارجي، وأشعر معها أن من الواجب اتباعها على نحو أعمى، حتى لو لم أكن أعرف على وجه اليقين، إن كانت تمنحني فرصة لتغيير حياتي أم لا، في محاولة لتعزيز المصير عبر هذه الرسائل.

«لم يكن لديّ ما أقوم به، لدرجة اتخذتُ قراري في الذهاب إلى

باتاغونيا»، كتب باولثيرو. أما أنا، نعم، كان لديّ ما أقوم به، البحث عن مكان أفضل من باريس لأختفي فيه، لدرجة اتخذتُ قراري في الذهاب إلى هريساو. لم أتأخر في الرد على رسالة إيفيت الإلكترونية. بعد أن هنأتها على حصولها على الكرسي، سألتها عن إمكانية حضوري إلى حفلتها في بازل. لم تكن إيفيت على اتصال مع عالم علاقاتي ولم تكن تهمها مغامرتي في الاختفاء. أضفت لها حاشية في رغبتي الجادة في أن ترافقني بعد الحفل إلى هريساو، تمسك بيدي وتتكلم عني بلغتها الألمانية. ربما لهذا السبب، كانت الحاشية عبارة من يعقوب بن جونيتن: «زميلي شيلينسكي من أصول بولندية. يرطن اللغة الألمانية بعذوبة. كل ما هو غريب، ولا أعرف لماذا، يحمل طابعاً نبيلاً».

-6-

بعد بضع ساعات، علمتُ عن طريق الصدفة، أن لوبو أنتونيس، كان قد غادر الفندق وأن رقم غرفته 2. ولكي أصل إلى هذه الغرفة كان عليّ أن أجتاز الحديقة الداخلية، لأنه سبق لي أن أقمتُ فيها مرات عديدة، في الجزء الخلفي من مبنى الفندق، أي الجزء الذي لا يُرى منه شارع فانو. ولأجل التعويض عن ذلك، كانت غرفه أكثر اتساعاً.

وقررتُ أن أكتب له رسالة موجزة، رغم علمي أنه لم يعد موجوداً (أو على وجه التحديد لأنه غير موجود)، وأضعها في مظروف وأدسّها بأكبر هدوء ممكن، تحت باب ما كانت غرفته. مؤكد أن خدمات الفندق ستوصل الرسالة إلى دار نشر كريستيان بورغويس، الذي سيبعثها بدوره إلى لشبونة حيث سيقرأها لوبو أنتونيس مستغرباً، وربما سوف يقرأها في مستشفى ميغيل بومباردا. لم كنتُ راغباً في فعل شيء كهذا؟ بسبب اليأس الشديد، أكيد. كنتُ كمن يريد أن يطلب المساعدة من الطبيب النفساني العجوز. كان النص الأول الذي جاء معي، يفتقر إلى أي شكل من أشكال الإحساس، كما لو أن روح طالب كلية الطب في برونيكس قد عادت إلي، أو كأنني استعدتُ الشخصية المتعجرفة لحبيب قنبلة ماليبو. فكرتُ أن أكتب له رسالة مقتضبة تقول: «لم أستطع أن أتوقف عن التفكير في شرق سويسرا، حيث سأقضي

بقية أيامي، مختفياً هناك ربما». لكني سرعان ما عدلتُ عن ذلك، وتجاوزت حالة المرض الشبابي، وبدلاً من أترك له الرسالة المكتوبة من مجهول، تحت الباب، قررتُ أن أقدم نفسي فيها كطبيب محترم في الطب النفسي، الذي هو أنا في نهاية المطاف. وعلى الرغم من انسحابي المؤقت، كنتُ ما زلتُ أحتفظ بمخاوفي كطبيب أرواح. كتبتُ: «زميلي المحترم لوبو أنتونيس». لكني لم أعرف كيف أستمر، إذ استولى عليّ، فجأة، خجل فظيع، حتى بدأت أبحث عن بعض العبارات الصحيحة، والمعبرة جداً عني. ولوقت غير قصير، لم تستجب لي سوى بعض العبارات الصحيحة، لكنها كانت تبدو لي أصيلة جداً: «هل تعرف، دكتور لوبو، ما الذي يثير إعجابي أكثر في اللغز العظيم لهذا الكون؟ أنين الرياح في المداخن، والسكون الذي أعقب انتحار والديّ. أتمنى لك ليلة سعيدة، زميلي المحترم».

«لكن، لمَ تقول ذلك، هل أنتَ واثق من أن أنين الريح في المداخن، يثير إعجابك؟»، سألت نفسي على حين غرة. أنزلت ذراعيّ وتراجعتُ عن كتابة الرسالة المقتضبة. «ربما يكون جسدك الآن تحت الكهرباء»، سمعتُ الدكتور إنغرابايو يقول هذا. «الكهرباء؟»، سألت. «تحتاج إلى أحد ما يشحن بطاريتك»، قال لوبو أنتونيس. نظرتُ. لم يكن هناك أحد. قلتُ لنفسي إن جنوني لم يكن نبيلاً مثل جنون هولدرلين أو مثل جنون والسر، لكني لم أستطع أن أنكر أني كنتُ مأخوذاً بـ«رياح الخرف»، مثلما كنا نطلق على الجنون في مستشفى مانهاتن. قلتُ لنفسي ذلك، ثم تساءلتُ عمّا إذا كان من غير المُحبذ أن أحشر نفسي في أحد مراكز طب العلاج النفسي. في هريساو، على سبيل المثال، «تستطيع أن تمكث هناك خمسة وعشرين عاماً»، سمعتُ تماماً ما كان يقوله الدكتور إنغرابايو.

-7-

في اليوم التالي استيقظتُ في وقت مبكر للغاية. أول ما قمتُ به، الذهاب إلى غرفة اتصالات الإنترنت لمعرفة إذا ما كانت إيفيت سانجيث قد ردت على رسالتي، وقد فعلتُ ذلك في اليوم السابق، سبع مرات. لكن الوقت كان مبكراً جداً على فتح غرفة الاتصالات. كان الوقت مبكراً لدرجة لن أستطيع

معها أن أتناول فطوري في الفندق. عدتُ إلى غرفتي وأطللتُ من النافذة لأتأكد من أن الوقت كان مبكراً في شارع فانو أيضاً، ثم، كما لو أنني أمتلك نظارة كبيرة، شاهدتُ القطة التي كانت قابعة في أقصى حديقة قصر الظلال الثابتة. لا يمكن أن أقول إن القطة كانت لها عيناي، لكن في الحقيقة أن هذا ما اتضح لي أول شيء حين حدقتُ في تلك القطة البعيدة جداً، والقريبة جداً في الوقت ذاته على نحو لا يُصدق. ثم بعيني القطة الرابضة في قصر الغرباء، نظرتُ إلى مرآة الغرفة ورأيت نفسي على غير ما أنا عليه. لم تذهب الأيام التي اختفيتُ فيها سدى. وأدركتُ أنني كنت، بكامل وعيي، أدفع الثمن العالي لما أصبحت عليه في الأيام الأخيرة -على الأقل هذا ما كنتُ آمله- ككاتب عاش بالفعل بين طبقات الصخب الدنيوي.

يمكن أن ينتهي بي الأمر برؤية صورتي وقد تغيرت حقًا. اعتمادًا على الكيفية، يمكن أن أصبح شخصًا مختلفًا تمامًا جسديًا عما كنت عليه.

قلتُ لنفسي إن الكثير من الشعور بالوحدة المتجذرة، كانت قد أثرت فيّ بشدة دون أدنى شك، لكن من المفروض ألا أنساق لأي شعور بالذنب عقيم، بل على العكس، وقررت أن أستمر كما كنتُ عليه من قبل، وعدتُ لأنظر إلى نفسي في المرآة واكتشفتُ أنني إذا كنتُ قادراً على المثابرة في وحدتي الجذرية، فسوف ينتهي بي الأمر إلى النظر في صورتي المحرّفة بحق، وربما أتحول إلى شخص مختلف جسدياً تماماً عما كنتُ عليه. كائن لا يمكن التعرف عليه، ليس من قبل إيف بورغويس فحسب، بل من العالم كله. من الممكن أن ينتهي بي المطاف في أن أكون شخصاً آخر. مع قليل من الحظ وبعض الحركات الماكرة، سأتمكن من الإفلات من الدفوعات الشهرية الظالمة والروتينية لزوجتي السابقة، والتي يقوم بها المصرف بدقة شيطانية.

نظرتُ عبر النافذة من جديد. صمت مطلق. لا أحد في الشارع. كانت القطة قد اختفت من حديقة قصر الظلال الثابتة. مؤكد أنها الآن في مرآتي أو بالأحرى، إذا وضعتُ شيئاً مني، قد ينتهي بي الأمر في رؤية القطة هناك. وتذكرتُ بعض كلمات والسر: «صمت الشوارع فيه شيء من اللطف والغموض، فلماذا هذا البحث عن مغامرات أخرى؟». وعدتُ أنظر إلى

الشارع مرة ثانية مصغياً إلى الصمت الكلي *لتوتر* شارع فانو العام، وجال بخاطري و. ح. هدسون، كاتب باتاغونيا الذي يستحضر لقبه بالصدفة، النهر الذي انتحر فيه والداي، الكاتب الذي كان يصغي إلى الصمت في تلك الأرض المتفردة أو نهاية العالم التي هي باتاغونيا، إذ كان يقول إن السفر إليها، بمنزلة الصعود نحو أعلى مستويات الوجود، نحو نوع من التناغم مع الطبيعة، التناغم الذي يرتكز على غياب الشعور. كان هدسون يصف هذا كله بكلمة المذهب الروحاني، شيء ما لا يوجد سوى في أراضي باتاغونيا التي كان فيها -ومايزال حتى اليوم- شخص واحد في كل كيلومتر مربع يلتزم الصمت: «في تلك الأيام المنعزلة، كان من النادر أن يمر في العقل أي نوع من الشعور، لم تكن هناك أشكال حيوانية تعبر أمام ناظري، وكان من النادر جداً أن أسمع زقزقة طيور. في هذه الحالة الذهنية الغريبة التي وجدتُ نفسي فيها، يتحول التفكير إلى شيء مُحال».

كانت *الروحانية* بالنسبة لهدسون، الحب الشديد للعالم المرئي وغياب الفكر. بدا لي فجأة ضمن هذا الإطار، أنه لا وجود أبداً لمؤلف أقرب إلى والسر من هدسون، ويجب ألا نغفل أن من أولويات والسر وصف الحب العذب للعالم المرئي على أنه -ميراث آخر الرومانسيين العظماء- ويقينه المطلق حول سطحية الكلمة. «مَن يصر على عدم التفكير، إنما يقوم بشيء ضروري جداً»، كتب والسر. في العديد من كتاباته، يتحدث في الحقيقة عن الحياة، بعد موت الرب والاختفاء المُعلن للإنسان، وكيف ستمر عبر الجانب الأكثر عتمة تلك الرداءة. في الكثير من كتاباته يتحدث عن نحو مُقنّع، عن هؤلاء الأفراد المعاصرين الذين كانوا قد قرروا، أمام التقدم الكاسح للهراء العام، أن يوجهوا طموحاتهم نحو أسطورة واحدة فقط، أسطورة الغياب، أو المضي تحت عسرتها بأقصى ما يستطيعون.

فكرتُ في هذا كله ثم عدتُ إلى نافذة شارع فانو منزعجاً، وتذكرت أن العينين هما مدخل التفكير، فأغلقتهما حتى لا أراني مضطراً إلى التفكير. لكن انتهى بي الأمر إلى التفكير بالطبع. أولاً في موت الرب، ثم في اختفائي، ثم ولكيلا أفكّر في كل هذا، في أبي شاتوبريان الذي، حسب ما شرح ابنه الشهير في *مذكرات الآخرة*، كان خبيراً عظيماً في الاختفاء الليلي الذي كان

يقوم به أمام عائلته الذين لم يكونوا يفزعون كثيراً لأنهم يعرفون أنه كان يعود دائماً. كانت حالات اختفاء ذلك الأب تحدث فقط في الأيام التي كان يعيشها في انعزال تام مع بعض الخدم في المنزل الفخم في كومبورغ، الذي اختفى في غرفه الواسعة وممراته نصف جيش الفرسان. كتب شاتوبريان: «وخاصة في موسم الشتاء، كانت أشهر كاملة تمضي دون أن يطرق باب قلعتنا أي مسافر أو غريب. كنا نعيش هناك، أبي، أمي، أختي لوثيلا وأنا. كانت الأحزان لا تُعد داخل هذا المنزل المنعزل. كان جرس العشاء يدق عادة عند الساعة الثامنة. كنا نبقى ساعات بعد العشاء جالسين أمام النار. كان أبي كثيراً ما يخطر الصالة جيئة وذهاباً حتى يحين موعد رقاده. في الصالون المُضاء بقنديل وحيد، كان الظلام يشتد حين كان أبي يبتعد ويختفي خلف المدخنة. ولا يعود يُسمع في العتمة سوى وقع خطواته. ثم يقترب من دائرة الضوء وتبدأ قسماته الشاحبة في البروز من الظلام شيئاً فشيئاً، كأنه شبح».

وهكذا كنتُ غارقاً في قصص الاختفاء والظهور الشبحية لوالد شاتوبريان لفترة طويلة، حتى أدركتُ أنهم لابد قد فتحوا غرفة اتصالات الإنترنت، وقررت النزول ثانية. تناولت فطوري أولاً، بهدوء وبطء شديد، كما لو كنتُ أمنح الوقت الكافي لإيفيت حتى تتمكن من الرد. وحالما أصبحت في غرفة الإنترنت، شغلتُ نفسي بقراءة الصحف الإسبانية، لإعطاء إيفيت المزيد من الوقت. وهكذا علمتُ أن بوب ديلان سوف يمنح في شهر حزيران درجة *الدكتوراه الفخرية* من جامعة سانت إندراوس الإسكوتلندية. كنتُ أعرف أنه شخص بعيد عن المداليات وعدو لأي شرف. كانت الأخبار عن ديلان بمنزلة خطّاف أيسر في كفاحي الشامل مع شخصيتي المزدوجة أو الثلاثية، وقررتُ أن أتعافى من الضربة معتقداً أنه لا شيء له أهمية في هذا العالم. بحثتُ عن المزيد من الأخبار وقرأتُ حينها أن أنطونيو تابوشي قد جمع الجنسيتين البرتغالية والإيطالية. ثم قرأتُ أن صديقي القديم روبرت دي نيرو، في طريقه إلى اكتساب الجنسية الإيطالية. خشيتُ للحظة، أن أضيع في دوامة الجنسيات فتوقفتُ عن القراءة للحظات.

حين عدتُ إلى قراءة أخبار اليوم، توقفتُ عند تصريحات روائي من نيويورك يعتبون عليه إدخال الأدب في أدبه واستشهاده بالكثير من المؤلفين

في رواياته. «الكتب والكتّاب جزء من الواقع، إنهم حقيقيون مثل هذه المنضدة التي نجلس عليها، فلماذا لا يكونون حاضرين في القصص؟»، أجابهم. وبقيتُ أنظر إلى الطاولة التي كان يرتكز فوقها جهاز الكمبيوتر الخاص بي. تحسستها، لمستها بيدي مثلما ألمس كتاباً، وشعرتُ بقناعة حميمة لرؤية الطاولة موجودة شأنها شأن الأدب، قناعة مشابهة في جزء منها، للتي انتابتني حين علمتُ بوصول أنطوان سانت كسوبيري إلى نهاية سر الاختفاء العظيم في 31 تموز من عام 1944، الطيّار - الكاتب المرتبط بقصر شاناليز في شارع فانو.

لبضع لحظات، ساورني شك في أن هذه الأخبار كانت قد صنعت لي خصيصاً، وتساءلتُ عما إذا لم تكن متعلقة بشارع فانو وبحالة اختفائي مع اللغز الحازم لتبخر الكاتب - الطيار. وبدأت أشعر بالتدريج أن كل ما هو متعلق بشارع فانو بشكل وبآخر، إنما هو شيء يخصني أنا شخصياً. ثم رحتُ أبحث في أخبار كرة القدم التي استمتعتُ بقراءتها حد التخمة. بعدها خامرني شعور أنني تأخرت في فتح بريدي الإلكتروني، وعزمتُ على البحث عن اسمي في مكان ما من الشبكة ودخلتُ على أحدث مقال أدبي كنتُ قد نشرته قبل اختفائي في إشبيلية. كان واحدة من هذه الصور المختصرة لشعراء أمريكا اللاتينية، كتبته قبل بضعة أشهر لمجلة رقمية. كان عبارة عن نص توقعتُ فيه -لم يفاجئني اكتشافه بشيء- القضايا التي سوف تقع في صلب اهتمامي، بعد أن أختفي في إشبيلية.

كان نصاً يتحدث عن الشاعر التشيلي خوان لويس مارتينيث الذي كان يعاني من صراع ممتع من اسمه، فكان يخطط للاختفاء دائماً ككاتب. *لا أن أصبح آخر فحسب*، *بل أكتب عملاً عن آخر*، عنوان واحدة من قصائده الجميلة. عندما دخلتُ في نهاية المطاف إلى بريدي الإلكتروني، أيقنتُ، كما كنتُ أخشى، أن لا وجود لرد من إيفيت سانجيث. مؤكد أنني لم أمنحها الوقت الذي تحتاجه. رجعتُ إلى غرفتي والتقطتُ على نحو غريزي قصاصة الورق التي كتبتُ عليها القصة المقتضبة جداً، جنون، وتمكّن مني شعور بالضيق ممزوج بالمتعة التي منحني إياها جهدي الجبار في *عدم القيام* بشيء. قمتُ بتغيير عنوان الوريقة وتعديل وإطالة النص.

«لستُ هنا لأكتب، بل لأُصاب بالجنون».

بدأتُ، على أية حال، في إعداد أمتعتي البسيطة، كأنني يعقوب بن جونتين في المقطع ما قبل الأخير من مذكراته، يسافر في الأحلام مع مدير المعهد، السيد بنجامينتا الذي تحول إلى فارس منحه الهنود رتبة أمير: «كنا نخوض نهر الأخطار والمعارف، كأننا في نهر جليدي، لكنه كان نافعاً لمنحنا الدفء». ألا يبدو كأنه نص يعود إلى كافكا في *أرغب أن أصبح هندياً*؟ يبدو كذلك، أقول لنفسي وأنا أوظّب الأمتعة، كتب الحقيبة الحمراء، وأرى كيف ينتزع نفسه من الكل ويسقط على الأرض، كأنه يبحث عن استقلاليته، *الشهرة المريرة*، السيرة الذاتية لسيلفيا باث، كتاب أعتقد أنني وضعته في الحقيبة فقط لأن عنوانه كان يذكرني أن الحصول على اسم في الأدب، قد انتهى ليكون بالنسبة إلي شيئاً بغيضاً.

بينما كنتُ أُوظب الحد الأدنى من الأمتعة التي آمل منها أن أرحل من هنا عاجلاً، توصلتُ إلى قناعة أكيدة إلى أن وحدتي سترافقني أينما أحل، وهو انطباع سوف يقوم بإغراقي إن كنتُ ما زلتُ الكاتب المغتر الذي كنته من قبل، ذلك الذي كان ينشر روايات ويعيش فوضى شهرته المريرة. لكن كل شيء لم يعد له وجود، إذ أصبحت شخصاً مختلفاً تماماً، إنساناً لا يميزه شيء. تغير كبريائي وشعوري بالشرف. صارت عندي، مثل يعقوب بن جونتين، غريزة معينة للحفاظ على النوع، فاخترتُ أن أضيّع نفسي في آخر زاوية من الحياة. مثلما فعل الشاب يعقوب، اتخذتُ قراري وسأحافظ عليه.

-8-

تعيش في داخلي طاقة غريبة جبّارة تُدعى إنغرابايو، في الوقت الذي أقترب كل يوم من والسر أكثر. في أوقات أخرى، كنتُ أراه مثل شخصية أدبية، وليس ككاتب أو شخص كان قد مر حقاً بهذا العالم. وفي لحظة ما أدركتُ أنه حين كان يسير على المسارات الثلجية التي لا نهاية لها في أبينزل للمرة الأخيرة في حياته، كنتُ أبلغ من العمر ثماني سنوات، وكنت وقتها قد انتهيت من القربان المقدس، ولاعب كرة القدم بيليه (لأضرب مثالاً

عادياً) كان يتهيأ ليفاجئنا بعد سنتين في نهائيات كأس العالم في السويد. كلا، كنتُ أرى والسر شخصية أدبية فاتنة، شاعراً مسجّى على الثلج في يوم عيد الميلاد. لا يمكن أن أتخيله، على سبيل المثال، جالساً على هذا الفراش إلى جانبي، أو أن يشتري أسبرين من صيدلية دوبيرو، أو أن يتناول فنجاناً من القهوة في الحانة الغافية عند الزاوية.

كانت أسطورته الأدبية -السيرة الذاتية الرائعة للكاتب الذي التزم الصمت على مدى ثلاثة وعشرين عاماً في أحد المصحات المحاطة بالثلج- توحي لي أن أراه دائماً على مسافة متخيلة لا نهائية. لم يخطر على بالي قط أن فكرتُ به كائناً حياً يدخن سيجارة ويسحقها بقدميه على الأرض، ثم يركلها بعناد بشري على الطرقات الثلجية. لو لم أؤمن بأنه عاش على أرض الواقع، ما كنتُ سأستطيع أن أفكّر بأنه مات، ولا أن أقول إنه تنبأ بنهايته في رواية *الأشقاء تانر*، حيث وصف سلفاً، الظروف التي أحاطت بموته عام 1956.

في هذه الرواية، يُعثر على الشاعر سباستيان ميتاً في الجليد تحت سماء مكوكبة، من قبل سيمون تانر الذي تبدو كلماته كأنها خيار ذاتي مُتوقَع: «يا لنبله في انتقاء القبر! رقد وسط أشجار التنوب الخضراء الناظرة، المغطاة بالثلوج. لم يُعلِم أحداً بذلك. انحنت الطبيعة إجلالاً لموته، وغنت النجوم بجذل حول رأسه، ومعها نعبت طيور الليل. إنها أفضل موسيقى لشخص لم يعد يمتلك سمعاً ولا أحاسيس».

لكن والسر في حياته، نعم، كان يمتلك السمع والأحاسيس، فكان يصغي إلى الصمت خاشعاً، ومن المحتمل أنه كان واعياً أيضاً (حتى لو كان من بعيد) بأنه مهّد لثلمة صغيرة أو ثورة في الأدب من خلال العمل على تفكيك الأسلوب التقليدي العظيم. أعتقد أنه كان يعرف أنه سيتحلل في القريب العاجل ويتشظى إلى فلقات متناثرة، مثل كتاب يُروى بصيغة المتكلم، قال إنه كان دائم الترقب لكتابته. لكن هذا الكتاب بصيغة المتكلم لم يكن قط، وبكل الأحوال، مشروعاً أدبياً تقليدياً ونموذجياً، يترجم تجلي الطبيعة الذهنية والقوة الإبداعية للـ«*أنا*»، بل هو عمل يصب في تفتت هذه الـ«أنا»، بصبر عجيب ليس فيه شيء من الكبرياء.

كان فن والسر قبل كل شيء، فن التلاشي. كانت استراتيجيته ونصوصه

تصب في تفتت «الأنا برمتها» وتلاشي الشعور، ترتكز على عدم تقليد الفوضى والتوجه التام للظهور بسرية قدر الإمكان، ومحاولة الاختفاء دون إثارة الانتباه. فضل أن ينسحب ويجن بهدوء، وأن يستقر في مستشفى الأمراض العقلية الذي، مثلما وصفه كانيتي، يعتبر بمنزلة أديرة عصرنا. «أن يتحول كاتب إلى *كائن*، لا يؤدي إلّا إلى إخضاعه ليكون صباغ أحذية» قال والسر في إحدى المرات.

خصوصيته ككاتب كانت تمنعه دائماً من التحدث عن مشاكله، أو عن الأشياء التي دفعته. كان كاتباً دون دوافع، شخصاً يكتب بعفوية متطرفة، وبغياب مذهل عن الأهداف الخارجية للنص نفسه. ومن هنا، فإن آلاف الصفحات التي كتبها، كانت ستؤلف عملاً مرناً، قابلاً للتمدد، مجرداً من القوالب، وشى بغياب أي تقدم على قارعة التفكير. كان العمل على انسجام تام مع ما يمكن تسميته بالبناء اللاإرادي، من طرف والسر، لشخصية مناهضة للبطل، تكمن ملامحها الرئيسية أحياناً في عدم القدرة على النمو، لتشكيل شخصية مستقلة متناغمة مع الواقع.

وأخيراً تسنى لي أن أرى ذات يوم، ودون سابق إنذار، الأشياء الأكثر خفاءً من الشعراء وكأنها إنسان من لحم وعظم. أتذكر جيداً ذلك المساء في معرض كتاب بازل قبل سنتين. توقفت أمام أحد الرفوف المخصصة لشخصه حصرياً، وبقيتُ أتطلع لوهلة، إلى الصور التي التقطها صديقه سيلغ لمحيط هريساو، وكذلك بعض الأغلفة التي أعيد إنتاجها، للنسخ الأولى من كتبه، معروضة في الجزء الأسفل من الجناح. في بادئ الأمر، هالني ما رأيت من تلك الصور التي تفصح عن رجل يقف على إحدى طرقات سويسرا، بقبعة ومظلة، في الخمسينيات. كنتُ أحدق في والسر على اعتباره شخصية أسطورية جداً ولم أكن أتخيل نفسي قط، أن أفكّر فيه على اعتباره إنساناً عادياً، حتى عرفتني إيفيت فجأة على برنار إشت الذي كان هناك في الجناح أيضاً.

إشت، الرجل الذي كان برفقة ورنر مورلانغ، والذي انهمك منذ الثمانينيات في تفكيك القصائد المكثفة لوالسر، كلمني على نحو طبيعي جداً عن مؤلف يعقوب بن جونتين، الرواية التي فتحت عينيّ ونبهتني إلى

أن والسر لم يكن شخصية بعيدة مثلما كنت أعتقد، أو بكلمة أخرى، رأيت نفسي إلى والسر أقرب مما كنت أظن. ودون أن أدرك حتى، كنتُ في طريقي إلى الدنو منه تدريجياً، ويمكن أن أقول جسدياً أيضاً. كنتُ قد اقتربت، من خلال أسطورته وقراءتي لكتبه، لكني كنت أدنو أكثر، دون وعي مني، من بلده، من رحلاته ومنه شخصياً في النهاية.

كان والسر كائناً حياً، قلتُ لنفسي في ذلك اليوم. لابد أن يكون بينهم في تلك اللحظة، حين تدفق فيّ سكان هريساو القليلون مثل هوس صغير بدأ ينمو مع الزمن. رأيتُ أن هؤلاء السكان لم يكونوا سوى كلمة كانت تتبعثر أحياناً في سيرة والسر الذاتية. وأدركتُ أيضاً أن هريساو كانت واقع حال أيضاً، رغم أني لم أكن أعرف موقعها على الخارطة حتى. كان لابد أن أنشئ في مخيلتي هذه الكلمة آنذاك، أثناء قراءتي لحلقات حبس والسر في مستشفى المجانين. لكني تنبهتُ الآن أن ذلك المستشفى كان مكاناً حقيقياً، كان *هناك*، في العالم، بحيث كان باستطاعتي أن أراه إذا أردت، وأن ألمس بيديّ حتى، المادة التي كانت قد بُنيت منها المصحة. في ذلك اليوم، بدأت أشعر أن والسر كان له حضور حقيقي، وبدلاً من أن يكون كائناً بعيداً، أصبح بالنسبة إلي كائناً أقرب بكثير.

«عندما تتلاشى المسافات، يدنو القريب بحنان»، تذكرتُ هذا الكلام الذي أدلى به والسر لصديقه سيلغ. نعم، لابد أنه كان في ذلك اليوم الذي شعرت بقرب والسر. ليس الآن بالطبع. لديّ الآن حلم. بدا أن انتظار ذلك البريد الإلكتروني الذي لن يصل أبداً من إيفيت سانجيث، طويل. الآن لديّ حلم. أخال أنني أصبحت مثل واحدة من شخصيات والسر التي كانت ترغب في أن تكون مرؤوسة فقط، أو مثل أحد تلك الكائنات التي كانت ترافق والسر في «قمرة الكتابة للعاطلين عن العمل في زيورخ»، حيث عمل هو في فترة ما. أعتقد أني أصبحت مثل واحد من هؤلاء الناسخين الذين يقومون بكتابة ما يمر أمامهم من صفائح شفافة، واحدة من تلك الشخصيات التي لا تتفوه بأي شيء مميز، ولا تحاول أن تتغير. «أنا لا أتطور»، قال يعقوب بن جونتين في معهد بنيامينتا. لديّ الآن حلم، قال الدكتور باسافنتو. «كانت عربة الجنائز تتسكع في باريس تحمل إحدى

الجثث. لكنها لم تذهب بها، مع ذلك، إلى المقبرة». أعتقد أنني تذكرت الآن على حين غرة، ما قاله كافكا في إحدى كتاباته اليتيمة، رغم أني لم أكن متأكداً تماماً من هذا القول حرفياً. لكني نعم واثق من أن «كانت عربة الجنائز تتسكع في باريس» هو عنوان تلك الرواية التي تخيلت أنني كنتُ قد اشتريتها من محطة قطار آتوجا. تخيلتها منذ وقت ليس بالقصير، لكنه يبدو الآن طويلاً بما فيه الكفاية لأتمكن من التحقق من أن هذا العنوان لم يأت تحديداً من مخيلتي، بل كان من صنع كافكا.

الآن لديّ حلم، قلتُ أنا، كما لو كنتُ صدى الدكتور باسافنتو. تولّد لديّ انطباع بأن وضعي ككاتب، ينيره ضوء هلال مُتخيل. وتذكرتُ المواقف المتواضعة لشخصيات والسر الذين كان يقول عنهم والتر بنيامين، إنهم انبجسوا من أحلك ليلة، شخصيات قدمت من حلم ليلة فينيسية، وإنهم كانوا ينشجون نثراً. «النشيج»، قال بنيامين، «هو اللحن الوحيد لثرثرة والسر». إنهم شخصيات لم يتخلوا عن تركيبتهم الطفولية، مؤكد لأنهم لم يكونوا أطفالاً قط. ترعبهم فكرة أن يكونوا ناجحين في الحياة، تحت أي ظرف خارج عن إرادتهم. ولمَ يرعبهم كثيراً؟ ليس بسبب مشاعر الازدراء أو الحقد بالطبع، كما يقول بنيامين في سطوره المخصصة لوالسر، لكن لدوافع أبيقورية تماماً. لا يرغبون إلّا بالعيش مع أنفسهم، دون أن يكونوا بحاجة إلى أحد. إنهم كائنات بطبيعتها، تشعر بالغربة عن المجتمع، وعدم الحاجة إلى أية مساعدة، على عكس ما يعتقد عنهم، وإن أرادوا مواصلة الحياة، فلا يقتاتون إلّا من أنفسهم. ينبثقون، أو يتجلّون من مروج أبينزل، فتبدأ حياتهم من حيث تنتهي القصص. «وإذا لم يموتوا، فلأنهم ما يزالون أحياء»، يقول والسر عن شخصيات تلك القصص. ويُرينا لاحقاً كيف يعيشون، وبماذا ينهمكون. يشرح لنا ما هم عليه. تأتي أيام يكونون فيها مثل عربة الجنائز التي تذهب إلى الأماكن جميعها إلّا المقبرة. وأيام أخرى، يكونون فيها مثل نصوص، مقالات ناشزة، قصائد مكثفة، محادثات مختلسة، أوراق وهمية، قطعة نثرية مختزلة، محاولات للكتابة عن الغياب، سجائر مُدَخَّنة، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

-9-

أتذكر ظهيرة اليوم الرابع من شهر كانون الثاني، أول يوم أحد من السنة الجديدة، في انتظار بريد إلكتروني من بازل، لم يصل قط. كانت حقيبتي أكثر من جاهزة للرحلة المحتملة، أنا وهي ننتظر لأكثر من ساعة في الغرفة الظليلة بالكامل. كان عليّ أن أضع في الحقيبة الكبيرة أيضاً، حقيبة أخرى من الجلد الأسود تُعلق على الكتفين، اشتريتها حديثاً، دسست فيها بعض الملابس الجديدة والكتب. استغربت هذا التناقض بين التفكير في الاختفاء، مع زيادة الأدوات الشخصية التي كان عليّ حملها.

تحدثتُ مع الدكتور إنغرابايو، أو بالأحرى، هو تحدث معي. «يعقوب»، قال لي مخطئاً في اسمي، «أنت تنحف، لكن حياتك الخارجية تزدهر. لقد قللتَ من أهمية حياتك وعملك، لكن إياك أن تزدري وزن الأشياء العادية التي يجب أن تحملها معك». لم أشأ أن أدخل في لعبته، فالتزمتُ الصمت. «اسمع يعقوب»، واصل، «ألا تجد أن الحياة التي تعيشها هنا بائسة ومبتذلة؟ يسعدني أن أسمع رأيك، على أن تكلمني بصدق ودون مواربة». فضلتُ أن أسكت. كنتُ على علم من خلال الخبرة التي أنهكني بها تمردي على الدب الغائر في أعماقي. «ألا ترى أن الوحدة التي تعيشها، تجلب لك الحرية الكاملة والأفكار الخلّاقة الجيدة، رغم أنها جعلت منكَ دب فنان مثلي؟»، واصل حديثه معي على نحو غريب، وإن كان يفصح بلسانه عمّا بداخلي. على أية حال، لاحظتُ بارتياح أن الدكتور كان في تلك اللحظة بمزاج رائق، لكني التزمتُ جانب الصمت كأنني كنت أريد أن أخبره: «عزيزي الدكتور إنغرابايو، اسمح لي أن أركن إلى السكوت، لأن الرد على مثل هذه الأسئلة قد يكون على هيئة عبارة خَرِفة». نظر إليّ باهتمام، فاعتقدتُ أنه كان قد استوعب صمتي. وهكذا كان في واقع الأمر لأنه ابتسم فجأة ابتسامة خفية وقال: «ألا يغيظك قليلاً هذا القصور الذاتي الذي ينمو فينا بهذا العالم، كأن أرواحنا لا حضور لها، في حالات معينة؟».

ثم غادر وتلاشى في الظل الذي يعيش فيه متخفياً. مما لا شك فيه أن الاختفاء بالنسبة إليه أسهل بكثير مني. بعد كل شيء، فإن الظروف الطبيعية التي تحيط بتخفيه، وظهوره بين فترة وأخرى قد لا تتوفر لدى الجميع. بقيتُ

هناك لبعض الوقت. وعلى الرغم من أن الوقت كان ظهراً، اخترتُ أن أتحرك في المكان والزمان الأكثر عتمة، كأنه الطريق أو السبيل الذي أقدم فيه نفسي عبر الشك. كنتُ أفضل أن أقوم بوظائف الشك في الظل. «الشك، كتابة»، تقول مارغريت دوراس. وسط كل أنواع الظنون وهذا الضياع في الجب، توقفتُ عن الامتلاء بالشكوك، مثلما افترضت، حين انهمكتُ في مقارنة أحد والديّ مع الآخر. هناك على تلك الأرض (بالتأكيد عليها دون سواها)، لم يتملكني أي شك، ولا حتى في الظل. وربما لم يكن لديّ أي شك لأني بداخلها تحديداً، في العتمة.

كان والداي متعارضين تماماً، أحدهما من القرن التاسع عشر، والآخر، لنقل، أكثر معاصرة. الرجل الذي غرق في نهر هيدسون، كان يمتلك عقلية ورؤية عتيقتين صعبتي المراس. لم يكن يقتنع قط بأن الرب قد مات لأنه يؤمن بنفسه رباً. كان على قناعة تامة لا لبس فيها، بأنه إنما جاء إلى العالم ليكون والداً. أن أكون الابن الوحيد، فذلك هو الكابوس الثقيل. هذا الوالد من الطراز القديم الذي يمتهن الأبوة، والأب المتضايق من كونه رب الأسرة (عندما لم يكن أحد يسأله عن ذلك ولا حتى أنا) غرس بداخلي فكرة أنني يجب أن أكون في الحياة *شخصاً ذا شأن*. مع ذلك، حين أصبحت ذا شأن، انزعج وغضب كثيراً، كأنني ارتكبتُ جريمة باختطاف دوره الإلهي. وربما يعود ذلك إلى اعتقاده أن الابن إذا كان أكثر أهمية من الأب، فما أهمية الوالد في هذه الحالة، ودوره الأبوي الذي كان يسمو به كثيراً ويؤمن بكونه في مصاف الله؟ قضى حياته قلقاً من مسألة خلوده الشخصي، وانتهى مرمياً في قعر نهر هيدسون. لو كان يعرف منذ البدء أن الرب قد مات، لكان قد وفّر الكثير من المشاكل، بما فيها مشكلة الضمير.

أما الآخر، فهو الرجل المهذب لمتنزه سان خوان. كان أباً يسألني في بعض الأحيان: «هل هناك أكثر سعادة من الإيمان بإله أليف؟». كثيراً ما كان يردد على مسامعي هذا السؤال. كان أباً يختلف تماماً عن الذي غرق في هيدسون. كان أبي العزيز في متنزه سان خوان يتطلع إلى أن يكون نكرة، وهذا ما كان عليه. كان يعتقد تماماً أن الإنسان إذا ما كان نكرة، فسوف يوفر على نفسه المشاكل ويسمح لنفسه بالعيش الرغيد، متفرغاً لعمله كمرؤوس،

تحت مظلة العائلة الحنونة وتلك الأحاجي التي كان يستمتع بها دائماً. كان يتطلع باستمرار إلى أن يمر دون أن يلاحظه أحد، ويروق له أن يكون واحداً بين كثيرين وأن يعرف كيف يغوص إلى الأعماق بين الحشود. كان سيشعر بالسعادة في نابولي على سبيل المثال، حين يتجول في شوارعها المزدحمة في مشهد مثالي بالنسبة لإنسان مجهول. كان يستمتع كثيراً بالاعتماد على أحد (كان موظفاً مثالياً في حياته كلها، حاصلاً على شهادات شرف عديدة)، ويروق له أكثر حرمان نفسه من الميزات الخاصة لكي يتمكن الآخرون من نيلها. لا أعرف إن كان بهذه الطريقة وبوعي تام، كان قد أنقذ نفسه من وحش *الأنا* الذي يُشبعنا بالحقوق والواجبات. كان بارعاً، كما أعتقد، في كظم غيظه ودسه في أعمق الظلمات وأبعدها. لم يتبق منه سوى ألغازه، أحتفظ بها في برشلونة التي لا أفكّر بالعودة إليها، وبالتالي أخال أن تلك الألغاز ستنتهي تحت رحمة زوجتي السابقة أو بوّاب البناية، مما يعني أنه لن يكون بعد الآن مصيراً جميلاً بالنسبة لحمى البروز غير المعروفة في القرن التاسع عشر التي غالباً ما كانت تطارد والدي في الأعماق، دون أن يعي ذلك، فكان والسر رائدها الطوعي الذي آثر الانسحاب نحو الضمير مثلما نقرأ في يعقوب بن جونتين، «عادة ما يصطدم الإنسان الواعي لذاته، بشيء ما معادٍ للوعي».

هذه الصدمة تؤدي إلى الشعور بالألم، إلى الكدر الذي يتعرض له كل وعي ويذوب ويدفع الفرد إلى إطفاء معاناة تلك النقطة الحرجة من خلال الرفض المستمر للحياة الخاصة به، ساعياً إلى استراتيجية الانسحاب تلك التي تمثل فعلاً متطرفاً يعمد إليه بعض الكتاب غريبي الأطوار بتأكيد الطريقة الوحيدة لالتقاط وميض حياة كاملة عصية على الوصف، لا تتمكن السلطة من خنقها. إنه انسحاب تام، انسحاب من الأنا قبل كل شيء، من عظمتها وعليائها.

كان والدي المفضل، الذي لم يسمع عنه والسر قط، يسعى طوال حياته إلى استراتيجية الانسحاب. وأنا أريد أن أؤمن أنه شاهد لمحات من الكمال، وإن كانت وسط أحجياته فقط. لقد شهد التعاسة الجميلة، ونقلها إليّ. الحقيقة أنه عبّر إليّ الكثير من الأشياء، بعضها غريب جداً. من عاداته، مثلاً، أنه كان يتكلم مع أجهزة التدفئة في المنزل، ويتحدث إلى الأزرار، لكني لم

أرث عنه هذا الهوس. «عزيزي الزر الصغير، أتقدم لك بجزيل الشكر على صبرك وخدمتك الطويلة، وعلى عدم تطاولك لتكون في المقام الأول من أجل إنارة أفضل، وعدم البحث عن أية مؤثرات جميلة للإضاءة. كنتَ غاية في التواضع محتفظاً بأقصى درجات التكتم والرصانة، ممارساً فضيلتك الرائعة في حالة من السعادة المفرطة»، سمعته ذات يوم يتحدث إلى أزرار قميصه الثمين، قميص أحمر كان قد ورثه عن جده.

وعلى النقيض منه، لم أكتسب أنا عادته في التحدث إلى أجهزة التدفئة وإلى الأزرار، على الرغم من خطاب تمجيد التواضع الذي احتفظتُ به حياً في ذاكرتي إلى الآن. ما زلتُ أمتلكه حتى يومنا هذا، فأبتسم في الظلام وأبدأ في إغماض عينيّ كي لا تدخل أية فكرة أخرى. إنها طريقتي في تجنب هذا الحنين الذي يشرع في التسرب إلى داخلي، عندما أفكّر دون أمل في النافذة التي تطل على شارع فانو -وعلى عكس ما كنتُ أفكّر به، أكتب هذه السطور من باريس، ولا أعلم لمَن أقول هذا، لكني أواصل في بَوحي- وأقول في نفسي إنه على الرغم من التوتر الحربي السري الذي كان ملموساً في هذا الشارع، فإن هذا التوتر بالتحديد هو الذي أنقذني من الغثيان، مثلما أنقذ غريغور سامسا، انهماكه في النظر إلى خارج غرفته من خلال نافذتها، نحو ذكرى غائمة تحرره من الوضع الذي كان فيه.

وأخيراً وصل البريد الإلكتروني الذي طال انتظاره، من إيفيت، وعلمتُ به في الحال. وصلت إلى بازل في ظهيرة باردة، مظلمة وممطرة من يوم الأربعاء المصادف 7 كانون الثاني، بعد ليلتين تقريباً من الحفلة التي أقامتها صديقتي إيفيت في منزلها. كانت تنتظرني في المطار، خائفة -أخبرتني لاحقاً- من أن أرتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبته في رحلتي السابقة إلى بازل عندما أخطأت الباب وحتى البلد عند الخروج، بسبب عدم النظر جيداً إلى لافتات المطار رغم تحذيرها. في تلك المرة، وعلى الرغم من أن إيفيت كانت قد شرحت لي بروية وأوصتني أن أكون حذراً في الخروج، لأن الانعطاف يساراً يعني أنك ستكون في فرنسا، والانعطاف نحو اليمين يعني أنك سترى سويسرا. استدرت نحو اليسار ووجدتني في مكان لا أحد ينتظرني فيه، وحيداً وضائعاً على طريق فرنسي، تلوح في أفقه مدينة مولهاوس، اسمها يوحي بأنه

إنكليزي أو أسترالي أكثر مما هو فرنسي، لكنها في النهاية مدينة فرنسية، ولا تنتسب، بأي حال من الأحوال، إلى سويسرا البلد الذي أصبح خلف الباب على اليمين. كان علي، آنذاك، أن أتتبع خطواتي، على الرغم من أن تجربة المشي بمفردي ضائعاً على طريق مبهم في بلد غير متوقع، كانت مغامرة مثيرة للقلق بقدر ما كانت ممتعة. مغامرة كانت رائدة على المدى الطويل، مهّدت، بعد عامين، للقرار الذي اتخذته بالاختفاء والبدء في رحلة العزلة، الجنون والحرية. من اللطيف أن أشعر بالارتباك في ذلك الوقت، لكني حين وصلت إلى بازل من جديد، لم أكن على استعداد لتكرار خطئي لأنني كنتُ قد ارتكبته في وقته دون أن أخطط لتلك التجربة التي، بفضل طابعها العفوي تحديداً، سهّلت عليّ السبيل آنذاك وأضافت إليّ مزيداً من الخبرة والحرية للوصول في اللحظة المناسبة إلى المكان الذي كنتُ قد ضعتُ فيه ذات مرة، ولستُ مستعداً للضياع فيه مرة ثانية، لأنني الآن ولهدف ما، أكثر حرية وجنوناً ووحدة من المرة الأولى تلك.

وهكذا، انعطفتُ على اليمين وخرجت من الباب الذي يناسبني أكثر، والتقيت بإيفيت التي قالت مازحة بسعادة، لأني لم أكن قد أخطأت: «توقعتُ أن أنتظر أكثر». بدا لي أنها ما زالت تحتفظ بآثار فرح الحفلة التي أقامتها قبل يومين. وجدتُ، مثلاً، أنها كانت جذلة أكثر حين علمت أن هناك كتباً أكثر من الملابس في حقيبتي. «يبدو أنك تحمل أمتعة مثالية للذهاب إلى جزيرة يباب»، قالت مازحة. «باتا باتا»، أجبتها في محاولة مني لمشاركتها فرحها. لكنها لم تعر كلامي اهتماماً، وتوجهت لأمر آخر. بدا لي أنه من غير المناسب أن أخبرها أنه ربما، بناءً على ما رأيت، سأعيش في هريساو. قلتُ لها إن لدي تذكرة العودة بعد يومين، ويجب أن أغادر زيورخ نحو برشلونة بالطبع. ولم يكن من الضروري أيضاً أن أشرح لها أنني قضيت ثمانية عشر يوماً مختفياً، لأنها ستفكر حتماً، بأنني كنت أقوم بعمل أدبي كالعادة. كما لم أكن قادراً على إخبارها بأن أحداً لم يكن يبحث عني.

سألتُ نفسي إن كنتُ أعرف الكثير عن إيفيت. الحقيقة أنني كنتُ أعرف القليل عنها. نعم أعرف أن هناك قواسم مشتركة بيننا وكنا نتعامل كأننا نعرف بعضنا بعضاً من زمن سحيق، بينما في واقع الحال، كنا قد رأينا بعضنا ليومين

فقط في معرض بازل، وتبادلنا فيما بعد عدداً من رسائل البريد الإلكتروني. يمكن القول إن علاقتنا كانت سلسة وودية. كنتُ أعرف القليل عن إيفيت، لكني كنتُ على علم ببعض الأشياء عنها. كانت جميلة وجذلة، على سبيل المثال، ولا يمكن إنكار هذا الأمر، لأنه واضح جداً. ما الذي كنتُ أعرفه عنها أيضاً؟ أن أباها كان من ماراكايبو، فنزويلا، وأن عالمها الثقافي بدءاً من لغتها الأم، كان أوثق ارتباطاً بسويسرا الألمانية، من أية جنة أخرى في البحر الكاريبي. كنتُ أعرف أيضاً أنه سبق لها أن نشرت في إحدى دور النشر الإسبانية «كاتدرا»، كتاباً جميلاً بعنوان *«مجموعات وأدب»*. لم أكن أعلم عنها أكثر لكن استناداً إلى ما رأيته، أدركتُ أني أعرفها جيداً.

كنتُ حائراً إن كنتُ أمتلك الجرأة لأطلب منها ألا تقدمني في اليوم التالي إلى طلابها في جامعة سان غالين التي كان من المُقرر أن أُلقي محاضرة هناك، باسمي ككاتب، بل باسمي كطبيب في علم النفس. حسنٌ. لم أكن أعلم إن كنتُ سأخبرها، لكني في نهاية الأمر أخبرتها مع قليل من الكذب. قلتُ لها إنني أكتب رواية بطلها طبيب في علم النفس يحمل اسم عائلتي نفسه، وبسبب ضرورات العمل، أحتاج أن أعيش داخل جلدي الأحاسيس التي يشعر بها البطل حين يلقي محاضرة في سان غالين مثلاً حول الطب النفسي. لهذا السبب، رجوتها ألا تقدمني باسم أندريس بل على أني الدكتور باسافنتو. «كلا، من الأفضل، أن تقدميني باسم إنغرابايو»، استدركت. بدت متفاجئة قليلاً حتى ابتسمت. «مضادات نفسية؟ إذن أنت لا تفكر بمحاضرة عن أدبك غداً؟» شرحتُ لها أنني لن أتحدّث عن أدبي. «حسن»، قالت مازحة، «لكني سأدفع لك أقل. أنت نفسك خفضتَ من قيمتك. لا أحد من طلابي يعرف عنك شيئاً، دكتور إنغرابايو».

أنا نفسي كنتُ خفّضتُ من قيمتي، قلّلت من شأني. لم تستطع إيفيت أن تعبر عن الأمر بصورة أفضل. كانت سعادتي كبيرة حين أدركتُ أنني قليل القيمة. حين وصلنا تحت المطر المستمر، إلى فندق سويسرا، حيث سأقيم الليلة فيه، قلتُ لها إنني منذ هذه اللحظة، سوف أطيع أوامرها بسرور تام لتجنب أي ميل لتصديق نفسي أنني كنتُ شخصاً ما في هذه الدنيا. لم تستوعب جملتي الأخيرة كثيراً، بالطبع، رغم ارتباطها بالتقليل من شأني.

لكنها تقبلتها بروح مرحة. غطت فمها بيديها في إيماءة لطيفة كأنها تكتم ضحكة. بعدها التزمت الصمت للحظة ما بجدية أكثر، ساهمة. أخيراً، تلاشت الابتسامة من فمها وسألتني ما الذي سأفعله لكي أكون نكرة، أو بالأحرى، لكي أكون الدكتور إنغرابايو. «الأمر بسيط، لأنه في أعماقي»، قلتُ لها. لم تفهمني بالطبع. وأنا بدوري لم أشأ أن أفسر لها المزيد. ودعتها ودخلتُ فندق سويسرا. بعد أن أصبحت في غرفتي، تخيلتُ أنني شرحت لها أنني كنتُ قد أصبحت فعلاً طبيباً نفسانياً. تخيلتُ أنني شرحت لها أنني أخيراً سلكتُ طريق الاختفاء منذ حوالي ثلاثة أسابيع وأنني تمكنتُ من أن أتحقق أنه لا أحد سعى للبحث عني، ربما لأن الجميع اعتقدوا أنني في عطلة أعياد الميلاد. مع ذلك، بغض النظر عن أن هذا الشيء عُرف أم لا، اعتبرتُ نفسي مُغيّباً، وكنتُ فخوراً بذلك. علاوة على ذلك، كنت آمل أن تساعدني في العثور على مكان للاختباء أكثر أماناً من الفندق الموجود في شارع فانو في باريس حيث كنت قد لجأت إليه حتى ذلك الحين. كنتُ قد فكرتُ في الاختفاء في مصحة هريساو. «لا تخافي»، ظننتُ أني أقول لها. ثم تخيلتُ أنني كنت أشرح لها رغبتي في معرفة الفرص المُتاحة للسماح لي بالعمل كطبيب في المصحة، وفي حالة عدم إمكانية ذلك، وهو ما كنتُ افترضته بالفعل، محاولة السماح لي على الأقل بالإقامة هناك كأحد المجانين بعيداً عن الضوضاء الدنيوية، وبذلك أتمكّن من البدء بحياة مثالية لمجهول مختبئ كرس نفسه لكتاباته الشخصية.

«لا تعرف أين تذهب، أليس كذلك؟»، تخيلتُ أنها كانت تسألني. «بالضبط»، قلتُ لها وشرعتُ أتلعثم بالكلمات حين كنتُ أشرح لها أني في رحلة البحث عن مساحة خفية وهادئة لكي أتمكّن من الكتابة لنفسي وتحليل الوقائع التي عشتها على مدى رحلتي في اكتشاف حدود مفهوم *نهاية العالم*، الذي كثيراً ما كنتُ أفكّر فيه كما لو كان الوحيد، كما لو أنني وجدتُ نفسي أخيراً في وهدتي المُفضلة. ثم خيانته فيما بعد بالطبع. خيانته وعبور حدود المفهوم الفريد لنهاية العالم، والذهاب إلى أقصى نقطة لأرى من البعيد ارتجاف البحر، ثم الوصول أخيراً إلى الصمت الساحلي الذي يخلو من الطيور. وهناك، منذ ذلك الشاطئ العدم، سأبعث رسالة إلى كل

تلك العلامات التي كانت قد شكلت قصة اختفائي بفعل هبوب ريح غريبة على نحو مقصود أم غير مقصود.

«أوف!»، تخيلتُ أنني قلت لإيفيت. «ومتى ينام الدكتور إنغرابايو؟».

-11-

في صبيحة اليوم التالي استيقظتُ في فندق سويسرا. أول ما فكرتُ فيه هو: أن يكون الإنسان وحده، أمر ممل جداً، أن يكون اثنين، قد يكون مُضجراً أيضاً ولن ينقذك من الغربة، وحتى لو كنتَ ثلاثة، فلن ينقذك من الوحدة. نظرت إلى الوقت ورأيت أنها الساعة العاشرة صباحاً بالضبط. قررت عدم التفكير في هوّيتي بعد الآن. وضعتُ قبعة اللباد على رأسي وغادرت غرفة الكتّاب أو الأرواح. بعد أن رأيتُ أن المطر المهووس لليوم السابق قد اختفى، خرجتُ لعمل جولة صباحية متفردة. سأبقى مع إيفيت في الكاتدرائية حتى الساعة الثانية، لأني أردت أن أزور قبر أراسموس روتردام. كنت آمل أن تكون دقيقة في المواعيد، ولم أرغب في شيء سوى الالتزام بالمواعيد، ربما لأن الالتزام بالمواعيد بالنسبة إلي، مثلما لوالسر، بدا دائماً كأنه تحفة فنية. وما أندر الروائع الفنية بالفعل! لا أحد لديه القدرة على العثور على تحفة فنية وإحضارها كل يوم. لكن ذلك اليوم كان الالتزام بالمواعيد بعينه، مثالياً ومتقناً أو، على الأقل، شعرت به هكذا. أشرقت شمس الشتاء في المرتفعات، فانتقلت إلى شوارع بازل في فرحة معدية. وتولّد لديّ انطباع أن أشجار الكرز والخوخ تضفي على الشارع لمسة جذابة، برّاقة وأنيقة. كان هناك أطفال وكلب بشري جداً على وشك أن ينطق، ومنزلان برجوازيان رائعان متجاوران. كان هناك صالون لتصفيف الشعر وبوابة ضخمة جميلة محمية ببرجين تُدعى «سبالنتور»، ومتجر يبيع أشياء من التبت (البلد الذي تدعم بازل استقلاله)، ومصنع بيانو حسن المنظر، وطريق محفوف بالورد يذكرني بالذي رأيته بجوار قلعة مونتين. وكان هناك سائر، هو أنا. كان هذا السائر لا هم له سوى استحضار شخصية روبرت والسر وعلاقته بجمال العالم، الجمال الذي دفعه دائماً نحو العزلة. وبينما كان يستحضر هذا كله، بدأ يفكر في *المغامرة* للمخرج أنتونيوني. كان هذا السائر يفكر في هذا الفيلم

ليس لأنه كان يعشقه في شبابه فقط (وكان يعشقه كثيراً)، ولكن لأنه بطريقة ما يرتبط ارتباطاً وثيقًا بقصة اختفائه أيضاً. كان الفيلم يروي قصة مجموعة من الأصدقاء الشباب الذين يبحرون عبر الأولياس، يرون آنّا، وهي واحدة منهم، تختفي في شعاب ليسكا بلانكا. الفيلم يتحدث عن رحلة البحث عن الفتاة المتبخرة، في تلك الجزيرة الصغيرة ومنحدراتها. مع تقدم القصة، يدرك أحدهم أن اختفاء آنّا لم يكن بالضبط الشيء الأكثر أهمية، ولكن الشعور بالفراغ والصدفة والتشرد الذي كان يحرك خيوط الحبكة المغلقة والبطيئة التي كانت تؤدي بالشخصيات نحو شعور نهائي باللامبالاة والنسيان أمام اختفاء صديقتهم. كنت أتجول في شوارع بازل مفكراً في فيلم أنتونيوني عندما توقفت للحظة أمام متجر الأشياء التبتية، وبلغة إنكليزية بدائية، سألت امرأة جميلة شاردة الذهن كانت بجانب الواجهة الزجاجية، عن كيفية الوصول إلى سوليتود - برومينيد، المتنزه المجاور للنهر الذي يصل إلى متحف تينغلي. رفعت رأسها ونظرت إليّ. «ألا تعرف من أنا؟»، سألتني بشفتين مرتجفتين. أخبرتها أنني لم أرها في حياتي. تغيرت سحنتها، فيما بقيت شفتاها ترتجفان. «هذا ليس صحيحاً»، قالت لي. طلبتُ منها، بشيء من التردد أن تخبرني باسمها حتى أعرف محدثتي. «اسمي آن ميللر»، قالت بصوت مرعب، وأدركتُ أنني كنتُ أتحدّث إلى امرأة مجنونة. قررتُ أن أواصل طريقي. كان يكفي أن أذهب إلى هريساو لكي أكون على اتصال مع الخَرف. قالت «وأنتَ أيضاً اسمك آن ميللر». خرجت من هناك بأسرع ما يمكن. بعد دقائق وصلتُ إلى سوليتود - برومينيد المتنزه الحزين والجميل جداً الذي يطوق نهر الراين. كانت فرحة اليوم قد تلاشت وأفسحت المجال للغم الذي كنت أواريه قدر ما أستطيع. مشيتُ مكتئباً على طول هذا المتنزه المخصص للذين يشعرون بالغربة حتى وصلت إلى بوابات متحف تينغلي. بعد أن اجتزت حديقة الآلات الخاصة بتينغلي نفسه، وجدتني أمام الفنان الذي سُمي المتحف باسمه، رأيت معرضاً متعلقاً بالماضي مخصصاً لكورت ستيوارت، الذي تضمن عرضاً مفصلاً عن إعادة البناء الجزئي لميرزباو (مبنى ميرز)، وهو نوع من التجميع ثلاثي الأبعاد، بين العمارة والنحت، والذي بدأ ستيوارت بتصنيعه من مواد النفايات في منزله عام 1923، وصار يكبر حتى

شغل السرداب وثلاثة طوابق: بناية كان لابد أن تنمو لتشيخ معه، لكنه دُمر بالقصف عام 1943. وأخيراً، تبين أن التناقض بين جولتي الصامتة المنعزلة والآلات العدوانية الغريبة لتينغلي، كان شريراً للغاية معي لدرجة جلست معها عند باب المتحف أبكي. أبكي بخجل ومن دون عاطفة، فقط بسبب التناقض الذي أخذني خلال لحظات قصيرة من الشعور بالوحدة المتجذرة إلى الدادائية المارقة لعالم حطام الحضارة الذي كان تينغلي وستيوارت قد جمعاه في أعمالهما الفنية. كنت أبكي الماكينات الاصطناعية الباردة التي بدت بعيدة جداً عن عالمي الطبيعي كسائر وحيد. تعافيت من البكاء عندما بدأت أتسلق تلة الكاتدرائية التي كانت تنتظرني عند بابها إيفيت، التي وصلت منذ وقت قريب وأخذتني إلى المصلى الجانبي حيث يقع قبر إيراسموس روتردام، وصورته بالكاميرا التي كنت قد اشتريتها قبل ساعة. جلستُ على أحد المقاعد الخشبية المجاورة للقبر، وكرستُ انتباهي لبضع دقائق لمؤلف كتاب «في مديح الجنون»، ذلك الباحث والكاتب الهولندي العظيم الناطق باللاتينية، ذلك الرجل الإنساني الرائع الذي كان يتمتع بقدر كبير من التسامح والتربية الأخلاقية جعلاه رائداً لبعض الطرائق الروحية الحديثة، التي أُسيء استخدامها في الوقت الحاضر.

غادرنا الكنيسة سالكين الممر الخلفي للمذبح الرئيسي الكائن على نهر الراين وهناك تحدثت مع إيفيت عن حياتها الهادئة والممتعة في تنقلها بين بازل وسان غالين. وقفنا لفترة طويلة نتأمل المرور المتواصل للسفن التجارية والجسر الحجري القديم و«سكاي لاين» بمدخنتها السوداء التي أوحت لنا بأن المدينة تعيش في جزء منها صناعات كيميائية. بعد فترة وجيزة، اكتشفت في إحدى الصيدليات في سويسرا، أن شراء آلكا – سلتزر لا يُعطى لك في ظرف فحسب، بل إن الصيدلانية الودودة تقوم بتقديم كوب بلاستيكي بحيث تتمكن من تناول هذا المشروب الفوار على الطاولة نفسها، كما لو كنت في حانة. كانت السعادة التي شعرتُ بهذا الاكتشاف أكبر مما تُوصف. ضحكت إيفيت عندما رأتني أتكئ على عارضة هذا البار المُتخيلة. وفوق ذلك كله كان الآلكا – سلتزر السويسري الذي يختلف عن الإسباني من حيث الرغوة والخشونة الواضحة، له مذاق الليمون لدرجة تجعلك تنتشي بهذا الشراب

العلاجي، ويُبعدك عن نحيب متحف تينغلي. واستعدتُ نشاط خطواتي التي كنتُ قد ابتدأت بها صباحي.

تملكني هذا الشعور بالانتعاش خلال فترة الغداء وكذلك خلال الرحلة الكئيبة في القطار إلى سان غيلان. حين وصلنا إلى المحطة، استقللنا سيارة أجرة، وبعد السير البطيء عند الجزء العلوي من المدينة في جادتي كارليد ودوفور، وصلنا إلى المكتب الذي كانت إيفيت قد نُقلت إليه إثر حصولها على الكرسي الدراسي. ومن هناك كان بالإمكان رؤية منظر خلاب يمتد على مساحة بيضاء، ساحرة وحالمة، ملفوف بسحابة بيضاء أكثر تطرفاً من المسافة الغامضة. هكذا كانت اللوحة الغريبة المعلقة أمام طاولة عملها، وهي إرث نادر من أحد الأساتذة الذين سبقوها. أما المنظر الآخر، الحقيقي الذي يمكن رؤيته من النافذة، فكان يطل على قمم بعض الأشجار التي تهمس سراً حين يهب عليها نسيم خفيف عليل. كانت تتنفس بهدوء. بدا لي أنه كان مكاناً مثالياً للعمل، هكذا أخبرتها. ثم عدتُ لتذكيرها ليلاً ألا تنسى أن تقدمني كدكتور إنغرابايو.

بعد ساعات، قدمتني إيفيت، في قاعة محاضرات سان غيلان، كبديل عن الكاتب البرشلوني الذي كان مُقرراً حضوره. قدمتني على أني طبيب نفسي سوف يحدثهم عن حالة العجز الفاضحة والإيمان الطبي السيئ. بدا لي للأسف الشديد أن الكثير من الحضور لم يعر هذه الكلمات اهتماماً واعتبرها لعبة أدبية بسيطة. وعلى هذا الأساس، أدركتُ أن وجهة نظري حول حالة الطب النفسي الحالية كانت صارمة للغاية، وأن محاضرتي في النهاية أصبحت عبئاً ثقيلاً جداً على الجمهور، ربما أثقل من هويتي المزدوجة (لم يعرفوا أنها كانت ثلاثية). كان تفكيري صارماً وباسافنتياً لأقصى حد، بما يؤدي إلى عرض إصلاحات معينة واقتراح إعادة مناهضة الطب النفسي. خصصتُ الجزء الأخير من مداخلتي لعرض حالة بيدرو خوان جينار على نحو تفصيلي وبطيء، المريض الذي كنتُ أشرف على علاجه في مستشفى جادة مرديانا في برشلونة، وهو شاب تعرض لبعض الأخطاء العلاجية النفسية، أدت به إلى تدمير حياته.

حين انتهيت من سرد هذه الحالة السريرية، أدليتُ ببضع كلمات ختامية

حول انفصام الشخصية، كلمات فكرتُ بها جيداً أثناء تجوالي الصباحي عند سوليتود - بروميند في بازل: «الزنجي بشرته سوداء تحت جميع الظروف، لكن فقط تحت ظروف اجتماعية اقتصادية معينة، يتحول إلى عبد. من الممكن لأي إنسان أن يتعثر أحياناً تحت ظروف محيطة، فيجد نفسه ضائعاً، مما يُضطره إلى الاستدارة والعودة بشوط طويل من أجل أن يجد نفسه ثانية. ولا يعاني من انفصام الشخصية إلا في ظروف اجتماعية اقتصادية معينة».

بعد المحاضرة فتحت باب النقاش. ومثلما تمنيت، لم يكن هناك ولا سؤال واحد، لكني لا أعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى ذهول الجمهور أو ارتباكه، بل بدا أنهم سيُصابون بالشلل والصمم أيضاً لو حدثتهم عن قصة أخرى. ولعدم وجود أسئلة، وجهت إليّ إيفيت كلمات الشكر والامتنان وختمت بذلك المشهد الحَرِج. في ذلك المساء تناولنا طعام العشاء في أحد المطاعم الإيطالية في جادة رورشاشر، بالقرب من أيدغونوسيسش كروز، وهي مؤسسة -كما شرحت لي إيفيت- كان والسر يرتادها مع زائره الوفي، صديقه كارل سيلغ. تناولنا الطعام برفقة هانا هاسلر التي كانت تلبس قميصاً ذا فتحة طويلة، ورجل دين بروتستانتي شاب. لا أعرف إن كان يتوجب عليّ أن أتحدّث عن هذا العشاء النافر، لكن الحقيقة أنني اليوم لا أشعر بأية رغبة في التحدث عن شيء مهما كان خطيراً. في الواقع لا تعتريني أية رغبة في الحديث. لكني أخشى هذا العزوف بقوة، لأني لن أنسى بسهولة عبارة كافكا التي طبعتها في ذهني في الآونة الأخيرة، والتي ساعدتني في عدم الوقوع في الجنون المطلق: «الكاتب الذي لا يكتب هو في الواقع أشبه بالوحش الذي يطوف حول كل ما يوحي بالجنون». ليست لدي اليوم في واقع الأمر أية رغبة في الكتابة، لكن على الرغم من هذا كله، سأحاول أن أكتب اليوم، حتى ولو شيئاً بسيطاً، عن هذا العشاء غير المهم، مما سيسمح لي أن أتنفس الصعداء قبل المضي غداً في سرد قصة رحلتي إلى سان غالين إلى هريساو.

كانت هانا هاسلر تعمل مترجمة كتب من اللغة الألمانية إلى اللغة الإسبانية. أما الكاهن الذي كان يعب الكثير من الشراب، فكان يضع نظارة غامقة فوق شعره المصبوغ باللون الجزري. لم يكن الله ربه ولا لوثر، بل لو ريد الذي يحفظ جميع أغانيه عن ظهر قلب. كان الأمر أشبه بتناول العشاء

مع ملكة ترتدي قميصاً ذا فتحة طويلة وجريئة ونسخة كنائسية من لو ريد. ضجر. كان من المفترض أن نتناول العشاء أنا وإيفيت فقط، ثم تلتحق بنا المترجمة والكاهن لأن إيفيت اعتقدت أنني سوف أرتاح لصحبة مثل هؤلاء الأشخاص، لكن حدث العكس، فقد سئمنا أنا وإيفيت منهما.

كان عشاءً تافهاً دون أدنى شك. أرادت إيفيت، دون أن يجبرها أحد، أن تقدم لي بعض المزايا («سأكون المترجمة المستقبلية لمقالاتك في علم النفس»، قالت لي) وقربت أذنيها إلى الكاهن الذي تمتم بكلمات لم آخذها على محمل سليم، مما أتاح لي فرصة التفكير في إسبانيا ما بعد الحرب التي عشتها طفلاً، وكيف سيكون عليه العشاء في تلك الأيام بصحبة مثل هؤلاء الندماء غريبي الأطوار. كانوا سيعتقلونهم، فكرتُ، أو بالأحرى، رجل الدين فقط في محاكمة سريعة جداً، ويعدمونه رمياً بالرصاص لكونه بروتستانتياً استفزازياً، وربما سأرغب حينها في أن أكون أحد أعضاء كتيبة الإعدام، مَن يدري! أما هانا، فمن الأفضل أن أعتقد أنهم سيجبرونها ببساطة على دخول الدير.

كلما تقدم بنا الوقت في العشاء، كان رجل الدين يغفو على كرسيه أكثر ولا يبدي اهتماماً إلا بالتلفاز. «وماذا عن الله؟»، قلتُ له، «ألستَ مفتوناً بالله؟»، ترجمت له هانا سؤالي. بقي ساهماً ثم تثاءب طويلاً، وانتهى به الأمر بابتسامة عريضة. «لا الذنب ذنبي، إن كان الله موجوداً»، أجابني. فوجئتُ لكنني لم أرغب في التعمق بما تفوه به تواً، وفضلتُ أن يستمر العشاء في مساره وينتهي عاجلاً. لم أشأ أن يطول الخصام إضافة إلى أن هذا الكاهن الشاب كان صديقاً لإيفيت –علمتُ فيما بعد أن الأمر على العكس ولم يكن كذلك– ولم أر من المناسب أن أكون وقحاً معه. مع ذلك، بدا لي أن ذلك الكاهن كان يتعمد إثارة سخطي لأنه، حين عدتُ إلى صحن السلمون الخاص بي، عمد إلى القول بصوت أنثوي جداً، وهو نصف نائم: «من خلال الطريقة التي عاملنا بها الله، يبدو على نحو واضح أنه إنسان».

ما العمل مع راهب يتحدث كالنساء، نصف نائم؟ تذكرتُ وصية أمي، في متنزه سان خوان بعد الحرب، في أن لا أعير أي اهتمام للأديان التي تبتعد عن الكاثوليكية. هل كان لتلك الوصية الأمومية، أثر في عدم الثقة

والكراهية اللذين أوقظهما فيّ رجل الدين؟ كأن الكاهن كان قد قرأ كلمة نصيحة في ذهني، لأنه بعد أن انتهى من تناول قنينة بوشبيرغر الكبيرة، طلب مني نصيحة بشأن والدته التي كانت، حسب ما أخبرني به، تقضي اليوم كله بقميصٍ ذي فتحة طويلة، مثل هانا، وتحتاج إلى علاج نفسي. «لقد عملتُ اليوم كثيراً»، قلت له، «أعتقد أنك تجهل أنني أعمل طبيباً لكسب لقمة العيش، لكنني في الحقيقة أتمنى أن أكون مطرباً». غنى رجل الدين حينذاك بلغة ألمانية أو همس إلى هانا بصوت تصاعدي منخفض، شيئاً ما مثل تهويدة، لأنه بدا، يجب أن أذكر كل شيء، أنه نائم تماماً. «ماذا قال أو غنى؟»، سألتُ هانا وأنا أعرف جيداً أنه لم يكن قد قال شيئاً سوى همهمات. «كم يبدو الطبيب النفسي عظيماً بعدد الصفحات التي لا ينشرها»، قالت هانا. «لا»، قالت لي إيفيت (وعرفت وقتئذٍ أنها لم تكن صديقة رجل الدين ولا حتى المترجمة)، قال «أرضعيه قبل أن أكنسها». بدأتُ أشعر بالملل. «ماذا يكنس؟»، سألتُ هانا حيران. قالت مُتشبهة بصوت الكاهن: «تلك التي بجانب المكنسة».

يقول المثل الياباني إنه لابد من غسل العينين بعد كل نظرة. ما إن وصلتُ إلى غرفتي في الفندق، حتى شعرتُ بضرورة تطهير نفسي بعد الذي رأيته وسمعته، وتذكرتُ أن هناك في العالم، كاتباً كان يخلط الكآبة بالنشوة المفرطة وقضى ثلاثة وعشرين عاماً من حياته محبوساً في مستشفى للأمراض العقلية في مدينة أبعد من كونها عاصمة صغيرة لإقليم أبينزل السويسري، تُدعى هريساو، مكان لم أكن قد رأيته مطلقاً حتى في الصور الفوتوغرافية، وسوف أقوم بزيارته في صباح اليوم التالي. أخرجتُ من الحقيبة بعدها، كتاباً نثرياً صغيراً لوالسر *«حياة شاعر»*، وقرأت بعض مقاطعه بصوتٍ عالٍ، بغبطة مجيدة لعالم مثالي، كانت تُخفي الحزن الكامن في أعماق المؤلف، وتُثير إعجاب كافكا الذي كان يقرأ لصديقه ماكس برود بصوتٍ عالٍ وسط الضحكات، تلك الإطراءات غير المسبوقة لسعادة تفتح الأبواب لحياة واقعية «مررت ببضع عربات، لا غير، وفي الطريق الريفي لمحتُ أطفالاً. لم تكن هناك ضرورة لرؤية شيء غير عادي. هناك الكثير مما يُرى»، لكن غالباً ما ترافقها أوجاع تنبجس في الساعة الأخيرة، كما يحدث

حين تكون في «قمة السعادة» مُنهمكاً في قراءة كتاب *النزهة* وتظهر لك فجأة في الأسطر الأخيرة، الظلال والحقيقة التي كانت مخفية حتى ذلك الحين: «نهضتُ لأعود إلى المنزل، لأن الوقت كان متأخراً، وكل شيء يلفه الظلام».

وبدأ كل شيء يغرق في العتمة حين شرعتُ في إغلاق عينيّ حتى لا يدخلهما أية شعور آخر، أية فكرة أخرى. لكنها دخلت. كنت أفكّر في الأصوات التي كان يسمعها والسر قبل أن يدخل في المصحة الأولى. كانت تباغته رؤى وخيالات شعرية، وتتناهى إلى سمعه أصوات غريبة ما إن يغلق عينيه. لكن هذا كله لم يؤدّ به إلى الجنون. لم يكن والسر مجنوناً قط. شُخصت حالته بمرض انفصام الشخصية. كان هذا التشخيص بالنسبة إليه مناسباً بطريقة ما، لأنه، كما قال لصديقه سيلغ، كان يريد أن يستمتع بسنوات عمره المتبقية: «قلة من الناس يعرفون كيف يستمتعون بشيخوختهم، حين تكون في متناول أيديهم بطريقة مقنعة للغاية. وقد ثبت أن العالم يطمح إلى العودة دائماً إلى الأشياء البسيطة، البدائية. بالفطرة السليمة، يمكن للإنسان أن يقاوم كل ما هو استثنائي وغريب حتى لا يهيمن عليه. لقد انطفأت الشهوة المضطربة نحو الجنس الآخر، ولا يُطمح الآن سوى إلى عزاء الطبيعة والأشياء الملموسة والجميلة المتاحة لكل من يتوق إليها. تلاشى الغرور أخيراً، وأخذ المرء ينعم بالهدوء الكبير للشيخوخة كما يفعل تحت أشعة شمس هادئة».

-12-

استيقظت باكراً جداً في اليوم التالي، صباح اليوم العظيم الذي لم أتوانَ فيه عن ذكر الزيارة الأولى التي قام بها كارل سيلغ إلى روبرت والسر في مصحة هريساو يوم الأحد 26 تموز 1936. ولأن هذا اللقاء تحقق بعد أسبوع واحد من بدء الحرب الأهلية الإسبانية، كان من المستحيل بالنسبة إلي ألا أفكّر، للحظات قليلة، في التناقض الفظيع الذي كان موجوداً آنذاك بين الضوضاء الإسبانية المميتة والصمت السويسري الخافت. شرعت أتذكر سيلغ الذي كان يتراسل مع والسر، حتى وافق أخيراً على السماح له بزيارته في المصحة، ومن هناك خرجت تلك الوثيقة الرائعة جولات مع *روبرت والسر*. كان سيلغ

يؤمن بأننا نشعر بالعدم حين نكون بين عجلات ماكينة عالمنا الحاضر، ولا يمكننا أن نهرب من هذا الجحيم المُعاصر «ما لم نكرس حياتنا لقضية نبيلة خاصة بنا». وخطر له أن يفعل شيئاً لوالسر، الذي كان محبوساً في هريساو لمدة ثلاث سنوات وقبلها في والداو لمدة أربع سنوات. من بين جميع الكتاب السويسريين، بدا له أنه الشخصية الأكثر غرابة والأكثر إبداعاً، فأراد أن يمد يده إلى ذلك المؤلف الذي تم الاستشهاد به في *مذكرات* كافكا. ما لم يكن يعرفه سيلغ هو إلى أي مدى كان والسر كاتباً أصيلاً للغاية.

حين أبدى والسر موافقته على الزيارة، سافر سيلغ في وقت مبكر من يوم الأحد من زيورخ إلى سان غالين. تجول في المدينة، ولم يسمع سوى خطبة الكنيسة عن «إهدار المواهب»، ثم توجه بالقطار نحو هريساو. كانت الأجراس تدق لدى وصوله. تم إعلام كبير الأطباء الدكتور أوتو هينريجسن الذي سمح له بالتجوال مع الكاتب. كان أحد أيام الصيف الحارة. عندما أخذ الدكتور هينريجسن يحكّم الأزرار العليا لمعطف والسر، انتفض رافضاً: «كلا، يجب أن تظل مفتوحة». كان الكاتب يتحدث بلغة بيرن الألمانية المتناسقة التي كان قد تكلم بها بيل في شبابه. بعد توديع رئيس الأطباء المفاجئ، سلكا الطريق نحو محطة هريساو للذهاب إلى سان غالين. منذ تلك الجولة الأولى، احتفظ سيلغ ببعض تعليقات لوالسر عن القليل الذي كان يتأثر به وهو بهذا العمر، والذي نسيه ككاتب («عندما تكون في طريقك إلى الستينيات، عليك أن تفكر بطريقة أخرى في العيش») وأحتفظ بشكل خاص بكلماته حول الكره غير المُجدي وضرورة أن يكون الأدب لطيفاً ليفوح الحب منه، على الرغم من أنهم أصبحوا في الآونة الأخيرة «يوزعون الجوائز الأدبية على المُنقذين الزائفين أو على بعض معلمي المدرسة».

استيقظت باكراً في ذلك الصباح، وتذكرت أول زيارة قام بها سيلغ إلى المصحة. وعند الساعة الحادية عشرة، خرجت إلى باب الفندق لملاقاة إيفيت التي وصلت برفقة صديقة نمساوية تُدعى بياتريكس، امرأة في الأربعين من عمرها عاشت في هريساو لفترة طويلة، وهي التي سوف تقلنا بسيارتها إلى المصحة. كنا على طول الطريق غارقين أنا وإيفيت في تأمل المناظر الطبيعية الرمادية الكئيبة. كنتُ متأثراً جداً وواعياً أنني على وشك

الوصول إلى أعلى مستوى للمتعة في حياتي. في أقل من ساعة سوف أكون أمام نهاية العالم التي أتمناها، أمام باتاغونيا الخاصة بي.

كان الصمت يخيم علينا طوال الرحلة، حتى إذا ما اقتربنا من مدخل مدينة هريساو، بدأت بياتريكس، رغبة منها في كسر حاجز الصمت المطبق، في التحدث فجأة عن مدريد وكيف هبطت في شبابها في تلك المدينة بحقيبة صغيرة ودون أي نقود وانتهى بها الأمر في البقاء هناك والعمل في رعاية أطفال العائلات النمساوية. إحدى تلك العائلات، التي كانت تقطن في بوثويلو دي ألاركون، على مسافة بضعة كيلومترات من مدريد، استغلتها بطريقة مفضوحة، لكن ذلك لم يمنعها من الاستمرار لأنها كانت مفتونة بمدريد، وما تزال ذكراها عن تلك السنوات، تحمل لها السعادة والفرح. كانت بالنسبة إليها أجمل مدن العالم. كانت كلماتها تناقض المناظر المكفهرة الصامتة لمنطقة أبينزل الرمادية الحزينة، ولا أعرف لماذا، ربما لأنني كنتُ أجد دائماً أن كل ما هو غريب، يحمل طابعاً نبيلاً، وبدت لي مدريد في تلك اللحظة، مدينة سافلة جداً، وإن يكن رأيي متناقضاً مع بياتريكس.

مرت السيارة في وسط هريساو، وسرعان ما رأينا رجل دين شاباً يطل من باب كنيسة سانكت لورينتيوس في دورفبلاتز. «أوه، لا»، قالت إيفيت، «رجال الدين يتبعوننا». ابتسمت بياتريكس، ربما لأنها كانت على علم بالعشاء الفظيع في الليلة السابقة. أما أنا، فتذكرت والسر عندما شاهد وهو برفقة سيلغ، راهباً شاباً يطل من نافذة الدير، وعلق: «لديه حنين إلى الخارج، مثل حنيننا إلى الداخل».

اجتزنا مركز مدينة هريساو بسرعة تاركين خلفنا المدينة القديمة الجميلة المُحافَظ عليها بصورة جيدة، محطة القطار القاتمة أيضاً، أربعة متاجر وعلامات مرورية باللغة الألمانية دون أن نرى أي أثر لمقاهٍ جميلة المظهر. كانت ترتسم على وجوه المارة القليلين، قسوة مخيفة. بدت لي مدينة هريساو الصغيرة بمجملها، قاتمة وحزينة للغاية. كان مستشفى الأمراض العقلية في ضواحي المدينة، على هضبة اعتليناها بواسطة طريق، ارتكزت في بدايته لافتة دلالة حديثة كُتب عليها «مركز هريساو للأمراض النفسية»، مؤكد أنها لم تكن موجودة في زمن والسر. وفكرتُ أنها لا تحمل أية دلالة على كونه

مصحاً أو حتى مستشفى للأمراض العقلية على أقل تقدير. مركز الأمراض النفسية، كان الاسم الصحيح، أو بالأحرى، الاسم الحديث. سأكون كاذباً إن لم أقل إن انطباعاً تولّد فيّ، أثناء صعودنا الصامت للطريق، بأنني أعيش المغامرة الكبرى التي بدأ فيها المستكشف يقترب أخيراً من شيء حقيقي، بعد أن كان يتقدم نحو الفراغ حتى ذلك الحين، شيء غامض وفاتن، ليس أقل من مكان مقدس قد توجد بداخله كأس المسيح ذاتها الخاصة به، ضمن تصوره الأدبي للعالم. بدا لي أننا كنا نسير بسرعة فائقة، ربما لأنني تذكرت كلمات السائر والسر عن العربات: «غالباً ما أُظهر وجهاً قاسياً جداً وقبيحاً أمام الأشخاص الذين يثيرون الغبار أثناء مرور عرباتهم المزمجرة، لأني لا أستوعب ولن أستوعب مطلقاً ما المتعة في هذا العمل أمام جميع المخلوقات والأشياء الطافية على أرضنا الجميلة».

كنت أفكّر في كل هذا عندما بدأ الثلج يتساقط، ونحن في منتصف الطريق إلى أعلى الهضبة، ربما لأننا بدأنا في الارتفاع فوق مستوى سطح البحر. بدا كأن كائناً غامضاً كان يرتب لي تلك المؤثرات الخاصة لأظل مفتوناً. في الخارج، كانت ندف الثلج والصمت يطوقاننا. ربما لأن والسر مات في الثلج، كنتُ أتخيل دائماً مصحة هيرساو محاطة بالمروج وأشجار التنوب الخضراء المغطاة بالثلوج. بدا واضحاً أن الثلج كان يساعد كل شيء لكي تكتمل اللوحة المثالية. كنتُ منتشياً بتأمل بعض الندف الخفيفة المتطايرة في الهواء، أثناء ارتقائنا للدرب. وفجأة، ومن دون أية علاقة بما كنت أفكّر فيه، تذكرت أن فلور جيجي، كانت قد قالت ذات يوم إنها عادت، بعد كتابتها لرواية *سنوات العقاب الجميلة*، إلى أبينزل بنفس الطريق التي يعود بها القاتل إلى مكان الجريمة. ذهبت لترى المدرسة الداخلية للبنات في روايتها، واكتشفت أنها أصبحت عيادة للمكفوفين. ولأن المدرسة الداخلية السابقة كانت قريبة جداً من هريساو، ذهبت لترى ما كان عليه مستشفى الأمراض العقلية ذلك الذي قضى فيه والسر سنوات كثيرة من عمره. كان يوم الإثنين من عيد الفصح، ولم تر عند المدخل سوى ممرضة قالت إنها غير قادرة على مساعدتها لأنها مشغولة جداً. ولعدم وجود أي شخص آخر، اقتنت بعض البطاقات البريدية. وعلى حين غرة عادت الممرضة بلطف وعرفتها

على بعض المرضى الذين استطاعت التحدث معهم. «كان الأمر كما لو أنني قمتُ برحلة على خطى والسر، خلف الأشجار التي شهدت موته»، علقت جيجي بعد انتهاء الزيارة.

كنت أسترجع هذا كله عندما انعطفنا عند أحد المنحنيات، بين ومضات الثلج التي كانت تتلألأ مثل ضوء المرآة، وظهرت أمامنا فجأة في الأعالي بناية مستشفى الأمراض العقلية القديمة، شامخة ومهيبة، محاطة بالمروج وسط غابة ثلجية، بناء منعزل تماماً كأنه خارج من رواية قوطية. كانت بناية من ثلاثة طوابق اثنان منها ذوَا إطلالة خشبية واسعة على الخارج. حين لاحت لي في البداية، بدت كأنها قصر خاص كبير. وحتى لدى اقترابنا، لم يظهر لي من الطابق الأرضي، سوى بهو مسوّر منفصل عن بقية المبنى، يبدو أنه أُعيد ترتيبه منذ وقت ليس ببعيد، بعد أن تم تجهيزه بمكيفات هواء لاستبدال الهواء الخانق في ممر أية عيادة.

وفي الفضاء الكائن فوق الطابق الثالث الذي كان في زمن ما غرفة للأشياء المهملة، انتصبت ريشة هواء لطيفة تدلت تحتها ساعة كبيرة، كانت عقاربها الجميلة والقديمة فضية اللون تشير في ذلك الوقت بالتحديد، إلى الثانية عشرة إلّا عشرين دقيقة. أعرف أن هذا هو التوقيت الدقيق لأني صورتُ من نافذة السيارة، واجهة المبنى والساعة. ثم حاولتُ بطريقة مجنونة إلى حد ما، أن أضع نفسي في مكانة والسر، ومن داخل هذه السيارة حدقتُ وبتركيز في الساعة التي انتهيت تواً من تصويرها، حدقتُ فيها مع هاجس غريب، لكن دون أن أتمكّن من الحصول على ما كنت أرنو إليه، دون أن أتمكّن بهذه النظرة من التوحد مع والسر، وإن تكن هي المرة الأولى في حياتي التي كنتُ أرى فيها شيئاً من هذا العالم الذي كنتُ واثقاً من أن والسر كان قد نظر إليها أيضاً.

وفجأة أعلنت إيفيت أن كبير الأطباء برونو كاجي، لم يكن ليتوقع أن نصل في الساعة الثانية عشرة. واكتشفتُ في هذه اللحظة شيئاً لم أكن أعرفه. علمتُ أننا على موعد مع مسؤول المركز رغم أنني طلبت فقط من إيفيت زيارة ذلك المكان ورؤيته، ولم أطلب أكثر من ذلك. كنتُ قد سألتها أن أرى المكان الذي عاش فيه والسر ثلاثة وعشرين عاماً من عمره مُنكباً بهدوء، مثل

هولدرلين، على «أن يوزع حلمه على كل الأركان دون أن يضطر إلى القيام بكل واجباته».

هل كانت إيفيت تعتقد أن لديّ شيئاً من الكلام مع كبير الأطباء؟ هل افترضت أن تطرح عليه سؤالاً باللغة الألمانية نيابة عني؟ لم يكن لديّ أي سؤال. أو ربما نعم. بعد أن فكرت لثوانٍ، خطر ببالي أننا ما دمنا على موعد معه، ومادام ينتظر مني أن أسأله، فمن الأفضل أن تشرح إيفيت للسيد كاجي أنني أنا الدكتور باسافنتو، طبيب نفسي وكاتب في أوقات فراغي، جئتُ إلى هنا لكي يتكرم ويحل لي مشكلة كانت تمنعني من مواصلة روايتي المحتملة *«الهواة»* التي كنت أكتبها في ذلك الحين، والتي كانت تتحدث عن طبيب إسباني، الدكتور إنغرابايو كان يدرس حياة وأعمال والسر.

المشكلة التي يمكن للدكتور كاجي أن يساعدني في حلها، تكمن في بطل روايتي الدكتور إنغرابايو الذي يرغب أن يعيش لبعض الوقت في المكان الذي قضى فيه روبرت والسر ثلاثة وعشرين عاماً. وأنا بصفتي روائياً، لا أعرف كيف أقوم بهذا العمل لكي أمهد للقارئ المكان الحقيقي الذي عاشه البطل في مستشفى الأمراض العقلية. وتلك هي المشكلة. «دكتور كاجي»، ستسأله إيفيت نيابة عني، «ما الحل الذي تقترحه على الدكتور باسافنتو حتى يتمكن من إضفاء المصداقية على الدكتور إنغرابايو ببقائه في المصحة لبعض الوقت».

كنتُ سأملي على إيفيت هذا السؤال الروائي بصوت حي، حتى تعبره إلى الدكتور كاجي، حين قامت بياتريكس على حين غرة بتجاوز باب المصحة التي كان من المفترض أن نتوقف عندها للقاء الدكتور بعد عشرين دقيقة، واتجهت إلى نحو المقبرة القريبة التي دخلناها فيما بعد والمظلات فوق رؤوسنا تصد عنا الثلج المتساقط. لم يسعفنا الحظ في بادئ الأمر في العثور على قبر والسر. وبينما كنا نحاول معرفة مكانه، وجدتُ أخيراً الوقت المناسب لأملي على إيفيت السؤال الذي تطرحه على كبير الأطباء. أصغت إيفيت باهتمام كبير وبشيء من عدم التصديق، ابتسمت بعدها قائلة: «لكن، هل يكتب الدكتور باسافنتو الرواية فعلاً أم لا؟» ابتسمتُ أنا أيضاً وشرحت لها أن لا، لكني كنتُ أحاول أن أجد ما أسأله للدكتور كاجي.

ما الذي سيكون عليه الدكتور كاجي؟ كنتُ قد قرأت القليل، وليس الكثير، من الأشياء عن مسؤولي المركز الثلاثة الذين تناوبوا على مصحة هريساو أثناء إقامة والسر فيها، وقرأت أيضاً تعليقات عن الأطباء، هينريجسن، فيستر، وكونزلر. من بين هؤلاء الثلاثة كان الدكتور أوتو هينريجسن، الأكثر غرابة وشذوذاً. غالباً ما كان يبدو لوالسر خليطاً من جليس وفنان سيرك، إنساناً له القدرة على أن يكون ساحراً، خاصة في أعياد الميلاد، لكنه في الوقت ذاته طموح أيضاً حين تُقدّم عروضه المسرحية الكثيرة، لأن الدكتور هينريجسن، كان كاتباً مسرحياً. في إحدى المرات وأثناء عرض عمله الكوميدي «*حديقة الحب*» في مسرح بلدية سان غالين، هاجم الدكتور هينريجسن مريضه بسؤاله: «هل أدركت الآن تفوقي يا والسر؟»

في المقبرة، كان سحر الثلج على أشجار التنوب والقبور يختلط مع فتنة نور اليوم الشتائي العائم الذي يتجول بين شواهد القبور العمودية الجميلة التي بدت لي كأنها تخلق جواً خرج للتو من فيلم مقتبس من إحدى روايات الأخوات برونتي. كانت تلك المقبرة القديمة جداً ذات جمال قاتم، بجبالها التي تنتصب في الخلف متوجة بالثلج. هذا المنظر جعلني أتذكر شخصاً ما كان قد كتب مقالة عن والسر، قائلاً إن هذا الكاتب شأنه شأن كافكا، ارتوى من نسيم ما قبل التاريخ «للجبال المتجمدة». تذكرت ذلك قبل أن أكتشف القبر العمودي، في مكان ربما مميز جداً، لا يتماشى مع ميول والسر الذي قضى حياته متخفياً. كان قبراً عادياً إذا ما قورن مع تلك القبور العمودية الرائعة المصممة على الطراز اليهودي أو الأنكلوسكسوني، والأسوأ من ذلك كله، أنه كان منتصباً في مكان بارز، على الجانب الأيمن من مدخل المقبرة. ويعود سبب عدم رؤيتنا له عند الدخول، أنه كان في موضع واضح جداً، كثير المشاهدة، مفصول عن بقية القبور، وربما تم إحضاره إلى هنا بحسن نية بناءً على تفسير غير دقيق وحرفي للغاية لبعض أبيات والسر المُعنونة «*في موضع منعزل*» التي كانت منقوشة على شاهد قبره، وهي أحد أوزان العروض الإسبانية، تذكرت أنني أعرفها جيداً، ولم يكن عبثاً أني كنت قد حفظتها عن ظهر قلب، حين قام ريكاردو بالا بترجمتها وإرسالها إلي من مدينة كولونيا، في نهاية الثمانينيات، بعد أن عرف هوسي بأعمال والسر:

«أواصل دربي
في خطوة نحو البعيد
إلى موضع،
بعيد هناك
دون جلبة»

-13-

كانت صالة الانتظار عبارة عن غرفة جانبية صغيرة عند مدخل مبنى المصحة. كانت تضم فقط أربعة كراس غير مريحة، ورُسم على أحد جدرانها واحدة من قصائد والسر المكثفة، وإن تكن قد تآكلت على نحو فظيع بفعل الزمن. اعتقدتُ منذ المدخل أنها ستكون ومن دون أدنى شك، أرقى صالة انتظار رأيتها في حياتي، علاوة على الأصالة التي يفترض أن تكون عليها. لكني سرعان ما أدركت أنها لم تكن كذلك. كانت القصيدة المكثفة هي التي أوحت لي بذلك الانطباع الزائف. إذا نظرتَ عن كثب، أدركتَ أن الباقي كان أكثر شيوعاً وابتذالاً في هذا النوع من الغرف. طاولة مستديرة صغيرة على سبيل المثال، بقوائمها البلاستيكية الأربع، تتناثر عليها خمس مجلات طبية تافهة. كان كل شيء في الداخل رتيباً مثل أغلب غرف الانتظار المملة والمروعة في عالم العيادات الغربية. لم أر الممرضة الجافة التي كانت جيجي قد التقت بها، ولا حتى البطاقات البريدية المعروضة للبيع.

على أمل ملاقاة الدكتور برونو كاجي، خرجتُ للحظة من الصالة وذهبتُ إلى البهو، وبعد ذلك بقليل قررت إيفيت أن تقوم بشيء مشابه. طلبتُ منها أن تسأل موظفة الاستعلامات، الشخص الوحيد الذي رأيناه حتى هذه اللحظة، عن الطابق الذي توجد فيه غرفة والسر، وشهدتُ سيلاً من الكلمات الألمانية غير المفهومة حتى ترجمت لي إيفيت المحادثة فيما بعد. لم تكن حجرة الكاتب التي كان ينام بها مع سبعة آخرين، في المبنى المركزي الذي كنا فيه، بل في أحد العنابر الرهيبة الثلاثة الكائنة على يمين المبنى عند الخروج. كان والسر قد أقام في أول عنبر لثلاثة وعشرين عاماً. أما الآن فقد أصبحت

عائدية العنابر، التي تُسمى خانات أيضاً، إلى بلدية هريساو، ويقطنها لاجئون سياسيون، معظمهم من البلدان الأفريقية.

عند الساعة الثانية والربع ظهر الدكتور برونو كاجي. كان في الأربعين من عمره تقريباً حليق الرأس، يضع قرطاً في أذنه اليسرى (فكرت: مثل قرط الدكتور بيلفيتي في نابولي) ويرتدي بدلة وربطة عنق حديثة ملائمة لحركاته الرشيقة. وقد ساهمت ابتسامته الماكرة في إكمال هذا الانطباع، تلك الابتسامة التي لم تفارقه قط حين بدأت إيفيت، بعد أن حيته ودون أن أفهم كلمة مما قالته، تستعرض أمامه الأسباب التي قادتنا إلى المصحة وطرحت عليه سؤالاً طويلاً -أطول بكثير من السؤال الذي طلبت منها أن تسأله- لم تحصل من الدكتور كاجي إلّا على هذا الرد التعبيري بلغة ألمانية:

- كلا

ماذا سألته إيفيت بالتحديد؟ عرفتُ ذلك لاحقاً بعد خروجنا من المصحة عندما تكرمت أخيراً لتخبرني. كانت قد سألته عن إمكانية بقائي هنا محجوراً في هذه المصحة قائلة إنني أحد المعجبين بوالسر، قدمتُ حاجّاً إلى هذا المكان المقدس لاستلهام ومضات من الجنون الإبداعي.

أخيراً، بعد الرفض القاطع والجاف، وجه لنا الدكتور بلطف دعوة للحضور إلى مكتبه في الطابق السفلي. لابد أن لديه مكتباً آخر داخل المبنى، لأن مكتب الطابق السفلي بدا مخصصاً لاستقبال زوار والسر المتقطعين. أجرى محادثة مشجعة مع إيفيت، وبدا لي للحظة أنهما تجاهلا وجودي تماماً، ولم أنزعج من هذا التصرف، بل على العكس، شعرت بارتياح كبير. لكنهما حدقا فيّ على حين غرة. «هل لديك سؤال آخر تطرحه؟»، قالت إيفيت. كلا، لم يكن لديّ أي سؤال. لكني قررتُ أن أسأل عن شيء وأردتُ أن أعرف انطباعه عما إذا كان الناس في أيامنا هذه سيقدمون على حبس والسر بسبب انفصام الشخصية الذي لم يكن خطيراً على الإطلاق. لابد أن كاجي استوعب جزءاً مما قلته له باللغة الإسبانية لأنه وقبل أن أنتهي من كلامي وقبل أن تترجمه له إيفيت، ربما لأن مفردة انفصام الشخصية تبدو مشابهة باللغة الألمانية، بدأ بالبحث في كتاب قال إنه النسخة الوحيدة المتبقية لديه، وعليه فهو يشعر بالأسف لأنه لا يستطيع أن يهديني إياه، لكن كان من المهم

أن أعرف أنه سطّر في هذا الكتاب، شرحاً مطولاً عن التشخيص والعلاج الطبي الذي كان يتلقاه والسر.

بينما كانت إيفيت تترجم هذه الكلمات، مدّ لي الدكتور كاجي الكتاب حيث من المفترض أن يحوي على شرح كل شيء بصورة منطقية. موجود عندي هنا في الحقيبة التي أفرغتها من الكتب التي لم تعد تهمني بالطبع. وعلى الرغم من أنها آخر نسخة متبقية لديه، فإن الدكتور كاجي قام بإهدائها إليّ. لكن لأنه مكتوب باللغة الألمانية، لم أفهم كلمة منه، بيد أن الصور سحرتني، والكثير منها لم يتسنَّ لي مشاهدته من قبل. إنه مجلد شارك فيه العديد من الأشخاص، مجلد غريب، وأنا أقول هذا ليس لأني لا أفهمه، بل لأنه غريب فعلاً. بادئ ذي بدء، الغلاف ذاته، رسم لوجه والسر، رسم لا يمت بصلة إلى الكاتب. عنوان المجلد *«روبرت والسر، هريساو 1933-1956»*. برنارد آشتي ترأس قائمة الاستشاريين، ونص الدكتور كاجي تحت عنوان ساعات ليبيغر (أو الكاتب الفصامي).

بعد فترة وجيزة من إهدائي الكتاب، أراد الدكتور كاجي الذي بدا ممتلئاً بكرمه، أن يعرف إن كان لديّ المزيد من الأسئلة. نظرتُ إلى إيفيت وطلبتُ منها أن تسأله مرة ثانية إن كان بإمكاني البقاء هنا محجوزاً بسبب انفصام الشخصية أو لكوني مجنوناً خطيراً أو أي شيء آخر.

- كلا.

«ها قد سمعتَ بنفسك»، قالت إيفيت بقساوة محبوبة. «اسأليه رأيه بعلاقة الدكتور أوتو هينريجسن مع مريضه والسر»، أجبتها. «حسن»، قال الدكتور كاجي، كأنه يتحدث إلينا باللغة الإنكليزية، لكن واصل باللغة الألمانية بكلمات مقتضبة وغامضة. ترجمت إيفيت قائلة إن الدكتور كاجي يعتبر سلفه الشهير الدكتور هينريجسن، على خطأ حين عامل مريضه كزميل له في عالم الأدب. كان والسر غالباً ما يجيبه بمراوغات مهذبة، لدرجة لم يضع هينريجسن في حسابه، ما يتعرض له من حماقات برغبته في مقارنة نفسه مع كاتب كان سيُكشف عنه في الوقت المناسب باعتباره أحلك نجوم الأدب. كان هينريجسن يعزو دائماً رفض والسر المهذب إلى مرض التوحد.

«هل لديك سؤال آخر؟»، قالت إيفيت. «أود أن أعرف هل أنا أول إسباني

وصل حاجّاً إلى هذا المكتب»، قلت. فكر الدكتور كاجي كثيراً قبل أن يجيب أن نعم، كنتُ أنا الأول. لكن بالنسبة إلي، ولكثرة تفكيري في الأمر، بدا أن ثمة إسبانياً آخر كان قد مرّ من هناك من قبل، لكنه فضّل أن لا يبوح بشيء. وباندفاع بشوش مفاجئ، تبادل الدكتور كاجي مع بياتريكس وإيفيت بطاقات العمل الشخصية وأرقام الهواتف ثم التفت إليّ وأخبرني مبتسماً بود أنه لم ير مطلقاً من قبل، إسبانياً قدمَ حاجاً إلى والسر، عدا أحد مساعديه ويدعى الدكتور أدولفو فارنيسي، وهو أرجنتيني الأصل ويقيم في سويسرا منذ ثلاثين عاماً. «أعرف بالطبع أن الأرجنتيني ليس إسبانياً»، أضاف.

على مسافة مئتي متر من هنا، كان أدولفو فارنيسي -قال لي الدكتور كاجي- يعيش في منزل يحوي على عدد من الشقق يقطن بها بعض المرضى (لديه إذن بالدخول والخروج من العيادة)، وممرضون آخرون كانوا قد استأجروا شققاً أيضاً. «إن شئتَ»، قال لي فجأة بوجه باسم، «يمكن للدكتور إنغرابايو، أن يستأجر واحدة من هذه الشقق. إنها زهيدة الثمن، رغم أنها في الحقيقة ليست مريحة جداً. لكن الدكتور إنغرابايو، ولكونه شخصية خيالية، سوف يعرف كيف يُكيّف نفسه للعيش فيها، حتى لو وجد فراشاً مثقوباً». أسعدني هذا المزاج اللطيف للدكتور كاجي، لدرجة شعرت معها أنه كان على قناعة تامة في مساعدتي في الرواية، وأردت عندها أن أعرف أنه بذلك يفتح لي أبواب المصحة بطريقة ما، أم إنه كان قد غيّر رأيه، حين عرف كيف يقدّر فيّ بعض أعراض الجنون الواضحة، لأتمكن من البقاء هنا لبضعة أيام على أقل تقدير.

- كلا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع

نكتب لأجل أن نتلاشى

-1-

كان الثلج يتساقط بشدة، وبدت هريساو بأجمعها «كأنها تتحول إلى دمعة بيضاء»، وبسبب هذه الظروف الجوية، قررنا عدم الذهاب سيراً إلى المكان الذي كان والسر قد وجد فيه قبره الطبيعي، في ليلة أعياد الميلاد. كان بالإمكان قطع نصف المسافة بالسيارة، ثم متابعة النصف الآخر سيراً على الأقدام، لكن دون شك لم يكن مثل قطعه بأكمله سيراً على الأقدام، كما فعل والسر في آخر يوم من حياته. ولأننا من ناحية أخرى، كنا ضمن دائرة الوقت المخطط له، أخبرتهم أنني يجب أن أعود في هذا المساء إلى زيورخ لألحق الطائرة التي ستقلني إلى برشلونة، واستبدلنا الجولة بزيارة العنابر الثلاثة التي كانت تستضيف اللاجئين السياسيين، معظمهم من الأفارقة. التقطت لي إيفيت صورة عند باب العنبر الذي آوى والسر لثلاثة وعشرين عاماً. هناك كان ينام، طوال ذلك الوقت، مع سبعة مرضى آخرين في «غرفة مربعة كبيرة». أخبرتنا ممرضة الاستعلامات بأنه غير مُصرّح لنا بزيارتها، لأنه الفضاء المخصص للاجئين السياسيين. شعرتُ بالأسف لعدم تمكني من الوصول إلى ذلك الفضاء الذي كنت أتخيله، بناءً على خصائصه الهندسية، مُشابهاً لباحة المدرسة الرمادية في يعقوب بن جونتين، التي وصفها والسر للقارئ ذات مرة وبمهنية فائقة، باللؤلؤة المكثفة للملل المدرسي.

صورت نفسي وتساءلت عن آلاف المرات التي عبر فيها والسر عتبة ذلك الباب الذي أصبح خلفي الآن. أجزم الآن أن والسر كان في هذا المكان بالتحديد، يبدأ يومه بإشعال أول لفافاته الصباحية، نوع ماريلاند، برفقة كارل سيلغ، قبل أن يتهيأ مع صديقه لرحلتهما الطويلة سيراً على الأقدام عادة، حول المنطقة. تخيلته في هذه اللحظة يقول لسيلغ عند عتبة الباب: «لستُ أعير أية أهمية لحياتي. ما تهمني، حياة الآخرين فقط، لكني مع ذلك أحب

الحياة، أحبها لأني آمل أن تمنحني فرصة لكي ألقي بها في البحر بصورة مُشرِّفة». أو حين نقرأ في *«خطاب إلى أحد الأزرار»* : «أنت قادر على العيش دون أن يتذكر أحد، ولو من بعيد، أنك موجود».

هل كنتُ قادراً على العيش هكذا؟ لم أعد أعرف. كل ما أعرفه أنني في الوقت الراهن، كنتُ قد اختفيت، وفعلتُ ما كنتُ أتوق إليه، وأني تمكنتُ من الوصول إلى حالة السعادة الجميلة، والغياب الجذري الذي قرّبني من الصمت ومن كرامة والسر المتحفظ. لكني كنت أعلم أيضاً أنني سوف أقدم لهم كل آيات الشكر والامتنان -أنا سأكون في غاية الامتنان- إن همّوا في البحث عني، حتى لو كان شخصاً واحداً فقط من سيقوم بذلك. بدا لي أنه من القسوة المفرطة أن أحداً لم ينشغل بغيابي، بعد كل هذه الأيام. كنتُ أفكّر في هذا الأمر قليلاً أثناء فترة التصوير الحزينة التي كانت تقوم بها إيفيت لي. بدأنا بعد ذلك في النزول في منحدر متعرج تتقدمنا إيفيت، ولم نتأخر في الوصول إلى الشقق الرخيصة التي كلمنا عنها الدكتور كاجي. كانت بناية رمادية للغاية تخلو من أي جمال لدرجة تتناقض على نحو صارخ مع المصحة الأنيقة التي كان يمكن رؤيتها خلفه، هناك على الرابية الصغيرة، شامخة وزاهية.

وفوجئنا بالمشهد غير المتوقع لإيماءات العديد من الأشخاص أمام الباب الأمامي لهذا المبنى الكئيب، ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لمعرفة أننا أصبحنا وجهاً لوجه مع فارنيسي ومجموعة من المرضى والممرضين. قدموا جميعاً إلى الطابق السفلي للبناية للتمرن على مسرحية حول عالم والسر. كان ما يزال البعض منهم يرغب في تلاوة مقاطع من أدوارهم. تحدث إلينا فارنيسي باللغة الألمانية وقامت إيفيت بالترجمة على الفور: «جئتم لمقابلة الدكتور كاجي، أليس كذلك؟ إنها مواعيد منتصف النهار. هل أرسلكم الدكتور إلى هنا؟ حسنٌ، كما ترون، أنا أشرح لكم. نحن نتدرب على عرض مسرحي علاجي منذ شهر. نقوم بخلط نصوص والسر مع قصص حقيقية لمرضانا وممرضينا أيضاً. أنا أقود هذا كله. اسمي الدكتور فارنيسي، في خدمتكم».

فكرتُ، إنه مسرح الجنون. وهذا ما كان بالفعل، خاصة الدكتور فارنيسي الذي لاحظتُ فيه نوعاً من عدم التوازن (وإن يكن غير منظور). ابتسمت

ومددت له يدي، وكذلك فعلت إيفيت وبياتريكس. عرّفني فارنيسي على الشاب الأقرب إليه. «الصديق عمر، مصري، من أم سويسرية»، قال، «أصغرنا جميعاً. أنا أكبرهم سناً بالطبع، ونبلاً»، ابتسم ببلاهة، «يبدو أنني قدمتُ من منطقة فارنيسي في مدينة بارما. ما يزال هناك مسرح يحمل اسم عائلتي. هل سمعتم عن مسرح فارنيسي؟».

ولأننا وقفنا صامتين أمامه أو لم يكن لدينا ما نقوله، عاد فارنيسي إلى موضوع عمر. «حسنٌ، قد لا يهمكم هذا الأمر، لكني أعتقد أنه قد يثير اهتمامكم معرفة أن هذا الشاب لا شخصية له، لأنه لا يزال لا يعرف ما هي الشخصية. ما رأيكم؟». ولم يكن لدينا رأي وقتذاك، لكنني في وقت لاحق وبعد ساعات قليلة، أدركتُ أنها كانت بالضبط عبارة يعقوب بن جونتين التي أعرفها جيداً، عبارة كانت قد ارتبطت في وقت بما قالته السيدة توبلر إلى جوزيف مارتي في *«المساعد»* («لم أستوعب شخصيته بعد، هل هو كريم، أم دنيء؟»)، عبارة اعتقدتُ دائماً أن جوزيف مارتي، قادر على أن يجيب عليها بالضبط بشيء يمكن قراءته في *«الصينية والصيني»*، قصيدة والسر المكثفة جداً: «سوء الفهم، يحمينا». مكتبة .. سُر مَن قرأ

«إنها جزء من عملنا»، واصل فارنيسي النحيف حديثه، «بعض ممرضينا يترجمون التصرفات الغريبة الأكثر جنوناً لبعض مرضانا، والعكس بالعكس. مثلاً، اخترنا من بين أفكار عمر المجنونة، فكرته الطائشة بأنه مالك الحجارة التي اغتال بها القاتل قابيل، أخاه هابيل. من المتعارف عليه أن تلك الحجارة في سوريا، لكن من غير المعروف أن يكون عمر مالكها. هاينريش، ممرض غير موجود حالياً، لديه من الصفات ما يكفي ليلعب دور هذا الشاب المصري المسكين، الذي يضحك حين يراه يرسم رسوماً كاريكاتيرية. ربما يكون في ذلك شفاء له أو علاج. هل تفهمون؟ في الوقت ذاته، يقوم عمر في المسرحية بدور هاينريش، في تعويض عادل له، وهو يحاول كل يوم أن يقوم بهذا الدور الذي يفتقر إليه. وكما ترون، نحن نتسلى وفي الوقت نفسه نتعالج».

لم أسمع أحداً من قبل يقول «نتعالج». ولم أقابل شخصاً من قبل يتكلم عن هذا مطلقاً. يوحي فارنيسي النحيف انطباعاً بأنه يتحدث لمجرد أنه يريد أن يفعل ذلك. وكذلك ليثير فينا انطباعاً جيداً، ربما يتمنى أن نتمكن

لاحقاً من نقله إلى مديره، الدكتور كاجي. كان ثرثاراً حقيقياً دون أدنى شك. كنتُ أحدث نفسي بهذا الشأن عندما مدّ لي الشاب المصري يده بفتور. شددتُ عليها بقوة، كما لو كنت أرغب في مساعدته في معرفة ما يعنيه أن تكون له شخصية، على الرغم من أنني لم أكن متأكداً تماماً من أنني أمتلك تلك الشخصية. بعد وقت قصير، ونزولاً عند رغبة فارنيسي، تحرك عمر ببلاهة، ومن دون أدنى حيوية ليصافح إيفيت وبياتريكس اللتين قامتا بتحية كل الممرضين والمرضى الآخرين، مشجعات بعضهم على الاستمرار في إكمال البروفات الأخيرة من هذا العمل. عرضوا أسماءهم واحداً تلو الآخر (كانت إيفيت تقوم بترجمتها لي أيضاً) ثم أطلقوا بعض العبارات التي كان عليهم قولها في المسرحية.

«سرعان ما غطى الثلج قبره»، قال الشاب النحيف جداً كونو، وهو ممرض غامض وحازم.

«أحياناً يتملك كليست، خاصة في غروب الشمس الفاتن، إحساس بأن نهاية العالم موجودة في البعيد. بدت جبال الألب كأنها بوابة رصينة نحو جنة في الأعالي»، قالت الممرضة هانا.

«كالثلج على قمم جبال الألب»، قالت بترا وأضافت بهمس تقريباً، «اصغوا إليّ. المُتعب في النجاح أنه يكون على حساب الآخر. الضمائر النائمة فقط، يمكن أن تستمتع به، وكذلك العقول الغليظة الفهم التي لا تدرك أن من بين الفاشلين، هناك دائماً كائنات تتفوق عليها».

رأيت أن في المبنى خمسة مساكن للإيجار، كما يشير الإعلان المثبت على الباب. «ليس لأنه لا أحد يريد أن يعيش هنا»، علّق فارنيسي بعد أن رآني أحدق في الإعلان، «ما يحدث هو أنه لا أحد يعتقد أنه قادر على العيش هنا، أتفهم؟». كانت نظرته غير مريحة. افترّ ثغره عن ابتسامة أظهرت مجموعة من الأسنان متضررة جداً وغير مُعتنى بها. وسرعان ما تغير الانطباع الجيد الذي تولد لديّ عنه في اللحظات الأولى. على هذا الارتفاع وفي هذا اللقاء المسرحي المفتوح، بدا لي من الصعوبة الوثوق برجل كهذا. شرع يتحدث بالألمانية مع إيفيت وبياتريكس، ثم عرفت أنهما لا تشعران بالارتياح لحضوره، إذ قال لهما إنه من الأفضل العيش أولاً وترك الملاحظات تأتي

من تلقاء نفسها لاحقاً. طريقة لإخبارهما ألّا تحكما عليه بتسرع من خلال المظاهر، بمعنى آخر، كان واعياً بأنه لم يكن يُوحي بالثقة. فجأة تذكرني. التفت ناحيتي وسألني في أي جزء من إسبانيا أقطن. «شارع فانو في باريس»، أجبت. قطب جبينه. «وماذا ترى في والسر؟»، سألني لمجرد السؤال على ما أعتقد. على أية حال، طرح سؤاله بطريقة استفزازية نوعاً ما، كأنه ردة فعل على جوابي له عن شارع فانو إذ اعتبره، بالخطأ، رداً ساخراً أو مهيناً.

غالباً ما أعتقد، عندما أتذكر تلك اللحظات، أنني كان يجب أن أقول له: «تهمني شخصية والسر. لا آبه إن كانت شخصيته على عكس ما أرغب أن أراها. الحقيقة أنه، إضافة إلى كونه بارعاً في فن الاختفاء، يوحي لك أنه كان على وعي تام أين ستصب العلاقة بين الدولة والفرد، ماكينة الحكم والمحكوم. هل تشاطرني الرأي؟ يروق لي في والسر، أسلوبه التهكمي المُضمر وحدسه بأن الغباء سوف يتقدم في العالم الغربي ولن يعود أحد قادر على إيقافه. أخال أنه بهذا الاتجاه، وربما دون أن يعرف ذلك، مهّد وسهّل لكافكا وصف نواة المشكلة، التي لم تكن سوى حالة الاستحالة المطلقة للفرد في مواجهة الماكينة المُدمِرة للسلطة. أواصل؟ يعجبني في والسر، من ناحية أخرى، اندفاعه البطولي للتحرر من الضمير، من الرب، من الفكر ومن نفسه».

لكني بدلاً من ذلك، قلتُ له بروح دعابة غامضة: «تروق لي شخصية والسر. لكني أعتقد إذا صرختُ بصوتٍ عالٍ ما أفكّر عنه بالضبط، فسوف يحبسونني في مستشفى الأمراض العقلية فوراً...» والتزمتُ الصمت فجأة لأني لاحظتُ أن إنغرابايو كان ينتحل شخصيتي. «أكثر ما أعجبني فيه»، قال لي فارنيسي كأنه لم يحدث شيء، «عبارة نظّمت حياتي منذ أن قرأتها. لا أعلم إن كنتَ تعرفها. تقول العبارة بما معناه، إنه يحب أن يعيش مناقضاً لما يتوقع منه الآخرون». «أوه نعم. عبارة مذهلة. كل ما يثير الأعجاب، يجذبني»، قلتُ متصنعاً الموافقة على السلوك الذي اصطفاه فارنيسي لحياته. الحقيقة أنني نطقت بهذه الكلمات في لهجة ساخرة، على خطى والسر تماماً في أسلوب سخريته المُضمَر، الذي يحذرنا فيه دائماً بطريقة ما، من الوثوق بالكلمات. بيد أن فارنيسي لم يتنبه لذلك، ربما لأنه كان يعير إيفيت وبياتريكس انتباهاً أكثر مني، ولم يأبه لقولي دون شك.

غمزت رفيقتيّ اللطيفتين، في إشارة مني لمغادرة هذا المكان. وعلى الرغم من عدم اقتنائي لتذكرة عودة بالطائرة، فكرتُ أن أوحي لإيفيت ولبياتريكس بالاستمرار في الاعتقاد أنني أمتلكها، لكي تأخذاني إلى مطار زيورخ وهناك سوف أقرر ما أفعل، أن أشتري تذكرة من مكان ما أو أن أظل في المدينة، سأرى. لم يكن لدي مكان أذهب إليه، لكن من المؤكد أنني من غير الممكن أن أقضي حياتي كلها مع إيفيت وبياتريكس اللطيفتين اللتين أخفتا بشكل سيئ رغبتهما المنطقية في العودة إلى عملهما اليومي وعائلتيهما.

«حسنٌ، تشرفت بمعرفتك»، قلتُ لفارنيسي النحيل، وهكذا بدأ انسحابنا وهروبنا من مسرح الشارع هذا. حين أصبحنا على مسافة من الفرقة، سمعنا الشاب المصري يقول بصوتٍ عالٍ جداً، عبارة ترجمتها لي إيفيت في الحال. كتبتها وعرفت لاحقاً أنها تعود *ليعقوب بن جونتين*: «مؤكد أن هاينريش لم يفكر بالحياة مطلقاً. ولماذا؟» واستدرنا. حين لاحظ عمر أنه استرعى انتباهنا، وجه مظلته نحونا مباشرة مواصلاً خطابه: «كل ما في هاينريش، بريء، مسالم وسعيد. هل هناك تجارب وأحاسيس تتجاسر على الاقتراب من هذا الفتى؟».

دون أدنى شك، كان هناك أكثر من مجنون في فرقة المسرح. أو أنهم كانوا ببساطة مرضى مسرحيين؟ حين أصبح شارع الشقق خلفنا، علقت إيفيت بمرح أن لديهما الرغبة في زيارة المسكين الدكتور كاجي مرة ثانية لإبداء الشكر له، «إخباره، إن لم يكن يعرف ذلك، عن مخزن البارود الذي لديه في المبنى السفلي البريء».

-2-

بعد إلغاء فكرة زيارة المكان الذي سقط فيه والسر ميتاً، ركبنا السيارة نحو مطعم فندق ليندي في تيوفين، وهي بلدة قريبة جداً من هريساو، قطعها والسر وسيلغ مرات عديدة سيراً على الأقدام. في ضواحي تلك المدينة الصغيرة المُحافِظة (تشتهر أبينزل بكونها الإقليم الأكثر تحفظاً، في دولة مُحافِظة جداً مثل سويسرا) كان هناك في فترة ما معهد بنيامينتا للنساء، أو

السكن الداخلي الخانق للبنات، معهد باوسلر، حيث كتبت فيه فلور جيجي روايتها، سنوات العقاب الجميلة. ورأيت في الحال أن تيوفين كانت تُشبه كثيراً تيوفين في الرواية. «إن حدقت في النوافذ الصغيرة بأشرطتها البيضاء وزهورها المتوهجة على الشرفات، ستلاحظ مياهاً استوائية راكدة وشهوة مقيدة تعطي انطباعاً بأن ثمة شيئاً معتماً ومُعدياً يحدث في الداخل على نحو هادئ. آركاديا (مجمع أدبي معروف في إيطاليا) المرض».

هل كانت سويسرا وبالذات شرق سويسرا، آركاديا المرض؟ لم نتوصل إلى أي اتفاق. بيد أن الصمت، وهو صبغة حياة هذا البلد، كان يصغي باهتمام إلى كلماتنا. أخبرتهما أن سويسرا بالنسبة إلي بلد مثالي يعيش فيه الإيطاليون والفرنسيون والألمان بسلام بعيداً عن كل قومية عفا عليها الزمن، مندمجين تحت لواء «سويسرا» التي وحدت الجميع، رغم معرفتهم أن سويسرا لم تكن موجودة.

حين سئمنا من الموضوع، اتفقنا على أننا أبلينا بلاءً حسناً بعدم الذهاب إلى المكان الذي سقط فيه والسر صريعاً، ذلك الدرب القريب من القمة التي تتمتع بإطلالة جميلة جداً على جبال الألب. حسنٌ فعلنا لأنني، كما قالت إيفيت، كعهدي بها في تحمل المسؤولية، لم يكن لديّ متسع من الوقت إذا أردت أن ألحق طائرة الساعة الثامنة مساءً في زيورخ، إضافة إلى أن الثلج كان سيدفننا في منتصف الطريق دون شك.

لكن ربما ستكون هناك فرصة أخرى لتتمكن من رؤية هذا الدرب نحو روزنبيرغ، قالت بياتريكس، التي كانت قد شاهدته قبل حوالي عامين برفقة زوجها بعد أن قطعت شوطاً طويلاً للوصول إليه. كانت تتذكر بدقة جمال المكان وعلى وجه الخصوص، جمال اليوم الذي صعدوا فيه إلى هناك. «كانت ظهيرة هادئة، قالت بياتريكس، مع الثلوج، الثلوج النقية على مد البصر. لن أنساه أبداً».

بعد تناول الحلويات، شعرت بالحيوية وبرغبة للثرثرة، وانتهى بي الأمر أن حدثت إيفيت وبياتريكس عن مرحلة شبابي في برونيكس ومغامراتي العاطفية مع ديزي الشقراء (ذكرتُ لهم أسماء النساء الثلاث اللواتي خدعتها معهن، كنتُ أخدعها بدافع مرضي، لأنني كنتُ وما زلتُ أكن لها مشاعر

جيَّاشة) وقصصتُ عليهما حالات نفسية لفتت انتباهي طوال مسيرتي المهنية، وحدثتهن أيضاً عن والديّ، وبالتحديد عن الحادثة التي أودت بهما في قاع نهر أجنبي، ولم آتِ على سيرة والديّ الآخرين. إيفيت من طرفها، اعتبرت ذلك كله اختراعاً لطيفاً في الساعة الأخيرة لي معهن، حتى إن الظن راودها في مسألة انتحار والديّ في نهر هيدسون الأمر الذي كدّر خاطري بعض الشيء. قالت إن كل ما انتهيتُ من قوله، خيال شعري هائل. «ماذا تقولين؟»، سألتها في الحال. اعتقدتُ أنها إن لم تكن قد صدقت حكاية العشق الشبابي التي خضتها في برونيكس، ولا بحالات الأمراض النفسية التي كانت تحت وصايتي، فمن غير الممكن أن أؤمن بقدرتي على وصف شبابي بنفس الكلمتين اللتين ذكرهما والسر في يعقوب بن جونتين، تينك الكلمتين اللتين كانتا يوماً عنواناً لرواية تخيلت أنني اشتريتها من محطة آتوجا في مدريد.

هل كان من الضروري أن أؤمن في فرصة صغيرة كانت أم كبيرة؟ «خيال شعري، هذا ما قلته»، قالت إيفيت دون أن تدرك ما يعتمل في داخلي. وبتأثير نبيذ بيشبيرغر القوي، بدأت أعتقد أن تلك المصادفة المثيرة، كانت إحدى العلامات المُختارة التي سعت مؤخراً إلى لعب دور حاسم في حياتي. لقد صُدمت إلى حد ما، وبقي في داخلي بعض جزيئات الصدمة عندما أوصلتني إيفيت وبياتريكس إلى مطار زيورخ بعد ساعتين. ودعتهما بقبلتين سريعتين مع عبارات الشكر. شعرتُ بالفرح حين خبأت عنهما الوجهة التي أنوي الذهاب إليها. كنتُ أفضل ألا تعرفا شيئاً. اختبأتُ لغاية هذه اللحظة دون أن يبحث عني أحد، رغم مرور ثلاثة أسابيع على ذلك.

كان وداعاً سريعاً للغاية. إن عدم تصديق إيفيت أن جزءاً من شبابي كنتُ قد قضيته في برونيكس، واعتبار قصة ديزي الشقراء مجرد اختراع، أكد لي أن الآخرين يضطروننا دائماً إلى أن نكون كما يروننا أو كما يريدون أن يرونا. وبهذا الاتجاه، فإن وجود أو صحبة الآخرين أمر مُضرّ، يقمع الحرية الكاملة التي يجب أن نتمتع بها لبناء شخصية وهوية تتناسبان مع طريقة رؤيتنا لأنفسنا. الاتكال على ما نؤمن به، يعد واحداً من دروب السعادة. لكن الآخرين موجودون دائماً لرؤيتنا بطريقة مختلفة للحيلولة دون بناء سعادتنا

المُتخيلة، دون بناء الشخصية المرجوة، الشخصية الأكثر تعقيداً بالتأكيد من الشخص المُتخيل. «تحياتي إلى حبيبتك الشقراء»، قالت إيفيت مازحة. «أنا آسفة لغرق والديك»، قالت بياتريكس. هذا كله لم يمنعني من توديعهما مع عبارات الامتنان، لكني بقيتُ متأثراً لرؤية مدى الصعوبة التي تسير عليها بعض الأشياء، أحياناً. كان من المستحيل ألا أفكّر في إرادتي التي لا تزال حديثة لكنها صلبة، في أن أكون أنا نفسي على الرغم من معرفتي أننا من صنع الآخرين دائماً. «لا أعلم من أنا، لكني أعاني عندما يشوهونني»، تذكرتُ هذه العبارة التي كان غالباً ما يرددها أحد زملائي في مستشفى الأمراض النفسية في مانهاتن.

راجعتُ نفسي مرات عديدة، حالما شرعتُ في السير بمفردي نحو المطار، لأتأكد من أنني بقيتُ وحدي فعلاً، أي لأتحقق بيقين تام أنه لم يكن هناك أحد في النهاية يمكنه أن يطعن في صدق وقائع حياتي المعقدة والغريبة، والحقيقية في نهاية الأمر. تبعتُ خطواتي نحو كشك لبيع المجلات حيث عثرتُ على الصحافة الإسبانية. وفي الكافيتريا المجاورة للكشك ألقيتُ نظرة سريعة على الصحف وتأكدتُ أن كل شيء على حاله، ولا وجود لمَن يفتقدني أو يسأل عني. وبدلاً من ذلك، كانوا يتحدثون كثيراً عن الذكرى السنوية لسلفادور دالي، المختفي الأكثر شهرةً دون شك. جلستُ على أحد الكراسي الحديدية غير المريحة للكافيتريا، وانسابت في مخيلتي ذكرى الومضات المسرحية المقتضبة التي شهدتها قبل ساعات أمام شقق هريساو. وتذكرتُ أن والسر كان قد كتب في بيرن في العشرينيات، سلسلة من النصوص المُكثفة عُرفت بـ*«مَشاهِد حوارية»* حيث يمكن أن يجد فيها القارئ تصاوير حقيقية على هيئة أعمال رائعة. هل كان فارنيسي النحيف يعرف ذلك؟ وللحظة، خطر لي أن أعود وأستقل القطار إلى هريساو وأستأجر شقة في المبنى الكئيب، لأتفرغ هناك إلى كتابتي السرية كطبيب نفساني متقاعد وربما -فقط من أجل إزعاج تلك الشخصية المملة- أطلب من فارنيسي النحيل أن يقبل بي مساعد مخرج لعمله المسرحي، وربما أقترح عليه عنواناً لها *«خيالات شعرية، مَشاهِد حوارية»*.

وفي محاولة مني فيما بعد، لتناسي فكرة العودة غير المحمودة، أغرقت

نظري من جديد في الصحف الإسبانية، وتوقفت هناك عند عنوان خبر مفاده أن إسرائيل تدرس إمكانية كشف ترسانة أسلحتها الذرية. لم يكن العنوان بالضبط هو ما لفت نظري، بل الفقرات الأخيرة من الخبر: «إذا اضطرت إسرائيل إلى تعديل هذه الاتفاقية، حسب التيارات الجديدة لنزع السلاح، التي تبقى في سياق الأدلة، فإن مصر وسوريا تكشفان أيضاً عن ترسانة أسلحتهما الكيميائية المهمة».

مصر وسوريا. قبل ساعات قليلة، كنتُ قد اقتحمتُ مصر عبر شخصية عمر. والآن ظهرت، مضافة إلى مصر، كلمة سوريا التي كانت ارتبطت مؤخراً بحجارة قابيل السورية. ربما وجدتني مرة ثانية أمام واحدة من تلك العلامات الغامضة التي لم أكن أعلم إذا ما كانت ستمنحني فرصة لأكون سيد حياتي، أو، على النقيض من ذلك، تسعى لتعزيز مصيري بأوراق اللعب الرابحة.

هل كان اجتماع كلمتي مصر وسوريا، إشارة لي بالعودة إلى هريساو؟ أم أنه من الأفضل العودة إلى شارع فانو؟ وتذكرتُ سيمون تانر، الشخصية التي ابتدعها والسر لعمله *الأشقاء تانر*، هذا الرجل الذي «تمرغ في أركان وتصدعات الحياة». كان الدكتور باسافنتو يناسبه شيء كهذا. لكن أين كانت منه تلك الأركان الأخيرة؟ ما هو أفضل مكان للاختفاء الحقيقي وإلى الأبد؟ هريساو؟ أو ربما في المكان الذي لا أحد يفكر أو يبحث فيه عني في برشلونة؟

انتهيت من تناول قهوتي ورأيتني بعيداً عن هريساو، رأيتني فجأة في منزلي في برشلونة، جالساً على كرسيّ المفضل، في محاولة حصرية لنسيان الهدير الدنيوي. سأعيش مختبئاً في مسقط رأسي، وأتحول إلى إنسان متواضع يتخفى خلف ظلال والسر. سوف أسعى لكي أكون منظوراً، إن كان ذلك ضرورياً، وأعرف كيف أكون محتمياً بفن والسر في التلاشي، متحولاً إلى كائن أصغر منه، مجاهداً ليكون كل يوم «صفراً مميزاً إلى اليسار، مستديراً مثل كرة»، محاولاً أن يعيش مثل تلميذ متمرد على الصيغ الدقيقة لنيل أعلى الدرجات. سأقضي النهار مقتنعاً بأنني الدكتور باسافنتو، كنت مجرد غياب صاف، شبح يحمل حقيبة حمراء يضع على رأسه قبعة من اللباد، مع العديد من التقارير لحالات نفسية. من الواضح أن السيدة توبلر لن تعرف شخصيتي

إن رأتني في برشلونة، وهذا ما يصب في سعادتي، لأن حالة عدم إدراك الناس لي، ستحميني.

-3-

ويمكنني أن أذهب إلى الصحراء أيضاً. ألم يقل يعقوب بن جونتين، في نهاية مغامرته في المدرسة الثانوية، إنه ذاهب إلى الصحراء مع السيد بنيامينتا؟ «أريد أن أرى إذا كان من الممكن أن أعيش وسط القفار، أتنفس، أكون، أرغب، أفعل الخير بصدق وأنام في الليل وأحلم. آه! لا أريد أن أفكّر الآن في أي شيء آخر».

كان يمكن لـ«و. ح. هدسون» أن يكون المُحاوِر المثالي ليعقوب، إذ يعرف كيف سيخبره من صحراء باتاغونيا، كم كان يحب تلك الأرض الكائنة في نهاية العالم، (ألوانها، شذاها، أصواتها، ملمسها وطعمها، زرقة سمائها، خضرة أرضها، بريق شمسها المنعكسة على المياه، رائحة أرضها في الجفاف والرطوبة، ريحها والمطر، ألوان معينة من زهورها، ريش طيورها الذي يشبه بأرجوانه اللامع قشرة بيوض الـ«تينامو»).

«التينامو! آه! لا أريد أن أفكّر الآن في شيء آخر»، قلتُ لنفسي هناك في كافيتريا مطار زيورخ. الحقيقة أني كنتُ أتطلعُ إلى «أن أصبح بالكامل خارج الطبيعة»، وأتنكر ما تبقى من حياتي، لكل ما هو جوهري وأساسي: الكرب الذي أشعر به. لكنني سقطتُ ثانية في التفكير. بدأت أقول لنفسي، إنه من أجل أن أصل إلى الوجود الأدبي البسيط، ومحاربة هذا الاختفاء الذي يهدد الكتّاب منذ البداية، يجب عليهم أن يخلقوا الظروف المناسبة لـ«*ظهوره*»، أي لبروزهم الأدبي. لكن هناك المناورة المعارضة التي هي الأصعب بكثير – قلتُ في نفسي أيضاً –. مصممين على الاتجاه المعاكس هدفاً لهم (استعادة اختفائهم)، يضطلع بعض الكتّاب، كما في حالتي الآن، أعتقد، بالمهمة العسيرة لإنشاء كتابة سرية في الوقت الذي ينظمون فيه بصمت ظروف اختفائهم، تلك التي ستسمح لهم ذات يوم بالتخلي عن هذا الظهور الذي يشعرون أنه ينخرهم شيئاً فشيئاً، ويقوّض بشكل خطير علاقتهم مع الكرامة وأضواء الصمت.

فكرتُ في كل هذا تقريباً، ثم غادرت الكافيتريا بعد فترة وجيزة، وبدأت أتجول في ذلك الفضاء الواسع من المطار، دون أن أقرر شراء تذكرة. كنتُ ما أزال أسمع أصداء ما فكرتُ به تواً. ومشيتُ طويلاً حتى وصلت إلى زاوية مظلمة للغاية، تتيح للمرء أن يتوغل فيها ويتخفّى عن أنظار العالم كله لثوانٍ، ثم يخطو أربع خطوات ليعود بعدها إلى الظهور، كأنه أبو شاتوبريان الشديد القسوة بعينه، بوجه قاسٍ يتحول في الحال إلى إنسان مُرتاب، وقسمات لا تخدع أحداً، لأنها كانت في تلك اللحظات، تنبع من روحي. أمضيتُ وقتاً طويلاً مُنهمكاً بهذه المنارة التي تكمن في الانتقال من النور إلى الظل وبالعكس، حتى إذا ما انبجستُ شبحاً في نهاية المطاف متأرجحاً بين الظل والنور، قررتُ أن أتقدم بضع خطوات وأخرج من هذا الجحر لأتنشق هواءً نقياً. وخرجت. وتنفّست. وشعرت بتحسن كبير. بدا كأنني اكتشفتُ أخيراً طريقي المثالي الذي يتلخص في الذهاب إلى هناك، والشعور بأنني داخل المنزل، دون أي ضجيج، لأجد نفسي أخيراً في الهواء الطلق، *مبتعداً*.

-4-

أخبرني الدكتور إنغرابايو قبل قليل، بأنه يشهد نوعاً من التناقض بين حبي للاعتزال من أية نوايا للشروع بالكتابة وعدم الانقطاع عن الحديث أنك اخترتَ الغياب كأحد الدوافع الرئيسية للكتابة، في الوقت ذاته. وساد صمت طويل. يبدو لي أنه يفهم الكتابة فقط على أنها ترجمة لعالم داخلي خاص. لكنه أضاف أن ما أكتبه، مهما يكن خاصاً، هو مشروع للنشر إذا اختفيت، فبعض هذه الصفحات لا تتطلب قارئاً فحسب، بل يصل الأمر إلى مدّ يد العون له، حين لا تخترعها مباشرة. خلاصة القول، يجب أن تكف عن مواصلة خداعي. تقلل من أهمية الكتابة بيد، وتصرف انتباهي بالأخرى، حتى لا أتصور أنك تكتب. الحقيقة أنه لمن المضحك أن تتطلع، بيدك الأخرى، إلى كسر قشرة بيضة التينامو التي عثرت لك عليها بالأمس هناك في الخارج في أرض باتاغونيا.

-5-

حين دخلت بهو مطار زيورخ مرة ثانية، انتابتني موجة خفيفة من الهموم، ربما بسبب ترددي المطلق في اتخاذ القرار وفي تحديد المكان الذي كان يجب أن أذهب إليه، وأي مكان في العالم أفكّر بالاختباء فيه منذ الآن. كانت موجة الكرب الخفيف قد ولّدت في أعماقي انطباعاً غريباً على حين غرة، بأنني في الخارج، ولستُ في داخل القاعة التي أجدني فيها الآن، في خارج الخارج الذي انتهيت تواً من إغراق نفسي في أحضانه الرمزية على الهواء الطلق. من خلال ذلك الخارج أو قاعة المطار، التي كانت حتى منذ وقت قريب قاعة داخلية (مؤكد أنها ما زالت للجميع قاعة داخلية، سواي) كانت تهتز ظلال الكثير من المسافرين، على الجدار الأمامي لعقلي. على الرغم من حالة الهرج والذهول والانزعاج من ترددي في اتخاذ القرار، إضافة إلى شعوري بالوحدة المبالغ فيه، كانت لدي غريزة البقاء على قيد الحياة، وعليه وسرعان ما اتخذت قراراً منطقياً، بالعودة إلى المكان الذي كنتُ قد شعرت فيه بسعادة شديدة. عدت إلى الهواء الطلق، وتوجهتُ إلى موقف سيارات الأجرة. وفي النهاية، وبعد الكثير من التردد، استأجرت واحدة باتجاه زيورخ. في الطريق، لا يمكن أن أقول إنني شعرت بالملل على الإطلاق. تذكرتُ في أوله، مجدداً، الرجل النابولي أيتوري ماجورانا الذي اخترع القنبلة الذرية وأبحر بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية إلى باليرو واختفى دون أن يترك أي أثر، ولم يُعرف قط إن كان قد اختُطف، لاختفائه في ظروف غامضة، أم أنه قرر العيش في أحد الأديرة مُختبئاً لما تبقى من حياته. ثم فكرتُ في خططي المستقبلية. تساءلتُ إن كنتُ سأختطف نفسي وأتخفّى في زيورخ أو برشلونة، أو أتلاشى في باتاغونيا البعيدة، أو أختبئ في ذلك الدير الحديث الذي اسمه مصحة هريساو. أم ماذا؟

حين وصلتُ زيورخ، تسنى لي أن أرى المدينة على نحو أجمل. شعرتُ بأني شبه مجنون. وبقدر ما حاولت أن أتطلع إليها بشكل أكثر واقعية (مثلما كنتُ قد رأيتها في زيارتي السابقة منذ خمس سنوات)، خُيل إليّ أنني داخل إستوديو سينما أقوم بتمثيل فيلم «ليلة في الخارج» أو أنني أعيش حالة الذهول التي تنتاب شخصاً خرج للتو من كهف بدائي، رغم الانزعاج المُلازم لي.

مؤثرات سينمائية كبيرة وممثلون كُثر، هذا ما كنتُ أراه. مُستسلماً لما يتتابع أمام ناظري في زيورخ على نحو لا إرادة لي فيه، وصلتُ إلى شبيغلغاسه، الشارع الصغير الذي ليس فيه ما يُغبِط بالنسبة إليّ، مقارنة مع شارعي فانو من حيث التاريخ، التوترات والعلامات. كل شيء تغير هناك. كان تأثير ذلك الشارع الخاص جداً، نافعاً لي. أقلعتُ عن أكون داخل الزينة، وشعرتُ بأني أعود إلى الهواء الطلق، كأنني دخلتُ في دائرة الاتصال أخيراً مع الألوان، الروائح، الأصوات، الملمس والطعم، زرقة السماء ليلاً، وانعكاس القمر على صفحة مياه نهر ليمات. وفي وسط هذا كله، ظهر المُخيف الدكتور إنغرابايو فجأة من جديد، للتحدث إليّ، حين كنتُ أقف بالتحديد عند رقم 1 في شبيغلغاسه، أمام الموضع الذي كان في عشرينيات القرن الماضي، نادي فولتير الليلي، المكان الذي ولد فيه دادا في أحد أيام شهر شباط عام 1916.

حدثني الدكتور إنغرابايو بهدف، حسب قوله، تشجيعي على مواصلة هذري *ككاتب لا هدف* له. فضلتُ أن ألتزم الصمت. «ليكن دادا موضوعك الحالي، فقط وحصرياً لأنك أمام نادي فولتير الليلي وأنت كاتب طارئ». كان على حق بالتأكيد، لكنني لم أخبره، وبقيتُ صامتاً. كان الدكتور إنغرابايو مُحقاً. بعد كل شيء، إن فكرت في الأمر، في الوقت الراهن، من دون أن أذهب إلى أبعد من ذلك، فليس من قبيل الصدفة أن تكون الدادائية هي موضوعي أيضاً، وربما تكون الوحيدة لأنني أريد أن أقول إن أول ما رأيت رقم 1 في شارع شبيغلغاسه، المكان الذي وُلد فيه دادا، والمكان الذي...، الخ.

أحب أن أكتب لمجرد فعل الكتابة. مثل والسر، لا أثق بإمكانية التعبير عن القلق، فأجد الكلمات غير كافية أحياناً بل سطحية، على الرغم من أنها ربما تنفع على وجه التحديد لإخفاء الأوجاع. يروق لي أن أكتب من أجل الكتابة، بنفس الطريقة التي لا يتنقل بها المسافرون في رحلة بحث عن بلدان بعيدة ومناطق جذب خارجية فحسب، ولكن من أجل متعة السفر الجوهرية أيضاً.

الحقيقة أن هذا الأسلوب في الكتابة يُذكر بطريقة القلم الرصاص، تلك الطريقة التي استخدمها والسر في 526 قصيدة مكثفة جداً، والتي حفظ

أغلبها برنارد آشتي ووارنر مورلانج وما زالا يفكان رموز أغلبها في ورش عملهم السويسرية. هناك فرضية في يومنا هذا، مفادها أن نوع الورق وشكله هما اللذان حددا ما كتبه والسر من قصائد مكثفة بالقلم الرصاص، أي ما أضفى أصالة على أسلوب كتابته، لأنه في العديد من هذه القصائد المكثفة، ينتهي النص أو الثرثرة (المرنة، كما يحدث عادة عند والسر) دون مشكلة عندما ينفد الورق. واستناداً إلى وارنر مورلانج، فإن هذا التقارب (الذي يولد الإلهام) بين المواد وجرة قلم الرصاص لابد أن يشكّل واحداً من أعظم طرق والسر الفاتنة. وبعد كل شيء، فإن الاستخدام المتكرر للأوراق التي كان يضعها بصورة عشوائية في متناول يده، تزامن مع أكثر مبادئه الشعرية والأخلاقية أهمية، تلك المبادئ الوالسرية التي يستحق بموجبها كل حدث أن يكون موضوعاً لقصيدة، بغض النظر عن مدى كونه عادياً ومبتذلاً.

مؤكد أن الدكتور إنغرابايو كان مُحقاً فيما رمى إليه، لكني لا أريد أن أنصاع بالرد على ما قاله. ثم أصبح الدكتور دادائياً وهو شبه غاضب. «قل إن دادا هو دودو وديدي»، قال. ولأجل معاكسته، شعرتُ بالميل إلى أن أُظهر له استعدادي للاستمتاع من دونه، والشروع في الكتابة على الواجهة التي كانت يوماً نادي فولتير الليلي، كلمات بالأسلوب الدادائي، إكراماً لدادا في واقع الأمر. «أنا سويسري في سويسرا» باللغة الفرنسية على سبيل المثال. لكني سرعان ما تخليتُ عن أية أفكار مخالفة، وشرعتُ أصعد شبيغلغاسه ببطء، وهو شارع قصير ولكنه كثيف للغاية، ومررتُ أمام رقم 12 المنزل الذي كان يقطنه لينين قبل الثورة الروسية. وتذكرتُ تلك الأسطورة التي تقول إن تريستان تزارا لعب شطرنج مع لينين في هذا الشارع، ذات يوم وعلى الهواء الطلق، وخمنتُ ما تمخض عنه ذلك اللقاء بين ممثل طليعة الحِراك الثقافي وآخر من طليعة حِراك الطلقة النظيفة.

واصلتُ تقدمي في شبيغلغاسه الذي اعتبرته شارعي دي فانو، في مدينة زيورخ، وتوقفتُ أمام الدار التي توفي فيها المسرحي جورج بوشنر عام 1837، ثم انتقلت إلى رقم 23 حيث المبنى الذي كتب في طابقه الثاني، الشاب روبرت والسر جزءاً من *«مؤلفات فريتز كوشر»*، كتابه الأول الذي أرسى قواعد تخليه المستقبلي عن الكتابة: «لا شيء أكثر خشونةً من

الجفاف. ولا شيء يعلو على الجفاف بالنسبة إليّ سوى عدم الإحساس»، سطّر في هذا الكتاب. وعلى الرغم من أن عبارات جافة جداً مثل هذه، كان يعوضها أحياناً بمؤلفات كانت أناشيد للعالم: «ما نفع الغابات؟ كل شيء لابد أن يكون غابة هامسة، العالم بأجمعه، كل الفضاء، الأعلى والأعمق، كل شيء، كل شيء يجب أن يتحول إلى غابة (هنا بصوت رخيم)، وإلّا، فلا». كنتُ في تلك الأيام والسر يسير في شبيغلغاسه، يحاول ألّا يفكر، لا يركن إلى القلق، لا يختبئ في العبارات التي تخفي خلفها رؤيته للعالم، العالم الذي كان ينظر إليه حينذاك بسرية على أنه عشق غريق.

في شارع شبيغلغاسه نفسه، وجدتُ في تلك الليلة سكناً لي في بنسيون ريشنر، وأنا واثق تقريباً من أنها نفس الغرفة التي أقمتُ فيها قبل خمس سنوات في زيارتي السابقة للمدينة، والتي أعادت إليّ ذكريات جميلة، رغم أنني كنتُ فيها مع زوجتي. ما إن دخلتُ الغرفة حتى اجتاحني سيل من الذكريات الحلوة (اللحظات التي كنتُ أقضيها وحدي حين تخرج زوجتي للتسوق من المتاجر الباهظة الثمن والمتغطرسة في تلك المدينة المغرورة) وشعرتُ براحة نفسية من جديد، وحدي.

بدا لي أنه لم يمر وقت طويل منذ إقامتي الأخيرة هنا، لأنني حين خرجتُ إلى الشرفة، اكتشفتُ أن الأمر يشبه إلى حد ما النظر من النافذة إلى شارع فانو، مع الاختلاف انني أرى هنا شارع زيورخ والشقة التي كان قد عاش فيها لينين بدلاً من شقة ماركس. وبقيتُ أتطلعُ لبعض الوقت إلى الطابق السفلي الذي أصبح متجراً لبيع الهدايا التذكارية لشخصية لينين بكل أنواعها. ما الذي سيفكر به شخصياً لو شاهد هذا؟ هل كان يهمني فعلاً بما قد يفكر به في القضايا الحالية ليومنا هذا؟ لاحظت الناس الذين كانوا يدخلون ويخرجون من ذلك المتجر (بعضهم يحمل لينين صغيراً من الخزف) ثم قررتُ أن أنهي ذلك اليوم الذي كنتُ أعرف أنه عصيٌّ على النسيان. أو ربما سوف يحدث العكس، وأنساه بسهولة هائلة؟ ظننتُ أنني يجب ألّا أزعج نفسي بهذا البحر من الشكوك. كنتُ أكثر ضياعاً من أي وقت مضى، لكن هذا ينبغي ألّا يكون سبباً في الشعور بالأذية.

كان الثلج يتساقط في زيورخ في اليوم التالي. غادرت الفندق بقبعة اللباد

ومظلتي، وذهبتُ لتناول الفطور في مقهى أوديون القديم الشهير، حيث قيل إن لينين كان زبوناً مواظباً على ارتياده، واستطاع أن يتبادل بعض الكلمات مع جيمس جويس، الزبون المُنتظم لهذا المحل. أوه، الأوديون! وتذكرت أن ماتا هاري كانت قد ظهرت كراقصة لأول مرة هنا. تخيلتُ بعدها مشهداً مستحيلاً. تخيلتُ لينين يتناول القهوة بينما يختلس النظر إلى نسخة من مجلة *دبلن*. ثم بدأت أفكّر في آلاف المنعطفات الذهنية، منها جلوس جيمس جويس هنا وربما في المكان نفسه الذي أجلس فيه الآن، متأملاً الأوجاع التي سببها له مرض انفصام شخصية ابنته لوسيا، الذي اضطره إلى إدخالها في مستشفى بورغولزلي للأمراض العقلية في زيورخ، لإخضاعها للعلاج على يد الدكتور نائيجيلي.

ودون أن أعرف ما الذي ينتظرني في القريب العاجل (في هذا اليوم نفسه)، فكرتُ أنني إذا عدتُ إلى هريساو ذات يوم، سأسأل الدكتور كاجي والدكتور فارنيسي، عن الدكتور نائيجيلي. أوه، الأوديون! هناك تحديداً قابل كارل سيلغ عام 1957، الشاب يوجين كريفن الذي كان مهتماً بأعمال الكاتب المنسي والسر، الشاب كريفن الذي سيصبح مع الوقت، أحد أهم الفنانين لاستعادة أعمال والسر، والذي سيُبدي شجاعة فائقة في إعادة اكتشاف وجمع أعماله المتناثرة جميعها بعد كفاح دؤوب دام لسنوات.

هكذا وصف كريفن لقاءه مع مُنفِّذ وصية والسر: «دعاني سيلغ إلى مقهى أوديون المشهور، وقال إنه خصص لي ساعة واحدة فقط. أخال أنه تصرف على هذا النحو لأنه سئم من الشباب الذين كانوا يأتون إليه لمعرفة شيء عن والسر. بكل لطف ولياقة سألني عن مشاريعي. أريته بشكل خفي بعض المخطوطات غير المنشورة، التي لم يسعني الوقت لا لرؤيتها ولا حتى للإمعان في خطوطها. لم يكن سيلغ يمتلك بُعداً مُترامياً عن والسر. كان يضعه على هامش الأدب الحديث، ويعده شاعراً إقليمياً ذا نسب أصيل».

بعد بضع سنوات وتحديداً في عام 1963 بعد وفاة سيلغ، عاد كريفن ثانية للاهتمام بوالسر. كان كريفن يتذكر جيداً تلك المخطوطات التي كان قد شاهدها على نحو عابر قبل سنوات والمُودعة حالياً في مكتب كاتب عدل في زيورخ. وسيكون كريفن نفسه، حال وصوله إليها، مَن سيعمدها تحت

اسم القصائد المكثفة، إضافة إلى اكتشافه أن سيلغ لم يكن على حق عندما قال إن تلك الوريقات المكتوبة بقلم الرصاص بإحكام لم تكن أكثر من نثر لا يمكن تفسيره لشخص مارس أدباً سرياً وتظاهر بأنه ينأى بنفسه عن العالم وعن القرّاء.

تذكرت كل هذا، ثم استحضرتُ ماتا هاري مرة ثانية، وبعد وجبة فطور زهيدة، خرجتُ إلى شوارع زيورخ المغطاة بالثلوج. فتحت مظلتي مودعاً ذلك المقهى. أوه، أوديون! لم أكن أعرف إلى أين أذهب، ولم أكن أعلم أنني سأعود عاجلاً إلى هريساو. لم أكن أعرف إلى أين أحث خطاي، لكنني أدرك تماماً أنني لن أتأخر عن مغادرة زيورخ. رأيت رجلين على الجانب الآخر من النهر يتجادلان حول شيء ما، ويومئان بيأس، يحاول كل منهما، من جانبه، أن يجعل الآخر يفهم في الأعماق ما لم يكن يفهمه هو بنفسه. تساءلت عما إذا كان هذا كله ليس سوى مضيعة سخيفة للإيماءات. ماذا لو لم يكن هناك شيء للاستيعاب وكان هذا كل شيء أو كل شيء تقريباً، وأن كل شيء على ما يرام؟ على الرغم من ذلك، من الممكن أن تكون حياتنا غير المفهومة، وتواريخ كل هذا الدمار القاسي، قد جلبت معها تعويضاً عن هذه الكوارث والإحباطات: الفكرة النهائية أن هذا كله لم يكن سوى التفاتة وجه بسيطة وابتسامة.

عدت إلى الفندق لأحمل حقيبتي الحمراء، وأدفع ثمن المبيت وأغادره. أتذكر أنني رأيتُ في الحافلة الكهربائية المتجهة إلى المحطة الرئيسية، رجلاً مترنحاً يسير تحت الثلج دون مظلة، بغرور صلف. كانت زيورخ في بعض الأحيان تتحول إلى مدينة متعجرفة للغاية؛ لم تكن مطلقاً بالنسبة إلي مكاناً مثالياً ولا لوالسر حتى، حسب ما أعرف.

-6-

في القطار الذي كان يقلني عائداً إلى هريساو، تخيلتُ أني ذاهب إلى إيطاليا في سيارة مُستأجرة نحو الجنوب، وفجأة وجدتُ نفسي على مشارف مدينة بارما. ركنتها إلى جانب النهر، وحين فكرتُ في فارنيسي النحيف على حين غرة، تذكرتُ أنه يوجد هنا مسرح يحمل اسمه، فقمتُ بزيارته.

وتجولتُ فيما بعد، في ميدان الدومو وباتيستيرو، ودخلتُ إحدى مكتبات سترادا كافور، حيث عثرتُ على *«حالة الكاتب الرقيق»* كتاب صغير من تأليف خوان مارسيه تُرجم إلى اللغة الإيطالية حديثاً. تذكرت جيداً القصة التي قيلت هناك حول كاتب مشهور كانت صورته تختفي من التلفاز، كلما ظهر فيه، فتلاشى بمرور الزمن.

تخيلتُ أنني اشتريتُ كتاب مارسيه واقتربتُ من المقهى الرئيسي العتيق في سترادا كافور أيضاً، حيث تناولتُ هناك بعض مثلجات الشوكولاتة بالقشطة اللذيذة. عدتُ بعدها إلى السيارة وخرجتُ بحثاً عن رهبانية بارما الشهيرة لرواية ستندال. كان قد قيل لي إن بإمكاني زيارتها ورؤيتها، لكن لابد أن آخذ بنظر الاعتبار أنه من المحتمل جداً أن تكون من اختراع ستندال. ولكي أراها، كان يتعين عليّ أن أسلك أحد الطرقات وأغادر المدينة، وانتهى بي الأمر إلى أن أكون أمام رهبانية مبتذلة، كان يتدرب بداخلها شرطة المرور الواعدين. هل يُعقل ذلك؟ هل تحولت الرهبانية، إلى مدرسة بلدية؟ وتذكرتُ رهبانية أخرى، رهبانية إشبيلية، تلك التي لم أصلها مطلقاً. وانتهى بي المطاف بعدم رؤية الملجأ الأخير لفابريثيو دل دونغو، لأني كنتُ أسير قلقاً بشأن بعض الأمور وبعض الملاجئ.

وفي لحظة مهجورة غادرتُ المدينة. تركتُ السيارة عند منحدر على جانب الطريق على بعد حوالي كيلومترين من الموضع الذي من المُفترض أن تكون فيه رهبانية بارما، ولم ألتقط منها سوى الحقيبة التي ما استغنيتُ عنها يوماً، وشرعتُ بالسير عائداً إلى بارما. تركتُ أبواب السيارة مشرعة، وبداخلها بعض الوثائق الشخصية، جواز سفري، نصف الكتب التي كنتُ أحملها في حقيبتي، ملابس النوم، الكاميرا، والمزيد من الأشياء التي بقيت في المقعد الخلفي مُلقاة إلى الأبد. كنتُ أشعر كأنني في القاع، إذ لم يتنبه إلى غيابي في إشبيلية، أحد. كم كنتُ أتمنى أن يفكر أي شخص بالبحث عني. بدا الأمر كأن تحت شغفي في الاختفاء، كانت تنبض محاولات متناقضة واضحة لتأكيد الـ«أنا» العائدة لي.

الحقيقة أن السماح لنفسي بترك البابين مشرّعين، في تقليد مني لما فعلته آجاثا كريستي ليلة يوم الجمعة الموافق 3 كانون الأول 1962، حين غادرت

ستايلز، منزلها في مقاطعة بيركشاير، واختفت، تاركة سيارتها مفتوحة الأبواب، ربما تبحث عمّن يبحث عنها.

وأنا لا أملك إلّا أن أقول إنني في هذا القطار الذي يعيدني إلى هريساو، تخيلتُ هذا كله. تخيلتُ أنني تركتُ سيارتي المُستأجرة في بارما، مشرعة الأبواب، ومشيتُ على طول الطريق على أمل ألا يجدوني مطلقاً، على الرغم من أن ترك السيارة مهجورة بتلك الطريقة اللافتة للنظر، ربما يكون في الحقيقة سبيلاً قصيراً للبحث عني، أو على أقل تقدير، سيكون الأمر برمته، مشهداً يوحي للآخرين بأني اختفيت.

لهذا تخيلتُ أنني تركتُ السيارة هناك، مرمية في المنحدر على نحو يستحق المشاهدة، وذهبتُ سيراً على الأقدام حتى بارما ومن هناك إلى ميلانو بالقطار، ومنها إلى زيورخ بقطار ظل يسير بنا الليل كله حتى وصلتُ في اليوم التالي إلى زيورخ ومنها ركبتُ قطاراً محلياً أخذني إلى هريساو، المدينة التي حالما وصلتُ إليها، بدأتُ أهيم في شوارعها مُستحضراً بعض عبارات والسر التي كانت ترافقني أينما أحل: «يُعاب على الكاتب من الآخرين أنه شخصية مثيرة للسخرية، وأنه يعيش في الظل، مهما علا شأنه، منعزلاً عن العالم، يشعر بالغربة حتى لو كان في قلب اللذة التي يجد فيها بقية الناس ضالتهم، لكنه مهم فقط حين يكتب دون كلل، أي في الخفاء».

حين وصلتُ إلى هريساو الحقيقية، لم أشأ أن أهيم في شوارعها على الفور، حتى لا أقلد على نحو دقيق، ما كنتُ أتخيله للتو في قطار زيورخ، لذا توجهت إلى أحد المطاعم لتناول وجبة. لن يكون لديّ ما أقوله عن ذلك الغداء سوى أنني وبينما كنتُ أتناول طبقاً من السباغيتي، لاحظتُ وجود قدر في المطبخ وخطر لي أنه من المُبهم إطلاق تسمية قدر عليه. كان شكله غريباً جداً. كلما كنت أحدق فيه أكثر، يتضح لي أكثر أنني إذا اضطررتُ إلى وصفه بقلم الرصاص في دفتر ملاحظاتي هذا ذات يوم، فلن أستطيع أن أقول إنه قدر. بدا كأنه قدر، أو شبيهاً به، لكنه لم يكن كذلك، أو لا يمكن أن يُطلق عليه قدراً عن قناعة.

بعد هذه الأزمة اللغوية القصيرة وربما السخيفة، تركتُ المطعم متأرجحاً بين رغبات بشرية واضحة لأتنفس الصعداء خارجه. وبدأت أغذ السير، بحثاً

عن أحد أكثر الطرق كلاسيكية لروبرت والسر، وفي حالة كهذه، فإن الأكثر كلاسيكية على الإطلاق، هو الطريق الذي وجد فيه الموت، الطريق الذي لم أستطع اجتيازه ليومين بسبب الثلج. بين أشجار الزان والتنوب، تمكنتُ من تسلق منحدر سشوشنبيرغ نحو روزنبرغ، حيث رأيت الآثار في القمة التي يُرى منها منظر رائع لجبال الألب. حاولت أن أستنشق ملء رئتي، هواءها الشتائي النقي، لكني أدركتُ أن شيئاً ما ينقصني دون أن أعرف ما هو. بعد وقت قصير عثرتُ على أصيص فخاري بداخله بعض الزهور اليابسة في المكان الذي سقط فيه روبرت والسر ميتاً يوم 25 كانون الأول. تأثرتُ كثيراً. وها أنا، بعد كل شيء، كنتُ قد وصلت إلى مركز العالم تماماً. وماذا وجدتُ فيه؟ الحق أقول، لا شيء سوى هذا الأصيص ذي الزهور اليابسة وشعور بالفراغ. حسنٌ، هل كان هذا كل شيء؟ هل كان هذا مركز عالمي أنا؟ المركز ذاته؟ كنتُ ما أزال متأثراً، لكن مع ريبة دائمة نحو العالم، ونحوي على وجه الخصوص. تمنيتُ أن يتساقط الثلج في هذه اللحظة، رغم يقيني أنها لو كانت تُثلج لما كنتُ قد تمكنتُ من الوصول إلى هنا. واشتهيتُ أن ينهمر المطر على الأقل بدلاً من الثلج. سيكون من الجميل الإصغاء إلى صوت المطر المعتاد في هذا الوقت من المساء الصامت، نوع من الشائعات التي غالباً ما كانت تُسحر والسر. لكنها لم تكن تُمطر، ولا تُثلج. أخال أن هذا المكان يصبح دون معنى، من دون ثلج. وانتهى بي المطاف أن بدأت أتمتم مع نفسي مثل صلاة دنيوية، قصيدة *الثلج* لروبرت والسر:

لتُثلج ما أمكنها، فالأرض تتقهقر
في نحيب أبيض واسع، للغاية شاسع
تهتز تحت السماء، كتائب
من ندف الثلج، دون عزاء، ثلج.
يهديكَ هدوءاً وسكينة
نقية بثلج العالم الذي يثير شجوني.
وهكذا يتمكن مني الحنين،
صغيراً كان، ثم استفحل
متحولاً إلى دموع.

وبقيتُ هناك في مركز عالمي أنا بالذات، أفكّر في أن تخلي والسر عن الكتابة، لم يكن بدافع حالة رومانسية مؤثرة قط. كان حكمة وحرية، فراغاً ولا مبالاة حُلّت في قربان سرير أبدي من الثلج ومن النقاء. اعتقدتُ أني أرى نقاء الثلج مُترجماً، على سبيل المثال، في كلمات يعقوب بن جونتين: «الهموم والجهود الجسيمة التي تُبذل من أجل نيل الشرف والشهرة في هذا العالم، لم تُخلق لي».

ربما تكون ندف الثلج المتوقفة في الهواء، كافية لتخلد مشاعري الغامضة في ذلك المكان. لكن غياب النحيب الأبيض للثلج دفعني لأنأى بعيداً. لم يكن من الممكن في تلك اللحظة أن يثير العالم انفعالاتي. بدأت أشعر بالملل، وكان هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لي في مركز حياتي هنا بالضبط. بينما كنتُ أنحدر من الجبل ببطء، ربطتُ هذا السأم غير المتوقع بإحدى ذكريات الطفولة، ذكرى الأيام التي عشتها في متنزه سان خوان، حين كنت أرافق والدي، طفلاً، إلى فيلاتوريا وفي طريق الخروج كان يطبق على نفسي، صمت عميق، لا يكسره إلّا وصولي إلى المنزل، وأقول لأمي التي كانت مهتمة جداً بمعرفة كيف جرت الأمور: «ماما، أعتقد أنه سيكون مملاً جداً بالنسبة إلي أن أموت».

في عودتي إلى هريساو فيما بعد وتجوالي في شوارع المدينة، وربما لإنهاء أي غضب جديد سببه عدم اكتراث العالم بي، حاولتُ أن أُقنع نفسي بأنه من الأمثل أن أكون كاتباً منسياً. وتذكرتُ مجدداً عبارة والسر المُفضلة التي كانت قد أصبحت عبارتي: «أنت قادر على العيش دون أن يتذكر أحد، ولو من بعيد، أنك موجود». قلتُ لنفسي إن العيش بهذه الطريقة الكامنة، يعني أنك على وعي تام بتجربة السكينة والموت. وحين تصل إلى هذه المرحلة فإنك بالتأكيد تكون قد أدركتَ الحياة أيضاً. العيش بهذه الطريقة – كما لو أنك تمر بتجربة الموت كل لحظة– يضعني أمام احتمالية امتلاك رؤية عن المستقبل، ربما تمكنني ذات يوم من رؤية ما سوف يحدث بعد اختفاء الإنسان في الغرب. على أية حال، ومهما حصل، شعرتُ بأن العيش بهذه الطريقة، أي أن أكون كاتباً منسياً، كان يخلق فيّ إحساساً رائعاً بتحقيق ما كان يطمح إليه كافكا: «لم أرغب أكثر من أن أواصل وجودي دون منغّصات».

فكرتُ في هذا كله، ثم عادت إليّ صورة والسر وهو يمشي متقدماً في الجليد نحو حتفه، وتذكرتُ أحد مقاطع يعقوب بن جونتين المدهشة حين يتخيل الراوي نفسه وقد تحوّل إلى جندي مشاة في خدمة نابليون ويصف كيف يتقدم في الجليد مع جيش الإمبراطور نحو موسكو: «كنا نواصل تقدمنا في الثلج، منتصرين وواثقين من نصرنا القادم. في النهاية، وبعد مسير غير منقطع، كان لابد أن نقوم بهجوم ومن المحتمل أن أبقى على قيد الحياة وأواصل طريقنا. والآن إلى موسكو! قال أحد رفاقي. ودون أن أعرف لماذا، تخليتُ عن الرد عليه. لم أعد إنساناً، بل مجرد قطعة صغيرة جداً في ماكينة شركة كبيرة. لم أعرف شيئاً عن والديّ مطلقاً، ولا عن أقاربي، ولا عن أغنياتي، عذاباتي أو طموحاتي الشخصية، لا شيء عن معنى وسحر بلادي».

متحولاً إلى «قطعة صغيرة جداً»، واصلت مسيري في شوارع هريساو، وواصلتُ التفكير في مدى روعة أن تكون كاتباً منسياً، وُلدتَ يتيماً في الحياة، دون أن ترى اسمك في أي جزء، لأن الأدب بمجمله -قلتُ لنفسي- مسألة اسم لا أكثر. *أن يكون لك اسم*، عبارة تختصر كل شيء. اسم! قلتُ لنفسي إن هذا هو الشيء الوحيد الذي يتبقى من الشخص في النهاية، وإن الإنسان يظل حيران حين يرى أمامه الكثير من الكتّاب يعانون ويتعذبون لأتفه الأسباب.

كنتُ محظوظاً بتغيير اسمي، رغم أنني لن أستطيع ربما من المحافظة على هذا الاسم الجديد حتى النهاية. الدكتور باسافنتو. لكن كان يجب أن آمل، بشيء من الفأل الحسن، ألّا يحدث ذلك. فبعد كل شيء، لابد من الاعتراف أن تحقيق الاختفاء التام، شيء غير مُستبعد من خططي المستقبلية. قلتُ هذا لنفسي ثم تذكرت على حين غرة، أنني في الوقت الذي بدأ فيه نزول الثلج، جال في خاطري أنه من الممكن أن ألتقي في أية لحظة ببياتريكس التي تقطن مع عائلتها هنا، وإذا شاهدتني (مع الأخذ بنظر الاعتبار أنها واثقة من أنها ودعتني قبل يومين إلى الأبد) فمن الممكن أن تُصاب برعب شديد.

وعلى الرغم من الخطر الناتج عن عثور بياتريكس عليّ هنا، واصلتُ تجوالي في شوارع المدينة لفترة طويلة، متوقفاً بين الحين والآخر لتناول كأس من الجعة. وحين هبط المساء، وجدتني، بالصدفة أو بغيرها، أمام

فارنيسي النحيف. وقفتُ في طريقه وأخبرته بأني كنتُ قد رأيت في بارما المسرح الذي يحمل اسمه. لم يعر الخبر اهتماماً على الإطلاق، أو بالأحرى، لم يفهم للوهلة الأولى، ما كنتُ أتحدّث عنه. ارتسمت على أساريره حيرة واضحة. «آه، هذا أنت»، قال أخيراً. «بالضبط، أنا الدكتور باسافنتو، عدتُ لأمد لك يد العون في عملك المسرحي، في خيالك الشعري. وعلى قول والسر، أحببتُ أن أكون *مساعدك*». ومرة ثانية ظهرت على ملامحه، الدهشة، واعترف أنه لم يكن هناك سبب. «اسمع»، قال في النهاية، «لا أحتاج إلى أية مساعدة في عملي. كن حذراً، لأن هذه الخطوة تودي بك إلى مستشفى الأمراض العقلية».

ولأنه كان يرى فيّ مُتطلعاً غير متوازن، تماديتُ أكثر، إذ لم يكن لديّ ما أخسره، ورويت له ما خطر لي تواً، واقترحتُ عليه أن يمنح مسرحيته عنوان *السادة باسافنتو*. نظر إليّ بين الغضب والدهشة، كما لو أنه غير مصدق ما تناهى إلى سمعه تواً.

لم أجرؤ، لكني كنت أتمنى أيضاً أن أخبره أن العمل في مسرحية بهذا العنوان، السادة باسافنتو، يمكن أن يكون علاجياً بالنسبة إليّ، ومن المحتمل أن يساعدني في فقدان هويتي، كطبيب نفساني، لأنه سوف يكون هناك الكثير من باسافنتو على خشبة المسرح لدرجة يستحيل أن يتم تحديد موقعي، وسوف أضيع بينهم. هناك الكثير من الممرضين المجانين الذين يحملون اسم باسافنتو، وبالتالي ستتفتت هويتي بما فيه الكفاية لكي أتمكّن من الاختفاء، حتى لو كان ذلك في المسرح فقط، وهذا ما كان أكثر مشاريعي هوساً في الآونة الأخيرة.

كنت أود أن أخبره بهذا كله في ذلك الوقت، لكنني لم أقل شيئاً. بدلاً من التحدث إليه عن فقدان هُويتي، اقتصرتُ على سؤاله بخجل شديد: «ربما لم يعجبك عنواني؟» ظل ساهماً. لم يكن يشبه فارنيسي الثرثار الذي عرفته قبل يوم. «اسمع»، قال أخيراً، «اكتشفت فيك، يا زميلي العزيز الهائم، حالة جنون لم أكن أعرفها. هل ستمكثُ طويلاً في هريساو؟ أجبته ربما نعم. «حسنٌ، أدعوك إلى ضم قصتك إلى المونتاج المسرحي. أخبر الجمهور عن محاولتك لتغيير العنوان. وسوف تتناسب بشكل جيد مع القصص النادرة

الأخرى». هذا ما قاله بالضبط ليهزأ مني، وقبل كل شيء، للتخلص مني، لكنني في تلك اللحظة بالذات لم أدرك ذلك، فأجبته مثل أحمق، أنني قبلت عرضه بكل سرور. «توخّ الحذر من الدكتور كاجي، لا تُريه نفسك حتى لا تتعرض للحبس»، قال بنبرة ساخرة على نحو في غاية الوضوح، وعندها فقط بدأت أرى بجلاء أنه كان يضحك عليّ.

لم أقابله ثانية إلّا بعد يومين عندما كنت قد استأجرت شقتي (القبيحة بصورة مُرعبة)، أسفل منه بطابقين. تصادف وجودنا عند باب المصعد، عندما كان فارنيسي يغادر، بينما كنتُ أنا، من ناحية أخرى، أعود إلى النزل على مضض. رفع حاجبيه مندهشاً، كأنه فوجئ برؤيتي مرة ثانية وخاصة برؤيتي هنا. «أنا أقيم لبعض الوقت في الحجرة الثالثة»، قلتُ له. لم يبدِ فارنيسي أي اهتمام بالموضوع، ولم يقل شيئاً سوى أنه قام بإيماءة كأنه يقول «ماذا يحدث»، وخرج إلى الشارع.

«لديّ كامل الحق في تغيير حياتي»، قلتُ بصوت منخفض للغاية. لم يسمعني على ما أعتقد.

-7-

ذكرني الدكتور إنغرابايو للتو أنه على الرغم من الأيام التي مرت، لم يتنبّه أحد إلى اختفائي بعد. «الموضوع مأساوي أكثر مما تتصور»، أخبرني بصورة مباشرة أنه يريد تقويض معنوياتي، ربما مدفوعاً بفكرة مقاطعة استحضار زيارتي الثانية إلى هريساو. مَن يعرف. ربما كانت كلماته ببساطة نوعاً من رد الفعل الغاضب لرؤيتي سعيداً جداً هنا في الآونة الأخيرة بعد أن استعدتُ السكينة التي كنتُ قد فقدتها كثيراً في عهدي ككاتب غارق في عالم الغرور والشهرة.

«سحبتَ مالاً من العديد من أجهزة الصراف الآلي»، قال لي، «واستخدمتَ بطاقة ائتمانك في أمكنة كثيرة، وإن خطر لأحد ما في الإبلاغ عن اختفائك، فلن تتأخر الشرطة في معرفة مكانك بالضبط. لكن لا أحد يبحث عنك، هذه هي الحقيقة المُرة. الالتزام المصرفي يجعل زوجتك تحصل على مصروفها الشهري والآخرون مشغولون بقصص حبهم أو بميتاتهم أو بالكتّاب الذين

يمنحونهم مزيداً من الأموال والمتعة أكثر منك. وأنت في نهاية المطاف، وحيد في غربتك. أنا حزين من أجلك لأن الأمر مؤلم. أنا أحيا معك طويلاً لدرجة أشعر بتقدير عال جداً لك. الحقيقة أن طعم هذا الإحساس سيئ، لكن يؤسفني أن أقول إنه لا أحد يحبك، وهذه حقيقة أيضاً. والأسوأ أنه لا علاج لحالتك. حتى لو أصبحت رجلاً أنيساً، تهتم بالآخرين على نحو دائب، سخياً ولطيفاً إلى أبعد الحدود، مسالماً ولا تثير المشاكل، فلن يحبك أحد أيضاً. نحن وحيدون، كل منا مع نفسه، مع موته وحياته الكارثية الفريدة، كلنا غرباء للغاية. لكني سأخبرك شيئاً قد يريحك. الوحدة تثير شهية الروح، مثلما يفعل الحديث مع الذكاء».

كان للكلمات الأخيرة، كلمات العزاء، فضل في تشجيعي. انهمكتُ في تدوين كلمات إنغرابايو الأخيرة، بخط صار يتضاءل يوماً بعد آخر، حتى بدا كأنه نوع من التكريم لقصيدة والسر المكثفة، بخط أصبح يتطلب شحذ قلم الرصاص جيداً، ثم فتحتُ النافذة وحدقتُ في عصفور صغير أيقظ فيّ حناناً مفاجئاً. وبعد قليل صار الحنان شوقاً وبدا لي أن الساعة حانت لأمنع نفسي من الكتابة القهرية لبضعة أيام. يجدر بي أن أعود إلى باريس دون شك.

-8-

أمضيتُ أحد عشر يوماً في هريساو، اعتدتُ خلالها أن أزور كل يوم قبر والسر متطلعاً إلى الشواهد العمودية.

ظلت هذه الأيام لغزاً لا يُسبر غوره، مثلما كان مع آجاثا كريستي.

في اليوم الحادي عشر الذي صادف في الجمعة قبل الأخيرة من شهر كانون الثاني، غادرتُ هريساو الكئيبة دون سابق إنذار تاركاً خلفي قصصاً أفكّر أن أصمت عنها.

ركبتُ القطار الأول، في رحلة عودة طويلة وبطيئة إلى باريس، إلى فندق شارع فانو.

استُقبلتُ في هذا الفندق بترحاب كبير على غير العادة. «صباح الخير سيد باسافنتو»، بلغة فرنسية حيتني مديرة الفندق التي يبدو أنها تعلمت نطق اسم عائلتي جيداً، وأعطتني بهذه المناسبة أفضل غرف الفندق، حسب ما

قالت، الغرفة التي كانت تحمل رقم 67. لم أكن أعرف حتى أن هناك طابقاً سادساً. كانت الإطلالة على حدائق ماتينيون في هذه الغرفة الجديدة، أكثر اتساعاً، سخاءً وروعة. إنه مكان مناسب، فكرتُ، للتجسس على حدائق رئيس الوزراء بدقة.

البارحة، عند الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، وبعد أربعة عشر يوماً من الكتابة المكثفة والحبس المطول في الفندق (كرستها لتسطير الأحداث التي كانت قد جرت منذ فوضى ليلة عيد الميلاد وحتى اللحظة التي عدتُ فيها إلى هريساو، حين حدثني الدكتور إنغرابايو عن الغربة باعتبارها مُنشطاً للروح)، قررتُ أن أخرج في جولة في باريس.

هبطتُ السلالم وأصبحت في بهو السويد. وفجأة رأيت إيف بورغويس إلى جانب مكتب الاستقبال. كانت في تلك اللحظة تسلم على الكاتب الزيورخي الشاب بيتر مرميت الذي ميزته في الحال من خلال صور ألبوم دار نشر بورغويس. كانت حقيبتاه مرميتين على الأرض، إذ يبدو أنه وصل تواً إلى الفندق، لأجل الترويج لكتابه الأخير لمدة أسبوع. لم يكن لديّ الوقت حتى للإشفاق عليه.

«مرحباً»، قال لإيف بورغويس في تلك اللحظة بالذات. بدا أن العديد من الذين كانوا يتناولون طعام الفطور على طاولات البهو، يتابعون مشهد الاستقبال باهتمام. كنتُ واثقاً أن مرميت، مثل لوبو أنتونيس، لم يكن يعرفني إطلاقاً. لكن مشكلتي لم تكن مع مرميت، بل مع إيف بورغويس من جديد، لأنها استطاعت أن تتعرف عليّ. حاولتُ ألّا أكون منظوراً، لكن، كما لو أنها سمعت خطواتي، استدارت في تلك اللحظة بالذات وشاهدتني، رغم أن أي رد فعل لم يصدر منها، ولا قامت بأية حركة سمحت لي أن أفكّر أنها كانت قد تعرفت عليّ. بدا لي أمراً صعب التصديق. تقدمتُ نحوها خطوات وأصبحت في مواجهتها تماماً، لكنها ظلت عديمة الإحساس، الأمر الذي أثار استغرابي بشدة. كان هذا غريباً للغاية. وعلى الرغم من معرفتي بما كنتُ أجازف به، لم أستطع أن أكبح جماحي في أن أبادر لإيف شخصياً. قالت:

– اعتقدنا أنك كنتَ قد حبست نفسك لكتابة رواية عن شارع فانو، وأن إزعاجك أمر لا يُغتفر – أوضحت لي إيف بعفوية بعد فترة وجيزة.

لم أعرف ما أرد عليها. لقد انهارت فجأة، رفعة عالمي في الاختفاء.

– ظننا –واصلت إيف– أنك ولجتَ صومعتك الإرادية، وفضلنا احترام العزلة التي اخترتها للعمل. لكن، حسن، سرُرنا كثيراً برؤيتك. تكتب رواية حول شارع فانو، صح؟

كنتُ صورةً حية للحيرة حتى قررتُ أن أتحدّث. قلتُ لها الحقيقة. لم تكن رواية على الإطلاق، بل كانت هوامش في الكرّاس، كتبتُ الكثير منها في شارع فانو، رغم أنني لمّحت في قسمها الأخير، أو تظاهرتُ بأنني كنت أكتب من باتاغونيا.

– آه! – قالت.

تدخل ميرميت وعلّق بأنه يتمنى الذهاب إلى تلك الأراضي النائية، والتجوال عبر السهول والتعرف على حياة الأهالي هناك.

– مؤكد أنه أفضل مكان للاختفاء – قلتُ –. الحقيقة أنني كثيراً ما فكرتُ أن السفر إلى باتاغونيا، لابد أن يكون شبيهاً برحلة نحو حدود مفهوم ما، أو كما الوصول إلى نهاية الأشياء.

– ومن ناحية أخرى – قالت إيف –، أراك الآن هنا، وأنا أعلم بأنك هنا فعلاً، لكن يبدو لي أنك غير موجود أيضاً.

– إذن أنت تعتقد أن الاختفاء هو الوصول إلى نهاية الأشياء؟ – قال ميرميت.

-9-

أفتح النافذة وأسمح لدخول هواء نهاية العالم النقي. إن يكن لديك عمل أدبي، فلابد أنه ضاع إلى الأبد في أوروبا، في مغاسل الطابق الأرضي من فندق لوتيتيا الكائن في جادة راسبايل على بعد أربع خطوات من شارع فانو. بعد لقائي بإيف وميرميت قررتُ أن أنتقل إلى هذا الفندق القريب من السويد، إذ بدا لي أنني يجب ألا أظل في هذا الفندق، ولا دقيقة واحدة، كان لابد من الاختفاء من الواقع. ذهبتُ إلى لوتيتيا الكائن عند الزاوية. مسافة يسيرة في باريس. ذهبتُ إلى لوتيتيا لأفكر بما كنتُ قد عقدتُ العزم على التفكير به في أول دخولي فندق السويد، أي، ما سوف أفكّر به، أو بالأحرى،

لأتساءل، والله، عن المكان المثالي لأغيب نفسي، مرة واحدة وإلى الأبد، عن ضوضاء الدنيا.

أتذكر دخولي إلى فندق لوتيتيا، حيث افترضتُ البقاء فيه لمدة لا تزيد على يوم أو يومين، الوقت اللازم الذي أحتاجه فقط في اتخاذ قرار بشأن المكان المثالي الذي ألجأ إليه. وأتذكر بالضبط حديثي المختصر مع المرأة الطويلة الشقراء في المساحة الواسعة للاستعلامات التي كان ديكورها شبيهاً بدور السينما في الأربعينيات. وصلتُ حاملاً حقيبتي الحمراء وكيساً من الجلد الأسود. أخرجتُ جواز سفري، وطلبتُ منها غرفة. وقّعتُ بعد قليل على استمارة، أعطتني بعدها مفتاح الغرفة.

- اسمي باسافنتو، أنا الدكتور باسافنتو. لكني أجيب عبر الهاتف أيضاً على أولئك الذين يسألون عن الدكتور بينشون - قلت.

رفعتْ موظفة الاستقبال حاجبها، في إشارة لأعيد عليها أو أوضح لها ما قلته تواً، لكن الأمر لم يكن كذلك، لأنها بالتأكيد كانت مهنية جداً وتحب أن تظهر أمام زبائنها بكمالية فائقة. لم تطلب مني سوى أن أضع اسم عائلتي الصحيح، بينشون، على الورقة.

- حسنٌ سيدي. سوف ترد أيضاً على المكالمات التي تطلب الدكتور بينشون. ها هو المفتاح، سيد...

لاحظتُ أنها نسيت اسم عائلتي. وعلى نحو فطري التفتُ إلى الوراء، نحو الشارع، وحدقتُ فيما وراء جادة راسبايل، باتجاه شارع فانو، ثم قلتُ لها:

- الدكتور، الدكتور باسافنتو.

المغاسل والحرية

حين استحوذتُ على غرفة الفندق الفسيحة والمطلة على جادة راسبايل، تذكرتُ قراءة حديثة للرحال وكاتب المقال الإنكليزي ويليام هازليت الذي وصل، بعد رحلة على الأقدام، إلى خان. لم يتعرف إليه أحد قط. كان التنقل متخفياً، مغامرة شيقة جداً بالنسبة إلى هازليت: «دون عبء الاسم، أشعر بأني سيد نفسي».

ثم، ومثلما كنتُ قد قررتُ سابقاً، طبّقتُ على أرض الواقع، حركات

الحرية التي كنتُ قد فكرتُ في القيام بها في واحدة من *«تواليتات»* ذلك الفندق الفاخر الذي لا ينبغي نسيان ماضيه المُرعب، إذ كان مقراً عاماً للنازية في سنوات الاحتلال الألماني. ذهبتُ إلى الطابق السفلي، حشرتُ نفسي في أحد مغاسل الرجال، وعزلتُ نفسي فيه، محاولاً ألا يراني أحد، في علاقة حميمة هادئة مع همس الماء الذي قال لي: «افعلها، قم بها». أخرجتُ القلم الذي اشتريته لهذه المناسبة، وكتبتُ في أعلى الجدار بلغة إسبانية (حتى يصعب مسحها) شيئاً مبتذلاً جداً، يخلو من أي جمال:

«سيداتي وسادتي، من أجل مصلحتنا،

لا تفعلوها على الغطاء، بل في الفتحة»

احتفظتُ بالقلم بعد أن انتهيت من هذه المفخرة. فتحتُ الباب، واختلطتُ مع نزلاء الفندق من جديد. وبقيتُ أفكّر، بما أنني لم أكن قد فعلتُ شيئاً ساحراً في حياتي، ربما، فقد وجدتُ في القيام بهذا الشيء... شيئاً غريباً ومُثمِلاً، ربما بسبب الدليل الرهيب للكتابة المقترنة بالغياب المطلق للمؤلف الذي كان من المستحيل اكتشافه. وكذلك بسبب الحقيقة في أنه كان شيئاً أدنى من قدرتي الإبداعية، مما يمكن تسميته بالمتعة المفرطة للتلاشي في المناطق الدنيا من موهبتي.

يا لها من طريقة مثالية جداً للكتابة، دون أن أكون مرئياً، فكرت، يا لها من طريقة أكثر من رائعة في ألا يزعجك الذين شاهدوك ذات مرة، على سبيل المثال، على شاشة التلفاز دون أن يتذكروا الجائزة التي فزتَ بها، لكنهم يشعرون بواجب تهنئتك على هذا الفوز، وأنتَ تشعرُ بأنكَ ملزم أن تكون لطيفاً، لأنكَ ما زلتَ تعتقد بوجوب الحفاظ على مجدك.

غادرتُ مغاسل الحرية وصعدتُ إلى غرفتي وكتبتُ رسالة أودعتها بعد ساعات (باسم إيف) لدى استعلامات فندق السويد:

«من المحتمل أنه لا أحد، بدءاً من هذا اليوم، سيعرف أخباراً عني على الإطلاق. فلا يعتقد أحد أنني كنتُ مختطفاً من بعض الوحوش الضارية من كوكب نائي، لأنني أنا نفسي مختطف نفسي. إن الإرهاق والجهود المُضنية التي بذلتها في هذا العالم لتحقيق الرفعة والشهرة، لم أقم بها لأجل نفسي. أريد أن أختبئ من الجميع وعن الجميع، ولا أُضطر ثانية إلى الظهور في

الأماكن العامة، ولا أن أعيش وسط الدسائس المُخيبة في عالم الأدب. أتمنى أن أعيش حياة سالنجر، مثلاً، أو توماس بينشون، أو ميغيل باوشا، كاتب مخفي وسط برشلونة يعرفه البعض باسم «سالنجر الكتلاني». أريد أن أعيش حياة كل هؤلاء الكتّاب الذين أحبهم لأنهم تمكنوا من مواصلة الكتابة والحياة من دون أن يزعجهم أحد.

«سأواصل الكتابة، لكن خلافاً لطريقة سالنجر، بينشون وباوشا، ولن أفعلها من أجل النشر، لأنني سأتخلى عن النشر أيضاً. سأحاول أن أعود ذلك الشاب الذي كان يكتب دون أن يفكر في النشر حتى، والذي تركه الآخرون بسلام. وربما هذه هي الطريقة الأمثل لكي أتمكّن من العودة لأكون ذلك الشاب الذي يستيقظ عند الفجر مرتدياً بيجامته والشال على كتفيه والسيجارة بين أصابعه، بعينين مثبتتين على ريشة المدفأة، وهو يشهد ولادة يوم جديد، مستسلماً بانتظام لا يهدأ ومثابرة جادة، إلى الطقس الفريد الذي يعينه على خلق لغته الخاصة. هذا ما سأحاول أن أستعيده. سأقوم بذلك في بلد نائي، بعيداً عن أنظار الجميع. سيكون الوقت الجديد هناك، قاسياً جداً كما يقول رامبو. سأعرف كيف أكتب من أجل وهدتي الشخصية. ومَن يعترض طريقي، سأخبره بأني أبحث عن الحقيقة. سأقول له إنني في حالة غياب وابتعاد، لكي أتمكّن من أن أحيي الجمال».

-10-

نكتب لنختفي، لنغيّب أنفسنا. على أرض باتاغونيا هذه، تراكم الكثير من الجمال لدرجة يصعب تثمينه. لكن نعم، أحياناً، أُبدي إعجاباً منقطع النظير أمام جمال أتفه الأشياء، ولا أستطيع تجنب ذلك الأمر سواء أمام عشبة صغيرة عند الغسق، على سبيل المثال، أو أمام جمال شيء ضخم، أو أمام ميدان أخضر يرعى بداخله ثلاثة آلاف رأس من الماشية السوداء، مثلاً.

نختفي ونغيب أثناء الكتابة، ونكتب لكي نغيّب أنفسنا. ربما مع الاختفاء النهائي، يحين الوقت الحقيقي للكتابة. على أية حال، وصلتُ إلى نهاية الأشياء. انتهيتُ من رحلة باتاغونيا، وصرتُ أنسلّ كل يوم، تاركاً العالم الخارجي ببطء. احترقت رئتاي بهواء الأرض واسمرّ جلدي بسبب مناخها

القاسي. صارت أعضائي مكسوة بالحديد تقريباً (مثلما حصل مع رامبو) وبشرتي داكنة جداً، ونظراتي شرسة بما فيه الكفاية. لكني لن أعود إلى أوروبا. بعد الآن، لن أتحرك من هنا. بعد كل شيء، أنا قادر تماماً على أن أحيا دون أن يتذكر أحد ما، ولو من بعيد، أني موجود. إنه انتصاري الكبير.

أشعر أني بخير في بيتي، رغم أنهم لا يملون من إخباري بوجود شبح فيه. صحيح أني كنتُ أسمع أصواتاً غريبة في الليل، لكني غالباً ما أفكّر بأنها تعود إلى الدكتور إنغرابايو أثناء نقله للأثاث. يُسعدني ألا أفعل ولا أقوم بشيء، لكن يروق لي أن أنقل الأثاث لتجميل منزلي. إن عملي كمساعد للدكتور التافيني، رائع، لأنني بالكاد أُضطر إلى القيام بشيء. أكثر ما أفعله خلال النهار هو انهماكي في تأمل الطبيعة، هذا النشاط يعيدني إلى أيام شبابي السعيدة، حين كنتُ أمضي ساعات مستلقياً على أرض قاحلة مُحدقاً في السماء، وعقلي في حالة من البراءة الخالصة، مشغولاً بمفرده، في عدم القيام بشيء.

خلافاً لما كان يحدث في الماضي، عندما كانت الكتابة وسيلة لإدارة مجدي المستقبلي، فإن تكريس نفسي في وقت متأخر جداً لهذه الملاحظات المقتضبة لا يمكن أن أعتبره بأي شكل من الأشكال عملاً، إنما متعة هائلة. من دواعي سروري أيضاً أن أغيب عن الوجود، لساعات محدقاً في العوارض الموجودة على السقف، بعض الروافد التي تذكرني بمكتبة مونتين، هناك في البرج حيثُ ولدت المقالة، تلك الروافد التي نقش عليها جملاً يونانية ولاتينية، ما تزال مقروءة من الزوار إلى يومنا هذا.

من الغرفة المواجهة المطلة على الجنوب، التي هي غرفة نومي، أستطيع أن أرى، بصورة واضحة جداً، شجرة الأومبو المتفردة العجوز، المتباهية بنفسها. على الرغم من أنها، مثل باقي أشجار فصيلتها، تنمو ببطء شديد، أعتقد أنني كنتُ أراها تنمو، وأنني أشهد اللحظة الآنية التي يحدث فيها ذلك. أكثر ما شدّ نظري إليها، أوراقها الكبيرة المسمومة -لحسن الحظ تم تحذيري في الوقت المناسب- بلونها الأخضر الغامق، التي تُشبه أوراق الغار.

سموم أينما أتلفت، أقول لنفسي، تمر اليوم 20 شباط، الذكرى السنوية

الأولى لاختفاء موريس بلانشوت. الأفعال والأفكار تتبدل في أعماقي، يوماً بعد آخر، رغم أن الأفعال -وهذا ما أرتجيه- ما تزال تنتصر، فيما تتضاءل الأفكار، وهذا لا يعني أني لا أفكّر. أفكّر، لكنني أحاول جاهداً أن أضفي على هذا الفعل صبغة السرية. أما الأفعال فتنحصر في تهيئة الحصان والتجوال، في عدم الاكتراث الدائم، بأي شخص مصاب بالجنون، لأنه لا أحد هنا مجنون، وتحديداً لأن العالم ليس كذلك. وهكذا، أجد عملي بغير قيمة مما يتيح لي ألا أقوم بأي شيء.

أنتظر أن يحل الليل حتى أتذكر شجرة الأومبو القابعة في الجنوب، وبلانشوت القابع إلى الشمال مني، وأريد أن أنقش على روافد السقف، مجموعة من الكلمات أصبحت منذ أيام، قِبلتي الشمالية الوحيدة:

«العمل المكتوب، يترجم رؤى كاتبه ويعبر عنه، لكن ما يقوم به، لا ينم إلّا عن ذوبانه، عن اختفائه، عن ارتداده، عن موته (رغم وحشية هذه الكلمة الأخيرة) الذي لم يتبق منه، من جانب آخر، شيء محدد».

مؤكد أن نهاية العالم تكمن في هذه الكلمات التي انتهيت من تدوينها في دفتر ملاحظاتي، على أمل أن أنقشها على العوارض الخشبية للسقف. نظرتُ ناحية الشمال حيث السهل المنبسط، ثم سرحتُ بنظري نحو الغرب حيث الأشجار العالية، الزرقاء من البعيد، التي تشير إلى موضع المنزل المجاور: مزرعة سانتا سيرينا. في بعض المساءات، أتشارك هنا عند الغروب، شرب الشاي مع الدكتور التافيني برفقة مرضانا، أنا الطبيب النفساني الوحيد في هذه المنطقة التي لا أعرف امتدادها. أرافق الدكتور التافيني في الجولات التي يقوم بها لصيد الطيور المتناثرة في المنطقة، لمصلحة مجلته الطبية الأسبوعية. ويتأكد لي يوماً بعد آخر، أنْ لا أحد منهم بحاجة إلى مساعدة نفسانية، إلّا إذا كان هناك شيء جسدي، فيكون من تخصص الدكتور التافيني.

إنهم فرحون بجنونهم، وانجرافهم الفريد، سعداء أن يرعوا الأغنام نهاراً، وفي الليل ينتظرون أن تشرق الشمس من جديد، ليتمكنوا من العودة إلى قطعانهم، أكثر سعادة وجنوناً. إنهم أحياءٌ دائماً ومجانين أبداً. ليسوا بحاجة إلى مصحة، بل إلى الهواء الطلق. أما أنا، فأعتقد، كما قال أحد الشعراء، أن بعض السماوات تدوزن أنظاري. تمر الأيام هنا، كأنها أسابيع، وليس من

الغريب أن تكون على هذا المنوال، لأن المرء في جميع الأيام، يرى الشيء ذاته دائماً عدا السماء، مختلفة. على أية حال، من السعادة أن تكون قادراً على القول -تعويضاً على أوجاع كثيرة قديمة- إنك تمكنتَ من رمي الهوية وراء ظهرك إلى الأبد، هذا العبء الثقيل جداً. أنا هنا بالنسبة للبعض، الدكتور باسافنتو، وبالنسبة للبعض الآخر أنا باسافنتو فقط. لهذا السبب أحاول في بعض الأحيان أن أجعلهم يرون، حين يكونون معي، باسافنتو بصفتيه إضافة إلى الدكتور إنغرابايو الذي لا أذكر اسمه حتى لا يعتقدوا أنه ظلي.

في جميع الأيام التي أخرج فيها من منزلي، أرى أمامي مجاميع كبيرة ومتنوعة من الشباب القاسين المنعزلين، منتشرين على مساحة شاسعة يتفرد فيها الصمت متضامناً معهم. أمد يد العون لهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وهم يفعلون مثلي -فنحن أشبه بمجتمع متحفظ وسري غير مُعترف به- وأشعر بالتعاسة الجميلة التي تجوب هذا البلد العاصف، في هذا المكان المُوحش، حيث أخرج وأعود في كل يوم تاركاً ورائي كل شيء، في محاولة غير ناجحة لتخيل ملامح الريح، والسير على الطريق النهائي الذي يرتكز على الخطوات التي تأخذني إلى هناك للدخول في ملجأي. أدخل منزلي وأتطلع إلى شجرة الأومبو، ثم أخبو مع نفسي دون ضجة دون كلمات.

-11-

حول نار المدفأة، تتدفق أحياناً القصص التي يرويها الإنسان الوحيد. «كنا نشرب الشاي في ساعات الشفق اللامتناهية»، قالها البارحة، العجوز رامون، صاحب الندبة المميزة على كتفه اليسرى. «كم كان عددكم؟»، سأله الدكتور التافيني. «زوجتي وأنا»، أجاب رامون. ثم ساد صمت قصير قطعه رامون، «كانت محاطة بالببغاوات والحيوانات الأليفة الأخرى. إنه أمر مُحزن، لكن هذا ما يطفو في ذاكرتي عن خوليا». صمت آخر. «لم أرَ زوجتك ولا الببغاوات. هل أنت متأكد من أن لديك زوجة؟»، سأل عجوز آخر يُدعى رامون أيضاً، على أننا ندعوه باسم عائلته روكا، لنميز بينهما. «أنا أعرفك منذ قرون»، أضاف روكا. «توفيت قبل عام من مجيئك، ولهذا لم ترها»، قال رامون. وران صمت كسره رامون بنفسه حين بدأ يروي القصة المؤسفة لوفاة

زوجته بعد بضعة شهور من استقرارهما في مزرعة سانتا تريسيتا. عندما ماتت زوجته، آمن بالحياة الأخرى، وهذا ما قاده منذ اليوم الأول للدفن إلى الأمل في أن تتواصل خوليا المسكينة معه قريباً جداً. «اعتقدتُ أنها لم تمت»، قال لنا، «وأنني سوف ألتقي بها عاجلاً. قلتُ لنفسي إنها لن تنساني، أينما كانت، وإنها سوف تأتي لتواسيني. كنت أجلس في كل يوم، حين يحل الظلام، في ركن من سقيفة منزلي، وأقضي ساعات طويلة في انتظارها. مؤكد أنها ستأتي، هكذا قالت لي. على الرغم من أنها أخبرتني أيضاً أنني لن أستطيع أن أراها ربما، لكن سيصلني منها همس في أذنيّ، ولمسة من يدها ليدي: علامة مُسلّم بها. كنتُ أنتظر كل ليلة أن تظهر لي عند زاوية السقيفة، لكن الأيام مضت دون أن تظهر مطلقاً. وصعدتُ إلى السقف لأنتظرها هناك. كنتُ أتأمل السهل وأرى أين ترعى خيول المزرعة، وأنتظر اللمسة أو الهمس، أنتظر أن تأتي إليّ. لكنها لم تصل مطلقاً وأيقنتُ ذات يوم في نهاية المطاف أنها ميتة. كانت قد تركتني وحيداً في العالم، بصحبة ببغاواتها، وحيواناتها الأليفة الأخرى. بقيت على الأرض فقط مع تلك الحيوانات التي نفقت جميعها أيضاً. ليس بحوزتي الآن منها سوى هذه الكلمات وهذه العاطفة، ذكرى الببغاوات واليقين بأنه لا حياة بعد الموت».

«إنها قصة حزينة»، قال روكا، «لكن لو كانت صحيحة، لكنت قد أخبرتني عنها من قبل. أعتقد أنك تخترع ذكرياتك».

-12-

ذهبت اليوم إلى المدينة للمرة الأولى، ذهبت إلى «الكالافاته». رحلة طويلة بالسيارة، لكي أرى، من بين أمور أخرى، كيف يأتي الربيع هناك. كانت هناك طيور السنونو، الجنكوليتو، الزقزاق والعقعق. وكذلك الغيوم والسياح. واستحالت الغيوم إلى مطر خفيف عابر. فُجعتُ، لأنني اشتريتُ صحيفة وعرفتُ مأساة محطة آتوجا في مدريد، بسبب هجوم نتج عنه حوالي مئتي قتيل. مذبحة مُرعبة. بقيتُ مثل الأبله أنظر إلى السماء مفكراً في عربة الجنائز التي *تتسكع في باريس*، تلك العربة التي خطرت لي فكرة اختراعها في آتوجا، منذ ما يقارب ثلاثة أشهر.

في منزلي من جديد، ليلاً، تابعتُ الأخبار غير مصدق، وانتهى بي الأمر إلى الخروج وصعود الحصان. قطعتُ بضعة أميال وزرت الدكتور التافيني. قصصتُ عليه الإحساس الذي كان يلاحقني في أن تكون هناك علاقة ربما برؤية خطواتي في آتوجا، واختراع عنوان لكتاب غير موجود، مع مجزرة مدريد. شرحتُ له أنني كنتُ أشك دائماً أن ما أكتبه يتحقق على أرض الواقع، حتى وإن كان بطريقة مشوَّهة. نظر إليّ الدكتور التافيني نظرة يشوبها عدم اليقين ووصفني بالمغرور.

«كلماتك تؤكد لي مدى تنوع أشكال الغرور في هذا العالم»، قال لي. لم تستطع عبارته أن تسعفني كثيراً، بل حررتني، لأنها رمت عني عبئاً ثقيلاً، بينما سمحت لي أن أتأكد من أن الدكتور التافيني هو إنسان حاد وعاقل للغاية، مثلما عرفت عنه، وغالباً ما يأتي في الوقت المناسب على أرض الواقع، حين تنشر رياح الجنون دماراً كبيراً.

تناولنا شراب الويسكي معاً، وعدتُ بعدها إلى المنزل على الحصان نصف نائم، الحصان الذي كان يكبر في عيني يوماً بعد آخر، لأنه يعرف مسار المنطقة جيداً، فكان يتقدم ببطء نحو ملجأي المتواضع. ترجلتُ بعدها ومشيت في الطريق الأخير. ما إن سرتُ بضع خطوات حتى وجدتني في بيتي. حدقتُ في شجرة الأومبو ثم انسحبتُ إلى نفسي دون ضجة دون كلمات.

واسترجعت على الفور الحلم الذي كان يراودني في أن أركب حصاناً، وعدتُ إلى النوم مرة أخرى، لكن هذه المرة كنت أحلم أني أركب فوق ظهر بومة مستحيلة، بومة عملاقة. مؤكد أنها كانت البومة التي اكتشفتها، منذ وقت قريب، في أعلى مخزن الحبوب الذي كان يستخدمه المالك السابق للمنزل، لخزن الحطب. أما الآن فليس فيه سوى براميل الدقيق الفارغة، مكدسة بعضها فوق بعض. رؤية البومة في واحد من هذه البراميل، سبب لي صدمة كبيرة، ربما لأنني لم أكن أتوقع وجودها. وجدتها فجأة تُمسك بين مخالبها فرخ حمام نافقاً، ووجهها الممتلئ بالوعيد تلفت نحوي. تأثرت كثيراً لدرجة انتهى بي الحلم لأتحول إلى حصان.

استيقظتُ على وقع أقدام شبح في المنزل. ولكي أبعد الخوف عني،

تخيلته الدكتور إنغرابايو، يقترب مني، في محاولة لإضفاء روح الدعابة إلى الموقف، ويسألني: «قل لي دكتور باسافنتو، هل تدخن عندما تشعر بالمرض؟». صمتٌ طويل. من الواضح أنه سؤال تافه، لكنه فعّال. من أجل أن تهرب من الشبح، من الأفضل احتواؤه بداخلك. مؤكد أن شبح اليوم قد سبب لي قلقاً، لأن صوته لم يعد مختلفاً عن صوت المغني ريجياني. صوته ذكرني بصوت صديق ميت.

-13-

في هذه الليلة، تطلعتُ من نافذة غرفتي. حدقتُ في القبة الزرقاء، وخاصة النجمة سيريو، في محاولة مني للاقتران بشارع فانو النائي. بطريقة ما، تصرّفتُ مثل رامون المسكين عندما كان يبحث عمّا يوصله بزوجته المتوفاة. ولفترة غير قصيرة، ظلت أنظاري مُسمّرة على سيريو. من الغريب أن يتواصل اعتقادي أن تلك النجمة هي الأكثر توهجاً في السماء بأجمعها بينما والسر كان وما يزال النجم الأكثر عتمة في عالم الأدب.

لفترة طويلة بقيتُ أنتظر همسة في أسماعي أو لمسة يد غريبة تداعب يدي، أو أية إشارة من العالم الآخر لتعيدني ولو للحظات إلى شارع فانو البعيد لمعرفة ما كان يحدث في ذلك الوقت بالتحديد.

لقد تذكرت ذلك اليوم في كابري، عندما كنت لا أعرف كيف أمهّد لظهور شبح مفاجئ في كتابي الأول، فقمت بنقل مشكلتي إلى برناردو إتساغا، الذي استمع إليّ بصبر ثم أخبرني أن الأمر بسيط للغاية، يكفي أن أكتب أن شبحاً كان قد ظهر لي.

ركزتُ على سيريو وذهبتُ إلى نهاية العالم بحثاً عن الشبح غير المرئي، الروح الخالدة لباتاغونيا.

همست الريح في أذنيّ، وكل شيء كان في عجلة. كان الوقت نهاراً في باريس. أحد الكتّاب الذين ذكروني بألفارو موتيس، كان يتقدم برفقة امرأة، في جادة باك، وتوقف أمام رقم 120. مبنى أنيق. كانت تعتلي باب المرأب الكبير، لوحة تذكارية لرينيه شاتوبريان الذي وافته المنية هنا عام 1868.

«هنا كان يرقد الفيكونت في أواخر أيامه»، قال الرجل الذي يُشبه ألفارو

موتيس بروح مكفهرة. «كلما أعرّج على باريس، أقف أمام هذه النوافذ وأتخيل العجوز المسكين شبه المنسي، شاتوبريان. كان يجوب طرقات هذا الحي بشعره الأبيض الأشعث، وملامحه التي تحمل الكثير من الرومانسية، كأنه يخرج من رواياته الخاصة».

«مخترع الكآبة الحديثة»، قالت هي.

ضربة ريح جديدة في أذنيّ. استطعت أن أرى حينئذٍ أن الرجل لم يكن يشبه ألفارو موتيس، لكنه الكاتب الكولومبي ألفارو موتيس بنفسه.

«كان شاتوبريان»، سمعته يقول، «يمتلك روحاً رائعة». عاش هنا مع السيدة ريكامير. تلك المرأة التي كانت على قدر كبير من الجمال القنصلي والإمبراطوري، أصبحت بالنسبة إليه الرفيقة المخلصة، بما تحمله من طيبة ولطف وحنان لا يُوصف.

اختلسا نظرة على خارطة باريس. «انظر، شارع فانو»، قالت. «إلى اليمين ثم إلى اليسار. لدينا موعد هناك مع أندريه جيد»، قال.

تذكرت السطور الأولى من الفصل التاسع من مسرحية رايويلا، للكاتب خوليو كورتاثار: «عبر شارع فارين دخلوا إلى شارع فانو. كانت السماء تمطر رذاذاً، فيما كانت ماغا ما تزال تتأبط بقوة أكبر ذراع أوليفيرا، وضغطت نفسها على معطفه الواقي من المطر، الذي كانت تفوح منه رائحة الحساء البارد».

«لبضع ثوان، فقدتُ أثرهما، حتى عادا إلى الظهور في 1 مكرر من شارع فانو. «ها هو ذا»، قال موتيس بصوتٍ بدا كأنه يرتجف من التأثر: «المنزل الذي كان يقطنه في الطابق السادس. هنا عاش جيد مع السيدة الطيبة لمدة ستة وعشرين عاماً. هنا توفي جيد في عام 1951. كانت ميتةً مثيرة للإعجاب هادئة وناضجة».

التزما الصمت لبضع ثوان محدقين في نوافذ الطابق السادس، حيث تحركت ستارة في إحداها على حين غرة. كان الأمر كما لو أن جيد والسيدة الطيبة قد ألقيا نظرة خاطفة للحظة. ابتسم موتيس وتابع حديثه: «أنا مفتون بعلاقتهما الغريبة. كان جيد، الذي تعامل في النهاية مع مثليته الجنسية، يعيش بعيداً عن زوجته دون أن يطلقها. حين ترمّل، اقترحت السيدة الطيبة، صديقته القديمة والأرملة أيضاً، ذات يوم في أحد المقاهي أن يحزما حقائبهما ويعتنيا

بعضهما ببعض. وافق جيد وانتقلا إلى 1 مكرر من شارع فانو. حملا معهما فن العيش معاً بأبهى صوره. كانا متفاهمين على نحو مثالي على الرغم من شخصيتهما القوية جداً، والحياة الشخصية التي كان يعيشها جيد. كانت تجمعهما مودة مطلقة. علاقة حب مع صداقة قوية للغاية، وتوافق ضمني على عدم اضطهاد أحدهما الآخر أبداً، وعدم الحد من حرية اتخاذ القرار واختيار المصير الذي يتمتع به كل إنسان».

«علاقة متحضرة جداً»، قالت.

«لا أعرف»، أجاب موتيس.

واصلا سيرهما في شارع فانو. عند مرورهما أمام السفارة السورية، لم يلقيا عليها ولا حتى نظرة. الشيء ذاته حدث مع قصر شاناليز وصيدلية دوبيرو. كانا يتجاهلان جميع هذه الأماكن المألوفة لي. مؤكد أن الشك لم يراودهما إطلاقاً في وجود تهديد خفي في شارع فانو. وأدركتُ مدى بعد عالمهما عن عالمي. بعد كل ذلك، كنتُ آمل أن يلقيا نظرة على فندق السويد أثناء تجوالهما في الشارع، وبهذه الطريقة، أكون قد عرفتُ أنهما لن يتركاني وحيداً في هذه الحياة. لكنهما بصمتٍ، كانا قد تجاوزاه أيضاً، مطرقين. كأن التهديد الصامت في هذا الشارع، كان يُصدِر إشارات، لم يكونا قادرين على التقاط واحدة منها.

رأيتهما يتوقفان أمام شقة ماركس الفاخرة، فقط من أجل إلقاء نظرة على خارطة باريس. ولوهلة بدا لي أنني أرى جيني ماركس تطل من النافذة. «في نهاية الشارع، في جادة السويد تحديداً، يوجد المترو الذي يحمل اسم مترو فانو، على الرغم من عدم وجوده في هذا الشارع»، قال موتيس.

غذّا سيرهما فشعرتُ للحظات بأنني كنت أرافقهما. لدى وصولنا إلى شارع سيفرز، انعطفنا إلى اليسار، وعلى بعد أربع خطوات من مدخل المترو، وقفنا أمام نافورة «الفلاح» العامة، وهي نافورة في غاية الجمال أُنشئت في بداية القرن التاسع عشر، وظلت أحد شواهد أيخيتوفيليا الذي استولى على باريس في ذلك العهد. وللحظات تسمرنا أمامها بإعجاب. ثم نزلا إلى المترو، وسمعتُ موتيس يعلّق أن خوليو كورتثار اعتاد أن يقول ليس كل الناس الذين ينزلون إلى مترو باريس، يعاودون ظهورهم على السطح

لاحقاً. ولم أنزل أنا. عدتُ أدراجي. ومن جديد ركزتُ على نجمة سيريو. همس الريح في أذنيّ. وكل شيء كان في عجلة.

بعد فترة وجيزة، ومن مكان ليس له علاقة بباتاغونيا (نهاية الأرض التي تظاهرتُ، مرة ثانية، أنني أكتب منها)، أرسلتُ بريداً إلكترونياً إلى الجميع، إلى جميع عناوين البريد الإلكتروني الموجودة لديّ على الإطلاق. ولكي أكون دقيقاً، قمتُ بإرسالها من فندق لوتيتيا الذي أمضي فيه اليوم ليلتي الثالثة والأخيرة. ثلاثة أيام وأنا أفكّر خلالها أين يمكن أن أعيش في الوقت الذي كنتُ أقول في دفتر ملاحظاتي إنني في باتاغونيا.

من هذا الفندق في باريس، على بعد أربع خطوات من شارع فانو، من غرفة الإنترنت الخاصة به، بعثتُ رسالة إلى الجميع. رسالة الوداع الأقصر وربما -من المحتمل أن تَصِل- الأكثر فعالية من الرسالة التي تركتها في استعلامات فندق السويد، باسم إيف. وداع إلكتروني موجه للأصدقاء والمعارف القدامى، وكذلك للأعداء، للجميع:

«معكم الدكتور باسافنتو الذي يختبئ في عالم التلاشي السعيد. مختف (كما يعرف البعض منكم) في باتاغونيا. لا أعتقد أنه سيكون من الممكن أن تجدوه في هذا الفضاء الشاسع الذي يعيش بداخله، فلا تحاولوا. يريد أن يشعر بالابتعاد عن الجميع، أن يعيش حياة رائعة - صفراً على اليسار -، ككاتب لا أعمال أدبية له، كجندي منسي لنابليون».

بعد أن أرسلتها، دخلت في وضع اعتبرته مثالياً، حيث بدا لي أنه إذا قرر شخص ما البحث عني من الآن فصاعداً، فأنا واثق تقريباً أنه سيقوم بذلك في باتاغونيا -أنا على قناعة تامة من الأمر «كما يعرف البعض منكم بالفعل»- سيبحث عني حيث لا أكون ولم أكن مطلقاً. أخال أنني نوّهت للجميع بأنني في باتاغونيا، بينما أنا في الحقيقة على بعد مئات الكيلومترات منها. لقد فكرتُ في والسر حتماً عندما تحدث عن هذا المجون الغريب المتمثل في «الابتهاج سراً حين تتأكد أن أحداً ما اختفى قليلاً». في حالتي، هو أكثر من «قليل»، سوف أختبئ بالكامل.

في الأيام الأخيرة، كتبتُ كأنني في باتاغونيا، هذا صحيح، ولكني في واقع الحال كنتُ في لوتيتيا أثناء حملي لدفتر ملاحظاتي كمساعد للدكتور

التافيني. أما الآن، وقبل دقائق من مغادرتي للوتيتيا وباريس إلى الأبد (لأنني هذه المرة، نعم أغادر باريس، دون أن أكون حروناً)، أرسلتُ هذا البريد الإلكتروني الجماعي حتى يبحثوا عني في المكان الخطأ. أظن أنني سأكون قادراً في النهاية على تحقيق أنبل طموحاتي، في أن أصبح الدكتور بينشون.

-14-

في الآونة الأخيرة أضحى التهميش، الغياب العادي، عشقي لوالسر، التعاسة الجميلة، فرحة التجوال المستمر، والنوم مع ليديا، من النشاطات المفضلة لديّ.

تبدو كثيرة، لكنها في العمق قليلة. استرجعت الحيوية الجنسية، وهذا ما أدخل الفرحة إلي. أخيراً، تمكنت من أن أتفوق على الإخفاقات التي كانت قد نتجت عن قصص الحب، بعد أن تركتني منغلقاً على نفسي. في يوم الأربعاء من كل أسبوع، اعتدتُ أن أزور بيت السيدة كربالو للدعارة، حيث ألتقي مع ليديا، التي أقضي برفقتها ساعات طويلة مستمتعاً بنعومة فاحشة. كانت اللذة التي تمنحني إياها ليديا مطلقة، رغم أن العلاقة التي تربطنا تعاقدية بدقة (أيام الأربعاء، في وقت محدد)، أعترف، أو بالأحرى، أقولها في نفسي، إنني أصبحت أشعر بشيء من المودة نحوها. بل ارتأيت أن أقترح عليها أن نرى بعضنا في ساعات فراغها، ولكنى لم أتجرأ وأقرر مصارحتها بذلك. ماذا تعمل خارج بيت الدعارة؟ كل ما أعرفه، أنها تعيش مع أسرة في «الحي العالي»، وتقول إنها في التاسعة عشرة من العمر، إلّا أنني أشك أنها أصغر من ذلك. أظنها تكذب في كل شيء، ولكن، بطبيعة الحال، هذا لا يعنيني كثيراً. غالباً ما كانت تراودني فكرة اقتراح الخروج معها في إحدى ساعات فراغها، من أجل تناول الغداء قرب البحر، والاهتمام بها أكثر. ثم سرعان ما انتهيت إلى التفكير أنه ربما يكون من الأفضل الاكتفاء بأيام الأربعاء. أظن أن الأمور ستكون أكثر تعقيداً، خارج بيت الدعارة. ثمة أيام، أحس خلالها بالغيرة من الزبائن الآخرين، ولما يأت يوم الأربعاء بعد، وأتساءل كيف يكون غيري من الرجال الذين تستقبلهم في السرير. أحياناً، أتعذبُ بنوع كهذا من التساؤلات.

تحسنت حياتي منذ أن غادرت اللوتيتيا وباريس ووصلت إلى هذه المدينة. نادراً ما كنتُ أكتب، أو، في كل الأحوال، كنتُ أمارس الكتابة في أوقات متباعدة، غالباً ما تكون في آخر المساء، وتكون بالطبع في كل مرة أكثر قرباً لنفسي. أسلمتُ نفسي لممارسة الجنس دون حب، وأظن أن هذا ما جعلني أستكين أكثر. وأخيراً، وفوق كل شيء، استسلمت للفراغ، مع كل الإيجابيات التي منحني إياها استسلامي له، لأنه يحمل معه، خاصية التفكير. من جهة أخرى، بدأت أذهب إلى السينما، أتجول كثيراً، أتناول القهوة في جلسة سمر الأطباء النفسانيين في «فرينوباتيكو مونينيمبو»، أشتري كتباً من «باتانكافو»، وهي مكتبة جميلة. في بعض الأحيان، أمكث في غرفتي بعينين مفتوحتين وكلّي غائب. حين يحدث هذا، يعني أنني منغمس في التفكير. لم يعد لدي أية رؤى مسبقة مثل قبل. يمكنني الآن أن أتفرغ للتفكير دون تأنيب الضمير، لأني *لا أقوم* بشيء، أو أن أذهب إلى الاتجاه المُعاكس، دون أن يسيطر عليّ الانطباع الذي كان لدى والسر، في أن التفكير يجعل الأمور كلها أكثر تعقيداً، وأن الله، بالتأكيد، مع الذين لا يفكرون.

بين فترة وأخرى، ينتابني شعور بالندم، بمعنى أو بآخر، وأجد العذر المثالي لكي أسمح بأن تنتابني فكرة كتابة نص نثري وجيز على إحدى القصاصات الورقية، دون أن أفكّر بها حتى. لم يعد لي ميل كبير للكرّاس، رغم أنني الآن تحديداً، أقوم بالكتابة على أحدها. لكن الحقيقة أن رغبتي في التخلي عن المولسكيني كانت تتنامى في أعماقي يوماً بعد آخر، ومعها يضج التوجه نحو شيء أكثر هشاشة، كالانصراف إلى القصيدة المكثفة التي تتخللها عبارات ناشزة، قريبة بشكل عام من المقال. استهوتني فكرة ترك نوع الورق والشكل يحددان ما يكتب القلم، بمعنى، أنهما يحددان مسار الكتابة، وأيضاً رسم النهاية في الكثير من الأحيان. لكني في الحقيقة وبشكل عام، بالكاد أكتب، أو أفعل ذلك من وقت لآخر. أنا أُشغل نفسي أكثر في تهيئة الأفكار، بيد أني لا أسطرها ولا أنقلها على الورق فيما بعد، وكم فرحت بعد تسطير شيء منذ مدة، كما لو أنني بهذه الطريقة أبعد نفسي عن مصيري، ككاتب منهمك في نشر ما كان يكتبه.

لقد حققتُ، وبسعادة، كل ما كان يبدو لي مخيفاً جداً، وتمكنتُ من أن

أتحول إلى أحد الكتّاب الذين، سواء يكتبون على نحو غير مستقر دائماً أو لا يكتبون، أصبحوا مثل وحوش تائهة تمشي على حافات الجنون، ولكن حالتي تعتبر جنوناً مقيداً، يسمح لي أن أكون مُحترماً في أماكن متباينة المستويات، في بيت الدعارة أو في جلسة سمر الأطباء النفسانيين، مثلاً. جنون بحرية، دون حبس في هريساو. حياة قريبة من الحياة. حياة لا أحد من دون أحد، رغم أنني، غالباً ما أتظاهر كما لو كان لي أصدقاء. كثيراً ما أراني في جلسة سمر الأطباء النفسانيين في «فرينوباتيكو». يا له من اسم جميل، قلتُ في نفسي الآن. يا له من اسم في غاية العراقة، «فرينوباتيكو». يا له من اسم على الطراز القديم، «فرينوباتيكو». عفا عليه الزمن، مثل الكثير من الأشياء في هذه المدينة التي تعج، من جهة أخرى، بالتناقضات، فبالإضافة إلى احتفاظها بالقديم بصورة فاضحة، على سبيل المثال، تتوفر فيها قاعات سينما عصرية، مكتبات، وناطحات سحاب، حتى إن هناك مكتبة في أعلى طابق في «برج فونشال». في الواقع، ما هو قديم يتزاوج مع ما هو جديد بطريقة ممتازة في هذه المدينة التي يجب أن أصرّح بكل ما فيها، لأنها مكان مخيف ورائع في الوقت ذاته (مثل بيت الدعارة الذي أتردد عليه)، يجمعان الميزتين، ويبدوان مرتبطين بخيط بالكاد تراه العين، ولا يمكن التفريق بين هذا وذاك، وهذا يعتبر، بالتأكيد، واحداً من أكبر مفاتنها.

مرة أخرى، أقول لنفسي إن والسر كان قد نال نصيباً من الحظ الجميل الذي يُحسد عليه، وأهنئ نفسي على اقترابي، بحرية، من هذه الحالة المرغوب بها كثيراً. وساهم في حزني الهادئ في الآونة الأخيرة هذا الحب المُشترى الذي بسبب الموقع الجغرافي للمدينة والفئة السياحية التي تصل إلى هنا، تأكد لي أنه لا أحد يمكن أن يراني، من الذين يعرفونني في حياتي الماضية، وهذا الأمر منحني شيئاً من السلام الداخلي الرائع. هم أنفسهم، بعدم اكترائهم، ساهموا كثيراً في أن أكون غير مرئي، وفي ما يتعلق بحياتي، تمكنوا من جعلي أتحول إلى بينشون متقن، إلى روائي يكره الشهرة، وكاتب لا ملامح له، يفضل العيش من دون هُوّية، لدرجة لا نعرف عنه، سوى دراسته لهندسة الملاحة الجوية، وأنه كان تلميذاً لنابوكوف في جامعة كورنيل، وأنه يعيش في نيويورك، مسقط رأسه.

لم أكن أعرف كم كان سهلاً أن أكون بينشون. في هذه الليلة نويت أن أحتفل بذلك. «أنا أعرف مع مَن ستقوم بذلك»، قال لي الدكتور إنغرابايو، الذي شعرتُ أنه كان يضحك مقهقهاً. «كم من الوقت مضى على نسيانك لديزي الشقراء؟ هل سيحدث لك الأمر ذاته مع ليديا؟»، قال متسائلاً، ثم عاد للضحك. «لن يحدث معي ثانيةً»، أجبته، شارحاً له أن الأمر مع ليديا لا يعدو كونه، ببساطة، حباً مُباعاً في يوم أربعاء. قلت له، بطبيعة الحال، ليديا ليست قنبلة، هي صغيرة وحساسة وهي «استراحة»، بالإضافة إلى أنها ليست رشيقة وجذابة، ولا تنظر إليّ من شرفتها الوردية في غروب شمس كاليفورني. في النهاية جميعهن قمن بخيانتي. ليديا لا يمكن أن تفعل ذلك. لن تذهب أبداً إلى ماليبو، مثلاً، ولن تتحرك من هذا الميناء ومن هذه المدينة. قلت كل هذا للدكتور الذي كان غارقاً في الضحك. «ستخونك ليديا أيضاً»، قال لي.

-15-

اليوم هو أول شهر أيار. أفكّر في جيني ماركس، التي ولدت في شارع فانو، في مثل هذا اليوم، لكنها ولدت قبل وقت طويل من انتساب يومها (لأنه بالنسبة إليّ هو يومها)، إلى عالم عيد العمال. إليها أهدي السطور التالية، التي هي نتيجة قرار مفاجئ. بعد عدة أيام رائعة لم أكتب فيها شيئاً، قلت لنفسي، إن عليَّ أن أحمل قلم الرصاص مرة ثانية، ما دمتُ غير ملزم بأن أكون راديكالياً. قلتُ لنفسي، بما أنني أعمل مثل مفكر فارغ، واليوم هو عيد العمال، فإن الكتابة ستكون بمنزلة استراحة. عالمي أو العالم بالمقلوب. مَن يقول إنه سيأتي يوم في حياتي أرتاح فيه وأنا أكتب؟

منذ أسابيع قليلة فقط أصبحت، في الوقع كاتباً خفياً، يعرفونه هنا باسم الدكتور بينشون، لأنني أخبرت الكثيرين، عند وصولي إلى هنا، بأنني الدكتور بينشون، فاستوعبوا الأمر على طريقتهم. لستُ سوى كاتب خفي، لكنني لستُ، على الإطلاق، من الروائيين العصريين الذين يصلون إلى المدن من دون اسم. كلا، هناك الكثير من الأدباء الذين لا يرغبون حتى في تذكر أسماء الأماكن التي مروا بها. بما أنه مضى وقت طويل لم أكتب فيه

رواية ولم أحادث فيه أحداً غيري، أعتقد أنني أتحمل نفس مسؤولية أولئك الذين يكتبون ليُقرأوا.

أنا هنا أمام البحر، الميناء والهاوية، أرى خط الأفق من هذه النافذة في الطابق السابع من الفندق وأتجول في مخيلتي عبر طرق محفوفة بالأشجار في نهاية العالم الذي زُرع بعقلي، لكني لا أكتب من مكان من دون اسم. أنا أقوم بذلك من غرفة في فندق «ماديرا» بمدينة لوكنوو الجميلة. يقع الفندق على الواجهة الأمامية للشاطئ، ولو أن الوصول إلى الشاطيء وإلى الميناء الكبير، يستدعي المرور عبر الزقاق الشاسع المعروف باسم «بانكاسو» : عبارة عن ميدان أو فضاء مستطيل من الرمال الرقيقة، يبدو من النظرة الأولى كأنه أحد فروع جادة راسبايل، الذي تمت توسعته بصورة كبيرة. يخطر على بالي أحياناً أنني لم أتحرك من لوتيتيا أو من جادة راسبايل. لكن، حين أرى البحر، أتأكد على نحو جلي أنني لستُ في باريس. البحر. أراه الآن، أحمر اللون، ومن المحتمل جداً أن يتحول لونه رمادياً عذباً ورقيقاً عند الغسق. إنه البحر الذي تتلوى فيه، خلال هذه اللحظات الدقيقة، شرائط صفراء من الزبد القديم. حين أتطلع إليها، تغمرني نشوة غير مرتقبة. ميناء لوكنوو ساحر طوال اليوم. يخبئ مفاجآت للمسافر الذي لم يسبق له أن رأى خارطة المكان، وليس له علم بما سيراه في هذه المدينة الصغيرة الزاهرة الرائعة. خلف الفندق، مثلاً، تتحول ببطء إلى مدينة صمّاء تنتهي عند هضبة يطلق عليها اسم «الحي العالي»، حيث تعيش ليديا هناك. منطقة ذات أزقة صغيرة خطيرة وملتوية، تذكرني أحياناً بـ«برونيكس». في هذا المكان المُتدني، تثير انتباهك، الأشجار الأنيقة المُشذبة التي تبدو، مع هذا التناقض الفاضح لروائح الأزقة النتنة، كأنها تخرج من حديقة فرنسية. «إنها أمور تخص البلدية. يعجبهم إيهام الناس بأن هناك نظاماً وهندسة في أماكن تخلو منها»، كما قال الأطباء النفسانيون في مونينيمبو.

خلف هذه الهضبة العسيرة، خلف «الحي العالي»، وعلى مسافة كيلومترين من الفندق، تنتصب الغابة العذراء. منذ أن وصلت إلى هنا، وأنا دائب التفكير في أن يُستبدل اسم لوكنوو ليصبح «ميناء الغابة»، رغم اسمها المثير جداً. هذه المدينة في كل الأحوال (باستثناء الاسم الذي لا

يبدو الأنسب لها، لكنه جميل جداً ويروق لي، لأنه يوحي كأنه «مكان جديد» أو «لوكوس سولوسز»، أي، «المكان المتفرد»، رواية لرايموند روسيل، فُتنتُ بها حين قرأتها منذ سنوات) تشبه إلى حد ما تلك التي كنت أتخيلها. يتحدثون اللغة الإسبانية تقريباً، على الرغم من أنه ممكن أن يُقال إن الإسبان هم الذين يتحدثون تقريباً كما يتحدثون هنا. السياحة هنا انتقائية وقليلة، إذ تقتصر على البريطانيين. لا يؤمها زوار كثيرون، مما لا يمنع أن يكون لدي خوف دائم من أن يتعرف عليّ أحد. هناك مجموعات صغيرة من الإسبان والكاتالانيين، لكني لا أخشاهم. عندما أصادفهم، من حين إلى آخر، أفضل التفكير في استبعاد احتمالات أن يتعرف عليّ أحدهم. من جهة أخرى، يمكنني الرد مثلاً، على شخص ثقيل الدم، زميل المدرسة، أو صديقة حبيبة قديمة، أو حتى على قريب بعيد، تجرأ على القدوم إلى هذا المكان الغريب، بالقول إن الأمر اختلط عليه، وبأنني أنا باسافنتو. حين وصلت إلى هنا، قمت بصبغ شعري بالأحمر، وأطلقتُ لحيتي، وبدأت ألبس نظارات شمسية سوداء، وصارت قبعتي من اللباد، التي ورثتها بطريقة غير مباشرة من والسر، تلازمني باستمرار. حتى طريقتي في اللبس تغيرت كثيراً. أردت أن أكون شخصاً يصعب التعرف عليه. أحياناً، خلال الأيام التي أفضل أن أمشي فيها شبه مجنون، أطلق على نفسي تسمية المجنون ذي الشعر الأحمر. تسعدني بصورة مفرطة هذه الأيام التي أخدع نفسي فيها، هائماً على وجهي، موجهاً تحايا الفرح بسخاء إلى بعض الأصدقاء أو إلى معارف زنوج، بل إنني أسير مثلهم على إيقاع سالا دي بلو.

مواطنو لوكنوو المنحدرون من أصول زنجية يمثلون ثلاثة أرباع السكان. خلال الليل، يتناهى إلى سمعي غناؤهم، فأقول إنهم يدندنون بعض الأغاني القديمة لأجدادهم العبيد. قمت بتسجيل واحدة من هذه الأغنيات، أغنية أثارت فضولي، لأنني لم أفهمها ولن أفهمها أبداً، وهذا أمر يُشعرني براحة كبيرة، حيث، يمكن أن تحدث، خلال الشهور الأخيرة، تغييرات مهمة في شخصيتي، لكني ما زلت كما أنا، أنجذب إلى أشياء، فقط لأني ببساطة لا أفهمها: «أيام من طين وشمس/ في صخرة كانتاريل / ثغرها من المرارة / بين خيوط لي أستول».

«مساء الخير، دكتور بينشون»، قال لي النادل العجوز الأسود، الطويل القامة، الذي يقوم على خدمة الغرف. كنت على وشك أن أسأله مَن هو لي أستول. كان قد أحضر لي الطعام إلى الغرفة، لأني اليوم أشعر برغبة في عدم الاختلاط مع أي شخص، ولا الذهاب إلى جلسة سمر «فرينوباتيكو»، ولا إلى حانة فندق لوبانكو، حيث اعتدتُ أن أتناول قهوتي سابقاً، هذا الفندق القائم في أقصى شرق ساحة زقاق «بانكاسو»، حيث كنتُ أرفع رأسي لبرهة قصيرة، متوقفاً فيها عن الكتابة، لكي أتأمله لثوان. يروق لي هذا الفندق، وهذا المقهى أيضاً. لكنني اليوم لا أرغب في رؤية أحد. شاهدتُ النادل، لأنه لم يكن أمامي حلّ آخر سوى أن يجلبوا لي شيئاً أتناوله. لكنني اليوم لست لأحد. يعجبني أن أشعر هكذا، ويفتنني أن أقوم بتجربة هذه العواطف القوية، والإحساس أنني عندما أكون وحدي، فلا وجود لي. وإن لم يستطع أحد أن يتخيلني، فأنا، بطبيعة الحال، *لستُ موجوداً*.

اليوم أريد أن أستمتع وحدي بهذه الأحاسيس الرائعة التي تغمرني مع نسائم مساء لوكنوو. أنا أعيش حياةً جيدة هنا بالطبع بصفتي الدكتور بينشون، ولا يمكنني أن أتذمر. أشاهد أفلاماً جيدة في قاعات المدينة المتميزة، وأحصل على صحف أسبانية ومجموعة وفيرة من الكتب، التي تروق لي قراءتها، أتجول عبر الميناء، وفي عموم المدينة، حيث أتحادث مع الأطباء النفسانيين (تأتيني أيام أفكّر فيها أن العالم ممتلئ بالأطباء أكثر مما أتصور)، أتأمل الخلود وسخافات أخرى، لديّ حبّ مدفوع الثمن، أشاهد مباريات كرة القدم الجيدة عبر التلفاز، والمباريات السيئة جداً حين أذهب إلى ملاعب لوكنوو وسبورتينغ. وأخيراً، حوّلت مهمة الكتابة إلى نشاط أمارسه في آخر المساء فقط، بحرية وحماس كبيرين.

أضعت المال في باريس، عن قصد، في مبادلات مالية غير متكافئة مع ذاك الصربي من حي «مارايس»، لكني كنتُ أعلم أني سأربح من العملية مستقبلاً، مهما طال الأمد. وتبخرت كل مساراتي الاقتصادية منذ البداية. طبقاً لحساباتي، بعد ثلاث سنوات لن أرى نفسي مضطراً للعودة إلى الشغل. لكني، حين أتأكد وقتذاك من استقرار وضعيتي المادية، سأفكر أن أستثمر عاجلاً ثلاث أو أربع، –ما أستطيع اقتناءه– شقق على البحر. لكن ثلاث

سنوات، من جهة أخرى، تبدو لي مدة طويلة، على الأقل في هذا اليوم. حسنٌ، صحيح أنني أعيش حياة جيدة لكن الحقيقة أنني متخف، وضحية كمين في لوكنوو، مُختبئ في مكان على بعد مئات آلاف الكيلومترات عن باتاغونيا، حيث يحلو لي أن أتخيل أن هناك أشخاصاً -من بينهم زوجتي بالتأكيد- ربما يقتفون أثري في هذه اللحظات بالذات. في الحقيقة، تمر بي أيام يكون فيها كل شيء طبيعياً وجميلاً، ولا أضطر ساعتها إلى انتظار شيء ولا حتى هذه النجمة الجديدة التي أبحث عنها. هناك أيام تنبعث فيها نسائم لطيفة بطريقة خفيفة وناعمة، أشتهيها بشدة، لدرجة أشعر معها أنني أتنفس الراحة التامة.

أخيراً، عثرت على المكان المثالي الذي لا أُرى فيه. سوف ينسونني، إن لم يكونوا قد فعلوا ذلك، عدا زوجتي التي تظل التهديد الوحيد، لأسباب اقتصادية. أحب تصديق فكرة أنهم يبحثون عني في باتاغونيا. وضعي ممتاز هنا، إذ أتمتع أيضاً بتنشق الهواء النقي لحظي السعيد. أنا في أحسن حال، ولهذا السبب بالتحديد سأعمل على أن أدفع نفسي أكثر نحو التخلي عن الكتابة في الكرّاس. سأحاول معاقبة مولسكيني، وإخفاءه في إحدى خانات الأثاث الأنيق ماركة لوكنووز، المقابلة لسريري. وهكذا، لن أكون أنا المخبأ الوحيد فقط، بل كتابتي أيضاً. يكفيني في أيام كهذه، ما أراه أمام ناظري: نخلة، ميدان طويل من الرمال الرقيقة، عصافير غير معروفة، أعشاب عالية في طريق مقفر قليلاً. وفندق لوبانكو هذا الكائن في أقصى ساحة زقاق بانكاسو الذي يذكرني بـ«لوتيتيا» باريس، حين تشتعل أضواؤه ليلاً، وبأمل اللقاء ذات يوم، وبصفة نهائية، بنجمتي الجديدة. مؤكد أنني أستحقها. بعد كل شيء، يمكنني الآن أن أرى بوضوح أن حياتي لم تكن سوى سقوط، رحلة داخلية روتينية، سفرة نحو آخر الليل، الرفض التام للعودة إلى أيتاكا والرغبة في المكوث هنا إلى الأبد، والكتابة من أجل الاختفاء.

كانت النجمة التي أبحث عنها، خارج نفسي، دون أدنى شك. من المحتمل أن عبقريتي الشخصية، هذه الروح التي تنبت في كل واحد منا، ما تزال تحيا خارج نفسي، لدرجة لم يتسنّ لي أن أكون في تواصل معها بعد. على كل حال، يكفيني وأكثر، ما أراه اليوم أمامي: الجرف وخط الأفق. شمس المساء ولون الهواء. صخرة كانتاريل على حافة البحر. بيت الدعارة

الذي ينتظرني كل يوم أربعاء. فرحة هذه المدينة التي تذكرني بـ«لشبونة» مصغرة. ياسمين الأسطح. الحي العالي المهدد، حيث صيدلية أسيريا التي تبيع مهدئات جيدة دون وصفة. وهذه الغابة في الخلف. هذه الغابة. في أيام مثل هذا اليوم، أراني بغير حاجة إلى رؤية شيء أروع. كثير، كل ما أراه، كثير.

-16-

في هذه الليلة، بينما كنتُ أتصفح الجريدة الموجودة في بهو الفندق، مستمتعاً، صُدمتُ بقراءة خبر وفاة المؤرخ، واللغوي المستشرق، مكسيم رودنسون، الذي توفي في مارسيليا، يوم أمس 23 أيار، عن عمر يناهر التاسعة والثمانين عاماً. «كاتب غزير، يهتم بالقضية الفلسطينية. ولد في باريس من عائلة يهودية متوسطة الحال من أصل روسي - بولوني. كان عبقرياً لامعاً علّم نفسه بنفسه، حصل على شهادة الدكتوراه في الآداب من كلية اللغات الشرقية. تزوج عام 1937. انتسب في العام التالي إلى الحزب الشيوعي، وما بين 1940 و1947 عاش في لبنان. عند عودته إلى باريس عام 1948، استقر بشقة في شارع فانو، تحولت إلى مركز اجتماع المستعربين من كل العالم، ومكان الالتقاء بين الشرق والغرب».

كان يجب أن أعود إلى القراءة عن شارع فانو. اثنتين، وثلاث مرات. استنتجت أن ظلمة هذا الشارع، طويلة.

ثم انتهيت من قراءة الخبر: «واستقر بعد ذلك في مرسيليا، في الستينيات. كان يعمل على التقارب بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، والتعدد والحوار بين الثقافات. ساهم في تغيير هذا النوع من الصياغات المذهبية للإسلام، التي تقول إنه غير قادر على مواكبة موجة المعاصرة».

النص المكثف في لوكنوو

اليوم وصلت إلى جلسة سمر المونينمبو قبل الوقت المعتاد، وبينما كنت أنتظر الأطباء النفسانيين العقلاء (أرتاح إليهم، رغم أنني أجدهم شيئاً سخيفاً)، تصفحت بعض الصحف، ولم أتعاف بعد من أخبار ذلك اليوم عن المستعرب اللامع في شارع فانو، قرأت أن البارحة، الأول من حزيران، قام الرئيس السوري بشار الأسد، برفقة زوجته أسماء، بزيارة الملك خوان

كارلوس وملكة إسبانيا صوفيا، في قصر «الثارثويلا». توقفت قليلاً أتأمل صورة التحية بين الزوجين. ثم بدأت أفكّر في الشمس التي كانت ساطعة بقوة هذا الصباح، وفي الذبابات، التي تحوم في الأسفل وتبدو كأنها نحل. ظننت أنها لا تتوقف عن الهمهمة حول قدميّ على العشب. لكني، خرجت منها دون أية لسعة، ما يؤكد أنها كانت ذباباً. كان سيعجبني رؤيتها وفحصها باهتمام كبير، ليس من أجل معرفة أنها لم تكن نحلاً فحسب، بل لكي أعرف أيضاً أنها في الواقع كما أكد فلوبير أن كل الذبابات لا تتشابه.

-17-

انتقلت للسكن في لوبانكو، من أجل التغيير فقط، أو إن صح التعبير، للبقاء بالقرب من فرينوباتيكو، حيث حلقات السمر التي يديرها الدكتور بوديم وصديقه الدكتور مونتيرو. الحقيقة أنه من اليسير بالنسبة إلي، أن أذهب إلى اللقاء اليومي، من خلال الخروج من غرفتي في الفندق، النزول بعض درجات، والدخول إلى العمارة المجاورة، ثم البدء بالاستماع لما يقوله الأطباء اللطفاء والمثيرون للضحك في الوقت ذاته.

على عكس الأسابيع الأخيرة، كرستُ نفسي اليوم لفترة قصيرة في تأمل حالتي، ربما لأنني اعتقدتُ بضرورة أن أباشر اليوم بالكتابة بعد الأيام العديدة التي مضت دون تفكير. شعرتُ أنني غير قادر على أن أمارس فعل الكتابة، دون أن أنغمس قبل ذلك في العادة القديمة التي كانت تلازمني منذ شبابي، في الخروج إلى الشارع، في انتظار أن يحدث لي شيء، أرويه لاحقاً. وعلى هذا الأساس قررت الخروج واستقللت سيارة الأجرة متوجهاً إلى الغابة. حين وصلت إلى أحد مداخلها البرية، لم أتجرأ إلّا على القيام بفسحة صغيرة جداً، برفقة أحد المرشدين هناك. وافق سائق سيارة الأجرة على أن ينتظرني بعد أن نفحته مبلغاً جيداً. أما المرشد، فقد أصر على أن أمنحه خمسة آلاف دينار، وهو مبلغ أكثر من التسعيرة الرسمية. لكنني مع كل هذا، رجعت من الرحلة محملاً بمعلومات مهمة حول التجربة القصيرة التي كانت قيّمة لدرجة أنستني الإحساس بالضيق حول النقود التي دفعتها.

وبدأت اليوم أولى زخات مطر هذا الصيف الاستوائي تهطل في ليل

لوكانوو، في الوقت الذي كنتُ فيه مأخوذاً بلغة الانهمار الحيوية، مُستحضراً الجانب المُظلم الذي شعرتُ به حال وقوفي أمام مدخل الغابة، لكنني حين توغلتُ فيها، بدأت أشعر بأني مُلكاً للوجه المزعج للأشكال، للروائح الغامضة، وللأصوات غير المعروفة التي صادفتها هناك. بدا لي أن كل شيء هناك على العموم، كان جذاباً، ولكنه في نفس الوقت مُرعب، ولكي أكون صادقاً، أدهشني لغز التفاف الأوراق هناك. كان سيروق لي أن أغامر وأتوغل في الغابة أكثر، بيد أن المرشد لم ينصحني بذلك، ربما لأنه كان قد قبض المبلغ أو لأنه لاحظ هشاشتي أمام عظمة هذه الأجواء الموحشة. اكتفى بتحذيري من أخطار لا أعرفها، وقفلنا راجعين في نهاية الأمر.

عدتُ إلى لوبانكو، غيرت ملابسي ثم انصرفت إلى جلسة سمر المونينيمبو، حيث حدثتهم عن ألغاز الغابة كما لو كنت خبيراً مُتمرساً في هذا الشأن. راودتني بعد ذلك فكرة مقارنة الغابة مع الأدب، وشرعتُ أقول للجميع أن الكتابة لا تكون إلا عبر العشق، ومع الحقيقة، عندما يحيقه الخطر، لأن العقل في مناسبات كهذه، يعمل تحت الضغط وليس كما في الظروف العادية، وحينئذٍ يكون العقل غير منتج ويعاني من السأم والملل.

«وكيف عرفت هذا كله؟»، سألوني بشيء من الاستغراب. كنت على وشك أن أخبرهم أنني كنت كاتباً محترفاً، ولكني أمسكتُ عن الكلام، في الوقت الذي قلت في نفسي، إنه ربما وراء هذا الدافع الغامض للاعتراف بما كنتُ عليه سابقاً، يختبئ حنين معين للأيام التي كنت أكتب فيها بروح طيبة وثبات يومي رائع. على أية حال، قمتُ بتحويل النقاش إلى الحديث عن إيجابيات وسلبيات حياة طبيب نفساني متقاعد (ومحبط من علم النفس) وعن الفراغ التام الذي أعيشه. أخفيت عنهم، أيضاً -لا أظن أنهم استوعبوا الأمر- بعض الحنين الذي أشعر به أحياناً إلى الأيام التي كنت أعيشها في شارع فانو.

«لابد من الانسحاب من العالم، لفهمه»، قال لي الدكتور بوديم حينها. لم يكن أمامي سوى أن أسأله عن هذا التعليق. «قلتَ إنكَ كنتَ طبيباً نفسانياً مشغولاً جداً، كما سبق أن أخبرتنا، قبل أن تأتي إلى لوكنوو، ولكني لا أعرف لمَ أشك أنكَ كنتَ، على خلاف الأطباء الآخرين، شخصاً مُعذباً بسبب عدم

قدرتكَ على إدراك العالم. هنا في لوكنوو بدأت باستيعابه، أليس كذلك، دكتور بينشون؟».

ولأجل تفادي الكثير من المشاكل، قلتُ له نعم، إنه كذلك. الحقيقة أنني بدأت فهم العالم هنا في لوكنوو، ولكن، لكي أكون أكثر دقة، كان عليّ إخبارهم أيضاً أن هناك فترة أخرى في حياتي، عندما كنتُ صغيراً، كنتُ أستوعب العالم فيها أيضاً، ربما لأنني ببساطة لم أكن قد خبِرته بعد. «هناك العديد من الأطباء النفسانيين الذين يتوجهون للأدب عندما يُحالون على التقاعد. ربما أكون مُخطئاً، ولكني لا أستغرب إن تحولتَ فجأة إلى كاتب، ما دمتَ تمتلك الآن وقت العالم كله»، قال الدكتور مونتيرو حينها بسذاجة واضحة.

واصلت التحرك في المساء، بعد خروجي من حلقات السمر، بحثاً عن أحداث يمكن أن أسردها فيما بعد. كان يوماً ممتلئاً بالفعل. دخلت إلى مقهى الإنترنت في جادة هوامبو، عند زاوية ساحة بانكوسو. لم أكن قد قرأت بريدي الإلكتروني منذ فترة بعيدة، وحينُ كنتُ على وشك أن أفتحه، تنبهتُ إلى أنه من الأفضل عدم فتحه ونبش محتوياته. لأجل ماذا؟ من المُستحسن عدم النظر إلى الوراء، والمضي قدماً بحياتي وقمري الجديد في لوكنوو. لم أجد في الصحف الإسبانية التي اقرأها هنا، ما يُكتب عني ولم يتنبه أحد إلى اختفائي. يجب أن أفترض أنهم يضعونني في الباتاغونيا، ولا يهمهم ما تؤول إليه حياتي.

جميعهم ظلوا في الخلف. هذا ما قلته لنفسي ليلاً، حين كنتُ في غرفتي في لوبانكو، التي زينها أحدهم على سبيل الدعابة، بصورة مؤطرة لمدينة لوكنوو القديمة وضعها على رأس السرير، دون أن أعرف الهدف من ذلك. لوكنوو، لم أكن قد سمعت قط عن هذه المدينة الشقيقة للوكنوو في الهند، رغم أنها شقيقة في الاسم فقط. عاصمة ولاية أوتار براديش. مَن هو هذا الدماغ المصقول صاحب فكرة وضع صورة المدينة الهندية؟ مَن هو الفنان الذي يتوارى وراء مصمم ديكور الفندق؟ سألت فأعطوني اسماً. تصميم الغرف كان بمساهمة خاصة من الدكتور هومبول، أفضل كاتب في هذه المدينة التي يقل عدد كتّابها.

كان يوماً حيوياً جداً، كأنه حلم قصير عشته منذ قليل. حين كنتُ أكتب

عن هذا كله، كنت شبه نائم، أو نائماً بالمرة، لا أعرف. الحقيقة، أنني عشت حلماً قصيراً، رأيت فيه شابة حزينة، صغيرة وشهية، صحفية على طراز ليديا، كانت تريد أن تعمل معي مقابلة. هذه الحزينة، الرقيقة والشابة الجميلة ذكرتني بكلمات تشيخوف: «لا توجد طريقة لفهم، لماذا يمنح الله، الجمال والبشاشة، والعيون الحزينة البراقة لأشخاص ضعفاء، وتعساء وغير نافعين، ولماذا يكونون على درجة من الجاذبية؟».

«أرجو ألا أكون قد ازعجتكَ بهذه المقابلة»، قالت لي. «ولماذا؟» «لأنك لم تجرِ أية مقابلة منذ زمن، رغم أنك كاتب مسكين، مهزوم ومنسي، ومن الممكن أن تشجعك هذه المقابلة نفسياً لأن هناك صحفية مثقفة ما تزال تتذكرك.»

لقد أثارت حفيظتي، فتحولت إلى أحد هؤلاء الأشخاص الذين يدحضون كل شيء. عندما انتهيتُ من دحض رؤاها الخاطئة، تمكّن مني شعور متأرجح بين النفور العميق والإحساس العذب بأني انكشفت في مخبأي أخيراً.

«هيا، دكتور بينشون، أحب أن تؤكد لي أنك تنزعج من كل المبالغات التي تحيط بعالم الكاتب»، قالت لي. كان من الممكن ألّا أجيبها، ولكن اخترت أن أرد عليها. «بدأت الكتابة لكي أنعزل عن العالم»، أوضحتُ لها، «بداية في الانعزال عن العائلة خلال فصول الصيف الطويلة في «ميناء الغابة». كنا نقضي اليوم على الشاطئ، من الصبح إلى المساء. كنتُ في الثانية عشرة من عمري. ولكي أهرب من فكرة المجموعة، كنت أنهمك في الكتابة تحت شجرة الصنوبر. جعلت من نفسي كاتباً لكي أنعزل عن العائلة، ولكي يكون لي عمل متفرد، تتركني فيه كل عائلات العالم بسلام. لم تكن تعنيني المحاضرات، ولم أكن أعرف، على سبيل المثال، أن نشر كتاب يعني إلقاء محاضرات، عمل مقابلات، صوراً، التحدث عن رأيك حول نجاحات العالم، تقديم كتب الآخرين، عمل حفلات توقيع، الظهور أمام الملأ، والإعلان عن حماستك لتلك التقاليد الأدبية لبلدك (لا لغاية معينة أحياناً سوى لإظهار أنك وطني وكاتب متكامل)، وأنك تسعى إلى الجوائز الأدبية التي لا يرغب فيها أحد...»

«لكنك يادكتور بينشون»، قالت بحنان، كما لو أنها تأبى أن تجرحني أكثر، «يجب ألا تعير اهتماماً لأشياء كهذه. هل تعرف أنهم نسوك منذ زمن بعيد؟».

النص المكثف السوري

أمطرت ثلاثة أيام متتالية، يبدو أنها أمطار «رانشيبور»، كما لو كنا في لوكنوو، في الهند. بعد قراءة الأخبار الرياضية في الصحيفة، توقفت عند خبر احتجاز الصحفيين الفرنسيين، كريستيان شيسنوت وجورج مالبرونوت. الأول يعمل في إذاعة فرنسا الدولية والثاني في جريدة «لوفيغارو». ثمة غرابة في الأمر، لأن الشخص الثالث بالكاد يُذكر اسمه، بعد أن تم اختطاف ثلاثة. لكن العناوين تتحدث عن صحفيين اثنين فقط. لابد من قراءة ما وراء الأسطر، حتى تعرف في نهاية الأمر، وعلى نحو خاطف، أن سائق الصحفيين الفرنسيين قد اختُطف أيضاً. السائق سوري الجنسية، يُدعى محمد الجندي. حسنٌ، انتهيت، لأن حجم هذه القصاصة من الورق يحدد ما أكتب، وهذه الوريقة تُوشك على الانتهاء، وعلاوة على ذلك، عشتُ لبضعة أيام مع العديد من حالات جنون العظمة، وفي الوقت نفسه، أشعر بالحنين إلى شارع فانو (في ظلمة تزداد يوماً بعد آخر)، لدرجة بتُّ أخشى معها أن يلتصق خبر الاحتجاز بهذا الشارع.

-18-

قرأتُ أيضاً في الجريدة، أن برناردو إتساغا نشر أخيراً الترجمة الإسبانية لكتابه «ابن عازف الأكورديون». مرة أخرى، عدتُ لأتساءل: ما الذي فكر به حين لم يرَني في إشبيلية، وقبل كل شيء، ما الذي سيفكر به الآن، على سبيل الافتراض، إن أدرك أنني وبعد شهور، ما زلتُ غير مرئي. هل سيعتقد أنني في باتاغونيا، حسب ما كانوا قد أخبروه؟ هل سيفرح في سره، بمبادرتي في الذهاب إلى نهاية العالم؟ أم إنه لم يفكر بي منذ زمن، ومنعكف الآن، مثلاً، على اللعب مع بناته في حديقة منزله في زالدوندو؟

بعد ظهر اليوم، قرأت في الصحيفة خبراً عن إتساغا، حين كنتُ في شرفة حانة لي أستول، الأحدث في المدينة. بعد ذلك بوقت قصير، سمعت أحدهم

على الطاولة المجاورة، يقول باللغة الإسبانية، بصوت عالٍ متعمداً: «أعتقد أن جميع العشاق، ما عدانا أنا وأنتِ، أنانيون ووقحون.» هممتُ أن أعرف مَن قائل هذه العبارة، ولمَ لفتَ انتباهي قوله بصوتٍ عالٍ. كان شاباً يمسك بيد صديقته. لقد أرعبتني فكرة أنه كان إسبانياً ومن المحتمل أنه تعرّف عليّ. ماذا لو كان كاتباً شاباً ناشئاً يعرف من أنا ويريد جذب انتباهي لتسليمي بعض المخطوطات؟ وعدتُ أركز على الصحيفة، لكنني لم أستطع أن أتخلص من فكرة أن الشاب ربما يكون قد عرفني. شعرت بالتوتر وقررت أن أغادر المكان رغم وثوقي أن شعري الأحمر وملابسي لم تؤكد للشاب أني أنا أو بالأحرى أنني كنتُ باسافنتو الذي حقق شهرة معينة في أوقات أخرى.

ناديت على النادل، دفعتُ له الحساب وعدتُ إلى الفندق. حين أصبحت في غرفتي، تلذّذتُ بذكرى الحلم الذي راودني البارحة خلال فترة القيلولة، وبدا *مرتبطاً* بشكل غريب بقراءتي الأخيرة لأخبار ظهور كتاب إتساغا. حلم متاهة. داخل مدينة سان سباستيان كانت هناك مدينة هندية، ربما تكون لوكنوو، يتكلم سكانها اللغة الإسبانية. تخيلتُ نفسي في معبد هندوسي ذي تماثيل كبيرة ونادرة، لكن حين أردت العودة إلى فندقي، لم أعرف كيف أستقل سيارة أجرة فحسب، بل كنتُ أجهل اسم الفندق أيضاً. اقترح أحد الهندوسيين الذين يتكلمون اللغة الإسبانية بطلاقة، أن أستقل المترو وأنزل في محطة لاسارتي. «إنه غير موجود، مثل أزهار الأرتيكو دي رامبو»، أضاف الرجل. عندما استيقظت، اعتقدتُ أن هذا الهندوسي ذكرني كثيراً بالطبيب باسافنتو في فيا كونتيني، وهو طبيب لم يكن له وجود أيضاً.

-19-

حين قرأتُ أن لاعب كرة القدم سافيولا سجل بالغلط في شباك موناكو، وفوق كل ذلك، توقيعاته خلال الموسم الماضي حين كان يلعب مع نادي برشلونة، شعرت بحنين مفاجئ وحاد للغاية إلى تلك الأيام التي كنت أوقع فيها على إهداءات لكتبي، وأشتكي دائماً من مدى استغراب القراء في حين أنه في واقع الحال، لم يأتِ أحد ليطلب مني توقيعاً في أية مناسبة، مما يجعلني حزيناً وخائفاً من أن أكون منسياً.

شعرت كذلك بشوق إلى زياراتي لمكتبات برشلونة، حيث كنتُ أحصي الدقائق حتى يتعرف عليّ شخص ما. عندما يحدث ذلك، كنت أبدو جافاً أمام الذي يقترب مني، كما لو أنه قطع عليّ تأملات مهمة جداً. مع ذلك، لم أكن أشعر بالراحة حين يتصدى لي أحدهم.

تذكرت أيضاً، أن الأصدقاء والمعارف لم يكونوا يقرأون كتبي، على عكس الغرباء الذين كانوا يفعلون ذلك، لأنهم كانوا يجدون عالمي مثيراً للاهتمام، وليس الأصدقاء والمعارف الذين يرون أن ما أكتبه متداول، أو بالأحرى، لديهم ما يكفي لكي يستحملوني.

بعد ذلك، مضيت أتخيل نفسي أُلقي محاضرة في أحد المسارح الكبيرة، وأنني شعرت بنفس القلق والخوف اللذين كانا يصيبانني حين كنت أتحدّث إلى الجمهور في السابق، بيد أنني، في نفس الوقت، كنت مستمتعاً أمام إمكانية أن أُحاضر بمفردي خلال ساعة كاملة أمام جمهور على درجة من الاهتمام. ثم تخيلت تصفيقاً صاخباً، دخلتُ بعدها في سبات ما قبل القيلولة.

«كل صالة المسرح معجبة بك»، سمعتُ الدكتور إنغرابايو يهمس لي.

-20-

مكتبة
t.me/soramnqraa

ربما تسافر الطبيعة نحو الغريب؟
روبرت والسر
يعقوب بن جونتين

البارحة ذهبت إلى منارة بوسانكوا، وفكرت في ابن بلدي جوزيف بلا الذي كان يعيش بعيداً جداً من «ميناء الغابة»، وكان يسير، في مراهقته، من منزله في ليوفريو إلى منارة سان سباستيا، وما إن يصل إلى هناك حتى يجلس على الصخور، ممُسكاً بالقلم والكرّاس، وينهمك في تأمل المناظر الطبيعية، محاولاً وصفها، أو بالأحرى، إدخالها كلياً -مهمة عملاقة ومستحيلة- في ما كتبه.

كان الشاب بلا يرغب في وصف كل ما يراه من هناك، بمعنى، بلده والعالم كله. لكنه يدرك فجأة، أن المنظر لا يسعه دفتره. كان العالم أكبر من عالمه. فكرتُ أن الشيء نفسه حصل مع روبرت والسر المبتدئ، حين قال

إنه غير قادر على الكتابة بسبب ضخامة وجمال المنظر حول منزله، ذلك المنظر الذي يثقل كاهله لدرجة تصبح معها أية محاولة للوصف، مستحيلة.

عشتُ اليوم تجربة صبيانية شبيهة بتلك التي يمر بها بلا ووالسر، لكن على نحو مختلف. شعرتُ كأنني ذلك المراهق الذي كنته، وبعبارة أخرى، الشاب الصغير الذي اقترح على نفسه وصف العالم برمته، واستغرق وقتاً طويلاً لاكتشاف الجزء، ناهيك عن نوع النص المكثف الهش. كان أمراً غريباً، وبعبارة أخرى، مثيراً للفضول. أحسستُ مجدداً أنني ذلك الكاتب المُبتدئ الذي كنته في الماضي. كأن كل شيء بدأ من جديد، وكأن الوقت قد حان للبدء من الصفر.

عندما بدأت أستوعب هذا الإحساس المفاجئ، بقيتُ استحضر نموذج والسر. ويبدو أن تلك الذاكرة تريد إجهاض هذا الميل غير المُنتظر للأدب، لإحباط أية محاولة أرى فيها نفسي كاتباً في المستقبل. من ناحية، كنتُ أشعر بتفاؤل صبياني ومتعاظم كمبتدئ جاء يخبرني بما يلي: سأصبح كاتباً ذات يوم. ومن ناحية ثانية، كان الصوت الرصين للدكتور إنغرابايو يخبرني بأنني كاتب منذ زمن وأن انسحابي من كوني كاتباً، وليد هذه الفترة. واستمر الصوت يقول لي، إنني إذا بقيت على هذا المنوال، فسوف ينتهي بي المطاف، للمرة الثانية في حياتي، إلى التآكل الفاضح (وفقاً لأسلوب والسر) لعملية الكتابة المُبالغ في إطرائها. «وهذا»، قال لي الدكتور إنغرابايو، «ما فعلته تواً، لهذا السبب أنت هنا في لوكنوو، حيث يمكن أن تصبح أوقات الفراغ عدوك.»

في الحقيقة أن الأمور كانت تسير هكذا، لكن بسلاسة أكثر من أي وقت مضى، إذ ليس هناك أسهل من أن ترى العالم في أعماقك. عند منارة بوسانكوا، التي تطل على لوكنوو وضواحيها، توقفت في ساحة متاخمة مصبوغة باللون الأحمر الزاهي وجلست على صخرة، متأملاً جودة الأضواء الرائعة. أردت أن أدوّن في الكرّاس كل ما شاهدته من أقصى يمين الأفق وحتى يساره، حيث لم أجد مكاناً خاصاً يغريني بالذهاب إليه. وبدلاً من أن أتحرك، اكتشفت فجأة، أن ميولي الفطرية كانت تتجه أكثر نحو الجلوس على صخرة منارة بوسانكوا، ومحاولة وصف المشهد الذي أمامي بأكمله

من هناك. ولم يتسن لي في النهاية سوى أن أكتب: «سماء يصعب وصف جلائها. يبدو لي أن الطقس لم يكن بديعاً هكذا على الإطلاق في أي بقعة أخرى. أتمنى أن أصير كاتباً حين أكبر».

ظهر اليوم أحد اليسوعيين في حلقات السمر، وقال إنه كان صديقاً لمطران لوكنوو، وإنه جاء لجمع التواقيع من أجل المعبد المقدس في داكاندا. تصلبنا جميعاً مثل الحجر. بدا لنا أن التجمع قد تخلخل لبقية اليوم، ورأينا بوضوح أننا لا نستطيع أن نتحدث بطلاقة وحرية مثل كل يوم. ظهر هذا اليسوعي غير المتوقع (مرتدياً، كما لو كان هو المطران نفسه) بينما استبدت في داخلي، وسط هذا التوتر الصغير الذي نشأ، رغبة جامحة في تلاوة شيء من نيرودا: «صحن للأسقف، صحن مسحوق ومر/ صحن ببقايا الحديد(...)/ صحن للأسقف، صحن من دم/ ألمرية».

بنبرة صوت مُثقلة كثيراً، تكلم صديق اليسوعي عن الأطفال السود الفقراء وعن الخطبة المقيتة التي -«لشعوره المُتحدي للتخريب الذي جرى بسببه» قال- ألقاها يوم الأحد الماضي، كاهن أبرشية بوالي، على بعد أحد عشر كيلومتراً من هنا. اتخذ الاجتماع مسارات مملة، لكنه في النهاية صار أكثر سلاسة، حين سألنا الرجل فجأة: «هل جنسنا مجنون؟»، مكثنا جميعاً للحظة مذهولين. ما الذي كان يحاول هذا المساعد إخبارنا عنه الآن؟ أما وقد صارت التواقيع من أجل معبده المقدس، بحوزته، فما الذي يريده أكثر من ذلك؟ خيم صمت طويل مشوب بالتوتر. بدا للحظة أن الأطباء النفسانيين أصبحوا أذكياء حقاً، أمام هذا الصمت، من خلال إشارتهم إلى اليسوعي على أنه رجل مسكين وغير متوازن. «هل جنسنا مجنون؟»، عاود صديق المطران سؤاله. «هناك الكثير من الدلائل على ذلك». قال مونتيرو أخيراً.

مع كل هذا الكلام المبهم لليسوعي، بدا لي أن ظهر ذلك اليوم كان أبطأ من المعتاد. حين اختفى صديق المطران عن أعيننا، صرنا مثل مجموعة من الأطفال يحتفلون بالغياب المؤقت لأي دين. كأنني ألهو، قرأت على جلسائي الأطباء النفسانيين مقطعاً قصيراً من «*ماذا سأكتب إذا حاولتُ أن أكتب*» كما لو كنتُ مبتدئاً (الحقيقة أنني لا أستطيع أن أكون أكثر وعياً

بضرورة استرجاع سعادة الصبا ونضارتها، وحرية بداياتي)، وتجرأت البارحة على الكتابة على قطعة من الورق. كانت عن الوداع، عن الأشخاص الذين يودعون غيرهم، ويفطنون وقتها أنهم من المحتمل جداً ألا يعودوا يرون الشخص الذي يودّعون.

حين لاحظت أنهم كانوا في حيرة إلى حد ما، شرحت لهم أن الكتابة كانت تجذبني دائماً، ثم أردت أن أوضح لهم، والابتسامة على شفتي، أن الموضوع المختار -الوداع- لم يجلب معه من جانبي، فكرة أن أودعهم أو أغادر المدينة. «هذا لا يعني أنني قررت أن أودعكم»، قلت لهم، «أنا أتحدّث عن الوداع الأخير، ولكن هذا لا يعني أنني خططت للرحيل عن لوكنوو. أنا هنا على ما يرام». فجأة، رأيت الرعب في وجوههم، اكتشفت أنني أوحيت لهم برحيلي عن لوكنوو.

كان الأمر مروعاً. فجأة اكتشفت، من خلال قسمات وجوههم، أنهم لم يعيروا أي اهتمام بمغادرتي لوكنوو. حتى ذلك الحين، لم يخطر ببالي أن أصدقائي النفسيين المثيرين للضحك كانوا يتصرفون تجاهي بالطريقة ذاتها التي كان يتصرف بها الجميع معي في الأشهر الأخيرة، أي بلا مبالاة تامة. قام الدكتور مونتيرو بتغيير مجرى الحديث، واكتفى بالسؤال عن سبب حديثي عن محاولة ماذا سأكتب إن حاولتُ أن أكتب. «ألا يمكن اعتبار ما قرأته لنا، كتابة؟»، سألني.

«أتحدث عن ماذا سأكتب إن حاولتُ أن أكتب لأنني ما زلت لا أستطيع أن أقول إنني أكتب، ما زلت لا أستطيع أن أعتبر نفسي كاتباً بمعنى الكلمة، وعلاوة على ذلك، أعتقد أنني لستُ مهتماً بأن أصبح كذلك»، قلت له، وعقدتُ ذراعي كما لو كنت أنتظر ردهم، في الوقت الذي سلّحت نفسي بالصبر بقسوة شديدة في فهم محاولتي الشابة لاسترجاع متعة الكتابة. «أظن أنني لم أفهمك»، قال لي الدكتور مونتيرو. بعد ذلك لا أعرف كيف انتهى بي الأمر إلى الاقتباس من والسر، قلتُ لهم: «أنا معجب بذلك الكاتب السويسري، الكاتب الذي لم يكن يتهيأ لدخول العالم، إلّا لكي يغادره دون أن ينتبه له أحد».

كان الدكتور مونتيرو الجليس الوحيد الذي سمع الحديث عن والسر.

«قضى سنوات طويلة في أحد مصحات سويسرا، أليس كذلك؟»، سأل. «في أحد مراكز الطب النفسي، لنكن أكثر دقة»، قلتُ له. خيّم صمت طويل بدا لي خلاله أن الجميع، دون استثناء، كان يتساءل عمّا إذا كنتُ قد قصدت استفزازهم من خلال التلميح إلى أن المصحة كانت كلمة قديمة.

«ألا تعتبر نفسك من رواد المصحات، دكتور بينشون؟»، سألني الدكتور بوديم أخيراً، في محاولة لكسر حاجز الصمت. نظرت إليه بتمعن ولاحظتُ أن عبارته كانت لشخص مُصاب بالجنون أو بدأ يشك في أنني لم أكن طبيباً نفسياً مطلقاً، وإنما كنتُ عدواً.

«أكرر»، قال، «ألستَ من رواد المصحات، دكتور بينشون؟».

من الأفضل أن أغادر، فكرت.

-22-

لا عين ترى في الأخرى عمقاً.
المياه تتبخر، فتفتح الهاوية الزجاجية فاها،
ويتابع القارب طريقه الآن تحت الماء،
هادئاً، راقصاً وآمناً.
روبير والسر، *«المساعد»*

تذكرت أنني حين بدأت في الكتابة، شاباً، اعتبرت أنه من الضروري للغاية تقليل نطاق عملي أكثر والتحقق مراراً من أنني لم أكن مخطئاً عندما كنت أختبئ في مكان ما خارج هذا المجال. هذا الخوف القديم عاودني هذا الصباح، حين تساءلت عما إذا كنتُ أخدع نفسي بالاعتقاد أنني مختبئ في لوكنوو. ماذا لو كنت أختبئ فعلاً في جوف مكان خارج مجالي؟

المحاولة الثانية لـ«ماذا سأكتب إن حاولتُ أن أكتب»

نحن مخصصون لكوكب آخر بعيد، في الطرف النائي من المجرة. أتساءل كيف سيتصرف أولئك الذين كُتب لهم العيش هناك، كيف ستسير أمورهم في كوكب آخر. هل الخطأ الصغير ذو الأهمية الكبرى هو مصدر خوفنا؟ «قد نكون حدثاً بيولوجياً، قد نكون أكثر الفيروسات المخترعة نجاحاً وفعاليةً على الإطلاق»، كما يقول جون بانفيل، الذي يؤمن أن ما

سلّمنا به نحن البشر بالقوة، إنما هو واقع الحال. بل أكثر، نحن مَن اخترعنا الكلمة *العادية*. حتى إننا تجرأنا بوصف بعضنا بعضاً بغريبي *الأطوار*. وحتى لا أبالغ، كان الطبيعيون يطلقون عليّ أحياناً اسم الغريب.

بقيتُ أفكّر في ذلك المريخي المسكين الذي سيظل مدفوناً هنا ذات يوم، أي مرعوباً. سيتبدى له كل شيء عن الإنسانية، وسيظن في البداية أن العالم ينتمي إلى السيارات، لكنه سرعان ما يفطن أن الطفيليات الموجودة على متن السيارات هي التي تتحكم في واقع الحال. سيعتقد أن أغلب المشاكل محلولة، لكنه سيكتشف عاجلاً أننا نعطس، نتثاءب ونعوي بهدوء في منتصف الليل، فهل هذا طبيعي؟ سيدرك المريخي الرعب الذي نعيشه حين يلاحظ أن نصف سكان العالم يخدشون وجوههم بشفرة الحلاقة كل صباح فيما يمتنع النصف الآخر عن فعل ذلك.

نتعرف إلى الخوف منذ لحظة الولادة، ونفضل، بسبب الظروف، أن نوظّف تلك القوة التي ليست ملكاً لأحد، كما يظهرها التاريخ المجيد. الدخول في الحياة الطبيعية يوازي الولوج في الشك بأن أولئك الذين كان من المفترض أن يعيشوا هناك فعلياً، قد انقرضوا منذ سنوات، لأنه من المستحيل تخيل أنهم كانوا على قيد الحياة على كوكب خُلق لاحتوائنا. نحن لسنا من هنا. يبدو أن الأدب وحده هو الذي يتعامل بجدية مع الرعب الساكن فينا. حين كتب بو تلك الحكاية عن رجل دُفن حياً، إنما كان يروي قصتنا الحقيقية. من هناك جاء الخوف المتغلغل في أولئك الذين يقرأون هذه القصة التي تعكس الحقيقة، وهو خوف يتحول إلى رعب مزدوج إذا وصلنا إلى كافكا، الميت حياً. غالباً ما ينظر الرجال *الطبيعيون* باستغراب إلى كافكا، بنفس الغرابة التي ينظر بها إليهم، مدركين أنه لا مكان له في هذا العالم: «هناك مهمتان حول بداية الحياة: أن تقلص مجالك كل مرة أكثر، وأن تتحقق مراراً من أنك لا تختبئ في مكان ما، خارجه»، كتب كافكا نصاً عن الشباب. كان كافكا يرغب دائماً أن ينقل إلينا أن ما يبدو كأنه هلوسة لا يمكن تصوره، هو حقيقة كلّ منا بالضبط. وإن تمعنا فيه جيداً –يقول فيليب روث– سنرى أن كافكا في جميع رواياته، يتتبع التسلسل التاريخي التالي: شخص ما متعلم، يتقبل أن كل ما يبدو غير عادل وفي غير محله (وسخيفاً

وأقل بكثير من استحقاقه)، إنما هو فعلاً ما يحدث له على أرض الواقع. وبعبارة أخرى، *هذا الذي أقل بكثير من استحقاقنا*، إنما هو مصيرنا.

-23-

قضيت اليوم أفكّر في ابنتي نورا. الحقيقة أنني لم أتمكّن من التعود على فكرة موتها. أصبحت نورا، في الواقع، العمود الفقري لحياتي المُعذبة منذ ذلك الحين. كان موتها أكثر شيء ساهم في انسحابي من العالم بهدوء. نورا، المخلوقة المسكينة التي تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، ما تزال طفلة، طفلة مفجعة تبكي في الساعات الأخيرة من حياتها، طفلة عدوانية قامت في آخر يوم من حياتها بنشب أظافرها في وجه والدتها المكروهة التي ترمي اللوم على الآخرين دائماً، طفلة من أنين لا إنساني. لقد تركت فيّ ذكراها تأثيراً لا يندمل، مرعباً عصيّاً على الشفاء. الساعات الأخيرة في الجحيم. كان وداع تلك العيون المذهلة التي تتألق اخضراراً وتلك الرقبة الطويلة الشاحبة، قاتلاً. طفلة ميتة تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً. مأتم في عربة الجنائز. وغوستاف مالر في كتابه *«أغانٍ للأطفال الموتى»*. «الشمس ما تزال تشرق في كل مكان». أسوأ يوم في حياتي. لم يعرف أحد عنوان المقبرة.

-24-

كان أحد أيام شهر تشرين الأول الذي مُنحت فيه ألفريدي جيلينيك جائزة نوبل للآداب. قررتُ أن أذهب مساءً إلى حلقات السمر لأقرأ على الأطباء هذا النص الخجول لكاتب مبتدئ تحت عنوان (*محاولة ثانية لـ«ماذا سأكتب إن حاولتُ أن أكتب»*). أنصت لي الجميع ومن دون استثناء، كأن الأمر لم يكن يعنيهم. ما الذي كنتُ أرتجيه؟ ألم تمر أيام منذ أن لاحظت أصدقائي الأطباء النفسانيين يتصرفون معي بالطريقة التي كان يتصرف بها الجميع في الأشهر الأخيرة، أي بتجاهل تام لمصيري؟ مررت لأراهم، مثل كائنات منبوذة، مثل ممثلين عن اللامبالاة المقيتة والفاحشة التي أظهرتها البشرية تجاهي.

أصغوا إليّ جميعاً كأن الأمر لا يعنيهم. حين أنهيتُ القراءة، اكتفى

الدكتور مونتيرو بالقول: «انظر، نحن هنا لا نفقه كثيراً في الاهتمامات الأدبية. إنه ليس *تخصصنا*. لمَ لا تزور الدكتور هومبل وتطلعه على كل هذه الشؤون الأدبية المحببة؟ لديه روح دعابة مماثلة كتلك التي لديك، وأعتقد أنكما لو التقيتما، فسيكون من السهل عليكما فهم بعضكما بعضاً».

كنت أعرف ذلك. إن عاجلاً أم آجلاً سوف يبعثونني لرؤية الدكتور هومبل الذي كنت أتخيله، أفترضه، وأراه قادماً.

ولد فرناندو هومبل عام 1937. لم يكن مصمم ديكور غرفتي في الفندق فحسب، ولكنه يعد أفضل كاتب في هذه المدينة منذ سنوات عديدة (الحقيقة، لا يوجد كتّاب كثيرون غيره)، رغم أنه لم ينشر شيئاً منذ خمسة عشر عاماً. عمل ممرضاً في مستشفى سانتا آنا بالمدينة حتى تقاعده، (لذلك أطلقوا عليه لقب طبيب). ربما يكون مصدر مكانته الأدبية، المقدمة المتميزة لروايته الأولى *«أرملة ويشيرلي والدكتور فافا»*، التي كتبها له صديقه (وزميله في الطب بطريقة معينة) الكاتب البرتغالي المتخصص بالأنف والحنجرة واضطرابات الصوت، ميغيل توركا. في كتاب هومبل الأول، تبرز الدعابة والخيال بشكل واسع. قرأت بعضاً من الروايات الغريبة لهذا الكاتب، كما أنهم، خلال جلسة السمر، كانوا يستشهدون به، من حين إلى آخر، بإعجاب كبير (ولو أنهم يأسفون على صمته المتواصل طيلة الخمسة عشر عاماً الماضية)، بحيث تولّد لدي انطباع بأنهم سيقترحون عليّ زيارته، إن عاجلاً أو آجلاً. وهكذا كان. «لماذا لا تزور الدكتور هومبل...؟».

إذن، لمَ لا تفعل ذلك؟ أتذكر أنني كتبت في المنزل ليلاً على قطعة من الورق: «بما أنه ليس لدي ما أقوم به، قررت أن أذهب غداً صباحاً لزيارة الدكتور هومبل، أسطورة لوكنوو الحية ومُصمم ديكور غرفة الفندق هذه».

في اليوم التالي، حملت رسالة التوصية من الدكتورين، بوديم ومونتيرو، مع موعد مسبق حدده لي الدكتور بييتو (أحد أقارب الكاتب)، وتوجهت نحو الرقم 7 لشارع براسيا، قرب ساحة ليموس، التي تبعد خطوتين عن الحي العالي، لكن في منطقة أنيقة، أو بالأحرى، على الحدود بين المنازل الراقية وتلك الموجودة في القطاع الخطير. في رقم 7 هذا عاش آل هومبل، عائلة معروفة في لوكنوو، منذ أوائل القرن العشرين. كان عبارة عن قصر

فخم من أربعة طوابق، لم يبق منه في ملكيتهم سوى الطابق السفلي، حيث يعيش الكاتب، تحديداً منذ أن جف إبداعه، وخياله المشهور.

أتذكر، وأنا في طريقي إلى المنزل، أن هومبل كان ينتظرني في الساعة الخامسة بالضبط، واشترط أن تكون مدة المقابلة ساعة واحدة فقط. كنت أتساءل ما يمكن أن أقوله للكاتب الملتزم، حين أكون في حضرته، فقط هذا ما كان يعتمل في داخلي: «مساء الخير، لقد جلبت رسائل توصية من بعض أصدقائك الأطباء النفسانيين». لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أدركت أنه من المضحك أن أقدم نفسي بهذه الطريقة. لكن، ما هي الطريقة الأخرى لفعل ذلك؟ هل يتعين عليّ أن أتحدّث معه، على سبيل المثال، عن الدكتور كاجي؟ وما الذي سأخبره عن الدكتور كاجي؟ هل من الممكن أن أكون قد تمنيتُ، بغير وعي، أن يستقبلني الدكتور هومبل في منزله لفترة من الوقت؟ ربما أخلط بين منزل الدكتور هومبل ومصحة هيريساو للأمراض العقلية؟ هل يجب أن أسأله إن كان صحيحاً، كما يقال في لوكنوو، أنه عاكف على كتابة رواية تزيد على عشرة آلاف صفحة، منذ خمسة عشر عاماً؟ أو، هل صحيح أن أفكاره نفدت، وهو ضحية الطلب الكبير على أعماله الأولى، القليلة جداً، من جهة أخرى؟

اكتسحتني الكثير من الأسئلة (غير المقنعة)، في الوقت الذي كنت أقول لنفسي إنه لا معنى من زيارتي له، لكني رغم ذلك واصلت المسير نحو منزله. أخيراً، قررت التحرر من كل هذه الترددات، التساؤلات والمخاوف السخيفة، وأقول لهومبل، ببساطة، إنني كنت أعتبر نفسي دائماً كاتباً مبتدئاً، واليوم أنا طبيب نفساني متقاعد، يحاول أن يجرب حظه في الأدب. سأخبره أنني قدمت لرؤيته، حتى أطلب منه بكل تواضع استشارة حول ما كنتُ قد بدأت بكتابته. بما أنني أحمل في جيبي الورقتين مع *محاولتيّ* الاثنتين، سوف أسأله إذا كان في الإمكان أن أقرأ له هذه المقالات السردية المقتضبة والقصيرة. سأطلب منه النصح، بالقول: «هل توافق على رؤيتي للعالم؟ كنت طبيباً نفسانياً من أجل كسب لقمة العيش، لكني في الحقيقة، كنت أتمنى باستمرار أن أكون كاتباً، لأن الأدب يعطي معنى لكل شيء».

طرقت الباب. فتحه الدكتور هومبل بنفسه. كان يشبه إلى حد بعيد الصور

التي على غلاف كتبه القديمة. ذكّرني بالممثل تشارلز لوتون، لكنه كان أكثر بدانة. كان رجلاً ذا طابع ساخر. «أشعر بالفخر كوني المميز الوحيد الذي استطاع رؤية الوجه الحقيقي للسيد بينشون»، قال لي عند الدخول. ربما كان يسخر مني، ولكن لم يحن الوقت لأتأكد بعد من أي شيء. «لا داعي إلى الانحناء احتراماً لي»، تجرأت وقلت له، في محاولة مني لأن أوضح له أنني لا أفتقر إلى روح الدعابة أيضاً.

«اسمح لي بالقول، هل تستاء من كونك أمريكياً؟» أخبرني بشكل مباشر. ارتبكتُ، ولم أعرف بمَ أُجيب. انتهى بي الأمر بسؤاله لماذا استاء من كوني أمريكياً. «إن لم تكن كذلك، أو لو كنتَ مواطناً من لوكنوو على سبيل المثال، لكانوا قد منحوك أمس جائزة نوبل، بدلاً من مترجمتك إلى الألمانية. أنتَ تعلم هذا، أليس كذلك؟ منحوها إلى تلك النمساوية التي تمتلك عبقرية القنفذ، مترجمتك». ابتسمتُ، وأنا مرتبك بعض الشيء. «سوف يكون في السنة المقبلة»، قلت له. بدأ يدور حولي، وينظر إليّ عن كثب، حتى كاد يشمني. «فقط أريد أن أطرح عليك سؤالاً، قل لي ببساطة هل أنت بينشون أم بنشون؟»، قال فجأة. رغم أنني فهمت الفرق جيداً بين الياء في بينشون الأولى والكسرة في بنشون الثانية، لكني لم أعرف كيف أجيبه. وأخذ يوجه تعليماته، على حين غرة، لشابة سوداء جذابة للغاية، بدت من أول وهلة، ومن طريقة لباسها، أنها نادلة: «لا تزيحي الغبار عمّا هو مرئي، باميلا. المنزل معرّف من الخارج. حاولي تنظيف ما في الداخل. ابحثي عن ذلك الباب الموجود في كل منازل الكتّاب. أنجزي عملك بضمير».

بطبيعة الحال، بدت لي هذه الكلمات مُبالغاً فيها بالطبع، لكن لا يمكن القول إنها فاجأتني كثيراً، لأنها ذكّرتني بالأسلوب الأدبي لهومبل، إلى حد ما. ومن جهة ثانية، سرعان ما اكتشفت أن لكل شيء تفسيراً (نسبياً). كانت باميلا في الواقع، عشيقته، وتلك كانت لعبة بينهما، وكل ما جرى من تقمص شخصية النادلة كان، ببساطة، نوعاً من البحث عن الإثارة الجنسية. «عذراً على المقاطعة»، قال لي الدكتور هومبل، «هذه المرأة تغار دائماً من الغريبات اللواتي يدخلن هذا المنزل، وتحتاج إلى تعليمات لتهدئتها». بادرته قائلاً «لكنني لست غريبة». «إنها مجرد طريقة في الكلام. للحديث طرق كثيرة.

وأنتَ، يا خالق الأبطال المُصابين بجنون العظمة، ومُستحضِر اللغة الثرّة، تعرف ذلك عن ظهر قلب. ألستَ بينشون؟ هيا، لنحل المسألة نهائياً. هل أنت بنشون أم بينشون؟».

كنتُ واثقاً أن كل الذي يجري كان مجرد لعبة أدبية، وأنني يمكن أن أتراجع عن أي تصريح من تصريحاتي، قلت له إنني بينشون بالياء، وليس بالكسرة، التي يكتبون بها اسمي في لوكنوو. كنت قد جئت لأختبئ في هذه المدينة خوفاً من أُكتشَف في نيويورك. قلت له أيضاً إنني لم أنزعج قط أن تكون جائزة نوبل من حصة جيلينيك، مترجمتي الألمانية الممتازة، التي قاسمتني العشق الكبير لحياة وأعمال روبرت والسر. «سيجلب فصل الشتاء المزيد من البرد»، رد عليّ هومبل حينها. وأضاف بعد فترة وجيزة، حين رأى بعض الارتباك يرتسم على ملامحي: «لا تتظاهر كأنك لم تفهم شيئاً. هذه جملتك. الا تتذكر؟ سيجلب فصل الشتاء المزيد من البرد. أخذتها من روايتك *ماسون وديكسون*. ألستَ بينشون؟».

ولكيلا أضيع أوراقي، بدأت أقول لنفسي، بما أنني تقمصتُ العديد من الأطباء في الآونة الأخيرة، فإن طرح مسألة إن كنتُ أنا الدكتور بينشون أم لا، هو في آخر المطاف، شيء تافه يشبه، على سبيل المثال، التظاهر بأن أحد الرعاة يحاول أن يُلقن خرافه القواعد الأساسية التي تساعدها في التعرف على الذئاب. ولدعم فكرة عدم منطقية هذا السؤال، تذكرت، كما يقول بينشون، أن التفكير المزدوج هو نوع من أنواع الرياضة الذهنية تنتهي بكونها اصطناعية ومفيدة للغاية، في حالة كنا قادرين على تصديق حقيقتين متناقضتين في الوقت ذاته. ألم أكن أرغب، مثلاً، في الاختفاء منذ 16 كانون الأول، ولكن في الوقت نفسه كنت أشعر أحياناً بالحنين إلى عالمي السابق وحتى كنتُ أتمنى العكس، بين الفينة والأخرى، أي الظهور مرة أخرى؟ كل هذا كان يُعرف في علم النفس الاجتماعي، منذ سنوات تحت اسم *التنافر الإدراكي*، على الرغم من أن آخرين أطلقوا عليه اسم *التجزئة*. البعض، مثل فرانسيس سكوت وفيتزجيرالد، قالوا إنها أوضح مؤشر على العبقرية. من جهته، اعتبر والت وايتمان أن هذا التصرف هو إحدى البوادر المحفزة على كون الإنسان شاملاً ومتعدداً: («هل أناقض نفسي؟ حسنٌ، أنا أعارض

نفسي»). أما الأميركي يوكي بيرا، فالأمر بالنسبة إليه يتطلب الانحراف عن الطريق والسير في كلا الاتجاهين.

التفكير في هذا كله، جعلني أكثر قرباً من عالم بينشون، بل منحني أماناً غير مُتوقع. بعد بضع دقائق، كانت المسألة قد حُسمت بالكامل حين عرفتُ من أنا. توصلت مع الدكتور هومبل إلى اتفاق تم حل الكثير من الأشياء بموجبه، خصوصاً، تفادي ضياع الوقت، ما دام أمامنا ساعة واحدة فقط. لم يكن عليّ أن أماطل أكثر. كان من الأفضل إيجاد حل في وقت وجيز.

انا بينشون وبنشون.

«الآن»، قلت له، «أتمنى أن يسمح وقتك كي أقرأ لك شيئاً من النصوص المكثفة أو المقالات المصغرة جداً، أو سمها ما شئت، لأنها، بالنسبة إلي، ليست سوى محاولات، من جانبي، في مجال الكتابة. وتذكر أنني أنا، بينشون أو بنشون، كنت أكرر حد التخمة، أن الكتابة مسار طويل وبطيء للتعلم».

كنت على وشك أن أقرأ له أولى *المحاولات* عندما عادت باميلا للظهور ثانية، بملابس الخروج ذات الفتحة العريضة عند الصدر. ودعتنا قائلة إنها ذاهبة لشراء بعض الأغراض، وإنها ستعود بعد أقل من ساعة ما لم يغتصبها شخص ما ويجعلها تصل متأخرة. خجلتُ. شعرت فجأة أنني كاتب شاب مبتدئ بالفعل. من جهة أخرى، أدركتُ أنهما اتفقا على ألا أمكث هنا أكثر من المدة المقررة. غمزت باميلا هومبل الذي قال: «انتهي من هذا الثقيل عاجلاً».

بعد قراءة مقاطع من نصوصي المكثفة، قال الدكتور هومبل (الذي كان ينصت لي وملامح الانزعاج تبدو على سيماه، طوال الوقت)، إنه يقدر *المحاولة الثانية* بشكل خاص لأنها في العمق تعكس الوضع الذي نمر به جميعاً، على اعتبار أننا متهمون بشيء نجهله، وأننا نُحاكم عن ذنب غريب لم نقترفه، وسوف يصدر بحقنا حكم بالإعدام مثل كلاب في نهاية الأمر، دون أن نعرف السبب وراء قتلنا. «نحن»، قال لي، «لا نستحق هذه التعاسة التي تأكلنا جميعاً. والأدهى من ذلك، أن القليل منّا، يحتج. لكن، من البديهي أن نعيش دون ما تتطلبه كرامتنا». عبرت له عن سعادتي في أن تكون كتاباتي قد نالت إعجابه. «هل تتذكر أنه، في رحلة البحث عن أسباب الفاجعة التي

تمسنا كلنا، انتهى كافكا أخيراً إلى اكتشاف *تنظيم كبير*، وراء كل هذا البؤس والتعاسة؟»، سألني.

لا، لم أتذكر ذلك. لكني ارتأيت ألا أضع العراقيل بين طيات المحادثة. قلت نعم، أتذكر. ثم سألني رأيي الدقيق حول هذه *المنظمة الكبيرة*. فضلت ألّا أقول شيئاً، أن ألتزم جانب الحذر. تخيلتُ أن هناك زوبعة تحوم حول المنزل. «أكثرما يعجبني في نصوصك المكثفة وأعمالك المُصنفة ما بعد الحداثة، بشكل عام، هو أن ما تعكسه ليس الواقع إنما الحقيقة»، قال لي هومبل. استوعبت عبارته كلها تماماً، الاختلاف بين الواقع والحقيقة. بدا لي أنه يفيض فيما يخص «أعمال ما بعد الحداثة» وعاتبته عليه. «حسنٌ، ألا تقرأ الكتب العظيمة حول النظرية والنقد الأدبي في وقتنا الحالي وما يقولونه عنك، دكتور بينشون وبنشون؟». اخترت أن أظل أبكم لفترة أخرى من الوقت. وبعد أربع جمل وقحة مكرسة لناقد أميركي، انتهى بالحديث عن شيء آخر، عن «معالجتي الأدبية الشهيرة لجنون العظمة» وعن «الوعي البينشوني غير المغلوط والمشكوك فيه، بأن كل شيء على ارتباط».

تأثرتُ حينها بنوبة لا يمكن السيطرة عليها من الحنين إلى الماضي وربما أيضاً بسبب تحول المحادثة المحرجة إلى بينشون الحقيقي (الذي أدركت أنني أعرف أشياء أقل بكثير مما يعرفه هومبل)، وحدثته عن شارع فانو والروابط الغريبة التي استنتجتها منه. «لاحظتُ أن هناك ارتباطاً غريباً بين الأشياء. يبدو لي شارع فانو كأنه نموذج مصغر للتوتر في العالم بأسره»، أخبرته. وكلمته عن منزل جيد، عن السفارة السورية، عن المستعرب مكسيم رودنسون، عن القصر الغامض وظلاله الساكنة، عن صيدلية دوبيرو، عن شركة مورتيس للقضاء على الفئران، عن شقة ماركس وعن فندق السويد. حدثته عن إشارات العالم الخارجي، عن الموجات غير المرئية التي تربط السفارة السورية بحدائق ماتينيون. كلمته أيضاً عن مترو فانو وعن مدخله الجميل المميز بديكوره، فيما حدثني هو عن رفيق الحريري، رئيس الوزراء اللبناني، الذي كان صديقاً حميماً لرئيس الجمهورية الفرنسية. حاول الحريري أن يتعامل بالحسنى مع الجارة سوريا، التي كانت ما زالت تحتفظ بقطعات من الجيش لها في لبنان، وعن العلاقات بين دمشق وباريس التي

تحسنت بصورة واضحة في الآونة الأخيرة، رغم تحفظات فرنسا الكثيرة على السوريين، والعكس صحيح.

حين أنهى كلامه، راح يبحث عن سيجار كوبي، أشعله فيما بعد بمتعة كبيرة إلى جوار النافذة الرئيسية للمنزل. خلف تلك النافذة، يمكن أن يُرى الجزء المنزلق من ميناء لوكنوو، الذي خمنت في تلك اللحظة –بسبب صوت صفارة الإنذار– أن باخرة بيضاء هادئة وجميلة كانت تُبحر هناك. بالقرب من هذه النافذة ذاتها، عُلقت لوحة ذكرتني كثيراً بالتي كانت إيفيت سانجيث تعلقها على جدار مكتبها في سان غالين، تلك اللوحة التي اعتقدت أني رأيت فيها منظراً جميلاً على فضاء أبيض، مبهم، وحالم، ملفوف بسحابة أكثر شفافية من المساحة الغامضة.

«هل ثمة شيء في اللوحة؟»، سأل دكتور هومبل فجأة. لم أتردد في الإجابة سريعاً. «أخال أنني رأيتها في مكان آخر». «مستحيل. لم تغادر هذا الموضع إلى جانب النافذة مطلقاً»، قال بحدة. «لكن هذا الفضاء الأبيض..». «أي فضاء أبيض؟ اسمع سيد بينشون وبنشون، يجب ألا تترجم كل ما تراه. استرخِ ولا تبعثر كل شيء».

فتح النافذة، وبكل البدانة التي يمتلكها، نفث باتجاه المدينة دخان سيجاره الكوبي الذي تحوّل في بضع لحظات إلى فضاء أبيض، مبهم وحالم، ملفوف بسحابة أكثر شفافية من المساحة الغامضة.

«عشت في باريس ردحاً من الزمن»، قال لي هومبل على حين غرة، بينما كان يقدم لي علبة من معجنات نوع فونشال. «تفضل، خذ منها ما تشاء». علمتُ من سيرته الذاتية أنه أقام طويلاً في مدينة أجنبية بعد تقاعده كممرض وكاتب، لكني لا أتذكر أنها كانت باريس. «عدتُ من باريس منذ سنتين تقريباً، حيث عشتُ فيها سنتين تماماً. كنتُ أقيم في شارع أودينو، لذلك أنا أعرف جيداً شارع فانو المجاور لشارع أودينو، كما تعلم بالتأكيد، حيث عاش والد فيكتور هوغو. تعرف هذا، أليس كذلك؟ أنا أعرف كثيراً عن هذا الحي. سنتان يا صديقي، سنتان».

كنتُ أجهل كل شيء، حتى معلومة والد فيكتور هوغو. لم أكن أعرف أن شارع أودينو مجاور لشارع فانو. حاول دكتور هومبل أن يثبت لي أن لديه

إلماماً واسعاً بأغلب الشوارع. يبدو أنه يعرف كل شيء عن شارع أودينو. أما بالنسبة إلى شارع فانو، فلم يكن قليل علم به. كان يعرف أن جوليان غرين كان قد عاش في الشارع أيضاً، وعلى دراية تامة بفندق السويد. لم يسمع مطلقاً عن مؤسسة مورتيس، لكنه كان على علم بأشياء أخرى. كان يعرف مثلاً أن في رقم 17 مكاتب القصر التاسع. لم أكن قد سمعتُ في حياتي عن هذه المكاتب حتى إنني للحظة بدأت أفكّر في ليديا، إذ اعتقدت أن هومبل (ربما تم إخباره من بوديم ومونتيرو والرفاق) لمّح لي بصورة غير مباشرة عن المبنى الأحمر، بيت الدعارة الذي أتردد عليه في لوكنوو. بيد أن الأمر لم يكن كذلك، ولا أقل منه. «القصر التاسع»، لم يتردد هومبل في التفسير قائلاً، «إنه منزل تابع لاتحاد المنجمين الناطقين بالفرنسية. كنت أتردد عليهم. إنهم متخصصون في التنجيم السيكولوجي، مكان ممتاز لأوظف فيه أحداث روايتي».

ما كدت أصدق ذلك. عاد الظل الطويل إلى شارع فانو يخيم من جديد بكل غموضه داخل قصر الدكتور هومبل. لم أجد أفضل من أن أخبره أنني سمعت الدكتور باسافنتو يقول ذات مرة إن المصادفات ليست عشوائية.

«ومن يكون هذا الدكتور؟»، سألني مبتسماً. «أحد زملائي في مستشفى مانهاتن الذي عملتُ فيه لسنوات»، أجبته واستغللت الفرصة لأطلعه على حياتي في برونيكس ومنهاتن، في نيويورك في القرن الماضي. حدثته عن روبرت دي نيرو، وخطيبتي القنبلة، وأماكني المُفضلة في تلك الأيام. أخبرته عن متحف الميتروبوليتان، وحانة الأويستر في المحطة المركزية، ومكتبة غوثام، وعبّارة جزيرة ستاتن. حدثته عن سوق فولتون للسمك، وعن المطاعم الإيطالية التي كانت تستهوي السيد سكورسيسي.

لقب الدكتور باسافنتو أثار انتباه الدكتور هومبل، أكثر من سكورسيسي ودي نيرو. «إنه اسم ميتافيزيقي، رباه، باسا (يمر باللغة الإسبانية*) فنتو (ريح باللغة الإسبانية*) باسافنتو، باساموندو (يمر العالم باللغة الإسبانية*)، باسامونتي (تمر الجبال باللغة الإسبانية*)، باكابوندو (متشرد باللغة الإسبانية*)، سأذهب إلى الجبل، سيد غينيس دي باسامونتي...»، قال بنبرة ملئها السخرية. «هل تتسلى كفاية في جلسة سمر الدكاترة الديناصورات؟»،

سألني فجأة، مغيراً الحديث مرة ثانية. أخبرته عن الزيارة البشعة لليسوعي صديق المطران، وبدا أن القصة لم ترق له كثيراً. هذا الأمر مكنني من العودة إلى شارع فانو، حتى أسأله عمّا يعرفه أيضاً عن هذا الشارع.

«أعرف أيضاً أن هناك كان يعيش أفضل كاتب عرفه شارع فانو على الإطلاق، وهذا الكاتب لديّ هنا في الأسفل»، قال لي. «كيف هنا في الأسفل؟»، استفسرتُ حائراً من جديد. أشار إلى داخل الصالة، حيث أخبرني بوجود باب يؤدي مباشرة إلى القبو، حيث مكتبته التي يحتفظ بأفضل الكتب المختارة فيها. «من بين أفضل هذه المختارات»، قال لي، «هناك كتب تعود لأفضل كاتب في شارع فانو». ظننته يتحدث عن أندريه جيد، وهذا ما كان يبدو منطقياً أكثر. لكنه لم يكن جيد، ولا غرين، ولا رودنسون، ولا أنا ولا حتى ماركس.

كان إيمانويل بوف.

فوجئتُ بالطبع. كنت أعرف على نحو غامض مَن كان بوف، أذكر له صورة كنت رأيتها في «لوموند» ولكن ليس أكثر من ذلك. أما عن الباب فلا وجود له. كان هومبل يسميه هكذا لأنه، كما أخبرني، يغريه أن يتخيل أنه يعيش في قصر شاسع مع كامل أسرته المسكينة، التي اضطرت إلى بيع أكثر من نصف هذا المبنى، وتعيش اليوم في الحي العالي. إنها لكارثة. أحياناً كان يروق له أن يتخيل أنه يعيش في قلعة. ولكن الباب المُتخيل كان، في الواقع، سلالم مصبوغة بالأزرق الأرجواني الغامق، التي منها يصل إلى قبو أبيض صارخ، حيث كان يحوي على مكتب، عبثاً كان يحاول فيه أن يكتب بعض الروايات، منذ خمسة عشر عاماً.

كان يعيش تلك الدراما في مكتبه كل يوم، دراما الصمت. قال إنه يحاول تحدي غياب المخيال لديه، بالقراءة وإعادة قراءة أفضل الكتّاب، وبوف من بينهم. «إذا كنتَ تثق بي ولا تخشى أن أغلق الباب عليك وأدفنك مع بوف إلى الأبد، فاتبعني إلى الطابق الأسفل». لحقتُ به على السلالم، حيث تراءت أمام ناظري طاولة غير صالحة لعمله مع كتبه، من بينها كتابان لبوف، «الكاتب السري في شارع فانو».

رغم أنني كنتُ جاهلاً بكتب بوف، لكني تذكرتُ غلاف ملحق الكتب

بجريدة *«لوموند»* منذ بضع سنوات، حيث كان هناك سؤال كعنوان بأحرفٍ كبيرة «هل قرأتَ لبوف؟»، مع صورة للكاتب، يبدو أن قوى الطبيعة أفسدتها، وتركتها نصف ممزقة، على الرغم من أنه يولّد انطباعاً لدى الآخرين، بسبب شِعْرِه الغريب، أنه كاتب لا يُنسى بسهولة: رجل مسكين ومنعزل يرتدي قبعة من القش على شاطئ مدينة نيس بأناقته الحزينة، يقف إلى جانب كلب أبيض مُتظاهراً بأنه سعيد، ينظر إلى كاميرا الزمن العنيدة. كانت ملامح تلك الصورة محفورة في أعماقي لأن بوف يذكرني فيها بنفسي جسدياً.

بعد فترة وجيزة من وجودنا في الطابق الأسفل، بدأ المكان يكشف عن طابعه كفضاء مريح. كان مصمماً بطريقة جيدة تساعد على المكوث فيه لساعات، وللزيارات المحتملة أيضاً، وللكتابة على وجه الخصوص، دون أن يغيب عن البال أن هومبل كان يغيب يوماً بعد آخر في هذا المكان طيلة خمسة عشر عاماً من التصحر النفسي.

قررت أن أذكّره بقبو كافكا، أشْهَر قبو في تاريخ الأدب. وأضفت أن هذا الأخير كان يقول إنه لكي تتمكن من الكتابة، تحتاج إلى قبو، تتمتع فيه بعزلة تامة. ابتسم الدكتور هومبل وقال إن ما ذكره كافكا ممتاز، ولكن لأسباب بديهية، لم يستطع أن يساهم في هذا الانطباع. بعدها أطلعني على أحد كتب بوف ونصحني أن أقرأه. كانت الترجمة الإسبانية لرواية *«أصدقائي»*، التي عرفه بها القرّاء الفرنسيون عام 1924. وحسب ما أخبرني، أن بوف الشاب نشر هذه الرواية وهو في السادسة والعشرين من عمره. تسرد الرواية قصة متشرد وحيد، تمنى قبل كل شيء أن يكون محبوباً. بدا واضحاً أن العالم قذر، مظلم، وهامشي، في نظر البطل الساذج. فتحتُ صفحة على نحو عشوائي وقرأت. «هكذا كانت حياتي دائماً. لم يستجب أحد لعواطفي قط. كل ما أتمناه هو أن أحب، وأن يكون لي أصدقاء، وأن أبقى وحدي باستمرار. ينفحونني صدقة ثم عني ينصرفون. حقيقة، لم يُنصفني الحظ».

فكرت: إنه مثلي.

في الجهة الخلفية من غلاف هذه الرواية، روى فابيان برادو أنه، عندما كان بوف يلعب الشطرنج مع أندريه جيد، كان يجعله يفوز دائماً، لأن فكرة الفشل لم تكن تجرحه كثيراً مثل منافسه. وكُتب على ظهر الغلاف أيضاً، أن

أحد الأشخاص الذين كان يعرفهم، قال عنه: «مُتواضع، مُتحفظ، ويفضل الصمت على الإشهار، بدا دائماً كأنه يسعى إلى أن يُنسى بنفس الطريقة التي كان يسعى بها الآخرون لأن يصيروا معروفين».

بينما كنتُ ما أزال أتصفح *«أصدقائي»*، مرر لي هومبل *«أب وفتاة»*، كتاب آخر لبوف. على ظهر غلاف هذه النسخة الجديدة، سُطِّر أن ساموريل بيكيت قال عن بوف إنه «من أكبر الكتاب الفرنسيين غير المعروفين»، فيما أكد بيتر هاندكي أن «لا أحد مثل بوف كان يمتلك هذا الشعور الحاد بالتفاصيل». ميرسديس مونماني، مؤلفة نص الجهة الخلفية للغلاف، انتهت بالقول: «لا يمكن أن تكون طفولة وشباب بوف أكثر كآبة ورعباً، لكن هذا لا يفسر بالضرورة سيطرته الجذرية على جماليات التكتم والفشل، القريبة جداً من تلك التي طورها السويسري روبرت والسر في الأيام نفسها»

والسر!

فكرت: بوف هو والسر شارع فانو.

قلت لنفسي، بغض النظر عمّا يعتقده الآخرون، بدأ يتضح لي يوماً بعد آخر أن العالم تنبجس فيه شبكة من المصادفات التي لم تأتِ عن عبث، بل كانت تؤدي إلى الشك في وجود علاقة في مكان ما، تومض من وقت لآخر بين أقمشة بالية.

بعد فترة وجيزة، ولما يتبق من زيارتي سوى خمس دقائق، شرع هومبل يرافقني إلى الباب. بينما كان يدفعني نحوه، شرح لي أنه يميل إلى بوف، وكشف لي في النهاية –مفاجأة طبيعية بالنسبة إلي– أن مبنى شارع فانو، الذي عاش فيه بوف طيلة عام 1928، لم يكن سوى رقم 1 مكرر، بمعنى، عقار جيد. عاش بوف هناك سنة كاملة في عزلة صارمة، في الطابق السفلي.

جيد في العلوي.

وبوف في السفلي.

في وقت لاحق من عام 1929، انتقل بوف إلى مبنى في شارع راسباي، ولم يُعرف في أي رقم. «وكيف لنا أن نعرف؟»، قلت له. «تقول كيف لنا؟»، أجاب هومبل محدقًا في وجهي لأنه، بصرف النظر عن حقيقة أن ساعة

الزيارة التي منحها لي قد انتهت عملياً، نبهني إلى أنني أحمل معي إلى الشارع نسخة من *«أصدقائي»*، دون وعي مني. وبحركة عفوية غير ودية، دعاني إلى إعادته. كأنني عاندت في إرجاعه، قمتُ من جديد بفتح صفحات عشوائية وأخذتُ أقرأ:

«كان صباحاً ربيعياً جميلاً. كانت الشمس فوق رأسي. كنت أسير على ظلي».

ألا يبدو هذا كأنه مكتوب من قبل روبرت والسر؟

اقتبست من والسر. انتفض هومبل كما لو كان مُجبراً على إعطائي معلومات عن آراء بقية الكتّاب ببوف. أخبرني أن أنطونين آرتاود كان قال إن أسلوبه يتمحور حول رفض الاشتغال على الأدب، والهروب من كل ما هو أدبي وتبعاته، بدءاً من أهمها جميعاً: الأسلوب. «بوف يذكرنا بوالسر. غالباً ما أحاول التحرر من عبء هوية الكاتب، لأنني أخال أن الخلاص منها، أحد دروب الحرية»، هذا ما صرح به فيليب أولي - لابرون. «لم يكن يعجبه أن يُرى، كان يريد أن يمر دون أن يلاحظه أحد. مثل السويسري والسر، كانت لديه حساسية عميقة تجاه كل أشكال عظمة البلاغة»، قال ماثيو ليندون. «ككاتب كان يتطلع دائماً إلى ألا تطاله أية فكرة عن العظمة، مما حمله إلى اختراع أنماط روائية مجهرية غريبة»، أكدت كوليت فيلوس. أما بيتر هاندكي، الذي كان قد ترجم له إلى الألمانية، فأوضح أن بوف لابد أن يصبح الشفيع المقدس للكتّاب (الطاهرين)، بمن فيهم كافكا، وفي مستوى شبيه بذاك الذي كان لدى تشيخوف وسكوت فيتزجيرالد.

«أعرف كل شيء عن بوف وكان يسعدني لو تكلمنا عنه لساعات، لولا أنه لم يعد لدينا دقائق إضافية. مرّ الوقت، ومرت الساعة التي اتفقنا عليها»، قال هومبل، وهو يحثني على أن أعيد في الحال كتاب *«أصدقائي»* الذي ادعى أنني أحاول حمله معي.

قبل أن أسلمه إياه، فتحته عشوائياً وقرأت بصوت عال وبسرعة، مقطعاً آخر: «بعض الرجال الأقوياء ليسوا وحيدين في الغربة، لكني أنا الضعيف، أشعر بالوحدة حين لا يكون لديّ أصدقاء».

«حسنٌ، ممتاز، بوف لي أنا»، قال هومبل بطريقة تكاد تكون لطيفة. بعد

قليل، خطف مني الرواية، وبدأ يدفعني بشيء من العصبية نحو الشارع. لكنه، قبل أن يودعني بصفة نهائية، ربما حتى لا يبدو فظاً وغير مهذب، حدثني بإعجاب عن الومضات التي كان يضمنها بوف، جمله القصيرة والقوية. هذا اللاأسلوب الذي كان آرتاود قد تحدث عنه، والذي تميز بالجمل القصيرة والمركزة، والنقاط المتواصلة التي كانت تمكنه، دون شك، من الوصول إلى نهاية الصفحة بتواضع وسرعة أكثر من غيره من الكتّاب. ومن أجل إثارة انتباهي أكثر حول ذلك، قرأ لي وسط الشارع، مقطعاً صغيراً لبوف، عبارة عن ومضات:

أحاول أن أنام لكني أفكّر في بدلاتي المطوية في الحقيبة، التي تتجعد.

السرير يسخن. لا أحرك قدميّ حتى لا أخدش الملاءات، وهذا ما يجعلني أشعر بالقشعريرة.

أتأكد ما إذا كانت الأذن التي أتكئ عليها ممددة كما يجب، وأنها ليست مطوية.

الأذنان المتباعدتان، قبيحتان.

ابتسم الدكتور هومبل، وبشيء من المهابة الساخرة، (خصوصاً عندما كان يناديني مراراً، دكتور بينشون)، ظل يؤكد عليّ ألا أنسى هذه الطريقة الرائعة في الكتابة، الومضات. «أنت يا دكتور بينشون، كاتب له حضور غامض، يمكنك أن تقوم بالطريقة ذاتها»، ختم كلامه. وبعد ذلك، أدار لي ظهره ودخل المنزل، غالقاً الباب بقوة.

كل ذلك حدث منذ شهر. لكنني أجدني اليوم وقد قررت أن أدونه ورقياً. اليوم تحديداً اعترتني رغبة في أخذ القلم والكرّاس وكتابة ما جرى في منزل الدكتور هومبل منذ شهر، وكذلك تدوين الخبر الذي وصل من العراق اليوم.

بدا لي أن كتابة هذا كله، سيساعدني على أن أكون أقرب إلى شارع فانو، الذي يتعاظم في داخلي الاهتمام به والحنين إليه. أحياناً أشعر بنفسي منفياً، على نحو مأساوي، من هذا الطيف الحي، المتمثل في ذكرى شارع فانو، ومن الكتابة عنه، وعن كل ما يرتبط به ويجعلني في حال أفضل، على وجه الخصوص.

يشير الخبر الوارد من العراق أن *مشاة البحرية* عثروا على محمد الجندي،

السائق السوري للصحفيين الفرنسيين المختطفين منذ ستة وثمانين يوماً. وجده الجنود الأمريكان مُقيداً في مكان لم يُصرح عنه، في الفلوجة. ويبدو أن المُختَطِفين تركوا السائق وأخذوا الرهينتين الفرنسيين إلى مكان آخر. تركوا السوري هناك، وأشاروا عليه أن ينقذ نفسه بالسباحة عبر نهر الفرات، وهي مهمة عسيرة مع يديه المقيدتين، إضافة إلى كونه لا يتقن العوم. اختار محمد الجندي أن يبقى حيث كان. «إن حكومة باريس لم تورد أي تعليق. كانت بانتظار أن تحصل على بيانات موثوق بها من سفارتها في بغداد».

وعلى الرغم من أنني كنتُ في طريقي إلى نسيان القلم والكرّاس، والتحول إلى ظل لظل أحد الظلال، فإنني شعرت اليوم بالحاجة إلى الكتابة عن هذا كله. وفعلت، ليس من أجل الإحساس بالقرب من شارع فانو أكثر، فقط، ولكن بالتأكيد، لمحاولة أن تعرف *المنظمة الكبيرة*، أينما تكن، أنني مثل بوف، أحد أولئك الذين يمشون في ظلها، نعم، وأنني في الوقت نفسه، واحد من أولئك الذين يسيرون وراء ظل المنظمة، وفي حدود الممكن، ولا يريدون أن يضيعوا أي تفصيل لما يجري. والكتابة، تحديداً، عبارة عن طريقة لتدوين التفاصيل والوقوف في حالة تأهب.

يمكن للدكتور إنغرابايو أن يخبرني الآن، أنني أتخيل رؤية الكثير من الأشياء، ربما تكون غير موجودة في واقع الحال. كما يمكنه أن يقول لي أيضاً، إني أشعر أحياناً كأني ما زلتُ أقيم في لوتيتيا حيث أتردد على أقرب حلقات السمر من شارع فانو. باستطاعة الدكتور إنغرابايو أن يروي لي العديد من الأشياء، أعرف ذلك، ولكن الشيء الوحيد الذي يهمني الآن هو معرفة أنني ما زلت متيقظاً وأنني أقوم بذلك على نحو ممتاز، لأن *المنظمة الكبيرة* تصل إلى كل مكان، وأخمن أنها عبارة عن قوات خفية غير بشرية تتحكم في حياتنا، والحق أقول إنني لم أعرف حتى كيف وطئت قدماي شارع فانو، إذ أشعر أن ثمة قوى غير مرئية تتحرك فيه. في بعض الأحيان، أتخيل أن شارع فانو نفسه، مثل الأماكن الغريبة الأخرى في العالم، هو مخلوق واع، تحركه طاقة تنبع من باطن الأرض، في منطقة عميقة تقطنها مخلوقات تبعث باستمرار رسائل إلى السطح، وتعمل على أن يطوروا بواطن الأشخاص النافذين مثلي، (لاحظت أن ما أتحدّث عنه، يحدث لي في الآونة الأخيرة)،

حزن رومانسي تقدمي، يقودني إلى الشعور أنني في الأعماق رجل بينشوني (في مساره الرجعي، إن كل ما هو موجود يمكن تسميته) يلمّ به الحنين، حين لا أكون في شارع فانو، أو ببساطة، عندما لا أتحدّث عنه.

يوماً بعد آخر، بتُ في حركة دائبة لإثبات كل هذه التخمينات بالطريقة ذاتها التي أؤكد بها مرة ثانية أن المرء حين يكون وحيداً لفترة طويلة، ويعتاد غربته، وحين يتدرب على البقاء في عزلته، يكتشف في كل مرة وفي كل مكان، المزيد من الأشياء التي لا تعني شيئاً بالنسبة للآخرين.

-25-

ارتكبت خطأ العودة إلى حانة لي أستول، وإن سميته خطأً، فلأنه في هذه المناسبة، وكما حدث في اليوم الأول الذي كان يجلس فيه الشاب الإسباني على الطاولة المجاورة متحدثاً مع خطيبته بصوت مرتفع. هذه المرة، كان جالساً من دون خطيبته ويتحدث بلهجة لوكنوو، وبصوت مرتفع بعض الشيء، إلى شخص أعرفه بصرياً، لأنني كنت أمر كل يوم أمام محله للجزارة في شارع بوافا، عند زاوية بانكاسو. إنه جزار رأيته مراراً في مكتبات مختلفة بالمدينة. من المحتمل أن يكون جزاراً متعلماً، رغم أن مظهره يوحي بأنه أحمق.

لم يكن ليحدث أي شيء لولا حديث الشاب عن الاختفاء الغامض لعالم الرياضيات ألكسندر غروثينديك، وهو اختفاء لم أسمع به منذ فترة طويلة. في نوبة من نوبات جنون العظمة التي تنتابني، تساءلت عما إذا كانوا يتحدثون عن عالم الرياضيات هذا عن قصد، حتى يُسمعوني. للحظة، تهيأ لي أن الشاب الإسباني يريد شد الخناق حولي، ليتأكد مرة واحدة وإلى الأبد ما إذا كان يختفي وراء شعري الأحمر واللباس الباهظ، كاتب من أبناء جلدته.

ولتفادي إثارة الشكوك، لم أغادر حانة لي أستول إلّا بعد انصرافهم، لدرجة كنتُ مضطراً إلى ابتلاع محادثتهم بالكامل. كان علي أن أستمع إلى كل ما قالوه عن غروثيندبك: ولد في برلين في عشرينيات القرن المنصرم، وتبنته عائلة من هامبورغ، بينما كان والداه يشاركان مع الفوضويين في حرب إسبانيا، توفي والده في أوسشويتز، والتأم شمله مع أمه الرائعة عام 1939.

درس في مونبيلييه وفي باريس، وحصل على شهادة الدكتوراه في نانسي. في الستينيات أصبح أكثر علماء الرياضيات ذكاءً في العالم، وفي عام 1970، رفض تمويلات صندوق وزارة الدفاع الفرنسية، واختفى عام 1990 في ظروف غامضة، بعد أن غيّر مقر إقامته في مكان مجهول بجبال البرانس، حيث تقول الأسطورة إنه ما زال يعمل لكن لنفسه فقط، على نحو سري وبعيداً جداً عن السلطة، رغم ما يقال إنه يعتقد أن لا سلطة ولا قوة تضاهي سلطة وقوة العدم.

كنت على وشك أن أقاطعهم وأروي لهم كيف أن حالة عالم الرياضيات المختفي تذكرني كثيراً بحالة العالم النابولي أيتوري ماجورانا الذي ضيعته الدروب. لكنني عرفتُ كيف أكون حصيفاً. لم أنس أن أولئك الجالسين إلى الطاولة المجاورة يمكن أن يولوا اهتماماً بهويتي المحتملة أكثر من اهتمامهم باختفاء غروثيندیك أو ماجورانا. التزمت الصمت متظاهراً بعدم الإنصات لأي شيء مطلقاً، وانهمكت في قراءة خبر حول سوريا في جريدة «لوموند»، جلب لي ذكريات عن شارع فانو، عندما سمعتُ من على شاشة التلفاز، وأنا أحدق في حدائق رئيس الوزراء الفرنسي، إنهم أقالوا رئيس الوزراء السوري.

الخبر الذي قرأته على شرفة لي أستول يؤكد أن رفيق الحريري، رئيس الوزراء اللبناني، فقد قبضته على سوريا (التي ما زال لديها جيش في لبنان) واستقال لأنه لم يستطع تشكيل حكومة. هذا الخبر يمكن أن يُقرأ، ولو بشيء من الغموض، أنه من المحتمل أن تكون استقالة الحريري، بداية نهاية مرحلة الاستقرار السياسي بين الغرب ولبنان.

«انتهى شهر العسل بين سوريا وفرنسا»، اختتمت *«لوموند»*.

تأثرت بشدة. هل انتهى شهر العسل مع شارع فانو أيضاً؟ من الغريب أن أنتقل في بضع ثوان، من الشعور بعدم الارتياح إثر شهر العسل غير المكتمل هذا، إلى الشعور ذاته تجاه جيران الطاولة الذين بدا أنهم يتجسسون عليّ.

على أية حال، كل ما حولي أصبح أكثر تعقيداً لحين وصول النادل، الذي صار يعرف اسم عائلتي، بعد زياراتي السبع للحانة، وسألني إذا ما كنت أريد شيئاً آخر.

- كأس أخرى من الويسكي، سيد بنشون؟

وفي الحال حدق بي الشاب والجزار، وأمعنا النظر كثيراً. تمالكتُ أعصابي، مُتخفياً وراء نظاراتي السوداء. وكأن شيئاً لم يكن، قلتُ للنادل نعم، أحضر لي كأساً أخرى. تجاهلت نظرات الصيادين الافتراضيين من الكتّاب المتخفين، وانغمست في قراءة الصحيفة مجدداً. «خروج الحريري، يعني كذلك، اختفاء واحد من أهم مهندسي بناء لبنان، بعد خمسة عشر عاماً من الحرب الأهلية. خلال السنوات التي كان فيها على رأس الحكومة، لم ينجح هذا الصديق العظيم لشيراك في إحياء بيروت من تحت الأنقاض فحسب، بل نجح أيضاً في إرساء قواعد متينة لانطلاقة اقتصادية مذهلة».

- الويسكي، سيد بنشون - قال النادل، ناطقاً اسمي بشكل غير صحيح، من جديد.

وعاود جلّاس الطاولة المجاورة، إلى التحديق فيّ مطولاً من جديد. بدأت أقلب الصفحات، واحدة تلو الأخرى، وتوقفت عند الرياضية. شربت الويسكي جرعة واحدة، ثم انصرفت. بدا لي أن الشارع تفوح منه رائحة الإسفلت كأنهم يقومون بإكسائه.

-26-

19 تشرين الثاني. وصلت أخبار جديدة عن مصير السائق السوري. كانت مقتضبة جداً، ولكن أفضل من لا شيء، لأنها من الممكن أن تكون أكثر. محمد الجندي، الذي عثر عليه الجيش الأمريكي في الفلوجة قبل أسبوع، وصل البارحة إلى فرنسا، برفقة زوجته، وولديه البالغين من العمر ثمانية عشر وستة عشر عاماً، وابنته ذات الخمسة عشر عاماً. اكتفى الجندي بالقول إن الخاطفين كانوا قد فصلوه عن الصحفيين الفرنسيين قبل أكثر من شهر، ويأمل أن تنتهي الأمور على خير. ودون أن أعرف السبب، صببتُ اهتمامي على المعلومة التي تقول إن ابنته تبلغ خمسة عشر عاماً من العمر. مثل نورا، قلت في نفسي. وقد أضفى خبر عودة السائق إلى منزله، طابعاً أكثر إنسانية.

أمضيت الأسبوع الماضي في قراءة بوف. بعد زيارة هومبل، وجدت *«أصدقائي»* في مكتبة باتانكافو واقتنيتُ كتباً أخرى للمؤلف. وفي وقت

قصير وصلتني عدة روايات وسيرة ذاتية مهمة لبوف، تأكدت من خلالها أنه أقام فعلاً، عام 1928 في الطابق السفلي في رقم 1 مكرر من شارع فانو.

نسختي من *«أصدقائي»* تتضمن صورة شتوية بالأبيض والأسود، يظهر فيها بوف في شارع فانو مرتدياً ربطة عنق، معطفاً أسود، وقبعة أنيقة، إلى جانب ابنته الصغيرة نورا، كأنها في شرفة مطلة على حديقة. الصورة حزينة، على الرغم من أنني حين أنظر إليها في بعض الأحيان (وليس دائماً)، أرى شبهاً كبيراً بين نورا بوف وابنتي نورا باسافنتو، حين كان لها من العمر ثلاث سنين. هذا المشهد يأخذني إلى حالة يأس غريبة. لم أشعر بمثل هذا القدر من اليأس من قبل، حين راودتني ذكرى ابنتي نورا، ولكن لا أريد إلقاء اللوم على بوف المسكين.

في بعض الأحيان، حين أسير ليلاً عبر ميناء لونكوو، أشعر بمعاناة جمة، لأنه ليس لدي أصدقاء، أي كما لو كنتُ فيكتور باتون، عدو بطل رواية «أصدقائي»، أسير مثله وأحاول أن أستدر العطف، وحالما أرى أحد المارة يقترب، أنظر نحو المياه العميقة ثم أخفي وجهي بين يدي. وغالباً ما يتطلع المارة إليّ، للحظات، ثم يواصلون سيرهم، غير مكترثين.

رغم ذلك، اقترب مني البارحة بحار مسكين وقال: «يبدو أنك تريد أن تموت».

«بل قل إني أريد الاختفاء»، أجبته.

أسدل الليل خيوطه، وكان القمر بدراً، حتى إنني تمكنت من رؤية النجمة سيريو لامعة في سماء لوكنوو.

«أنا أيضاً أريد أن أموت»، قال البحار.

«من الأفضل أن تجرب الاختفاء»، أجبته على عجل غاضباً، إذ تنبهت إلى أنه حشر نفسه كثيراً في حياتي، حتى إني توقفت عن استلطافه. إضافة إلى ذلك، بدأ يحاورني باستخدام الومضات، كما في مؤلفات بوف.

«لابد من الموت»، قال.

«لابد من الاختفاء»، صححت له.

وبأسرع ما يمكن انصرفت من هناك.

اختفيت.

ظهرت من جديد لأقول لنفسي إنني ما زلت ساخطاً من المقال الذي قرأته البارحة لكاتب إسباني من جيلي، أعتقد أنني أعرفه جيداً، وأعرف أنه مهووس بمحاباته بأعماله، أكثر من اهتماهه بالبناء البطيء لمؤلفاته، بيد أن هذه المحاباة لا تتحقق لأن موهبته يعرقلها هوسه الكبير بالنجاح، الذي يقوم عليه شخصياً باستمرار. بما أن رواياته تحتضن فكرة غامضة عن الطليعية، ينتهي بها الأمر دائماً إلى الجنون. الحقيقة أنه كتب مقالاً دفاعياً دعم فيه ألفريدي جيلينيك لعدم حضورها لاستلام جائزة نوبل، مخاطباً السويديين «الشهرة، أقبح مكان للفنان، والتهميش هو المحل المناسب للكاتب».

بشكل أو بآخر بدا أن كل شيء يسير على نحو حسن، لأنه بدأ المقال مشيراً إلى روبرت والسر، الذي قال عنه «مؤلف رواية يعقوب بن جونتين (كتب العنوان بصورة غير صحيحة، مما يعني انه لا يعرف الكتاب جيداً)، وذكر كلماته المشهورة: «ترعبني فكرة النجاح في الحياة».

في هذا الاقتباس المزدوج توجد رعونة مثيرة للامتعاض. وظّف كاتب المقال اسم والسر على نحو غير موفق، إذ قام بإحضاره بجرأة لكي يتمكن من القول إنه يتقاسم مع ألفريدي جيلينيك «عشقاً كبيراً للمؤلف السويسري» وبهذه الطريقة مهّد للحديث عنه، وعن السوء الذي لحق به بسبب النقد، والكتّاب والناشرين، ولم يتطرق إلى إساءة القراء الذين لاحظوا فيه مسألة الجنون فنفروا. القرّاء عادة يقفون مع الكاتب حين يشعرون بأنه مبدع.

«والآن، عندما يُدرج الأدب ضمن جدول أعماله لتحقيق النجاح اجتماعياً في الحياة، فهذا الموقف مما لا يُحسد عليه...»، كتب. يمكن أن يخدع مَن لا يعرفونه، أما أولئك الذين يعرفون شيئاً عنه، لا يجهلون أنه لم يتخذ هذا الموقف قط، وأن يفرح بجائزة نوبل لجينيليك، وفي النهاية، ترعبه، بطريقة ما، فكرة تحقيق النجاح في الحياة.

رغم ذلك، يقول إنه على وفاق مع موقف جينيليك ووالسر. لا يمكن أن أصدقه. إن قال ذلك، فلأنه لم يقرأه، أو لأنه لم يكن قادراً بالفعل على أن يتعمق في أسباب انسحاب والسر أو، بكل بساطة، لأنه يستعمله دون خجل من أجل أهدافه الغامضة والأنانية. أعتقد أن هناك بعض اللاشرعية

في التشهير بأولئك الذين لم يعترفوا به ككاتب. إضافة إلى أن هناك استهتاراً في الرسالة التي يريد أن يوصلها المقال، إذ يدفع بالقارئ الساذج إلى الاعتقاد أنه مرتاح جداً في التخلي عن النجاح، وأنه في أفضل حال مع التهميش. لو كان يعرف معنى التهميش بالفعل، لما كان قد أشار إلى والسر. كما أنه يجهل أنه في الابتعاد عن الأضواء، هناك دائماً –باستثناء الحالات الصادقة جداً، كالتي عند والسر أو بوف– أنوار مثلما هناك ظلال، لأن الرغبة في النجاح تختلط عادة مع الرغبة العميقة في عدم تحقيقه. إنها مسألة أكثر تعقيداً مما تبدو عليه. يعرض في المقال فقط طموحه –الذي يعتقده نبيلاً– في عدم السعي للنجاح، ويخفي تماماً التصفيقات السويدية التي يحلم بها. كان يروق له أن يعرف، كما يقول أمري كيرتز، إذا كان هناك مَن يبحث عن النجاح، فأمامه طريقان، إما أن يحققه أو لا، وكلاهما معيب بنفس القدر.

–28–

أجلس على كرسي –كرسي الحديقة القابل للطي– وأفكر في المستقبل. أحب أن أتخيل أنني سأكون سعيداً ذات يوم، وسيحبني أحدهم يوماً ما، لكن مضى الكثير من الوقت وأنا أنتظر.

إيمانويل بوف، *«أصدقائي»*.

أجد نفسي تحت تأثير قراءات والسر في شارع فانو، لدرجة بحثت هذا المساء في لوكنوو، عن كرسي الحديقة القابل للطي. لم أتأخر في العثور عليه. كان عليّ فقط أن أذهب إلى حديقة رروا، القريبة جداً من فندق لوبانكو. هناك، تحت ظل نخلة، ذكرتني بالتي كنت أشاهدها من غرفتي في فندق ترواسي في نابولي، جلست وأخذت أفكّر في المستقبل أو، بالأحرى، حاولت أن أتخيله، وبين برهة وأخرى كانت تقطع أفكاري، عبارات لخوان روفلو، التي يبدو أن لا علاقة لها بالذي كنت أفكّر فيه، لكنها تعيقني عن العودة إلى التفكير في مستقبلي: «أعيشُ حالة انغلاق أبدي، منغلقٌ للغاية، أنا. سأنصرف إلى مكتبي من هنا وأتوقف عن أن أثق بأحد. أنا أعيش حياتي ممتعضاً».

تمكنت أخيراً، ولو بلمحة، من التفكير في المستقبل حين قلت لنفسي، لكي أفكّر فيه، يجب عليّ أولاً أن أقرر ما إذا كنت أريد أن أعيش بصحبة أصدقاء (مع العلم أن العيش من دونهم، سواء عندي) أو أن أظل مُنغلقاً على نفسي وأقول إنني: «أعيش حياتي ممتعضاً»، وأتوقف عن كل شيء، بمعنى، أن لا يكون لي أصدقاء.

انتهى بي الأمر إلى استيعاب أن هذا الشك الهامليتي هو بالأساس، ما منعني من التفكير فعلياً في المستقبل. نهضتُ من الكرسي القابل للطي، وتحررت من الهوس بالأصدقاء، واكتشفتُ طريقة أفضل للاقتراب من مستقبلي، إذ أخذت أتذكر دريلانديريك، أو بعبارة أخرى، ركن *البلدان الثلاثة*. وهو فضاء مليء بالحدائق، كنت قد زرته في فصل الشتاء، عند مروري ببازل. يشعر المرء هناك كأنه في فرنسا، أو سويسرا أو ألمانيا، في الوقت نفسه. بخطوة واحدة، تحس أنك في بلد آخر على الفور. الحدود تبقى، أحياناً، مجرد لعبة بسيطة. في دريلانديريك، يمكن أن تشعر دائماً أنك على خطوة واحدة من الحدود الكبيرة، التي تلغي كل الحدود، أي المستقبل، حدود الجميع. وكما لو أنها نتيجة منطقية للذي تذكرته تواً، أحسست فجأة، كأنني على خطوة واحدة من هذا المستقبل. كل ما عليّ هو أن أتقدم خطوة واحدة فقط. في ذلك الوقت، كنت أمام لوبانكو، وعلى وشك الدخول إلى الفندق من الباب الدوار. كأنني أحببت الولوج في حلم، خطوتُ إلى الأمام رغبة مني في الشعور أنني داخل الباب الدوار لفندق لوتيتيا، وبخطوة واحدة فقط وجدتني بباريس.

لكن لا. هذا يمكن أن يتحقق بالكتابة، حيث يستطيع الإنسان أن يقفز بهدوء من مكان إلى آخر، وليس في الحياة الواقعية، التي تمتلئ بالحدود. لاحظت أنني ما زلت داخل الباب الدوار للوبانكو. وارتأيت أن أتابع هذا الحنين إلى شارع فانو، الذي ينمو يوماً بعد يوم، الجادة التي أتخيلها تتحرك بطاقة تنبع من باطن الأرض.

أحياناً أقول لنفسي، أنا أفكّر في أشياء تنتمي كثيراً إلى توماس بينشون، ربما لأن طاقته تصلني من أميركا. أعتقد أنه إذا نُقل بينشون الشبح، المختبئ في نيويورك إلى شارع فانو، لكان قد شهد ارتباطات أكثر من التي أراها أنا

فيه، ولكان قد التقط على الفور الحالة الجامدة للتهديد المسكوت عنه، الذي ينبعث من باطن الأرض، ويتجذر كل يوم أكثر في أسفلت واحة السلام في قلب باريس، الواحة الصافية، الصاخبة الهادئة، التي كل شيء فيها على وشك الانفجار.

محاولة الانتحار الأولى

أبهرني إسحاق باشيفيس سينجر حين يكون راوياً، على سبيل المثال في «*المجنون جيمبيل*»، وهي قصة وجدت فيها، هذا الصباح، عبارة بدت لي كأنها جوهرة القلق المكثفة: «لا شك أن العالم، عالم مُتخيل تماماً، ولكنه متاخم للعالم الحقيقي».

بدا لي أن العبارة تعلق علَى الضغط الميتافيزيقي الذي يعيش فيه الإنسان العصري، حين يرى أنه من الصعب الإيمان بالله مثلما العيش من دونه. تذكرت حين كنتُ يوماً في أعلى برج مونتين بالقرب من بوردو، آمنتُ أن الله كان رفيقي، وبعدها بقليل آمنتُ بالعكس تماماً.

في كل لحظة، يتضح أكثر أنني أعيش في توتر في الاختيار بين أن أكون مرئياً أو الاختفاء من كل شيء. هذا العالم الحقيقي الذي يتحدث عنه سينجر، لا يبدو لي وحده، بديلاً مقبولاً. عندما يصفه سينجر بأنه مزيج من المجزرة، من مستشفى الأمراض النفسية، ومن بيت الدعارة، إنما يذكرني بمدينة لوكنوو التي بالكاد تبدو واقعية في بعض الأحيان.

محاولة الانتحار الثانية

أعتقد أحياناً، أنني لا أمتلك الشجاعة الكافية لتحقيق رغبتي في الاختفاء ككاتب، والانقطاع عن كل شيء. كثيراً ما كنتُ أتهادى مع الاحتمال المريح في تحقيق هذه الرغبة من خلال *تدوينها*، وكان من الممكن استعمال هذه القوة التي تمنحني إياها الكتابة الخيالية من أجل أن أتحول، ولو على الورق فقط، إلى الشخص الذي لم أجرؤ على أن أكونه على أرض الواقع. لحسن الحظ، كانت لدي تلك الشجاعة ولم أكن بحاجة إلى هذا الخيال. أظن أن خجلي كان وراء شجاعتي هذه. أتذكر الآن جملة لوالسر في يعقوب بن جونتين: «الخجل يجعلنا دائما شبه مجانين».

-29-

اليوم هو الثامن من شهر كانون الأول. شاهدت على شاشة تلفاز لي أستول، أن مواطناً سورياً اعتقل صباح ذلك اليوم في أيرون في إقليم الباسك لعلاقته بالإسلاميين المتورطين في مذبحة آتوجا. كنت توقفت في لي أستول لتناول فنجان من القهوة، ولكي أتهيأ نفسياً لزيارة جديدة إلى هومبل الذي ينتظرني في منزله بعد خمس عشرة دقيقة.

عند سماع خبر أيرون، قلت في نفسي على الفور إنه سيكون من الصعب عليّ، في الأيام القادمة، التفريق بين الحدثين، الخبر وزيارتي الجديدة إلى منزل الدكتور. وهكذا كان، من الصعب فصلهما. الواقع يُزعجني، يتداخل -خاصةً إذا اعتبرته نابعاً أو على صلة بشارع فانو- في حياتي كمواطن مسالم وطبيعي يعيش حياة جديدة في لوكنوو، حيث أشعر بنفسي قوياً بهوية مجهولة، دون أن تكون لي القدرة على تغيير أو السيطرة على تقاسيم وجهي بطريقة مريبة حين أسمع شيئاً عن شارع فانو، وهذا يمنحني أسباباً للارتياب بالواقع، والتساؤل عمّا سيؤول إليه الواقع الحقيقي والعميق الكامن دون أدنى شك، وراء هذا الواقع المتواطئ مع المظاهر والأضواء المزيفة.

بينما أكتب هذا، أقول لنفسي إنه من المحتمل أن أكون تحت تأثير ما أخبرني به هومبل خلال زيارتي الأولى لمنزله: «أكثر ما يعجبني في نصوصك المكثفة، هو أن ما تسطره ليس الحقيقة، بل الواقع».

أخيراً. فتح لي الدكتور هومبل باب منزله للمرة الثانية في غضون أيام قليلة. كان يرتدي ثياب الحمام وشعره مشعث بعض الشيء. هو أيضاً كانت تبدو عليه سيماء الإرباك. حين لاحظ أنني كنت أنظر إليه من فوق إلى تحت، قال لي: «العبقرية في السمنة». وتبادر إلى ذهني أنه في حالة مزاجية جيدة، لكنه سرعان ما تغيرت ملامحه لتعكس وجهاً غير ودود. «المزاج السيئ للبدين»، قال ساخراً من نفسه. ثم اكتسى وجهه ملامح الغضب. كان يحاول أن يذكرني أنه قضى الأسبوع كله يقاوم فكرة استقبالي.

«ادخل، ادخل، بينشون»، قال لي على مضض. وسرعان ما اكتشفت أنه كان وحده هذه المرة. «ما سبب هذا الإصرار على رؤيتي؟». بدأت أشرح له أني أطمع أن يكون لطيفاً ويتحلى بالصبر من أجل الاستماع إلى سبع قصص

نثرية تجريبية، سبع *محاولات* قصيرة جديدة، كنت قد انتهيت من كتابتها مؤخراً. طلبت منه أن يستوعبني، وأن يفهم أن الانقطاع عن ممارستي لمهنة الطب النفسي، فتح لي آفاقاً جديدة ودفعني إلى الاهتمام بالعمل الأدبي. لن أسرق من وقته سوى دقائق، لأن رأيه سيكون ثميناً واستثنائياً للغاية بالنسبة إلي.

كنتُ أعتقد أنني بهذا، سوف أزكي هويتي كطبيب نفسي في كل لوكنوو، لأنني كنتُ واثقاً من أن الجميع في لوكنوو على دراية بما كان يجري في منزل هومبل. «سبع محاولات؟، يا له من ثقل!»، قال هومبل، ثم دعاني، بشيء من الانزعاج، للجلوس على الأريكة الكبيرة في الصالون. أريته أوراقي، وحاولت أن أجعله يرى أنها لا تحوي على الكثير من الكلمات. «أوف، يا لروعة رأس قلمك الرصاص، ويا للحرف الصغير، يا إلهي»، قال. «إنها سبع قصص نثرية قصيرة لا غير، كما ترى، *سبع محاولات انتحار*، هكذا أسميتها، إنها قصيرة جداً، لن تأخذ منك وقتاً طويلاً»، قلت.

«ينقصها فقط أن تكون انتحارية»، انتقد بسخرية واضحة. أشعل السيجار. لم يدعني للتدخين هذه المرة أيضاً، كما فعلها في زيارتي السابقة، حين أخرج سيجاراً كوبياً. «تعال، أسمعك. كلما انتهينا مبكراً، كان أفضل»، قال، وبدا لي أن غضبه كان مُبالغاً فيه كثيراً ومسرحياً، وربما كان يتصرف فيه عن قصد. خطر في بالي أنه بهذه الملامح الغاضبة، كأنما يحاول إخفاء حماسه المُتواضع، حين رأى أنه ما يزال يثير اهتمام المبتدئين بفن الكتابة، رغم مرور خمسة عشر عاماً عليه ككاتب في أزمة. ماذا لو اتضح في النهاية أنه ما يزال غارقاً في وهم الكاتب المشهور الذي كانه قبل خمسة عشر عاماً وأنهم يطلبون منه النصيحة الأدبية على هذا الأساس؟

قرأت عليه *المحاولة*، التي كان سينجر بطلها، وحين رفعتُ رأسي لأرى ردة فعله، لاحظت أنه كان ينظر إليّ مذهولاً. ثم انفلتت منه ابتسامة غريبة. *«واصل، واصل محاولتك الثانية»*، حثّني. عندما أحنيت رأسي لقراءة ورقتي الثانية، أدركت أنني يوماً بعد آخر أصبحت أقرب إلى البروفيسور مورانتي الذي كان يقرأ لي في نابولي مقالات مصغرة. كيف أمكن أن أتحول إلى مرآة للبروفيسور؟ وسرعان ما وجدتُ المبررات. الوحدة، فكرت. وضرورة الحديث عن بوف، لكي أشعر بالقرب من شارع فانو أكثر.

قررت تجاوز قراءة *محاولة الانتحار الثانية*، دون أن ينتبه لشيء على ما يبدو. انتهى بي الأمر بعدم قراءتها لأنها بدت لي نصاً مختصراً نوعاً ما، وأعطت دليلاً واضحاً على أنني لستُ مبتدئاً، إنما كاتب توجه إلى لوكنوو للاختباء، بعد أن قام بمسح كامل لجميع مؤلفاته السابقة، وانهمك في الكتابة كما لو أنه لم يفعلها قط من قبل، أو أنه يعيدها من جديد، وشرع يكتب ما كان سيكتبه لو كتب، ربما في محاولة لتفعيل أدب مصنوع من المنمنمات، لا يمكن أن يطاله الجمهور (باستثناء هومبل، الذي قررت أن أجعل منه آخر قرّائي)، أدب خصوصي، سري، جديد بقوة، تجريبي، وغير مهني، سرد مُقتضب جداً هو للمقالة أقرب. لم يكن هناك شيء سوى أن الكتابة حولتني إلى متخلف، وأشعرتني بالحرية في أعماقي.

انتقلت إلى قراءة *محاولة الانتحار الثالثة*، التي تحدثت فيها بصورة مجردة، عن كيفية التخلص من عبء هوية الكاتب، واقترحت رفضاً جذرياً للشهرة ولعالم الغرور الأدبي، كما اقترحتُ على الأدباء الجدد، العمل على ألا يكون لهم وجه، وإقصاء الصورة إلى أقصى حد ممكن، مع التركيز بالتحديد على ما هو أدبي، والانهماك في العمل الكتابي نفسه. استشهدتُ بديكارت، الذي يضع *الشخص* في قلب فلسفته، وفي الفقرات الأخيرة من *خطاب المنهج*، يقول إنه يريد أن تكون مؤلفاته مقروءة، وأن يعرف ما يفكر به القراء، لكن دون أن يبرز، لأن الشهرة «عكس السكون، الذي يتلبسني أكثر من كل الأشياء»، لذلك، «سأكون ممتناً لو يتركونني أعيش بحرية تامة».

كانت *محاولة الانتحار الرابعة* عبارة عن تكريم متواضع لأنجلو سكورسيليتي، وفيها قيل إن قراءة هذا المؤلف، تلميذ بلانشوت الوفي، هي بمنزلة استسلام لدوامة لفظية تؤدي إلى الاختفاء، إلى الافتتان بالعدم والموت، ورفض الكل، الذي يُعد في الحقيقة، الطريقة الوحيدة للتعبير عن سلبية العالم الحالي، وعن تزييف الأدب، حيث يغرق كل شيء في هذه الأوقات المظلمة التي نعيش فيها.

أما *محاولة الانتحار الخامسة* فكانت جولة تحدٍ حقيقي (لأنها كُتبت في مساحة صغيرة جداً، على ظهر البطاقة الشخصية للدكتور مونتيرو) وهي، دون شك، أكثر قطعة مقالية على الإطلاق. تدور حول الطبيعة المنفردة

للإبداع الفني وحقيقة أن «هاملت» اللغز، على عكس الوقح «كيخوته» المرسوم كثيراً، كان يمضي دون أن يتعرف أحد على وجوهه، مما جعله الرجل العصري الحقيقي في وقتنا الحاضر.

كانت *محاولة الانتحار السادسة* تكريماً لوالسر. كانت تتحدث عن *منهج قلم الرصاص* (الكتابة بضمير المبتدئ، وممارستها بقلم الرصاص على قصاصات صغيرة من الورق تتلاءم فيها مدة النص مع الورقة التي تُعد بمنزلة سند له) كما تحدثتُ عن إعجابي بأولئك الكتّاب المعروفين الذين في وقت معين من حياتهم، تمكنوا من *التلاشي* بمهارة كبيرة، متنكرين في بواطن كلماتهم، ومرتاحين في تخفيهم.

اخيراً، *محاولة الانتحار السابعة*، التي كانت تتطرق من دون طمس الحقائق، إلى الكتابة من أجل الاختفاء: «قصة اختفاء الإنسان في الغرب لا تبتدئ بولادة الشخص ولا تنتهي بموته، بل إنها حكاية كيف أن ميول الإنسان الغربي للتعبير عن نفسه كقاعدة، تدفعه إلى رغبة غريبة لإبادة نفسه، وكيف أن هذه المحاولات *الانتحارية* تعتبر، بدورها، تجارب لتأكيد الذات».

«لننتهِ منها! كل ما كتبتَ، محاولات لتأكيد ذاتك أنت»، قال هومبل بضحكة مكتومة وبشيء من الانزعاج. بدأ يتململ في جلسته. لم أعرف ما أقول له، رغم أنني كنت فخوراً *بمحاولاتي* (ومازلت حتى هذه اللحظة، لأنني أعتقد أنها تفتح أمامي آفاقاً لكتابة مجهرية حرة في السنوات القليلة القادمة) وشعرت أمام هومبل البدين، كأنني البروفيسور مورانتي في نابولي، وهذا ما جعله يخفي بعض عقد النقص فيه.

نظرت إلى نفسي في المرآة القديمة بجوار الأريكة، ورأيت نفسي هناك مثيراً للسخرية، بقصاصات الأوراق التي أحملها وغروري كمبتدئ. إلى أين أريد أن أصل؟

وبشكل غير متوقع، عرض عليّ هومبل سيجارة، فقبلتها، ولم أدخنها. احتفظت بها بين يدي ولم أعرف ما أفعل بها. اكتشفت أنني متوتر أكثر مما كنت أعتقد. وانتهى بيَ المطاف أن وضعتها خلف أذني.

«انظر»، قال لي هومبل حينها، «يبدو أنك خبير في تبويب الأضرار التي يعاني منها الكتّاب المشهورين، لكن أحدهم فلت منك. من المؤسف أن

يطالنا نحن الكتّاب المشاهير، إن آجلاً أم عاجلاً. يأتي اليوم الذي يسعى فيه عدد من الكتّاب المبتدئين إلى البحث عنّا، كأنها ضريبة الشهرة، لقراءة كتاباتهم البدائية أو الاستماع إليها لإبداء رأينا في أعمالهم الكارثية».

قررت أن أتظاهر كأنني لست المعني بالأمر، لأنني سأضيع إن فعلتُ ذلك. هومبل، الذي كان ينظر إليّ مبتسماً، أخرج فجأة، من صندوق من خشب الأبنوس، ورقة سيجارة وقدمها لي، كأنه يشير عليّ أن أستخدمها في *محاولة انتحار* جديدة على الرغم من صغر حجمها (لهذا السبب بالتحديد). «مع حجم الخط الصغير، المتناهي الصغر الذي تستعمله، يمكنك أن تكتب رواية على ورقة سجائر»، قال لي. تظاهرتُ بأني غير مدرك للاستفزاز وأدرتُ دفة الحديث نحو بوف والفائدة التي جنيتها من قراءتي لرواية *«أصدقائي»*. وافترضتُ أننا نقترب من شارع فانو، ولم أكن على خطأ في حدسي. ولاحظتُ أن هومبل انفعل على حين غرة، كما لو أن شارع فانو قد ضخ فيه حياة، كأنها اللحظة الأولى التي كلمته عنه. الافتراض بأن هذا يمكن أن يكون صحيحاً، شجعني على الاستمرار. اتخذنا منعطفاً لفظياً قصيراً وانتهى بنا المطاف في شارع باريس الذي وضع نفسه عن غير قصد بجوار سوريا، في قلب حياتي.

ثم بدأ هومبل يروي لي بحماس مكبوت أن الكاتب إيمانويل بوف كان في شارع فانو جاراً لرسام معروف اسمه إيميل آرتوس بويسويلوالد، الذي كان يمتلك مرسماً في ذلك الشارع حتى يوم وفاته. وأضاف هومبل أن هذا الرسام كان أشهر شخص من بين كل الذين تعرضوا إلى حوادث اصطدام سيارة في شارع فانو حتى الآن. لقد تعرض لهذا الحادث في 20 إذار 1935 عندما غادر ورشته وكان من المتوقع دائماً أن بوف الطيب، لو لم ينتقل للعيش في جادة راسبايل، لكان قد أنقذه ربما، لأنه في أكثر من مناسبة كان يذهب للبحث عنه في الورشة لتناول الطعام ولم يكن من الصعب تخيل يد العناية الإلهية في اللحظة الأخيرة التي كان من الممكن أن يقوم بها بوف الشاب، ويزيحه بعيداً عن عجلات السيارة المجرمة.

ابتسم هومبل. لم أكن أعرف جيداً إذا ما كان قد اخترع شخصية ذلك الرسام المُصاب، لكنني ظننتُ أن التحقق من هذه المعلومة لم يكن أمراً

ضرورياً. «أراكَ متشابكاً مع شارع فانو ومع الصدف التي سُجلت في هذا الشارع، أنصحك بعدم الاقتراب من يوم 20 آذار المقبل، الذكرى السبعين لدهس بويسويلوالد. من الممكن أن يكون يوم وفاتك أيضاً»، قال هومبل فجأة بتهكم واضح مُتسلياً. هل كان يراني رجلاً مسكيناً وكئيباً يعيش مُقيداً بالحاجة إلى سماع أخبار تتعلق بشارع في باريس؟

ولعدم رغبتي في التخلي عن الحديث حول شارع فانو، سألته عمّا إذا كان من الممكن زيارة شقة بوف في الرقم 1 مكرر من هذا الشارع. كانت ردة فعل الدكتور هومبل سريعة، لأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال بالتحديد. «أنا قمتُ بذلك» قال، «تعيش فيه الآن السيدة سينيوريت، التي تنكر أمام قراء بوف، أنه كان يعيش في شارع فانو، ولا أعرف لَمَ تفعل ذلك. لكن المؤكد أن تلك الشقة الصغيرة في الطابق السفلي، متآكلة بالعث وكثيرة التغريد شيئاً ما».

كثيرة التغريد؟ زاد من شكوكي أن الدكتور هومبل يمكن أن يمزح أو يختلق. «في الواقع»، قال: «لم يتمكن بوف من المكوث ولو لسنة واحدة في هذا الفضاء، الذي هو اليوم مخيف. لقد ملأته السيدة سينيوريت بعصافير مغردة وببغاوات ضاجّة في مساحة لا تتجاوز عدة أمتار مربعة، في الوقت الذي من المفروض أن تكون مخصصة للأدب، مع لافتات تذكارية تقول إنه في عام 1928، كان جيد العظيم يلعب الشطرنج مع الشاب بوف الذي كان يجعله يفوز دائماً، لأن الإحساس بالخيبة جراء الخسارة، كيفما كانت، لم تكن لتقلقه قط».

بعد بضع دقائق، حين عاد للظهور موضوع إيميل آرتوس بويسويلوالد الاستحواذي، الذي وصفه بالرجل الذي كان على الدوام يمشي مرتدياً قبعة حمراء، ويضع نظارات ذات إطار معدني وشوارب. وإن لم أكن قد تماديت في الوهم، ألم يكن في تصرفه هذا يُشبه إلى حد ما، المخبرين الذين يحاولون اكتشاف الشكل الحالي لبينشون، لكونه كاتباً يتخفى حين يمضي للتسوق في نيويورك؟ هل كان هومبل يسخر مني، ثانية؟ أم أنه يحاول أن يخبرني، بكل صرامة العالم، أن بينشون كان قد مات مدهوساً عام 1935 في شارع فانو؟ أخال أنني، مع كل هذه الأسئلة، قد أصبحت شبه مجنون. لا أعرف. وبدأت أعتقد أنني ربما أكون مصاباً بجنون العظمة أكثر من بينشون نفسه، المغرور

العظيم. هل من المحتمل أن يكون هومبل عضواً في *المنظمة*؟ ألا يمكن أن يكون أحد المنتمين إلى القوات غير المرئية التي، حسب ما يدّعي بينشون المزيف الحالي (الذي استأثر منذ سنوات بشخصية الرسام الذي تعرض للدهس عند خروجه من ورشته)، يتحكمون بحياتنا ويحوكون المؤامرات السرية والحربية من باطن الأرض في بعض شوارع العالم، ومنها شارع فانو؟

بدا كل شيء في غاية الجنون وبسيطاً للغاية في نفس الوقت. إذا فكر أحد ما، على سبيل المثال، في 20 آذار، أو بالأحرى، في تاريخ دهس الرسام بويسويلوالد، سيلاحظ أنه مُشابه لتاريخ بداية الحرب الثانية في العراق عام 2003. من المُقلق جداً أن يُعتقد بأن كل شيء مرتبط ارتباطاً وثيقاً، وأنه من الأفضل، والحالة هذه، التزام الهدوء والتطلع إلى هومبل البدين مثل ما أريده أن يكون، تبعاً لظروف وحالات جنون العظمة المفاجئة لبينشون: سمين دون غموض، يدخن السيجار الهافاني، ويصغي إلى *محاولاتي* بصبر نسبي.

نظرت إليه، ورأيته مرتاحاً للغاية. عدتُ أتساءل عمّا إذا كان موضوع شارع فانو، ولدوافع تغيب عني، هو الذي حفز خيال هومبل. كان يبدو على سيماه المرح وهو يختلق جيراناً لذلك الشارع. أم أنهم واقعيون ولم يكن يختلقهم؟ بدأ يخبرني أن إيميل آرتوس بويسويلوالد كان المعلم الأول للنحاتة الجميلة كاميلا كلاوديل، حبيبة رودين التي عاشت، على غرار روبرت والسر، جزءاً كبيراً من حياتها حبيسة في مستشفى الأمراض العقلية. «أروع امرأة في زمانها»، قال لي هومبل، ثم انتقل ليحكي لي أن بويسويلوالد كان أول معلم لتلك المرأة، ولو أنه على عكس تلميذته، كان فناناً محافظاً، رساماً ودوداً، كان قد اقترح شيئاً لم يعد يُعمل به اليوم بطبيعة الحال، لوحة مفعمة بالمشاعر والأحاسيس. صدمته سيارة عند رقم 50 من شارع فانو، تحديداً أمام المركز الثقافي الفرنسي – الهندي الذي كان يتردد عليه كثيراً، بالتأكيد، عندما كان يعيش في باريس. كانت روز تعمل هناك، وهي صديقة أميركية من أصل هندي، ولدت في لوكنوو، مدينة تحمل اسماً مشابهاً جداً لعزيزتي لوكنوو. «ربما لا تعرف ذلك، لكن أنا مَن صمم ديكور غرف فندقك، اللوبانكو. كنتُ قد ملأت الجدران بصور لوكنوو التقطتها روز. لابد أن لديك واحدة في غرفتك. هل تأملتها؟». لابد من وجود واحدة

في غرفتك. هل لاحظت ذلك؟ قلت نعم، وفي ذلك الوقت كنت قد وجدت أن الديكور المظلم لغرفتي هو بصراحة مضحك و«قواعدي» للغاية.

دائرة أخرى تُغلق، فكرت. وأخرى تُفتح، لأنني بدأت أعرف أن صورة غرفتي في الفندق كانت ملتصقة مباشرة بشارع فانو. «كم صغير هذا العالم»، قلت، وفي الحال لاحظت أن هومبل رأى في كلامي حماقة. وفجأة شرع ينطق بكلام عدواني بعض الشيء. «لابد أن يكون، شبيهك يا بينشون، فخوراً بك. يكاد يتفوق عليك في الهوس *بالارتباط* بكل شيء»، قال. شرع يلمّح لي أن عليّ تركه وحده، إذ إن لديه الكثير من العمل. أي نوع من العمل؟ لم يشأ أن يجيبني. هل كان يصمم ديكور فندق آخر؟ نظر إليّ نظرة رهيبة. في محاولة مني لتأخير خروجي من البيت، جربت أن أضلله، بتغيير مسار الحديث. عدتُ إلى تقمص دور الكاتب التجريبي المبتدئ بالكامل.

«كم عدد الجوائز التي فزت بها؟»، سألته.

«مَن؟ أنا؟ ولا واحدة».

«وما رأيك فيها؟»

«الجوائز؟ أتمنى أن أفوز بواحدة ذات قيمة مادية جيدة. لكن، بما أنني لا أكتب...».

«أنت تعلق أهمية كبيرة على الابتكار في الأدب. هل تعتقد أنه يغيب كثيراً عند غيرك من كتّاب جيلك؟».

«ما هذا، مقابلة؟ اسمع، لا أعرف، لأنني لا أقرأ للمعاصرين لي».

«أي أنكَ لا تتابع ما يُنشر كل يوم».

«لا، لا شيء. لهذا السبب، إذا عدت إلى الكتابة ثانية، فلن أطلب من أحد أبداً أن يقرأ لي. أنا لست مثلك، سيد بينشون».

فجأة، قفز واقفاً على قدميه وأخبرني أن أحد المشاكل المتعلقة بعدم كونه سالينجر، («الذي عرف كيف يحمي نفسه من الفضوليين بطريقة رائعة جداً»)، هو أن الجميع كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يجروا معي مقابلة. «وأنا لا أملك ما أقوله شخصياً. لو بدأتُ بالحديث، لكنت أدليتُ بنفس العبارات التي يتفوه بها ابن أي جار. أنا لستُ أصلياً، ولا كائناً غريباً، أنا رجل

تزوج مرتين، ولديه ثلاثة أبناء وعشيقة، أنت رأيتها في ذلك اليوم. تعجبني السينما والمسرح، ولم أعد أكتب. أعيش حياةً بورجوازية صغيرة ممتثلة للنظام بالكامل. كنتُ ممرضاً بسيطاً ومزاجي مزاج ممرض بسيط. ولهذا السبب كان يلجأ إليّ الكتّاب المبتدئون التعساء، لكي أهتمّ بهم. لكنهم لا يعرفون كم أنا تافه، وإن كنتُ أبدو مثل تشارلز لاوغتون. قد لا تصدق أني أجهل إن كنتُ أبدو مثله. أنا أعلم ذلك، لأنهم أخبروني بها آلاف المرات. لكني لا أمتلك عبقريته. ينقصني الاهتمام، صدقني. أنا أحمق بسيط معجب ببوف. أرأيت؟ أنا غبي لا يعرف حتى التلاعب بالكلمات. اختفِ يا بينشون. أرجوك أن تغادر».

طلب مني أن أنصرف. لابد أن أغادر، حتى لو اقتضت الضرورة أن أمقته. «بورجوازي صغير»، كرّر كلامه مبتسماً، كأن مقولته أعجبته. لكنه بعد فترة وجيزة، تظاهر كأنه متأثر للغاية، وأخفى وجهه بين راحتيه وبدا مثل شخص على وشك أن يرمي نفسه في الماء من أعلى الجسر. تساءلت ما سوف يحدث إذا ما دخلت باميلا السوداء إلى المنزل في ذلك الوقت، على سبيل المثال، ورأت أنني كنتُ قد حطمتُ عشيقها وتركته يائساً. لكنني استخلصت على الفور أن تلك المسألة لم تكن على الدرجة التي توقعتها من الخطورة، كانت مجرد محاولة لإخراجي من هناك بأقصى سرعة ممكنة. ولأنني لم أتحرك، قال: «هل رأيت؟ هذه إحدى سلبيات زيارات المبتدئين. ينتهي الأمر بطردهم من أجل مصلحتهم الخاصة، لأنه يرى ضرورة اهتمامهم بالقراءة أو الكتابة بدلاً من تضييع الوقت في زيارة فيل هرم لم يعد يكتب منذ زمن».

اتجه نحو الباب. وبعد دقيقة، خرجتُ إلى الشارع، بعد أن سمعتُ صوت الباب يُغلق. فجأة أحسستُ أنني مرتبك وغريب. سمعت الباب يُفتح خلفي مرة ثانية ثم سمعت صوت الدكتور الرعدي والرهيب.

«أنا نكرة، من أنت؟»

لم أجرؤ على الالتفات، ولا الرد عليه. غادرتُ المنطقة وأنا أمشي بطريقة غريبة، ضاغطاً على الكعب قبل النعل. كنت ما أزال محتفظاً بالسيجار غير المدخن خلف الأذن.

-30-

بعد أسبوع، التقيت هومبل في الشارع صباحاً، ولا يمكنني أن أقول إنه كان لقاءً عرضياً. كان يحوم حول الفندق منذ ساعتين، حسب قوله. واعتقدتُ أنه لو تمشى معي، فسوف يخبرني بآخر الإشاعات التي تدور في باريس. أحد أصدقائه من شارع أودينوت كلمه عن شكوك مفادها أن سفارة سوازيلاند تتخفى داخل السفارة السورية في شارع فانو. «هل تعرف عن أي بلد أتحدّث؟»، سألني. «لا، ولا أعرف حتى إن كانت سوازيلاند موجودة على أرض الواقع»، أجبت. ضحك هومبل. «فما بالك تسخر مني؟»، أضفت. «إنها بالقرب من جنوب أفريقيا، يحكمها ملك أسود مستبد للغاية، وينفق كل شيء على النساء والسيارات الفاخرة. عاصمتها تُدعى مبابان، أو شيئاً من هذا القبيل. ويعاني البلد من ديون خارجية كثيرة. وهم لا ينشرون كتباً»، كلامه الأخير أغرقني في الضحك.

«من الصعب أن يُصدق أن سفارة بلد ذي كيان، تقيم داخل سفارة سوريا، صعب جداً». قلتُ له، وأنا أشعر بأن الأدوار قد انقلبت، لأنني أصبحت الآن، الشخص الذي أحس فجأة بالارتباك من صحبته، وأنه هو الذي يلاحقني. لماذا يتفرغ «الكاتب الكبير» حالياً في سرد قصة لا تُصدق حول شارع فانو؟ ماذا يعني ذلك الاهتمام المتزايد بهذا الشارع؟

عاد إلى التهمة. «قام صديقي القاطن في شارع أودينوت، بجولة في شارع فانو، والتقط صوراً لبعض المباني هناك. لقد تجاوز الخط الأحمر، لأن هناك أماكن من الخطر التقاط الصور فيها، حيث ينتشر الكثير من رجال الشرطة، كما تعرف. التقط صوراً للسفارة السورية، على سبيل المثال. هل تريد أن تعرف ما الذي صوره غير ذلك؟ يمكننا رؤيتها في الحال، إذ قال إنه سيرسلها عبر البريد الإلكتروني عاجلاً».

كانت تحوم حول قصة صديقه من شارع أودينوت العديد من الشكوك. قلت له نعم أحب أن تحدثني عمّا صوره صديقك. كانت الدهشة لمّا تزل في داخلي أمام خبر ذلك التقرير المُصور غير المتوقع *لشارعي*.

كان رجل شارع أودينوت، الذي أعجبه أن يلعب دور المخبر السري، يرتدي معطفاً واقياً من المطر وقبعة من اللباد، كما لو كان ألان ديلون في فيلم

ميلفيل *«الساموراي»*. كان قد تقمص شخصية القاتل المأجور المتخفي، والمسلح بآلته الصغيرة «أوليمبوس»، تجول في جميع أنحاء شارع فانو. إضافة إلى السفارة السورية، كان قد التقط صوراً لمنزل جيد، القصر الغامض بظلاله الجامدة، وصيدلية دوبيرو، مدخل مكاتب شركة مورتيس، واجهة منزل ماركس، فندق السويد، ونافذة منزل الطابق السفلي حيث كان يعيش بوف، ولم تعد تقطنه السيدة سينيوريت، لوجود ملصق طفولي على النافذة واسم، ربما تكون غرفة ألعاب طفلة.

«ستصل الصور عاجلاً، ويمكننا رؤية ذلك الملصق. إنها تفاحة»، قال لي هومبل بحنان مُبالغ فيه. «أشكر اهتمامك بالشارع، لكن أظن أنه ما كان عليك أن تزعج نفسك بهذا القدر»، قلتُ له. «لكن، ليس هناك أي إزعاج. صديقي من شارع أودينوت، مثلاً، قضى وقتاً ممتعاً، لأنه مهووس بالمخاطر وكان مستمتعاً جداً بتصويره النافذة مع التفاحة. كان شبه واثق من أنهم يمكن أن يخطئوا فيه باعتباره متحرشاً بالأطفال».

من بين كل ما دوّنه المخبر - المصور، أثار انتباهي اختفاء بهو فندق السويد، الذي كنتُ أعرف من قبل أنه في طور الترميم. قاعة الاستقبال فقط كانت لا تزال قائمة، لكن الصالة كانت مقلوبة رأساً على عقب، في حين ظهر العمال وهم يقومون بأعمال الترميم. حتى العمال، لم يخلصوا من عدسة مخبر شارع أودينوت رغم الخطر الذي كان محدقاً به. لم يصدمني ذلك، بيد أني تأثرتُ باختفاء الواجهات الزجاجية في البهو حيث كانت تُعرض الكتب أيضاً، التي كنت أربطها على نحو شديد بطفولتي وبسينما تشيلي في برشلونه، حيث كانوا يعلنون عن برامج الأسابيع المقبلة في واجهات زجاجية مماثلة، اختفت كذلك.

وشيئاً فشيئاً، بدأت أستوعب من أين يأتي كل هذا الفضول والاهتمام المُفاجئ للدكتور هومبل *بشارعي* فانو. شرح لي ذلك بنفسه. لم يعد يكتب منذ خمس عشرة سنة ولا يفكر في العودة إلى الكتابة، إلّا أنه يستمتع «بالتقصي عن شارع فانو، بمساعدة صديقه المجانية». تخلى عن الكتابة، ولكنه لا يقيد نفسه كثيراً ساعة «الكتابة في الحياة». وبدلاً من الضرب على لوحة الآلة الإلكترونية، يحرر في الشارع أو من منزله، كلمات وجملاً وفقرات كاملة،

دون الحاجة إلى طباعتها. كان قد اتخذ مني شخصية لرواية لم يكتبها إلّا على أرض الواقع، تدور أحداثها حول أسرار شارع فانو، الذي كنت قد ألممتُ بتفاصيله عن كثب. وبفضل ما قصصته عن هذا الشارع، خلال زيارتي الأولى والثانية له، تخلى عن لا مبالاته في الفترات الأخيرة، وتوصل إلى قصة خيالية عني وعن شارع فانو، رغم أنها كانت تصلح فقط للكتابة في الريح أو في الهواء، لأنه لم يفكر مطلقاً في القيام بذلك على الورق.

على الرغم من الغموض الذي يلفه، لم أكن لأرى الأمر مناسباً ومميزاً. فرحتُ كثيراً بعودته المفاجئة والغريبة إلى الكتابة لدرجة جعلتني أشعر بتحرر كبير ومباغت. لاحظت في الحال وبوضوح تام، أن استرجاع هومبل لمخيلته الروائية، حررني من نفسي، وسمح لي أن أشعر ثانية بنفس الإحساس المُنقذ لذلك اليوم، الذي اختطف مني المسافر، سيارة الأجرة في محطة سانتا خوستا في إشبيلية، وتركني فجأة مُثقلاً بالمسؤوليات والهواجس.

بما أن هومبل أخذها على عاتقه، لم يعد من الضروري أن أكون مُنصاعاً إلى الخيال ليعينني على الكتابة، وسردها على نفسي. صار بإمكاني أن أكرس ذاتي، أكثر من أي وقت مضى، لمقالاتي وكتاباتي النثرية المختزلة.

الحقيقة أن هومبل كان لطيفاً ومثالياً بما يكفي لينتزع مني عالم المخيال، وشعرتُ بالكثير من الامتنان لالتفاتته هذه. سيكون بوسعي من الآن فصاعداً أن أتفرغ بالكامل لما يثير اهتمامي فعلاً، وهي الكتابة من حين إلى آخر في دفتر ملاحظاتي، وفوق كل شيء، تكريس نفسي للبحث عن الحقيقة التي سأقوم بتدوينها على قصاصات الأوراق، على شكل مقاطع نثرية مختزلة، وبحروف غاية في الصغر.

شعرتُ بامتنان غير محدود نحو هومبل، وأعترف بأنه لم يذهب بعيداً في ميله الدبق الذي تفتح حديثاً.

«كيف تتخيل شارع فانو من هنا؟»، سألني هومبل، مُقترباً مني أكثر.

تراجعت. هممتُ بالمغادرة.

«اسمح لي»، قلت، لكنني أعتقد أنه لم يسمعني. «تخيّل»، كنتُ على وشك أن أقول له، لكنني سرعان ما ميزتُ تعابير وجهه القاتمة فتألمت. قررتُ أن أجيبه. لم أكن مضطراً للتفكير كثيراً.

«حسنٌ، أتصوره أنا مثل مشهد حضري يدب بصمت. قاتم وجامد في انتظار كارثة».

تورّد وجهه. كنتُ أريد أن أخبره بأن الرائع في الأمر أنه هو الذي سيتحمل منذ الآن وعلى نحو جوهري، مسؤولية القصص عن هذا الشارع الباريسي، هذه القصص التي انبثقت من الواقع. تمنيتُ أن أقول له إنه إذا صب اهتمامه على عامل الخيال، فيمكنني أن أكرس ذاتي في النهاية للبحث عن الحقيقة المختبئة عادةً خلف الواقع وخلف الجزء الأكبر من الخيال أيضاً.

في تلك الليلة تمددت على سريري، واتخذتُ قراري في التفرغ لهذا النوع من الحقيقة القاطعة التي كنتُ قد خمنتها على وجه التقريب والتعمق فيها. وتذكرتُ ما قاله شونبيرغ: «مَن يرِد أن يتعمق، عليه أن يختفي». أطفأت الضوء.

-31-

قررت أن أمنح نفسي استراحة لثلاثة أيام. حين يمكث المرء في مدينة ما لمدة معقولة، من الطبيعي أن يمنح نفسه استراحة، بين الفينة والأخرى. ذهبتُ إلى إشبيلية بحثاً عن الحياة الطبيعية. في صباح يوم 15 كانون الأول، قبل أسبوع واحد من انقلاب شمس الشتاء، غادرتُ لوكنوو على متن طائرة الخطوط الجوية الإيبيرية، و«بسبب مشاكل تقنية» توقفت الطائرة في تنيريفيا، التي كان من المفترض أن يكون التوقف فيها قصيراً، لكن الطائرة طولت قليلاً، ثم استأنفت رحلتها نحو مدريد، التي قضيت فيها ليلة واحدة في ساحة سانتا آنا، في فندق مياو، الذي يبدو أن اسمه كان مبتكراً، ومَن يدري ما إذا كان هذا سبب اختياري لحجز غرفة فيه. لم أخلد إلى النوم بسهولة، ولم أتمكّن منه إلا من خلال تخيل نفسي في حالات مختلفة، استقللتُ فيها سيارة أجرة من مطار باراخاس، وحين أعطيت العنوان واسم الفندق، وتحديداً عندما نطقت بكلمة «مياو»، سخر مني السوّاق واعتقد أنني كنتُ أمزح أو أنني مجنون.

في صباح اليوم التالي، ركبتُ القطار السريع من محطة آتوجا، ووصلت إشبيلية في وقت قصير، حيث حاولت أن أختبر ما يمكن أن يشعر به المرء لدى وصوله في الوقت المناسب جداً، ولكن بعد تأجيل دام عاماً واحداً بالضبط، على موعد لا كارتوخا في إشبيلية.

وما الذي شعرتُ به؟ بُعد المدينة. لم تكن لا كارتوخا في وسط إشبيلية تماماً. كانت السماء غائمة مع برد شديد صقيع. وفوق ذلك كله، لم يكن هناك أحد في الضواحي، ولا أي شخص في الأفق. كنت وحدي تماماً، متلفعاً بعباءتين، عند باب الدير. هل تأخرت عن الموعد عند وصولك الساعة الثامنة، في الوقت المتفق عليه، رغم مرور عام بالضبط؟ نعم تأخرت، تأخرتُ كثيراً. علاوة على ذلك ظهر شبح. رأيته في البداية يقترب ببطء من مسافة بعيدة، بدا لي أنه طيفي الهارب دون هدف. وحين أصبح أكثر قرباً، بدا لي أنه كان يسير كما أتخيل دائماً طريقة مشي الدكتور إنغرابايو إذا سار. في تلك اللحظة، تذكرت أنني لم أكن أعرف، ككاتب مبتدئ، كيف أجعل الظهور المفاجئ لشبح ما في كتابتي أمراً معقولاً، وكنتُ قد طلبتُ النصح من برناردو إتساغا الذي أخبرني أن المسألة بسيطة للغاية، إذ يكفي أن تجعله يظهر.

عندما انتصب الشبح، قريباً جداً مني، أمام بوابة لا كارتوخا، استطعت أن أرى أنه كان بغير وجه. تكلم معي، جرّ صوته بقوة ليقول لي: «لكي تختفي، لابد أن أحداً كان قد رآك من قبل». وعلى الرغم من بعض الظنون، بدا لي أن صوته يُشبه صوت الدكتور إنغرابايو في ذلك اليوم الذي رنّ مثل صديقي الميت. استمر يجر صوته ليكلمني باختصار عن الشاعر نيكانور بارا، وعن غياب الوجه الذي يمكننا بواسطته التعرف على هاملت.

سألت الشبح أين يعيش. «إقامة غير محددة»، أجاب بنبرة جافة، ثم ضحك ضحكة بدت مألوفة للغاية، لكنها كانت غريبة في ذات الوقت، شبيهة بتلك التي لا تصدر إلا من شخص دون رئتين. ازدادت قوة الرياح وشعرتُ ببرودة أكثر. «لكي يتمكن الشاعر من رؤية العالم، لابد أن يتحول إلى كائن غير مرئي»، قال لي وهذه المرة لم يعد لدي أدنى شك، لقد تعرفت بالكامل على صوت الصديق. «لكي يتمكن الشاعر من رؤية العالم، يجب أن يكون دون هوية»، أضاف، ثم اختفى.

-32-

في الصباح اليوم التالي، عندما استيقظت في غرفتي في فندق زينيت في

إشبيلية، تذكرت ذلك اليوم الباريسي، الذي فتحت فيه عينيّ مُقتنعاً بأنني أمتلك الذاكرة الحصرية للدكتور باسافنتو بالكامل. كان استيقاظي هذه المرة مختلفاً، وإن كان اختلافاً بسيطاً. فتحت عينيّ دون أن أعرف من أكون، وتملكني خوف بدا لي مرتبطاً بقوة بفعل الاستيقاظ نفسه. لم أكن أدري من أنا ولا أين أنا، لكني في كل الأحوال، كنت على علم بشيء ما بالتأكيد: كنت شخصاً ما استيقظ ذات يوم في باريس، مقتنعاً بأنه يمتلك الذاكرة الحصرية للدكتور باسافنتو بالكامل.

الاستيقاظ بهذه الطريقة ذكرني، بأنني في مناسبات عديدة، كنت قد اعتقدت أن هويتنا عبارة عن لغز. نموت في كل يوم ونولد في كل يوم. نولد ونموت باستمرار. لهذا السبب، تمس شغافنا إشكالية الزمن أكثر من غيرها من المشاكل الميتافيزيقية الأخرى، لأن المشاكل الأخرى مجردة. الوقت هو معضلتنا. من أنا؟ ومَن يكون كل واحد منا؟

تذكرت بعض كلمات كافكا التي كتبها (ثم شطبها) في بداية روايته «القضية»، ويقول فيها: «يتطلب الأمر حيوية لاستيعاب كل شيء عند فتح العيون، إن صح التعبير، في النقطة ذاتها التي توقفت عندها الليلة السابقة». وتذكرت أيضاً ما قاله جوزيف ك. لنفسه فيما بعد: «الاستيقاظ، أخطر وقت. إن اجتزته بسلام دون أن يأخذ منك شيئاً، ستعيش بقية يومك سعيداً».

مَن أنا؟ تساءلتُ في داخلي. لستُ سوى شخص يتذكر كلمات كافكا. وفجأة، كما لو أن ذاكرتي زُودت بوتر مهم، بدأت استرجع كمية كبيرة من الذكريات، رغم أنني ارتأيت أن أواصل دون أن أعرف من أنا بالتحديد. ولكيلا أبدد المزيد من الوقت على هذا الأمر، جزمت أنني الدكتور بينشون، نفس الشخص الذي كان يقيم في لوكنوو، ويتمتع حالياً بعطلته في إشبيلية. كنتَ أنا الدكتور بينشون، نعم أنا المسجل في فندق زينيت باسم مستعار. وعلى حين غرة تذكرتُ كاتب نيويورك بينشون الآخر، بعد أن سمحتُ لنفسي أن أنجرف مع ذاكرتي الفجائية والرعدية. وفي الوقت ذاته تذكرت مدينة نيويورك وشاعر برونيكس، الذي كنتُ قد تعرفت عليه في وقت سابق، حيث كان يتفاخر بكونه صديقاً للكاتب المتخفي تحت اسم توماس بينشون. كان استذكاراً شديد الارتباط بالماضي، وبالأيام التي كنت أعمل خلالها في

مستشفى الأمراض النفسية في مانهاتن. كان اسم الشاعر جون ويلدون سميث. آخر مرة شاهدته فيها كانت في الفناء المركزي للمستشفى، حيث كان في غاية الانفعال وهو يتحدث بسوء عن زوجته المُدمنة على الكحول، التي منحها القاضي حضانة ابنتهما التي تبلغ من العمر تسع سنوات. تذكرت ويلدون سميث وهو يتحدث عن كل هذا مع صديقه الدكتور ريان الذي غادره ليبقى غارقاً في وحدته على أحد كراسي البهو قرب شرفة مكتبي. لم أكن معجباً به بسبب قصائده فحسب، بل بقدرته على القيام بنشاطات متنوعة، لأنه إضافة إلى كونه شاعراً، كان ناقداً سينمائياً في «تايم» وكاتب سيناريوهات تلفزيونية، ورساماً هاوياً، وفي ذلك الوقت، كان يعمل في مشروع علمي - سينمائي لمصلحة مستشفى الأمراض النفسية الذي أعمل فيه: كان يقوم بتصوير فيلم عن العلاقة المتبادلة ما بين الإيماءات والشفاهيات عند المصابين بمرض الفصام، بالتعاون مع الطبيب النفسي الألماني، كارل هينز رويش والدكتور ريان. كنت أراقبه في ذلك اليوم، من نافذة مكتبي لفترة طويلة. كنتُ أتمنى أن أقطع عليه أحلام يقظته وأتحدث معه قليلاً لكني كنتُ أهابه. راقبته فقط في هذا اليوم، وهو الأخير الذي رأيته فيه، لأن الشرطة عثرت على سيارة جون ويلدون سميث بعد أسبوع من هذا التاريخ، في 14 تموز 1975، مهجورة فوق جسر بروكلين بأبواب مشرعة والمفاتيح في داخلها. ومن بين مقتنياته التي وجدوها في المقعد الخلفي، بدلة بيضاء لمستشفى الطب النفسي الذي أعمل فيه. لم يُعرف قط ما إذا كان قد انتحر (كان يتحدث عن ذلك طيلة حياته، وغالباً ما كان يشير إليه بطريقة شاعرية للغاية)، أم أنه كان قد اختفى. كان كثيراً ما يردد على أصدقائه أنه ينوي أن يفعل ذلك ذات يوم. كان أغلب أصدقائه من الشعراء، الموسيقيين، الروائيين (كان يتباهى بكونه صديقاً لبارث، والأهم من ذلك كله أنه يتفاخر بمعرفته المكان الذي يعيش فيه الكاتب بينشون متخفياً)، الرسامين والسينمائيين المشهورين في برونيكس وفي قرية كرينويش. الحقيقة أنه بعد يومين من ذلك التاريخ، جرى انتشال جثة منتحر من المياه، قريباً من جسر بروكلين، ولكنها لم تكن لويلدون سميث، وإنما كانت لبائع متجول غادر سيارته أيضاً قرب جسر بروكلين.

ولم يعد أحد يعرف أي شيء عن شاعري المحبوب. قال والداه إنه لا يمكن أن يكون قد مات دون أن يترك رسالة لابنته البالغة من العمر تسع سنوات. وبدأ يُعتقد باحتمال أن يكون قد اختفى أو أنه يهيم في العالم ضحية فقدان الذاكرة. شهور بعد ذلك، اعتقدت شقيقة زوجته المدمنة على الكحول، أنها رأت ويلدسون سميث أثناء رحلتها البحرية، على متن سفينة تغادر ميناء سيدني. كان، على الأقل، شخصاً شديد الشبه بالشاعر الذي اختفى على جسر بروكلين. والأدهى من ذلك انه لوّح لها بيده. كما شوهد بعد سنة في ميناء هونولولو. من شاهده في تلك المرة، كانا طبيبين من المستشفى الذي أعمل فيه، قالا إنهما متأكدان من أنه كان هو، على الرغم من أنهما لمحاه لثوانٍ فقط عندما كان يبتعد في متن مركب شراعي يرفرف فوقه علم أستراليا.

كنت أستذكر هذا كله من غرفتي في زينيت حتى إنني اعتبرت إعادة بناء هويتي أمراً مفروغاً منه. ثم خرجت من الغرفة الكئيبة (المطلة على البهو الداخلي). كان صباحاً شتائياً جميلاً، وكل شيء رائعاً، بما في ذلك، الشمس الساطعة في الأعالي. ومن الأزقة ينبعث فرح صاخب مع كثرة الناس.

أثناء السير بمحاذاة نهر الوادي الكبير، أحسست طوال الوقت أنني كنت أمشي فوق ظلي. قلت لنفسي بالتأكيد لأنني، رغم عدم قدرتي على رؤية نفسي بنفسي، كنت أشعر في ذلك الصباح بميل لطريقة إيمانويل بوف. سرتُ دون أن يعتريني أي خوف من أن يعرفني أحد (شعر أحمر، قبعة من اللباد أضعها على رأسي بقوة، ونظارات غامقة) في سوق صغير تصطف على جوانبه بعض الأكشاك التي تبيع جميع أنواع الكتب.

بحثت عن بعض الروايات التي كنت كتبتها في حياتي السابقة. كان هناك الكثير من الكتب التي يقول المنطق إنني سأنتهي بالعثور على أحدها في بعض الأكشاك، معروضةً للبيع للمرة الثالثة أو الرابعة بسعر زهيد. لكن الأسوأ حدث عندما أدركتُ، بعد نصف ساعة من البحث والتشطيب الشامل، أنني مهما درتُ في رحى البحث، فلن أجد هناك أياً من كتبي أبداً. وحتى لا يصيبني الكرب، خطرت ببالي هذه المقولة: لا شيء يدعو إلى الزهو مثل شعور المرء بأنه منسي تماماً. دونتها في إيصال فندق زينيت، لكيلا تتعرض

للاندثار إذا ما أردت لاحقاً أن أفكّر وأكتب حول هذا الموضوع في قصاصة أخرى من الورق. لم أستطع حماية نفسي، فيما بعد، من أن يمتلكني شيء من التشاؤم، عندما استنتجت بوضوح تام، أن الأمر برمته لن يستغرق سوى شهور حتى أصبح شخصاً منسياً تماماً في بلدي.

سواء في الخارج أو داخل مستشفى الأمراض العقلية، يمكنني أن أعيش هكذا، مثل كائن منسي. وهذه هي الطريقة التي كنتُ أتمنى أن أعيش بها. كنت أريد أن أكون مخلصاً إلى أقصى حد لوالسر: «أجمل شيء وأكثره مثالية، أن يكون المرء شيطاناً مسكيناً حقيقياً». لم أستطع أن أتماهى مع هذه الفكرة، لكنني لم أتمكّن من أن أتجاوز الإحساس بالعزلة في وطني.

قررت أن يكون هذا اليوم آخر يوم لي في إسبانيا. سوف أودّع هذا البلد إلى الأبد وأعود لزيارة كاتدرائية إشبيلية. ما كان سيحدث لي في هذه الكنيسة، سواء ما سأفكر به أو أتذكره، سيتحول إلى الذكرى الوحيدة التي أحتفظ بها عن هذا البلد التافه الذي يغص بالأشباح الكاثوليكية.

في الطريق إلى الكاتدرائية الشامخة، استمتعت بتأمل السعادة التي تشع من الشارع. كان الناس يتجولون تحت الأشجار العارية، حيث أقامت فرقة البلدية حفلاً موسيقياً هناك. وغير بعيد عنها، كانت مجموعة من الأطفال بملابس سوداء تمرح وتلعب. ثمة لفحة نسيم خفيفة حملت معها كل روائح الطيبة، وأيقظت في داخلي أشواقاً مبهمة. «ثقيلة مثل دمعة، تدفقت كلمة إسبانيا»، فكرت، وأنا أتذكر بيتاً من الشعر كنت قد كتبته في شبابي. أم أن سيرنودا هو من كتبه على نحو أفضل؟ هل ما زلت أتذكر أبياتاً لويلدسون سميث؟ وفي الحال لاحظت أني تذكرتُ واحداً فقط وهو ما كان وافياً على أية حال: «تراكم النصر في صباح يوم العطلة...» بدا أن شاعر برونيكس يتهيأ للحديث عن إشبيلية التي كنت أراها في ذلك اليوم.

وتوهجت عيناي بطفلة كانت على قدر كبير من الجمال بثيابها المُزركشة باللونين الأزرق والأحمر التي ترتديها، أعادت لذهني ببطء الذكرى المُوجعة لابنتي نورا، ثم بعدها بقليل، وببطء أيضاً، ذكرى ابنة ويلدون سميث، التي كنتُ قد رأيتها عدة مرات وهي ترافق أباها إلى المستشفى، وتوزع الابتسامات على المرضى المساكين في الباحة المركزية. تذكرتُ

المستشفى، تذكرتُ نورا، تذكرتُ ابنة ويلدون سميث وويلدون سميث نفسه، تذكرت كل شيء مرة واحدة ثم دخلت الكاتدرائية، وجلست على إحدى المصاطب لحضور القداس. على خلاف زيارتي السابقة، كانت الكنيسة في هذه المرة ممتلئة جداً. وهُيئ لي فجأة، أن الأبرشي الذي كان جالساً إلى جواري، يسألني من أين حلّ بي هذا الشغف بالاختفاء. هل عاد الرب إلى الأرض بعد أن تُرك ميتاً، أم إنه كان خيالاً مغلوطاً، مثل ذلك الذي أحسستُ به يوماً في أعلى برج مونتين؟ أمعنتُ النظر في الأبرشي، وأدركتُ أنه لم يقل شيئاً، مما يعني أنه لم يكن الرب، إنما كان أبرشياً بسيطاً. لابد أن هذا الرجل يشعر بالراحة لكونه ليس رباً.

– من أين لك هذا الشغف بالاختفاء؟ – سمعتهم يرددون على مسامعي من جديد.

نظرت ثانية إلى الأبرشي. كان راكعاً، غارقاً في صلواته ومنيعاً، كما لو أنه فطن إلى مراقبتي له. ظننتُ أنه هولندي. حتى الآن لا أعرف لماذا خلتُ أنه كان هولندياً، ربما لأنني تذكرت من جديد اللوحات المعلقة على جدران الكنائس الفارغة للرسام الهولندي ساينردام. على كل حال، لم يكن هو مَن طرح عليّ السؤال. ولا الرب. هل كان إنغرابايو؟ هل كان طيف لا كارتوخا؟ أو ربما شبح مهد المقالة؟

مكثت هناك في الكاتدرائية لمدة طويلة دون أن يغيب عن بالي مشهد لم أتذكره منذ زمن. ظل يلاحقني بقية اليوم، واستمر كذلك بطريقة مهووسة، حتى عندما أعادتني الطائرة، وكانت هذه المرة دون توقف، إلى لوكنوو في اليوم ذاته ليلاً. برز المشهد الذي جال في خاطري بهوس، كآخر ذكرى لذلك البلد الذي لم أفكّر في العودة إليه في حياتي، آخر ذكرى ستبقى لي من إسبانيا، من أشباح ملكيتها المخيفة، من المستقلين، من الأحرار، من الجمهوريين، ومن الكاثوليك بأجمعهم.

ستكون هذه الذكرى وإلى الأبد، ذكرى لحظة كاتدرائية إشبيلية، التي تذكرتُ فيها أحد المساءات الشتوية، الخارجة عن الزمن، المساء الذي كنتُ برفقة زوجتي في برشلونة نتحدث بمتعة عن الأصدقاء الذين *كانوا*، وعن اللاّكتّاب، وعن ابنتنا نورا التي كانت تبلغ من العمر ثلاث سنوات وهي

تنصت إلينا باهتمام كبير، حتى أغمضت عينيها،، ثم نظرت إلينا بطريقة غريبة أرعبتنا. بدا أنها كانت تريد أن تقول شيئاً.

– ماذا أنا؟ – سألتنا فجأة. لم تقل: مَن أنا؟ ولكن، ماذا أكون أنا. لم نعرف ما نفعل، ماذا نقول لها، وماذا نكون نحن.

– أنتِ طفلة – قلتُ لها أخيراً. كانت عيناها تجحظان في كل مرة أكثر، وهي تمتص المشروبات.

– كلا، ما أكون أنا؟ – قالت متأثرة. وكانت على وشك البكاء بقوة.

– سنشرح لك ذلك في يوم آخر – قالت لها أمها.

– كلا، ماذا أنا؟ – أصرت.

تحجرت هيئتها. وبدت المشروبات في تلك اللحظات، تفاهة غير محدودة.

السفن يمكن أن تحرقها ذكرى ابنة أيضاً. بعودتي إلى لوكنوو، كنتُ واعياً تماماً بأني خلّفتُ وراء ظهري وإلى الأبد، الأرض التي وُلدتُ عليها. خلّفتُ ورائي الكثير من الغيوم السوداء وإيثاكا، مربوطة وحدها بذكرى مساء شتوي وبسؤال طفلة ميتة. وأمامي تنتصب البلدان الأجنبية، مستشفيات الأمراض العقلية، الثلج المتراكم فوق القبور العمودية، الحركة الدائبة، استقرار الرحلة الداخلية في الأعماق، غارة آخر الليل والرغبة في السفر دون عودة.

حقيقة

بنفس الموعد الدقيق الذي وصل الشتاء إلى مدينة لوكنوو، أي عند الساعة الثانية واثنتين وأربعين دقيقة ظهراً، اجتاحت الأخبار جميع محطات العالم في يوم 21 كانون الأول، بإعلان الجيش الإسلامي العراقي نبأ، نقلته قناة الجزيرة، الإفراج عن كريستيان شيسنوت وجورج مالبرونوت، الصحفيين الفرنسيين اللذيْن أُختطفا في العراق في شهر آب. وقامت قناة الجزيرة بتسليم الصحفيين إلى السفارة الفرنسية في بغداد.

يالها من أخبار دسمة لهومبل، فكرتُ على الفور. أضيع أنا في نوع كهذا من الأخبار، ويغمرني الواقع. كل ما يتحقق على أرض الواقع، أتنازل عنه لهومبل لأنه معقد ومخاتل على نحو شيطاني إضافة إلى أنه يبعدني عن الحقيقة بحركاته الخبيثة.

الواقع

أتأمل لحظة إطلاق سراح الصحفيين الفرنسيين كما لو كنتُ أشاهدها على مسرح كبير تلوح في خلفيته سماء مرسومة يسود فيها نقاء الصباح في الهواء الطلق. لكنه صباح مخادع لأنه بعد إطلاق سراح الصحفيين مباشرة، يحل الظلام، أعني أن الديكور يتغير. أفضل ما يمكن أن يقوم به المرء، تحت وابل هذه الهواجس المسرحية غير المعقدة، هو مراقبة كل شيء دون الحاجة إلى المزيد من القلق، وهو على علم بأن ذلك جزء من قواعد اللعبة الدرامية. حسنٌ، غالباً ما يحين الوقت الذي لا يستطيع معه الشخص أن يتحمل المزيد من المكر والمؤثرات المسرحية الإعلامية، لأنه يتطلع إلى معرفة الحقيقة. وفي محاولة للاقتراب أكثر من هذه الحقيقة، يتجه المرء نحو خلفية خشبة المسرح وكما لو كان كافكا نفسه، «يقص القماش، يمر عبر أشلاء السماء المرسومة، ومن فوق بعض الأنقاض، يفر هارباً إلى الزقاق الحقيقي، الرطب، المظلم، والضيق، الذي لا يزال يُطلق عليه اسم شارع المسرح لقربه من المسرح، لكنه حقيقي ويمتلك كل شرعية عمق الحقيقة».

وعلى الرغم من أن الوضع يوحي أنها مجرد حقائق غير محددة، فأنا واثق من أن البحث لن يكون بلا دلالة. ستكون الرحلة طويلة، ولكن دعنا نقول إنني خارج المسرح بالفعل، أنا في الزقاق الحقيقي، الرطب، المظلم، والضيق. هذا الزقاق هو أفضل طريق مختصر أعرفه للوصول إلى الشارع المبهم والوحيد في حياتي. هل هي حقيقة حياتي، ما أبحث عنه على أرض الواقع؟ أم إن شارع الحقيقة هو ما يثير اهتمامي؟ لا أعرف، أواصل المسير عبر الزقاق الرطب والمظلم. لا أنسى أن الاختفاء ضرورة ملحة، من أجل التعمق في الحقيقة.

-33-

أشعل النور. أتذكر ثانية أن مَن يريد المضي إلى أبعد من ذلك، عليه أن يختفي. استبعد أفكاراً وأستذكر جلسة سمر الأمس مع الأطباء النفسانيين في مونينيمبو. كان ذاك آخر اجتماع سنوي، قبل ليلة عيد الميلاد. عندما قصصتُ عليهم أنني كنت في عطلة لبضعة أيام، تساءل الدكتور مونتيرو

بصوت مرتفع -استمع إليه الجميع باهتمام. كان من الواضح أنه سبق لهم أن تكلموا في الموضوع في غيابي- عمّا إذا كنت أعيش حياة مزدوجة. «حسنٌ، الكثير منكم يعرف أنني أتردد على بيت الدعارة. هل تقصدون هذا؟» سألتهم. ضحك البعض. قالوا بعد ذلك وبكل وضوح، إنهم يقصدون ذلك. «نحن نتحدث عن الذي تحدثنا عنه بالأمس، حين كنتَ في إجازة. عن مكان شائع بين الأطباء النفسانيين. كنا نتناقش حول مسألة الراشدين الطبيعيين، إذ نجد أنفسنا مهيئين تماماً لبدء حياة سرية، على الرغم من أننا لا نستمر فيها»، قال الدكتور بوديم. تملكتني بعض الحيرة. «تناولنا موضوع»، أراد الدكتور بيتو أن يوضح لي، «القدرة على الحفاظ على السر، وكيف أنه أمر ضروري للتنمية الاجتماعية الصحية، وناقشنا أيضاً كيف أن الرغبة في تجربة هويات أخرى يمكن أن يستمر حتى مرحلة بلوغ سن الرشد».

«بمعنى أعمق، أن الإنسان لا يمتلك هوية ما لم يكن يمتلك سراً»، أفاد الدكتور بيتانكور، ثم التفت إليّ: «ألا توافقني دكتور بينشون؟».

«هنا، بصفتنا أطباء نفسانيين، متفقون جميعاً على أن القدرة على الحفاظ على السر ضرورية من أجل التنمية الصحية، وللحفاظ على شكل العقل ونشاطه. ما رأيك في هذا، دكتور بينشون؟»، سألني مونتيرو.

شعرت أنني مُحاصَر.

«لا أعرف. يبدو لي أن كل واحد منكم لديه عشيقة وحياة مزدوجة، ولديكم منازل متشابهة»، أجبت بهجوم مُضاد.

«وأنت يا دكتور بينشون، أليس لديك، ألا تشارك في هذه التنمية الصحية؟»، سأل الدكتور كوستا.

«هل لديك أسرار؟»، سأل الأستاذ بينها.

«هل تمنيتَ يوماً أن تجرب الحصول على هويات أخرى؟»، سأل الدكتور مارتينهو، الأكثر جدية في جلسة السمر.

«من علامات السلامة العقلية، على سبيل المثال، الحفاظ على سرية العلاقات السابقة التي ما تزال تفكر فيها. كما أن استعمال هويات عدة من أجل طرح المشاكل ومعالجتها، يعد أمراً صحياً أيضاً. ما رأيك بهذا، دكتور بينشون؟»، أضاف بينتو موجهاً إليّ نظرة غير مريحة.

كان ذلك استجواباً.

«لكن، ما الذي تريدون معرفته؟»، سألت.

«إن كانت لديك حياة مزدوجة. هذا كل ما في الأمر. إن كنتَ أنتَ، لستَ أنت، ولكنك أنتَ أيضاً هو أنتَ»، قال بينها.

كأنهم جميعاً فقدوا ماهيتهم كأطباء حالما شرعوا يوجهون لي الأسئلة ويتحدثون إليّ للمرة الثانية. أصبحوا أمامي مجرد لقب، من دون فخامة الاسم المفترض للدكتور. كنت قد بدأت أراهم كلهم ليسوا أطباءً، بل مخبرين نمامين.

«أنا لا أعيش حياةً مزدوجة، ثم، كيف يمكن استخدام هويات عديدة؟»، قلت.

«بعضهم يقوم بذلك عن طريق الإنترنت. يخترعون أسماء مُستعارة ويعالجون المشاكل، بالتراسل مع مجهولين في زاوية ما، بمعنى الإنترنت، دون عواقف نسبية تُذكر»، شرح الدكتور سوزا.

«وآخرون يتخفون وراء أسماء وهمية»، عقّب مونتيرو.

«وآخرون، مثلي، يكتبون»، أضفت.

«ماذا تقصد بقولك هذا؟»، سأل الدكتور بينيلا، الذي بدا أنه هائم في عالم آخر ولا يعرف شيئاً.

«أن أكتب يعني أن أتحول إلى آخر»، قلت، «ولهذا، يُعد نشاطاً مُوصى به بقوة، لأن المرء لا يحتاج إلى أية حياة مزدوجة، يكتبها وانتهى الأمر. أيها السادة، أنتم تعلمون أن كتابة هذه *المحاولات* التي تصغون إليها دون اهتمام كبير، تجعلني أعيش حياة صحية تماماً».

«هل بنشون هو لقبك؟»، سأل بوديم.

«أكيد. أنا بينشون»، أجبته برباطة جأش غير اعتيادية لم أعهدها من قبل، كما لو أن الإحساس بأنني مُحاصر، دفعني إلى اكتشاف الأمان الذي كان قد عشش في أعماقي.

في تلك اللحظة، أدركتُ مزايا التحدث وليس الكتابة. حرف الياء في كلمة بينشون يمكن أن يتحول، على سبيل المثال إلى كسرة دون أن يلاحظ أحد ذلك على ما يبدو.

«هل هناك سؤال آخر؟»، قلت بثبات تام.

«وما هو لقبك الآخر؟»، استفسر الدكتور لوبيز.

«ماس»، أجبت بسرعة تقريباً دون أن أفكّر، إكراماً للشخصية البينشونية لأديبا ماس.

في الوقت ذاته، بدا «ماس» كأنه سؤال.

«ماس أم مااااس؟»، أراد أن يعرف لوبيث، بطريقة صبيانية، كما لو أنه في مسرحية.

«من المؤكد أنه يروق لك أن تسميه بشكل آخر...» قال بوديم.

«إنغرابايو، مثلاً، يعجبني أن أطلق على نفسي اسم إنغرابايو»، أجبته. «ليس اسماً شائعاً ويبدو رائعاً. لكن أنا سعيد بكوني بينشون. أخال أن تسميتي ببينشون موازٍ لمعنى الشخص الذي لا يُعرف عنه شيء. وهذا ما يحببني إليه بالتأكيد، وهذا ما دفعكم إلى سؤالي ما إذا كان بينشون هو اسمي. لا تنسوا أنني طبيب نفساني أيضاً. حتى لو كنتُ متقاعداً، لكني ما زلتُ أتذكر كل ما درسته، وكل ما بحثت فيه شخصياً وعلى حسابي الخاص أيضاً».

«وهل تظن أنه من الصحي أن تعيش حياة بينشون؟»، سألني مونتيرو.

سؤال غريب يلمّح من خلاله ويصر على أن لقبي الحقيقي لم يكن بينشون، رغم أنه يولّد انطباعاً أن مونتيرو يتصرف بمفرده، وأن أسئلته تأخذ معنى مختلفاً عن الذي كان يقصده الآخرون. لا بد من الإشارة إلى أن مونتيرو على علم بوجود كاتب مشهور يحمل اسم بينشون ويعيش في نيويورك. أو ربما يكون هومبل قد أخبره مؤخراً بذلك، وربما يعرفه فعلاً، لأنه في نهاية المطاف، لابد أن يكون لديه اطلاع أدبي ومراجع، وإن تكن غير واسعة نوعاً ما، عن وجود الكاتب روبرت والسر، على سبيل المثال. أما الآخرون هنا، فمن الممكن أن يكون مونتيرو قد أخبرهم عن هذا الأمر، ولو أنه لا يبدو لي كذلك، لأن الباقين كانوا يسألون حسب أهوائهم، مقتنعين أن جلسات السمر هذه هي ببساطة تجمع للأطباء النفسانيين.

من المؤكد وبوضوح أنهم أصبحوا ينظرون إليّ الآن بتركيز وارتياب. كنت قد بدأت أشعر بنفسي في الزقاق الحقيقي، الرطب، المظلم، والضيق.

في الوقت نفسه، كنت أشعر كأنني أعوم في مركب عبر نهر هادئ. في نهاية المطاف، أنا لم أرتكب أية جريمة. المشكلة الوحيدة أنهم كانوا يرغبون في مواصلة تنقيبهم لإعادتي إلى هويتي السابقة غير المرغوب فيها، أو إلى هويتي الأسبق من هويتي السابقة، التي هي غير مرغوب فيها أيضاً.

«أخبرني، دكتور بينشون، إلى متى تنوي إخفاء اسمك الحقيقي، عنّا؟» سأل مونتيرو، بعناد.

«لم يعد أي شيء سهلاً، هنا»، أشار لي الدكتور إنغرابايو في الوقت المناسب جداً. كنتُ بالكاد أُحرك رأسي حتى استصوب صوتي الداخلي.

«لا ينبغي أن يثير الحديث عن هذا الموضوع، استغرابك. الأمر يتعلق بمسألة عتيقة حول مَن يكون مَن، وإذا ما كنا نحن أم لسنا ما نعتقد أن نكون». حاول سوزا المتزن أن يشرح لي.

«مَن تعتقد أن تكون أنت؟»، سأل بييتو، الإنسان الواضح والمستقيم للغاية.

نهضتُ وقلت لهم إن غداً سيكون يوماً آخر. وأنا في غرفتي بالفندق ممدد على السرير، حلمتُ بأني لا أقوم بشيء. قلت لهم هذا. «فضلاً عن ذلك»، أضفت، «لا أريد أن أكون أحداً».

«نكرة؟»، سأل كوستا، منزعجاً عندما رآني أتملص.

«حسنٌ»، قلت بغضب أيضاً، «اسمي الحقيقي إيمانويل بوف. ولدت في باريس من أم أسبانية وأب فرنسي. جيد؟ أمضيت فترة مراهقتي في متنزه سان خوان في برشلونة ومرحلة الشباب في برونيكس في نيويورك. وهناك تعرفتُ على بينشون الحقيقي الذي منحني الإذن لاستخدام اسمه وتضليل ملاحقيه، وكل أولئك الذين يريدون أن يتحققوا من وجهه.

أنا طبيب نفساني، وفي هذا لم أكذب عليكم. وأعيش بالتأكيد حياة مزدوجة، ولكن فقط حين أكون في لشبونة، حيث تعيش زوجتي المثالية والرائعة مع ابنة صغيرة تُدعى نورا، لكنني في كل ليلة، أصيع في الحانات وأقضي الوقت في النوم مع نساء أذلهن وانتقص منهن إلى حدود مريبة. وإن كنتُ قد تجولتُ في هذه الرحاب، فلأنني في اليوم الذي تقاعدت فيه، قررتُ

أن أتمتع بإجازة في لوكنوو، لكي أتنفس الصعداء من حياتي المزدوجة في لشبونة. هل اقتنعتم، أيها السادة؟».

«إذن، مَن هو بينشون الحقيقي؟»، سأل بينيلا، الهائم في الضباب دائماً.

-34-

في اليوم التالي، رأيت هومبل أمامي وسط ساحة بانكاسو. كانت لديه صور شارع فانو بالفعل. يا له من إنسان مسكين. مع كل يوم تتنامى رغبتي في أن أهجر لوكنوو عاجلاً حيث بدأت حياتي تتعقد أكثر فأكثر. من الأفضل أن أختبئ، بأقصى سرعة ممكنة، في مكان أقل تحضراً من لوكنوو، أي مكان لا أضطر أن أكون فيه الدكتور بينشون.

رأيتُ الصور، وبضمنها الملصق الطفولي المتمثل بتفاحة صغيرة بريئة، الذي كان على زجاج نافذة منزل بوف. هل عاش بوف فعلاً هناك؟ بدا لي أن رؤية تلك التفاحة الحمراء المسكينة، كذبة. رأيتُ سفارة سوريا لحظة كان يقف على بوابتها ثلاثة مواطنين، التفتوا نحو الكاميرا ونظروا إليها بارتياب. مؤكد أن مخبر شارع أودينوت كان قد خاطر بحياته. رأيت صيدلية دوبيرو بواجهتيها الزجاجيتين الأنيقتين. وفي الداخل أعتقد أنها الصيدلانية التي رفضت أن تبيعني حبة أسبرين فرنسي. رأيت منزل الخيالات الغريبة. أجواء عادية في وضح النهار، ولكنه وضوح تشوبه العتمة والجمود في انتظار كارثة ما. رأيت العمال وهم يهدمون ردهة السويد. رأيت شقة ماركس من دون عمال. تقمصت شخصية يعقوب بن جونتين ورأيتني أخدم ماركس في دفء منزله. كنت أتصرف مثل كبير خدم مخلص لماركس، ولكن في الوقت نفسه يلازمني الهوس والشرور لتمرير معلومات له عن وضوح والسر بأسئلة كهذه: «مَن يتغذى بالغزوات الداخلية، سيدي؟» تتملك كارل ماركس حيرة عابرة. «أجيبه بنفسي. لا لأحد. لذلك، أتمنى أن أكون غنياً، أتجول على كرسي محمول وأبعثر الأموال. لا شيء من الغزوات الداخلية. خذني إلى قصر شاناليز، سيدي». رأيتُ قصر شاناليز، وبداخله سانت إكسوبيري يدخن سيجاراً كوبياً طويلاً ويقول: «أتفق تماماً مع لوائح الطيارين».

رأيتُ أيضاً، لكن ليس في الصورة، هدية ليلة عيد الميلاد التي كان

هومبل يفكر في تقديمها إلى زوجة ابنه الثاني، «سيدة تُدعى دوروتيا وهي مثل طفل»، أوضح. كان هومبل متحمساً كأنه غارق في عالم خيالي مستمر. يبدو أنه كان يؤكد لنفسه، منذ أن قابلني وأخبرته عن غرائب شارع فانو، أنه صار أكثر من مجرد سجين لتلك القصة التي تمنى كتابتها في الهواء. «كنت أقصد مثل طفلة»، قال في إشارة إلى دوروتيا. ظل يعض شفته السفلى. «كلا، ليس مثل طفل، أعني مثل طفل. ولا تجعلني أنغمس في المزيد من التفاصيل، دكتور بوف»، قال مُلمحاً، أنه كان يتحدث إلى الأطباء النفسيين في جلسات السمر التي أحضرها.

«دكتور بوف»، قال ناظراً إلى عينيّ مباشرة. ثم أوضح لي أن هدية دوروتيا كان قد عثر عليها، منذ سنوات، في متجر للتحف في براغ. أراني الهدية مبتسماً ابتسامة تخفي وراءها أوجاع الشارع الحقيقي الرطب، المظلم، والضيق. أوجاعاً كبيرة، في نهاية الأمر. الهدية كانت عبارة عن «لعبة الصبر»، التي يقول عنها كافكا، إنها ليست أكبر بكثير من ساعة جيب. كانت قد نُحتت، على سطح قطعة من خشب الماهوجني، طرقاً ملتوية باللون الأزرق تنتهي بحفرة صغيرة. حين يتم تحريك أو إمالة اللوحة، تتدحرج الكرة عبر هذه الطرق نحو الحفرة. تخيلت أنه عندما تتوقف الكرة، يندلق لشتم أولئك الذين يريدون إدخالها -مثل ميتة مبتذلة- في الحفرة.

«سننتهي جميعنا مثل هذه الكرة، أليس ذلك؟»، سألني هومبل بعد أن لاحظ أنني كنت أطيل النظر إليها. «كلا، لا أعتقد»، أجبته بصرامة، منزعجاً تقريباً. «لكنني أؤمن بها، هذا هو مصيرنا، لكن أفضل ما يمكن أن نقوم به في هذه الأثناء، أن نتغلغل في متاهات مؤامرة دولية كبيرة. ألا ترى الآن مُحققاً يكتشف دسيسة، بؤرتها شقة رقم 1 مكرر من شارع فانو، في الطابق السفلي، حيث كان يقطن بوف؟ ألا ترى مؤامرة مرتبطة مباشرة مع تفاحة طفلة بريئة هي في الواقع عبارة عن عين تتجسس على مداخل ومخارج السفارة السورية؟».

«كلا يا سيدي. إننا نراوح في أمكنتنا»، قلت له وأنا في انزعاج مُتزايد. كنت قد أهديتُه رواية (حتى يكتبها في الهواء أو أينما أراد)، لكن لم أكن مستعداً لسماع الحماقات. ودعته بفظاظة، واتخذتُ قراري بمغادرة لونكوو

عاجلاً. كنتُ قد تركت ورائي وإلى الأبد، بلدي الذي وُلدت فيه وميلي الطبيعي لكتابة الروايات. واقتنعتُ الآن تماماً أنه لابد من ترك المزيد من الأعباء.

بعد بضع دقائق، دخلت بخطى حازمة إلى أحد مقاهي الإنترنت في شارع هوامبو، عند زاوية ساحة بانغاسو. دخلت وفي نيتي التحقق من بريدي الإلكتروني بعد أن أهملته وقتاً طويلاً. ربما حان الوقت لأجازف بمعرفة ما كتبه الآخرون لي. لكني سرعان ما أدركت أن حسابي على متصفح تيرا قد تم إلغاؤه منذ شهور، وبالتالي كان من المستحيل أن أصل إلى رسائلي الإلكترونية. ثم خطر ببالي أن أتصفح الإنترنت لبعض الوقت، وأبحث عن آخر الأخبار التي تم نشرها عني في إسبانيا وفي العالم. ليس هناك أي خبر في إسبانيا، ولا حتى في العالم. كنتُ سأشعر بالإحباط لو لم يكن ذلك يصب في مصلحتي فعلاً. إذا افترضتُ أن القليل منهم ما زالوا يتذكرونني، فمن المحتمل أن يتخيلوا أنني أتجول في نهاية العالم، في باتاغونيا. لم يكن هناك خطر في تحديد مكاني. أليس هذا ما كنتُ أتطلع إليه؟ وحزمت أمري على التوقف عن تقصي الأخبار عن هذا الكاتب الغريب الذي كنته في أيام أخرى، ونظرت لأرى ما إذا كانوا قد قالوا شيئاً عن بينشون الذي كان يطوف في لوكنوو، ولم أعثر على شيء سوى بعض معلومات عن طبق «بنشون المحشو بالكستناء وكبد الأوز» الذي يقدمونه في أحد مطاعم ميناء الغابة. ضحكت بعمق، سواء بسبب الظهور غير المتوقع لـ«بنشون المحشو» أو بسبب الارتباط، الذي لم يكن أقل توقعاً، من «بينشون» ذلك الذي ينتسب إلى ميناء الغابة، جنة طفولتي.

بينشون وميناء الغابة!

وللحظة عدتُ لأتساءل مرة ثانية عما إذا كانت تلك المصادفات التي نعيش بعضها، محض صدفة، أم قدر أم مثال واقعي لنظرية الاحتمالات. وقلت لنفسي إن أفضل ما أفعله في الوقت الراهن، هو التوقف عن التفكير في هذه الأحداث. كان لابد من ترك ذلك كله لأناس مثل الدكتور هومبل. على أية حال، كنتُ ما فتئتُ مُتحمساً لما كان يجذبني لغاية الآن. بحثت في غوغل عن جمعية «باسافنتو+ شارع فانو». لم يكن من السهل ترك شارع

فانو في الخلف. بحثتُ ولم أجد إلّا فراغاً قاسياً ومحزناً. ولم أعثر أيضاً على «بنشون + لوكنوو»، ولا على البديل «بينشون + لوكنوو». بعد هذه الإخفاقات، خطر لي البحث عن «شيسنوت + مالبرونوت»، وهناك، بين العديد من النوافذ، دخلت مجلة إلكترونية أطلقت على نفسها اسم *الثورية*، احتوت على أخبار اعتبرتها قاتمة، عن إطلاق سراح الصحفيين الفرنسيين، الذي مهّد لبقعة ضوء نحو حقيقة غير مؤكدة يمكن أن تكون وراء الواقع غير الشفاف.

قرأت هناك أن السائق السوري محمد الجندي، جرى اعتقاله مباشرة وتعذيبه طيلة خمسة أيام، بعد أن عثر عليه الجنود الأمريكان في الفلوجة يوم 12 تشرين الثاني. ورغم أن الخبر لم يصل إلى الصحافة المكتوبة، فإن السائق، وخلافاً لأنباء «مراسلون بلا حدود» المفاجئة، كان قد وصل إلى باريس منذ أيام، في رغبة منه لفضح الجيش الأميركي بسبب «المعاملة السيئة، التعذيب والتهديد».

كان يريد أن يصرح أنه بعد العثور عليه في منزل مهجور في الفلوجة، تم تقييده بالقوة واقتياده، عبر أزقة رطبة وضيقة، إلى أحد معسكرات الجيش، حيث تلقى ضربات عنيفة في وجهه بأحذية عسكرية، نُقل بعدها إلى ضواحي الفلوجة، حيث تم استجوابه، راكعاً على ركبتيه، عن عناوين الأشخاص الذين احتجزوه، والذين ساعدوه. واجه ثلاث محاولات إعدام صورية بمسدس على الصدغ. وأخيراً قام باستجوابه مدنيون كانوا يتسلون بإخضاعه إلى صعقات كهربائية. كانوا يعرضون عليه صوراً لأشخاص مطلوبين، لكنه لم يتعرف على أي منهم. ثم كانوا على وشك اصطحابه إلى المنزل الذي وجدوه فيه، بيد أنهم تراجعوا عن ذلك بسبب المواجهات التي كانت تدور هناك آنذاك. ثم تركوه ينصرف.

عندما غادرتُ مقهى الإنترنت، قلت في نفسي أن أترك هذا إلى هومبل أيضاً، وإلى مرصده الموجه للواقع تحت جنح الخيال. إن الحقيقة التي نعيشها في هذه الأيام، تتهادى في طرف مختلف تماماً عن الواقع، وبعيدة جداً عن الخيال بالطبع.

ربما من أجل التخفيف من حدة الرعب الذي سببته لي تفاصيل

تعذيب السائق، تخيلتُ محمد الجندي، يتناول أولاً مقبلات لذيذة في السفارة السورية بفرنسا، ويتناقش مع الفوضويين، أو في أقل تقدير، مع ممثلي «مراسلون بلا حدود» الغامضين. ثم تخيلته يخرج إلى شارع فانو مُتعثراً، يقف للحظة على عتبة قصر الظلال الثلاثة الجامدة، ثم يتابع طريقه بخطوات مترددة، تتبعته في مخيلتي، قدر ما استطعت، ورأيته ينعطف عند الزاوية (كأنه أحد أبطال رواية كورتاثار *«لعبة الحجلة»*) ويلج شارع فارين من نفس المكان الذي جرى تعليق المشعوذة من ذراعها على شجرة الزيتون تحت المطر منذ سنوات. تخيلتُ محمد الجندي وهو يسير، مثلي، نحو بوابة المجهول.

شكراً للسماح لي بكتابة العنوان

تناولتُ البارحة ورقة صغيرة وكتبت: «هومبل هناك، برفقة خيالاته»، كتبتها عشرين مرة، على ما أعتقد. جنون. ثم مزقت الوريقة. أعدت اليوم كتابة العبارة، فعلتُ ذلك على هذه الوريقة دون أن أضع لها عنواناً. سأقوم بإعطائها للدكتور إنغرابايو لاحقاً لكي يوثقها أو يضع لها عنواناً مناسباً. سأعطيها له كما لو كانت تتعلق بماكس برود، وينشرها مع دفاتري حين أكون قد اختفيتُ نهائياً. لابد أن تُقرأ الأوراق بصورة منفصلة، مع ملاحظة أنها مكتوبة بكل تواضع بخط يدي، أما الدفاتر فمن الأفضل أن تُنسب إلى إنغرابايو نفسه. لا أتطلع إلى أن أكون مؤلفاً لأي شيء بعد. فقط أطمح أن أكون المسؤول عن بعض الأوراق التي يجب تسميتها *وريقات الغربة*.

-35-

قبل ساعات قليلة، كنتُ أجلس برفقة إنغرابايو أمام بركة حديقة روا، نتأمل الثلج الأبيض الذي كان يغطيها. بركة كبيرة على نحو ملحوظ، وتُعد إحدى مفاخر المدينة. وعلى سطح الثلج ترتسم مثل ندوب، العديد من ذكريات خطى صلبة لعشرات الزلاجات التي تمر من هنا يومياً. كان المكان خالياً، لأنه يوم عيد الميلاد. كان يوم عيد الميلاد والذكرى الثامنة والأربعين

لوفاة روبرت والسر. لم يكن هناك أي ظل من الظلال. لا يوجد سوى البرد، إنغرابايو، أنا، ورفيقي كتاب بوف، *«يوميات كُتبت في الشتاء»*.

«عندما يتحدث شخصان، ينبغي على أحدهما أن يلتزم الصمت. على سبيل المثال، نحن نتحدث الآن، عليك أن تظل ساكتاً، إن تكلمتُ أنا»، قال إنغرابايو. لم أشأ أن أعترض، لأني وجدتُ أن كلامه صحيح. «إذا ما تكلمنا في الوقت ذاته، لن يسمع أحدنا ما يقوله الآخر»، أضاف إنغرابايو بلكنة متفرنسة ومتأرجحة بين لكنة كورتاثار وسيرجي ريجياني، إذ قال فجأة، إن البريطانيين اخترعوا العراق. تساءلت مع نفسي لأجل ماذا أو لماذا قال ذلك. عبارة مختصرة جداً، لكنها حاسمة. كررها. البريطانيون اخترعوا العراق. كنت على وشك أن أقول له إن هذه العبارة تعود لهومبل وأظن أنه كان يتوقع مني أن أقول له ذلك بالتحديد. لكنني فضلت أن ألتزم الصمت. ثم سألني كيف يمكنني أن أتحقق من الحقيقة التي تتخفى وراء قضية محمد الجندي. «أي زقاق أو متاهة تُوصلك إلى الحفرة؟»، قال إنغرابايو ضاحكاً. تقليده لهومبل مزية كبيرة بالنسبة إليه. ثم أضاف: هل تعتقد أن باستطاعتك أن تتحقق من كل شيء من غرفتك في اللوبانكو دون أن تتحرك؟ هل ستتصرف كأنك ديكارت، وليس مخبراً نشيطاً؟».

أظن أنك حين تحدثني عن ديكارت، تقصد أنه أمعن في التفكير ورأى العالم من دون أن يتحرك من الإستوديو الدافئ الخاص به في مدينة أولم بألمانيا. باستحضار إستوديو جيد التدفئة، أدخلونا تحت رغبتين عاجلتين للتخلي عن تأمل الحلبة المثلجة والاقتراب من نار مدخنة بهو اللوبانكو. غادرنا حديقة روا بعد وقت قصير. حين أصبحنا في الفندق أمام النار، عدنا إلى ديكارت، إلى الانغماس، إلى فكرة الأنا والآخر، وإلى جميع الأسئلة القديمة التي ينتمي بعضها لمونتين، وبعضها لديكارت.

«إحساسنا بالذات»، قال لي إنغرابايو حينها، «يتأتى من مناجاة فردية غير متناهية، من المحادثات التي نحافظ عليها في أعماقنا وتدوم مدى الحياة». خيم صمت طويل، كانت عيناي خلاله تُطيلان النظر إلى الحطب الملتهب، بينما كانت عينا إنغرابايو تائهتين في عالم غير مرئي. «كل هذا»، قلت له أخيراً، «يحدث في عزلة تامة، لأنه من المستحيل، مثلاً، معرفة ما يفكر به الآخرون.

الآخر، لا يمكننا سوى رؤية شكله الخارجي، إن تسنى لنا رؤيته. الآخر، نستطيع أن نسمع كلماته فقط، ولكن لا يمكن أن نرى أفكاره، صح؟». وللمرة الثانية ساد صمت طويل، قطعه إنغرابايو قائلاً، مهما ينأ الإنسان جسدياً (حتى لو كان في جزيرة جرداء أو محتجزاً في زنزانة انفرادية)، فإنه لابد أن يكون مسكوناً بالآخرين. «إنها مفارقات الوحدة. كلما نشعر بالوحدة أكثر، قلّت إمكانية تعرفنا على أنفسنا، واتسعت إمكانية عثورنا على العالم»، قال. ساد صمت كثيف بعدها. كنتُ مرعوباً تقريباً من قطع تأملاته. وأخيراً عاد إلى عالم الكلام. «حسناً فعلت حين وكّلت هومبل بجميع الأبحاث حول الواقع. ليبتكر هو، أعني أن يكتب هو الروايات، حتى لو كانت روايات في الهواء»، قال لي متضامناً مع قراراتي الأخيرة، دون شك. بعد ذلك بقليل تفاجأت، حين نصحني بالبحث عن لغز الشعر، وألا أضيع الوقت في غرائب أخرى.

بعد الصمت الذي أعقب هذه النصيحة، طلب مني دفاتري ليكتب فيها بنفسه. «فكرتُ أن أقوم بذلك»، قلت له. أعطيتها له دون مشاكل، مع قصاصات الورق الخاصة بي، ومضى بها جميعاً. «سأكون الآن مَن يحاول كتابة ما سوف يكتبه لو كتب»، قال لي ساحباً صوته بقوة. عدت إلى قراءة الكتاب الشتوي لبوف، وأحسست فجأة بقوة مغناطيسية تجذبني إلى هاتين الجملتين: «رغم أنني لا أعرف أن أروي القصص، لكني أعرف قول الحقيقة. ربما كان هذا قدري فوق الأرض». تذكرتُ تعليق بيتر هاندكي على هاتين الجملتين بالتحديد، الذي خلص إلى أن بوف كان كاتباً عظيماً. «أفهم من كلمة عظيم، معرفة كيفية منح مكانه للآخر»، أوضح لي هاندكي، وقتها. وسرعان ما تساءلت إذا ما كانت هذه، أفضل ميزات إنغرابايو. أن يكون متخفياً، يسمح له أكثر من غيره، أن يمنح مكانه للآخر.

–36–

توفي سالينجر كاتالونيا، ميغيل باوشا، في برشلونة. الخبر الذي قرأته صدفة في إحدى الصحف، فاجأني وتركني مشلولاً بالكامل. وقع النبأ عليّ بقوة كما لو أن جزئي الثاني قد مات، مع فارق، أن الكل مستعد لبكائه، وهذا شيء لا أظن أن أحداً سيفعله من أجلي.

مات في أواخر شهر كانون الأول، لكن لم يسأل أحد عن مكانه، ولم يبحث عنه أحد. هذا ما كان بالنسبة إلي، مثل نقطة ماء. لم يبحث عنه أحد، لأنه عاش بإرادته الخاصة، في مكان مجهول دون أن يتواصل مع أي شخص. عاش حياة غامضة في شقة وسط برشلونة.

لم تظهر صور له منذ سنوات، ولا أحد يعرف كيف كانت ملامحه الجسدية. الجيران هم مَن أخبروا الشرطة، بعد أن تنبهوا للرائحة الكريهة، لدرجة أنه لا أحد يعرف اليوم الذي توفي فيه. لم يكن على تواصل مع أحد منذ سنوات، وكان تعامله مع الناشرين فقط عبر صندوق البريد. لم يعثروا على جثته إلّا بعد مرور أسبوع على وفاته، أما الخبر فلم يُعلن عنه حتى يوم 11 شباط. كتب المؤرخ ميغيل بارسيلو: «بعد اختفاء طويل للغاية من الحياة العامة، التي يُفترض أن يعيشها كاتب، تأكد الآن نبأ وفاته، سيكون من الضروري تقديم تأويلات عن المعاني المحتملة لأدب باوشا. بداية، لا يبدو واضحاً موضوع كتابته. ما الذي كان يكتب عنه؟ لا أحد تحدث عنه حتى الآن، حسب ما أعرف».

أظن أنه سبقني في كل شيء، لأن باوشا طبّق على أرض الواقع عبر نفسه ونصوصه، عملية «الاختفاء» التي جذبتني، فسعيتُ إليها. علمتُ من مراسل الصحيفة في مايوركا، أن باوشا درس الفلسفة والآداب في جامعة برشلونة المركزية. سكّير، رجل قاسٍ، عنيد بعض الشيء، كان أستاذاً للغة الكتلانية حتى تقاعده المبكر منذ أكثر من عقدين. عام 1971، وصف نفسه «بؤس غير مستقر وغير مقبول، مُخجِل، أو بالأحرى، وضع غير ثابت ومخزٍ دائماً». كان متزوجاً ولديه ابنة، لكنه نأى بنفسه عن التواصل العائلي. بدأ يراقب الواقع عبر شبكة الإنترنت وقناة «سي إن إن» الإخبارية، حسب ما خُمِّن من كتاباته الغزيرة والمكتومة بجلاء. «كان سيروق له، عدم معرفة الآخرين ليوم وفاته»، اعترف البارحة ناشره. «شيء مذهل، أن يعيش في قلب برشلونة ولم يره أحد منذ أكثر من ثلاثين عاماً»، قال أنجلو سكورسيليتي. «مناورة اختفاء ناجحة جداً»، أضاف الآن الدكتور إنغرابايو وهو يجر صوته جرّاً.

توفي رفيق الحريري في مدينة بيروت، إثر انفجار إرهابي بعدة كيلو غرامات من الديناميت. «أزمة خطيرة بين فرنسا وسوريا، رغم أن النظام السوري يندد بالعملية»، أفاد العنوان الفرعي لصحيفة «لوموند» اليوم 12

شباط، حيث ذكرت أن الأحداث بدأت تتسارع منذ أربعة أشهر. قبل شهر تشرين الأول، كانت بيروت قد استعادت سمعتها القديمة كمدينة سعيدة وهادئة في الشرق الأوسط. كانت سياسة إعادة الإعمار التي كان يقودها الحريري، والاستثمارات المالية الأجنبية، ودعم الزعماء الدوليين مثل شيراك (صديق الحريري)، قد أنعشت الحياة في هذه المدينة من جديد. لكن بحلول شهر تشرين الأول بدأ كل شيء ينزلق نحو طريق همجي، عندما انكسر التوازن الأميركي - السوري، الذي كان يسمح لدمشق بالاستمرار في وصايتها العسكرية على الشؤون الداخلية اللبنانية. في شهر تشرين الأول هذا، استقال رفيق الحريري من منصبه كرئيس للوزراء وانخرط في القوات المعارضة للرئيس لحود. ومن هنا بدأ كل شيء بالتعقيد.

ظلال طويلة لشارع فانو. فكرت أن الخبر كان سينال اهتمام هومبل.

-37-

كنتُ أُيمّم خطواتي شطر شرفة لي أستول، حين وجدتني وجهاً لوجه، مع الشاب الإسباني صاحب الصوت المرتفع برفقة خطيبته والجزار وامرأة لم أرَها من قبل، بدت لي صورة طبق الأصل من ليديا. أول ما فكرتُ به، أن الشاب الإسباني لم يكن سائحاً كما كنت أعتقد، إنما يعيش منذ زمن في لوكنوو. كنتُ على وشك أن أنساه، لولا أنه ظهر أمامي فجأة. تابعت مسيري، كأن شيئاً لم يحدث. لكني سرعان ما لاحظت، كما لو أنها تتمة للمرة الأخيرة التي رأيته فيها، أنه استمر يطيل النظر إليّ باهتمام، أقل من الاهتمام الذي كان ينظر به الجزار نحوي. انطلاقاً من نظرية الانتقام، تخيلتُ أن الجزار كان مجرد شخصية من رواية واقعية ما بعد الحداثة الجديدة. في النهاية، إنه شخصية بينشون.

«هل أنتَ...»، قال لي الشاب. «كلا. أنا لستُ. هكذا أُدعى. اسمي لستُ»، قاطعته في الحال. كان هذا الجواب غريباً ورادعاً، لكن، لا أظن أن الشاب تفاجأ به. «وإلى متى ستبقى الدكتور الذي يُدعى لستُ؟»، تجرأ على توجيه سؤاله لي، مع ابتسامة على الشفتين.

«إلى أن أصير لا شيء وإلى الأبد»، غامرتُ بالرد عليه. واصلتُ صمتي

الصارم، مع الإحساس بأن ذهني كان يعترض سبيله مجاز طويل: بقايا مفترقات مقبرة يغطيها الثلج، تنتصب وتنحني كلما داعبتها الرياح المختلة التي تمر عبر عقلي فيتنقل من جهة إلى أخرى.

كان دواراً بسيطاً في الحقيقة، لكن يشوبه شيء من الخوف أيضاً من أن أكون قد اكتُشِفت. وما يزال يفور في أعماقي الحل الأمثل في مغادرة لوكنوو عاجلاً.

انعطفتُ في زاوية، ثم في أخرى. مشيت، كأنني أهرب من شيء ما، لأكثر من نصف ساعة وعلى إيقاع جميل. ومن دون أن أنتبه، وجدتُ نفسي عند بوابة الغابة. تناولت شطيرة ثم قهوة من كشك المدخل. ومضيت بهدوء. أدرت ظهري للغابة، في محاولة لضبط نفسي والبدء بطريق العودة نحو اللوبانكو، سيراً على الأقدام. حين هممت بمغادرة المكان، سألني رجل كان يرسم اللوحات عند بوابة الغابة، عمّا إذا كنت أريد أن أجرب واحدة. ترددت. وفي الأخير رفضت. استشهدتُ بـ«أفلوطين» عن حالة هذا الرسام المسكين، وقلتُ له: «أنا نفسي عبارة عن ظل للنسخة الأصلية التي في السماء. فلماذا نرسم ظلاً من هذا الظل؟».

ابتسم كما يبتسم أحد معتقداً أنه يصغي إلى ترهات مجنون. مع ذلك، ما سمعه كان ترجمة للفن، لأن أفلوطين كان يظن أن الفن مظهر من الدرجة الثانية. فإذا كان الإنسان زائلاً، فكيف تكون صورته رائعة؟

حين دخلتُ إلى غرفتي في الفندق بعد ساعة، هالني رؤية بينشون في المرآة، فاضطررت إلى صرف النظر عنها بسرعة. كيف أفسر لنفسي لحظة الرعب هذه؟ ربما أراد رسام مدخل الغابة أن ينتقم مني عبر هذه المرآة، قلت لنفسي. وبعد ثوانٍ قليلة، هدأت. بدا لي من السخف أن أتخيل رؤية بينشون، لأنني لا أعرف كيف يبدو حتى، إلا إذا صرت، بطبيعة الحال، أحد وجوه بينشون المراوغ.

-39-

لم أخبر ليديا بأنني في طريقي إلى مغادرة لوكنوو، ولكني قمت بتوديعها. لم يبد عليها التأثر قط. أطلتُ النظر إليها بصمت، وتمنيتُ أن ترجوني لأبقى،

ولكنها لم تحرك ساكناً. «لابد أنك أجريت دراسات عظيمة عن مستشفيات الأمراض العقلية»، قالت بإعجاب، كما لو أنها شعرت بنفسها مُجبرة على مدحي بخصوص شيء ما. مَن أخبرها بأنني طبيب نفساني؟ ولأني لم أعرف بماذا أرد عليها، كررتْ مدحها. «يبدو جلياً أنكَ أنجزت دراسات عدة حول مستشفيات الأمراض العقلية»، قالت لي. «فقط عن التي أعمل بها»، أجبت. حاولتْ بعدها أن تكيل لي المزيد من الثناء على مستشفى *الأمراض العقلية الخاص بي*.

حين خرجت إلى الشارع، أثارت انتباهي الحواجز، الأرصفة، وبوابات ضفاف نهر السين. لم أفكّر بباريس بمثل هذا الاشتهاء منذ أسابيع. اقتنيت الصحيفة التي تَصَدّر خبر اليوم صفحتها الأولى.

سوريا في عين الإعصار.

أعلن الرئيس السوري بشار الأسد، أمام مجلس الشعب أن جميع الجنود السوريين سيختفون من لبنان قريباً. وسوف يكون الاختفاء، قال، على نحو تدريجي، لكن بشكل كامل.

تساءلت من سيختفي أولاً، السوريون أم أنا.

حال دخولي إلى الفندق، قلت لنفسي إن ذلك يبدو -ولو ظاهرياً- نهاية تاريخ طويل من التخفي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-40-

إلى الجميع. أنا الدكتور بينشون، ولا مشكلة بعد الآن. أعيش هنا في هذه المدينة ذات الأروقة الجميلة التي تبعد بضعة كيلومترات عن لوكنوو، منذ أيام. هنا، أنا بخير دائم، مستمتعاً بكل شيء. أعيش منذ أيام في هذه المدينة التي تبدو كأنها تحت نور شبحي من المطر دائماً، حيث أسعى إلى التحدث مع الناس عن الثوابت، ولا أريد أن أرتكب المزيد من الأخطاء. هنا كل شيء سهل وأشعر بوفاق أبدي مع نفسي. أحياناً أتذكر شيئاً كتبه والسر في *العزلة*: «اذهب إلى هناك، حيث كل شيء سهل، أعني أنك لن تحتاج إلى شيء هناك، وستشعر أنك على وفاق أبدي مع نفسك».

هنا أشعر أنني بخير دائم مع نفسي. ما زلتُ لا أكترث للواقع، بل تهمني

الحقيقة. في هذه العزلة تحت سقف غرفتي الدافئة في الفندق، أسخّر الوقت للبحث عن الحقيقة. هنا تنتظرني فصول شتاء طويلة وقارسة وأسطح بيضاء عشوائية. أعيش هنا مختفياً، وكأنني أمارس السباحة في بحر متجمد لا قاع له في وسط الأرض. أنا مثل ذلك اللص الواسيري الذي يذوب ويختبئ في النص الذي ينتهي بالانشطار إلى اثنين. لكني لستُ هنا لست لأكتب المزيد، بل لأكرس ذاتي إلى فن التلاشي. ترتكز استراتيجيتي على أن أكون مرئياً عند الضرورة القصوى فقط، والتركيز على محاولة الاختفاء في كل يوم أكثر.

إنغرابايو يعيش حياتي الحقيقية بدلاً عني. فقط حين يعتقد أن ساعة الصمت قد حانت، أحضر إليه مع إحدى قصصي الأخرى. أناديه دكتور وأطلب منه أن يدون القصة، فيخبرني أنه ليس طبيباً. «لستُ طبيباً»، يعترض بلغة إيطالية ساحباً صوته بقوة، «لستُ طبيباً»، ويمضي. لكنه يعود بعد برهة، تماماً حين أكون أنا على وشك أن ألتزم الصمت، يعود إنغرابايو مع إحدى قصصه. جاءني البارحة بقصة شخص ضاع في إشبيلية، سافر إلى شمال سويسرا ورأى قبوراً عمودية في الثلج وانتهى به الأمر للتقصي، من خلال لغز الشعر، عن حقيقة الشارع الوحيد في حياته. حكاية شخص قاده جمال العالم إلى الاغتراب، قصة شخص يغادر الآن، لكنه يبقى، لكنه ينصرف. لكنه يعود.

لم يسبق لي أن رأيته مُتعباً وسط سوء حظه الجميل مطلقاً، ولم أره قط يتحرك من عتبة هذا العالم الخلفي، الذي يشعر به تماماً وراء الضباب، كأن لا هم له سوى انتظار اختفاء السحابة لينجلي كل شيء ويظهر على أرض الواقع ما كان مُتخفياً لغاية هذه اللحظة، كأنه ينهمك كلياً في انتظار ولوج هذا الجلاء ليتمكن من أن يكون متخفياً تماماً.

«ربما تسافر الطبيعة إلى الخارج؟»، يسألني الآن، ويبدو كأنه يمر عبر نور الضباب في هذه الجنينة الكائنة في نهاية العالم. «سأبقى هنا. ما الذي يمكن أن يدفعني نحو هذه الأرض المُقفرة، إن لم تكن الرغبة في البقاء هنا»، يقول. يرحل. لكنه يمكث، إلّا أنه ينصرف. هل هو باقٍ؟ أراه يواصل طريقه وأرى كيف يخطو إلى البعيد، عبر الزقاق الرطب، المظلم، والضيق، وينتهي بالوصول إلى ركنه، وهناك، بلا صوت ولا كلام، يبقى نائياً.

المحتويات

الفصل الأول: الاختفاء 5

الفصل الثاني: الشخص المختفي 57

الفصل الثالث: أسطورة الاختفاء 133

الفصل الرابع: نكتب لأجل أن نتلاشى 197

مكتبة

t.me/soramnqraa

كنا نتجول بالقرب مما يُدعى «جنينة نهاية العالم »، في طريق كئيب يجاور قلعة «مونتين »، حين بادروني بالسؤال:

- من أين لكَ كل هذا الشغف في الاختفاء؟

كان مرافقي يود أن يعرف مصدر فكرة الاختفاء هذه التي غالباً ما كنتُ أُصرّح بها كتابةً وفي المقابلات، رغم أنها لم تأخذ حيز التطبيق مطلقاً.

باغتني سؤاله، لأني كنتُ في تلك اللحظة أسير غارقاً تماماً في التفكير بالهدف الذي سجله «بيلي » في مونديال السويد لكرة القدم، وعليه لم أنتبه جيداً إلى السؤال. طلبت إليهم أن يعيدوه.

- لا أدري -أجبت بعد قليل- أجهل مصدره لكنني أشك على نحو متناقض أن هذا الشغف في الاختفاء، وكل هذه المحاولات التي نطلق عليها انتحارات، ليست سوى محاولات لتأكيد الذات.

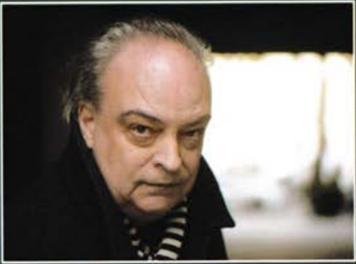

كان لهذه الكلمات المقالاتية، إن جاز تسميتها هكذا، وقع كبير لا يقل شأناً عن مهد جنس المقالات الأدبية نفسه. وكما هو معروف، فإن ميشيل مونتين كتب كل مؤلفاته في أعلى أحد الأبراج التابعة لقلعته القريبة من بورديوس. كتبها جميعاً في قاعة ومكتبة في الطابق الثالث من البرج. هناك ابتكر المقالة، هذا الجنس الأدبي الذي اقترن مع مرور الوقت، ببُنية الذات الحديثة، البُنية التي سيساهم فيها ديكارت الذي قرر أيضاً أن يحصر تفكيره في مكان منعزل، في إحدى الغرف الدافئة لثكنات «أولم » الشتائية.

وعليه يمكن القول إن الجنس الحديث لم ينبثق من خلال الاتصال بالعالم، إنما في غرف منعزلة، حبس المفكرون أنفسهم بداخلها، بين شك ويقين.

telegram @soramnqraa

9 782843 091599